

الباحثة
نبيلة حسن القوصي

معالم وأعيان الشام





المقدمة

دمشق المدينة المباركة

حكاية تجمع بين الماضي والحاضر

الحمد لله الذي جعل الأرض لنا مهدياً، ثم خصّنا بأرضٍ بوركنا على لسان سيد الخلق، دمشق تلك المدينة التي سيحدث فيها إعلان متسارع لنهاية العالم بنزول سيدنا عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء، ليجتمع المؤمنون الحقيقيون من حوله ينتظرون إرساء الحق والعدل في العالم، في وقت تكون فيه البشرية فوق هذه الأرض قد تاهوا وضلوا عن الصراط المستقيم.

ويتلاقى الجلال والجمال في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عن فضائل هذه المدينة وخصائص أرضها وساكنيها، حتى أصبحت أعرق مدن التاريخ في الحضارة الإنسانية، ومركزاً عالمياً للإسلام المحمدي العظيم، وإليها شُدّت الرحال بما روى وأكثر الرواية عنها سيد الخلق، لتستقطب أكابر الناس من العلماء الربانيين والعظماء والأولياء الصالحين للسكنى فيها وعمارتها عمارة خير وإصلاح بنفوس سليمة وقلوب عامرة بحب الله ورسوله. وإن كتب التاريخ التي تتحدث عن روعة وجمال مدينة دمشق كثيرة،

وجدير بنا أن نعرف على أسباب الشرف والعزة التي حظيت بها دمشق، حيث أخبر رسولنا الكريم وقال: ﴿الخير عشرة أعشار، تسعة بالشام وواحد في سائر البلدان﴾، و﴿إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم﴾، و﴿إذا وقعت الفتن فإن الإيمان بالشام﴾، و﴿ستكون دمشق في آخر الزمان أكثر المدائن أهلاً وأكثره أبدالاً وأكثره زهاداً وأكثره مالاً ورجالاً، وأقله كفاراً، وهي معقل لأهلها﴾، و﴿ينزل عيسى بن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق﴾...

وقد وقف الصحابي ابن حوالة فرعاً مما يسمع من حديث رسول الله عن الفتن، فقال: خِر لي يا رسول الله بلداً أكون فيه، فلو علمتُ أنك تبقى لم اختر على قريك، فقال: ﴿عليك بالشام﴾ ثلاثاً، ﴿الشام صفوة الله تعالى من بلاده، إليها يجتي صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخلها من غيرها فبرحمة﴾، فلما رأى كراهته لها قال: ﴿هل تدري ما يقول الله تعالى



في الشام يا ابن حوالة؟ إنه يقول: يا شام يدي عليك، يا شام أنت صفوتي من بلادي أُدخل فيك خيرة عبادي، أنت سوط نعمتي وسوط عذابي، أنت الأندر وعليك المحشر، ورأيت ليلة أُسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام....﴿

تعالوا بنا نمضي معاً في أرجاء هذه الأرض المباركة، نتنسم عليلها، ونتأمل جمالها، ونسبر أغوارها، فنعيش أحوال أعيانها من شيوخ وعلماء ربايين سمعوا قول النبي: (يجتبي إليها صفوة خلقه...)، فطمعوا بأن يكونوا من الصفوة. ونجول في معالمها، من مساجد ومدارس وترب وغير ذلك....

أخي القارئ.. الإنسان أهم عامل من عوامل نشوء الحضارة؛ أي حضارة، بما يحمله الإنسان من بذور خير أو شر.. فما أشقاك أيها الإنسان عندما تحوّل التاريخ إلى مجرد صور من ذكريات وماضٍ لا عبرة فيه، فتفقد دافع التقدم إلى الأمام بما يجب الله ويرضى، وما معنى أن نكون سائرين "متعظين معتبرين" إلا أن نستفيد من سير ودروس وتراجم من سبقونا بوعي وإدراك يجمع بين المتعة والفائدة، حيث طلب الله عز وجل منا السير والنظر باعتبار لجني الفائدة وتبادل الخير والخبرات والتعارف بين الشعوب، وهذا هدف إسلامنا العظيم في عالميته الرائعة.

وابن عساكر (ت: 571هـجري)، المحدث الشيخ المؤرخ الذي وُلد في دمشق وترعرع فيها وتعلم منها فوقها حقها، بتأليفه كتاب "تاريخ دمشق"، بأسلوب حديثي رائع، شجّعه وحقّره على إنجازه الشهيد نور الدين زنكي (ت: 569هـجري)، قائد الجهاد ضد الصليبيين في تلك المرحلة، والذي واجه الخطر بمزيد من الوعي بأهمية العلم والدين، وفضل الشام دمشق بأرضها المباركة وخيرية أهلها. يقول ابن عساكر: "دمشق جنة الأرض ومدينة العلم والفضل والحضارة، أم الشام، يُشدّ إليها الرحال بما زحرت به من المدارس، وحلقات العلم، في كل فن وعلم، وبما أنجبت من علماء وفرسان ومن أعلام في كل حلبة من حلباتها".

أما الجغرافي الشيخ أبي ياقوت الحموي الروميّ البغداديّ (ت: 626هـجري)، فقد كتب كتابه الشهير "معجم البلدان": "لم أقصد بتأليفه، ولا أصمد نفسي لتصنيفه، لهواً ولا لعباً ولا رغبة، ولا حيناً استفزني إلى وطن، ولا طرباً حقّزني إلى ذي ودّ وسكن، ولكن رأيت التصدي له واجباً، والانتداب

له مع القدرة عليه فرضاً لازماً، وهداني إليه النبأ العظيم، وهو قوله عز وجل حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته، ويقيم الحجة عليهم في إنزاله بهم أليم نعماته: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

فهذا تقرُّع لمن سار في بلاده ولم يعتبر، ونظر في القرون الخالية ولم ينزجر، حيث قال قس بن ساعدة: أبلغ العظات السير في الفلوات، والنظر إلى محلّ الأموات.

وورد في الأثر قولٌ لسيدنا عيسى عليه السلام: الدنيا محلّ مثلة ومنزل نقلة، فكونوا فيها سيّاحين، واعتبروا ببقية آثار الأولين.

لقد كان العرب والمسلمون من أوائل من مارس السياحة، وكانت مُقتصرة على الرحالة والتجار والمحدثين العلماء، كلاً بمفهومه واختصاصه.. ونحن أردنا لكم سياحة ممتعة مفيدة في رحلة قدسية تهدف إلى تنمية الذات من خلال الوقوف عند سير العلماء والمعالم الدمشقية مع التأمل والتفكير، بأجواء روحانية مبعثها قول المصطفى: ﴿عليكم بالشام.. فيها خيرة الخلق﴾..

فهياً نمضي والنفوس تتوق أن نكون من أهل الخيرية، نتنافس بروح راقية ترجو الخير للجميع، وإني أرجو الله لي ولكم أن نكون أصحاب إيمان مُطبّقين ومنقّذين لأقوال الحبيب بروح تتوق لملاقاته وهو راضٍ عنا، ترافقنا في رحلتنا هذه أسرار معاني قوله: ﴿حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك﴾...

وما الوقوف عند آثارهم إلا تذكرة لنا نحن أحياء اليوم، ولتُرفق ذلك بالدعاء لهم، فهل ذلك إلا من حسن التأمل في الوقوف سياحةً وتبصرةً للقلب قبل العين..

نبيلة حسن القوصي

دمشق 2019 / 1 / 30

23 / جماد 1 / 1440 هجري

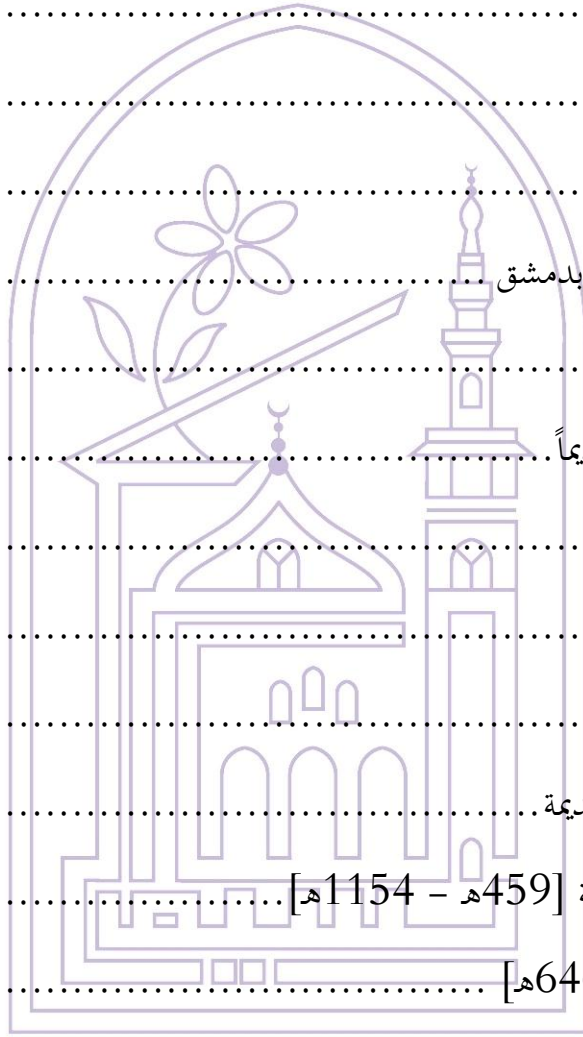
1 المقدمة
10 أعيان
11 أبتان بن عثمان بن عقّان [20هـ - 105هـ]
14 ابن مالك
19 أبو المعالي [550هـ - 598هـ]
23 أبو زرعة الدمشقي [...] [281هـ - ...]
26 أبو سلميان الداراني [140هـ - 215هـ]
30 أبو شامة المقدسي [599هـ - 665هـ]
32 أبو مسلم الخولاني [...] [62هـ - ...]
36 أبو يزيد البسطامي [208هـ - 261هـ]
41 أبي الزهر الكلي [654هـ - 742هـ]
46 أبي السعود بن مفرج [977هـ - 1061هـ]
50 أحمد ابن خلكان [608هـ - 681هـ]
55 أحمد الصياد [574هـ - 670هـ]
62 أحمد بن قاضي شهبة [797هـ - 851هـ]
67 أحمد بن قدامة المقدسي [491هـ - 558هـ]
75 أحمد بن محمد بن إسماعيل التميمي [...] [328هـ - ...]
79 أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن [...] [699هـ - ...]
87 إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني [1087هـ - 1162هـ]
92 أم الدرداء الصغرى

- 96..... أوسُ بن أوسٍ
- 98..... تميم الداري بن أوس
- 102..... جابر بن خالد بن مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة
- 105..... حجر بن عدي [... - 51هـ]
- 107..... حرملة بن الوليد
- 109..... حياة بن قيس بن رجال بن سلطان [501 - 581هـ]
- 113..... خليل بن أيك بن عبد الله الصفدي [696هـ - 764هـ]
- 117..... ذو مخمر ويقال: ذو مخبر الحبشي ابن أخ الملك النجاشي
- 120..... رابعة الشامية [... - 229هـ]
- 124..... رقية بنت أحمد بن قدامة [... - 621هـ]
- 127..... شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عبد الله بن الكندي [... - 18هـ]
- 129..... عائشة بن عبد الحميد المقدسية [723هـ - 816هـ]
- 133..... عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني [865هـ - 922هـ]
- 138..... عباس بن مرداس وخفاف بن ندبة
- 142..... عبد الرحمن الفزاري [624هـ - 690هـ]
- 144..... عبد الرحمن بن رجب [736هـ - 795هـ]
- 150..... عبد الغني النابلسي [1050هـ - 1143هـ]
- 156..... عبد القادر النعيمي [845هـ - 927هـ]
- 159..... عبد الله بن أبي عصرون [492هـ - 585هـ]
- 163..... عبد الله بن أم مكتوم [ت 15هـ]

- 169..... عبد الله بن بسر المازني
- 171..... عبد الله بن قدامة المقدسي [541هـ - 620هـ]
- 176..... عبد الوهاب بن تمام السبكي [727 - 771هـ]
- 182..... عثمان بن الصلاح [557هـ - 643هـ]
- 190..... عمر بن الحسين [...] [334هـ - ...]
- 193..... كعب الخير [...] [34هـ - ...]
- 197..... محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز [673هـ - 748هـ]
- 203..... محمد بن طولون [880هـ - 953هـ]
- 211..... محمد بن عبد الرحمن المقدسي [569هـ - 643هـ]
- 216..... محمد بن قدامة المقدسي [528هـ - 607هـ]
- 221..... مدرك بن زياد الفزاري
- 223..... يوسف بن المبرد [840هـ - 909هـ]
- 226..... مساجد
- 227..... المسجد الأموي الكبير
- 232..... مسجد الباشورة أو شجاع سابقاً
- 234..... مسجد التينية
- 237..... مسجد الجديد
- 243..... مسجد الجراح
- 248..... مسجد الجوزة
- 251..... مسجد السقيفة



253.....	مسجد السنجق دار
259.....	مسجد الشامية / المدرسة الشامية البرانية
267.....	مسجد الشهداء
272.....	مسجد العريشة
274.....	مسجد العفيف
280.....	مسجد المراز
285.....	مسجد المعلق
287.....	مسجد خالد بن الوليد بدمشق
292.....	مسجد النحاسين
294.....	مسجد الورد برسباي قديماً
300.....	مسجد منجك
304.....	مسجد مئذنة الشحم
308.....	معالم
309.....	أسواق مدينة دمشق القديمة
318.....	بنو قدامة وحي الصالحية [459هـ - 1154هـ]
323.....	البيمارستان القيمري [646هـ]
328.....	البيوت الدمشقية الشاميّة (1)
334.....	البيوت الدمشقية الشاميّة (2)
342.....	البيوت الدمشقية الشاميّة (3)
349.....	البيوت الدمشقية الشاميّة (4)



- 359..... تاريخ بناء مدينة دمشق
- 362..... التربة التكريتية [698هـ]
- 366..... التربة العمادية
- 369..... جبل قاسيون يحكي لنا.....
- 382..... الحمامات الإسلامية القديمة في دمشق
- 387..... حي الأكراد
- 393..... الخانات في دمشق القديمة
- 400..... دار القرآن والحديث التنكزية [728هـ]
- 402..... ربوة دمشق في القرآن
- 407..... سور دمشق القديم وأبوابها
- 421..... غوطة دمشق
- 425..... قبة السيّار
- 430..... قلعة دمشق
- 436..... المدرسة البادرائية [655هـ - 1257م]
- 439..... المدرسة الخيضرية [878هـ - 1473م]
- 442..... المدرسة الضيائية (603هـ - 620هـ)
- 446..... المدرسة العادلية الكبرى والصغرى والتربة العادلية الجوّانية والبرّانية
- 449..... المدرسة العزيزية
- 452..... المدرسة العمرية [577هـ - 1162هـ]
- 458..... المدرسة النورية الصغرى

- 467..... المدرسة النورية الكبرى [563هـ - 1167م]
- 474..... مزة القديمة
- 478..... معالم أثرية في ساحة الميسات بدمشق
- 486..... أزقة وحارات دمشقية
- 496..... مكتب عنبر [1867م]
- 502..... المنارة البيضاء
- 509..... مياه مدينة دمشق





أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ [20هـ - 105هـ]

التابعيُّ المحدثُ الفقيهُ المؤرِّخُ الأمويُّ

مدفون بالبَابِ الصَّغِيرِ

إخوتي القراء:

ندعوكم للتعرف على أحد كبار التابعين الذين يُعدّون من أوائل علماء السير والمغازي، نشأ في كنف والده الصحابي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد رأى وسمع وشارك بنفسه أحداثاً وأخباراً ليُمنح فيما بعد وسام شرف تدوين السير والمغازي، وجاء ترتيبه الأول ضمن الطبقة الأولى من الرواة...
أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، ابن الخليفة الراشدي وأحد السابقين للإسلام والمبشرين بالجنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أثر بيئته الإيمانية التي كبر وترعرع فيها أن تفتحت نسائم بصيرته الروحية والعقلية منذ الصغر، ليصبح من خيرة الأبناء الصالحين، فهلاً قرأنا بتأمل عميق لسيرته... نتلمّس من رب العباد الفائدة الروحية والفكرية...

عصره:

عصر الصحابة الكبار والتابعين الأجلّاء، الذين شهدوا بداية الحركة العلمية الفكرية الواسعة المستمدة من الوحي النبوي المحمدي...
سُمّيت فترته بالمرحلة الانتقالية بين دراسة الحديث ودراسة المغازي، فكان من نتاجها الجمع بين الحديث والتاريخ، ويعد من فصحاء الإسلام.

مولده ونسبه:

هو الإمام الفقيه المحدث المؤرِّخ، أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ الْقُرَشِيِّ الْأُمَوِيِّ الْمَدِينِيِّ، وَيُكْتَبُ بَوْلَدِهِ سَعِيدَ (أَبَا سَعِيدِ).

وُلِدَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ سَنَةَ 20 لِلْهِجْرَةِ، أُمُّهُ هِيَ أُمُّ عَمْرٍو بِنْتُ جَنْدَبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْحَارِثِ الدُّوسِيِّ.

سمع من أبيه عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله... و(بنو أبنان) هم بطنٌ من بني أمية.

أبناءه:

سعيد الذي يكنى به، وعبد الرحمن وعمرو وعبد الله، وكانوا من العلماء والرواة المحدثين.

وكان لأبنان أخوة: عمر وعمرو.

روى عنه:

عامر بن سعد بن أبي وقاص، وهو من أقرانه، أبو الزناد عبد الله بن ذكوان، ومحمد بن شهاب الزهري، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعمر بن عبد العزيز، وميمون بن مهران، وعمرو بن دينار... وغيرهم الكثير.

مناصبه:

وُلِّي المدينة المنورة سبع سنين عهد عبد الملك بن مروان، وشغل منصب القضاة، فقد تعلم القضاء من والده، وتعلم منه فنون القضاء قاضي المدينة المنورة أبو بكر بن حزم... وفي عهد الوليد بن عبد الملك، تولى إمارة موسم الحج من دمشق عدة مرات.

أقوال العلماء في أبنان:

يحيى بن معين يسمي تابعي أهل المدينة ومحدثيهم عشرة، فسمي أبنان منهم.

البلخي: (أبنان مدنيّ تابعي ثقة من كبار التابعين).

عمرو بن شعيب: (ما رأيت أعلم منه في الفقه والحديث).

روى عنه التابعون وتابعو التابعين، حيث كان من الثقات فقيهاً محدثاً، لكن شهرته بالسير والمغازي كانت أكبر، واهتم بالإسناد ومنهج الحديث، روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه...

صفات سطرها له التاريخ:

لم يترك مؤلفات مدوّنة، فعصره كان عصر الحفظ بعناية وقوة وإتقان في الصدور، يتداول أهله العلوم شفاهاً، كان قليل الرواية للحديث، ويحمل توقيراً وهيباً يليقان لجلال النبوة المحمدية...
أما عن صفاته الخلقية، فقد كان به صمم شديد، وحول وبرص، ومع ذلك كان يميل للدعابة والفكاهة مع من حوله، ويُنشد الكثير من الشعر...

وبلغة هذا العصر يسمى من المعاقين جسدياً، لكنه عند رسول الله من العظماء الذين اجتهدوا وجاهدوا أنفسهم ليكون لسيد الخلق شامة وعلامة تميزت بشذى عطر تقواها، وطلب رضى الله والرسول بصدق وإخلاص، ليكون خير خلف لخير سلف بإذن الله.

وفاته:

توفي في عام 105 للهجرة في عهد يزيد بن عبد الملك رحمه الله، لكن هناك خلاف في مكان دفنه، فبعض المصادر تقول أنه أصيب بالفالج قبل سنة من وفاته ودُفن بالمدينة، بينما الحوليات الأثرية السورية تقول إنه دُفن في تربة باب الصغير بدمشق.

وربما نشأ الخلاف هذا لتنقله المستمر بين المدينة المنورة ودمشق وتوليّه وظائف عدة، ولمعرفتنا أن أغلب الصحابة والتابعين قد قدموا إلى الشام تبرّكاً بقول المصطفى (عليكم بالشام)...

إن قراءة تحليلية متأنية لشخصيته الجليلة توصلنا إلى حقيقة نفسية روحية رائعة، فقد غُدّي قلبه بالحب الصادق لله ورسوله، فأوتي من العلم النافع الذي منحه القوة إيماناً ولساناً فصيحاً بليغاً، محصّناً من أي أفكار سلبية بسبب عيوب جسدية قد تكون عند الله امتحاناً لزيادة في رفع المقام...

المصادر:

- الإصابة في تمييز الصحابة/ لابن حجر العسقلاني.
- تاريخ دمشق/ لابن عساكر.
- الحوليات الأثرية العربية السورية/ مديرية الآثار
- سير الأعلام/ للذهبي.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ لابن العماد.

ابن مالك

حجة العرب في اللغة 672هـ = 1273م

إخوتي قراء زاوية "معالم و أعيان":

جولتنا السياحية التاريخية هذه ستكون قراءة في أسطر ترجمة عالم بلسان العرب، ذاك الذي قدم من المغرب إلى الشام ليستوطنها بطيب الأعمال، و بعلم يُتفَع به، و ولد صالح يدعو له، و صدقة جارية.... فهل عرفتم من هو؟



إنه صاحب القصيدة الألفية المشهورة باسم "ألفية ابن مالك"، و هي متن يضم أغلبية قواعد النحو و الصرف في منظومة شعرية يبلغ عدد أبياتها حوالي الألف بيتٍ على وزن بحر الرجز... قام بشرحها علماء أجلاء على مر العصور، مبهورين بإتقانه و روعة تنظيمه، لما تميزت به من التنظيم والسهولة في اللفظ مع الإحاطة بالقواعد النحوية بإيجاز محكم وترتيب لقواعد النحو، وقام بعض



العلماء أيضاً بإعراب أبياتها، وأشهر الشروح هو (شرح ابن عقيل)، ت: 769هـ، و(شرح الأشموني)، ت: 929هـ، و (ابن هشام الأنصاري)، ت: 761هـ، وغيرهم من علماء النحو..

يبتدئ ابن مالك الألفية فيقول:

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

مصليا على النبي المصطفى وآله المستكملين الشرفا

وأستعين الله في ألفيه مقاصد النحو بها محويه

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحدة كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل



لقبه:



جمال الدين أبو عبد الله، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجبالي : نسبة إلى جيان، بلد بالأندلس، ولد فيها سنة 600 هـ، حفظ القرآن الكريم و القراءات في بلده، ثم أقبل على تعلم النحو و الفقه على مذهب الإمام مالك، فأخذ القرآن و العربية ببيان من خيرة علمائها، ثم رحل ما بين سنة 625 هـ، و 630 هـ إلى الشام ليستقر في دمشق كأكثر عادة علماء ذاك العصر، فنبغ في اللغة و النحو، حتى صار مضرب المثل في معرفة دقائق النحو و اللغة و أشعار العرب.

قام بالتدريس في حلب و حماة، و دمشق، بعد أن أتم دراسته و أخذه من علماء الشام، كان إمام المدرسة السلطانية بحلب و حماة، ثم في الأموي و العادلية الكبرى، فعاش أكثر من سبعين عاماً قضاها في الدراسة و التعليم و التصنيف، شواهد من القرآن الكريم، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، و إن لم يكن فيه عدل لأشعار العرب.

رأي العلماء فيه:

قال الذهبي: صرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية فكان حبراً لا يجارى، و كان إماماً باللغة العربية و بجرأ في النحو و التصريف، و إماماً في القراءات و عللها، و إماماً في حفظ الشواهد و ضبطها، و له من الدين المتين، و التقوى الراسخة.

وقال تاج الدين السبكي: كان من الدين المتين، و صدق اللهجة، و كثرة النوافل، و حسن السميت، مع رقة في القلب، و كمال العقل.

وامتدحه النووي فائلاً: شيخنا الذي انتهت إليه في عصرنا الإمامة في اللغة العربية.. و أثنى عليه كثيراً.

وكان ابن مالك من شدة إخلاصه يقف على باب مدرسة العادلية، و يقول: هل من راغب في علم الحديث أو التفسير أو كذا أو كذا، قد أخلصتها من ذمتي، فإذا لم يجد قال: خرجت من آفة الكتمان.

وكان من همته العالية التي شهدت عليها جوارحه، أن قيل عنه أنه قد حفظ يوم موته ستة من الأبيات، و إذا بحثوا عنه وجدوه منكباً فوق الأوراق يكتب.. و ما الإنسان إلا بطيب أعماله !



مؤلفاته:

"تسهيل الفوائد في النحو"، كتاب "الضرب في معرفة لسان العرب"، و "الكافية الشافية"، و "سبك المنظوم و فك المختوم"، و غيرها من العلم المفيد النافع... و يكفيه فخراً ألفتته الشهيرة التي استفاد منها أجيال و أجيال، و لا تزال تُدرّس لليوم في الجامعات و المعاهد في أنحاء العالم العربي.



مات بدمشق سنة 672هـ، و دُفن في الصالحية بسفح قاسيون، في مقبرة الروضة بالقرب من موقف الدين ابن قدامة، رحمهم الله و جزاهم المولى عنا كل خير.

خلفه من بعده ابنه بدر الدين بن مالك، الذي توفي بدمشق سنة 687هـ = 1288م، و دُفن بالباب الصغير.

ومن تصانيفه : شرح الألفية لوالده، و المصباح في المعاني، و شرح لامية والده في الصرف.

وفي الختام:

ماذا عسانا أن نقول..؟! كان معلماً في النحو و اللغة، شواهد من القرآن الكريم المعجز، و الحديث الشريف، ثم من أشعار العرب.. فكان فارساً في النحو، لا يشغل باله إلا الفائدة الممزوجة بالمتعة اللغوية، أراد بها أن تصل لكل من كان شعاره تحصيل الفائدة و تذوق المتعة في الرقي باللغة.. حيث يقول :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

... إشارة إلى الصلاح و التقوى، الذي هو معيار الإنسان في الأرض، ثم تُرجمت ألفتته إلى عدة لغات، ليستفيد منها

أجيال و أجيال على مر العصور، فهل نحن يا أخي السائح إلا ساعات و دقائق ستصير غداً تحت التراب، تُسأل عن عمرها فيما أفنته..؟

اللهم ألهمنا العمل الصالح، والعلم النافع، بروح تنشد التقى و الرقي و المباهاة أمام سيد الأخلاق.





أبو المعالي [550هـ - 598هـ]

قاضي الشام القرشي الشافعي

محمد بن علي بن محمد بن يحيى

عصر الشيخ، سياسياً واجتماعياً وعلمياً:

عاش أبو المعالي (550 - 598 هـ) حياته كلها في عصر قيام الدولة الأيوبية، والمعروف تاريخياً أن القرن السادس الهجري / يعد من أهم القرون المؤثرة في الساحة العربية من كافة النواحي. فمن الناحية السياسية: كانت تعاني من اضطراب للقوة السياسية في بداية القرن، وظهور الاستقرار السياسي على يد نور الدين زنكي، ومن ثم قيام الدولة الأيوبية في منتصف هذا القرن. والاضطراب السياسي كان يرافقه اضطراب اقتصادي، لسوء توزيع الثروات، وظهور طبقات اجتماعية متفاوتة، مما أثر في تماسك وترابط أفراد المجتمع. أما الناحية الفكرية في ذلك العصر، فقد كانت مدينة دمشق يومئذ شأنها في كل العهود العربية والإسلامية، زاخرة بالعلماء، والحركات العلمية المختلفة. بالرغم من انتشار الخرافات والشعوذة بين الناس في ذلك العصر، لسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، للتهديد الخارجي الصليبي. شهد شيخنا هذا العصر فقابله بكثير من العلم والإقبال بشدة على مجالس علماء ذلك العصر للإفادة منهم، فما أحوجنا نحن في هذه الأيام أن نأخذ العلم والعمل من أفواه علماؤنا الكرام، عوضاً عن القيل والقال وكثرة الجدل.

ولادته ونسبته:

ولد في دمشق سنة 550 هـ، واسمه: محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن القاسم بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان



بن عفان القرشي، الملقب محيي الدين، والمعروف بابن زكي الدين الدمشقي، الفقيه، الشافعي. وقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان هذا النسب بأنه ينسب إلى قريش وإلى عثمان بن عفان.

غير أن الذهبي في سير الأعلام قال: قد شكك أبو شامة المقدسي في هذه النسبة، قائلاً: لو كانت نسبتهم صحيحة، لما اغفل ذكر هذه المنقبة الحافظ ابن عساكر، فشيخنا يعد من أحوال حافظ الشام ومؤرخه ابن عساكر، وبيت الزكي، يعد بيت من بيوتات دمشق المعروفة، والمشهورة في العلم والدين.

نشأته ورعايته:

نشأ شيخنا رحمه الله في بيتٍ مُحبٍ للعلم والثقافة، وأساسه الدين والخلق الرفيع. كان والده قاضي دمشق، توفي سنة 564 هـ، في بغداد ودفن بمقابر الحنابلة، وكان جده قاضياً، وكذلك جد أبيه، إذاً فالقضاء جاءه علماً وعملاً متوارث.

ومرة أخرى تدلنا نشأة علماؤنا الأفاضل، على الإشارة إلى أهمية واقع الأسرة التربوي، فالذي ينمو وينشأ في جوٍ مفعمٍ بدينٍ قوي، وفكرٍ راقٍ، وقلباً واعياً، من المؤكد سوف تسمو روحه عن كل رخيص ومبتذل في هذه الدنيا، ولسوف يجتهد ليرفع من حوله ويسمو بهم.

شيوخه:

تقول المصادر التي لدينا، أن أبو المعالي قد قرأ المذهب الشافعي على جماعة. وسمع من والده، وعبد الرحمن بن أبي الداري، والضياء بن هبة الله ابن عساكر، وجماعة.

روى عنه:

الشهاب القوصي، والمجد ابن عساكر، وجماعة، وحدث عنه بالإجازة أحمد بن أبي الخير.

قال أبو شامة المقدسي: كان عالماً صارماً، حسن الحظ واللفظ، فكان صاحب فنون وذكاء، وفقهٍ وآداب وخطب ونظم.

ولا بد من الإشارة إلى العوامل التي هيأت شيخنا لهذا النبوغ العلمي، كان قوياً في عقله وذكاؤه، وقوي البيان والتعبير، صافي نقي النفس من شوائب وأمراض الدنيا، وأساس ذلك كله تمسكه بالقرآن والحديث الشريف منذ الصغر، حباً وولعاً.

فقد مر معنا أنه سمع من والده، هذا إن دل فهو يدل على أهمية الأب المربي، كذلك الأم المربية، حيث بات من النادر في يومنا أن نسمع بدور الاهل تربويًا، وبات الأولاد متروكين للصدف والأيام.

وظائفه:

قلنا أن أبو المعالي محمد بن علي بن زكي الدين، عاش في زمن الدولة الأيوبية، ورجلٌ يحمل هذه الصفات، تؤهله ليكون مقرباً من القائد صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله.

فقد كان صلاح الدين يحترمه ويُعزّه، وولاه القضاة سنة 588 هـ، وكان أبو المعالي قد نظم قصيدة مدح لصلاح الدين عندما ملك حلب، سنة 579 هـ قائلاً:

وفتحك القلعة الشهباء في صغر.. مبشراً بفتوح القدس في رجب

فاتفق فتح القدس في رجب بعد أربع سنين، وذكر أبو المعالي أنه أخذ هذا التبشير من تفسير ابن برجان للقرآن الكريم في سورة الروم: (الم * غُلِبَتِ الرُّومُ).

فأصدر صلاح الدين الأيوبي مرسوماً للقاضي محيي الدين محمد بن علي على أن يخطب في القدس، فكانت أول خطبة جمعة صليت بالقدس بعد الفتح، وحضرها صلاح الدين وأعيان الدولة، وكان أبو المعالي له من العمر ثلاث وثلاثون سنة، تقول مطلع الخطبة:

(الحمد لله مُعز الإسلام بنصره، ومُذل الشرك بقهره، إلى آخر الخطبة).

ومن الوظائف التي شغلها أبو المعالي:

كان يتولى نظر الجامع الأموي بنفسه، ويقول الذهبي في سير الأعلام: اسمه إلى الآن موصول على يمين قبة النسرة، بخط كوفي، بفض أبيض وهو ظاهر في الجهة الشرقية، فيه أن ذلك فصوص في مباشرته.

وفاته:

توفي في شعبان سنة 598 هـ. عن ثمان وأربعين سنة، رحمه الله، ودفن من يومه في سفح جبل قاسيون. رحمه الله، لقد جعلنا ننطلق بين ثنايا سيرته العطرة و لساننا يترحم عليه من القلب ... داعين له و لمن سبقونا بالإيمان.

داعين المولى أن يجعلنا خير خلف لخير سلف، بإذن الله .



المصادر:

سير الأعلام / للدهبي
وفيات الأعيان / لابن خلكان.



أبوزرعة الدمشقي [...] - 281هـ]

الشيخ المحدث لزمانه

عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله النصري

إخوتي القراء:

لقد أراد الله عز وجل لمدينة دمشق أن تكون مدينة فريدة بين مدن العالم، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً في أحاديث صحيحة بأنها الأرض المباركة من أرضه، يجتبي إليها صفوة خلقه... وورد عنه أنه سينزل سيدنا المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، وحتى ذلك الوقت ستبقى دمشق فريدة الوصف بعلمائها الأجلاء الذين سينشرون منهج النبوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والذين هم خيرة الخلق... صفوة الخلق ندعوكم لرحلة تاريخية بين كتب التراجم لتتعرف على من استحق أن يذكره التاريخ، فهلا أنصتنا معاً إلى ما ترويه تلك الكتب بنية صادقة ترجو الفهم الصحيح عن سيد الخلق، أن كيف يكون إعمار الإنسان قبل الأرض؟؟

أبو زرعة الدمشقي، مؤرخ حافظ ثقة، ومحدث الشام في عصره، الملقب بشيخ الشباب.

هو عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان بن عمرو النصري الدمشقي، ولا تشير المصادر إلى تاريخ مولده، لكن يُستنتج بأنه ولد في العشر الأخير من القرن الثاني للهجرة، فهو من علماء القرن الثالث للهجرة.

نشأته:

نشأ نشأة أكسبته مكانة مرموقة في التاريخ العلمي لبلاد الشام، وكذلك بين المحدثين والمؤرخين، بدأ في طلب العلم في سن مبكرة، وارتحل ما بين الري والكوفة والشام والحجاز طلباً للعلم من أفواه الثقات، ثم جلس للتحديث وهو في الثلاثين من عمره.

كان والده يصحبه إلى مجالس العلم منذ صغره، وأخذ معه إلى مدن الشام، حيث اتصل بالعلماء وأخذ منهم وهو ما يزال صبيّاً، وكان هؤلاء العلماء من عدة بلدان كمصر والعراق والحجاز والشام.



وليثبت معلوماته وعلمه كان يناقش ويذاكر وينظر، ويعرض ما تعلمه من شيوخه على شيوخ آخرين حتى أصبح من كبار محدثي الشام ومؤرخيها.

اعتبره الخطيب البغدادي من اللذين يُؤخذ بقولهم في علم الحديث.

أقوال الشيوخ عنه:

الذهبي: الشيخ الإمام الصادق محدث الشام، جمع وصنف وذاكر الحفاظ، وتقدم على أقرانه، لمعرفته وعلو سنده.

المزي: الحافظ شيخ الشام في وقته.

وقال السخاوي عنه بأنه أحد الذين مارسوا نقد الرجال، واعتبره في طبقة من يُؤخذ بقوله.

روى عن:

أبو نعيم، الفضل بن دكين، وسليمان بن حرب، وأحمد بن حنبل، وخلق كثير من العراق والشام والحجاز، تميز وتقدم على أقرانه لمعرفته وعلو سنده.

روى عنه:

أبو داوود، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو قاسم الطبراني، وغيرهم.

ألف أبو زرعة في مواضيع متعددة وصل تعدادها إلى 25 موضوعاً، منها:

(تاريخ أبي زرعة الدمشقي)، الذي يعد أحد أهم المصادر الذي اعتمد عليه ابن عساكر في كتابه الشهير (تاريخ دمشق).

ومن تصانيفه: (العلل في الحديث). وغيرها.

ترجم له كثيرون مثل: الخطيب البغدادي، وياقوت الحموي، والذهبي، والعسقلاني، واهتم به باحثون محدثون، مثل: بروكلمان، الكتاني.

كانت داره عند باب الجابية شرق زقاق الأسديين.



وفاته: توفي ما بين 280 . 281 للهجرة ودُفن بتربة الباب الصغير، غربي قبر معاوية الثاني، رحمه الله ختاماً، فلندع الله عز وجل أن نكون خير خلف لخير سلف، بإذن الله تعالى.

المصادر:

تاريخ دمشق / لابن عساكر

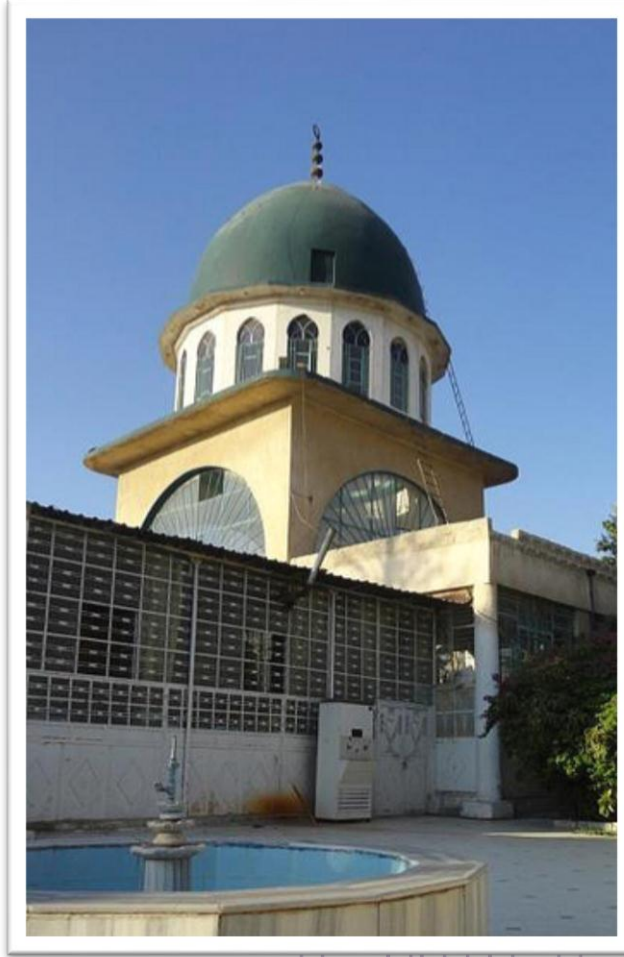
شذرات الذهب / لابن العماد

تهذيب التهذيب / لابن حجر العسقلاني



أبو سليمان الداراني [140هـ - 215هـ]

عبد الرحمن بن أحمد بن عطية ويقال: عبد الرحمن ابن عطية



إخوتي القراء:

تحتضن مدينة دمشق في تراجمها الغالي عدداً كبيراً من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام، وعدد من العلماء الأفاضل والأمراء الملوك الذين سطرُوا أسمائهم في كتب التاريخ، تحتاج منا اليوم قراءة متأملة وعميقة في سيرهم وأخبارهم كي نستخلص منها العبرة والعظة.

قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فالعبرة والعظة وسيلة تربوية هامة نكتسب من خلالها الحكمة في أمورنا كلها.

ندعوكم للتأمل معاً في سير الصالحين الذين سبقونا بالإيمان لتتعلم ونعمل على نهجهم ونكون خير خلف لخير سلف.

و اليوم سنقرأ سيرة أبا سليمان الداراني الذي قدم إلى دمشق في القرن الثالث الهجري وكانت له بصمة خير فوق أرضها ولندعو الله أن يكرمنا ويوفقنا في قرائتنا هذه كي نشحن الهمة في نفوسنا وقلوبنا للعمل الصالح الذي يرضاه الله.



وربما قراءة في سطور التاريخ تحيي القلب للعمل، خير من مجالسة أحياء فوق الأرض يُميتون القلب وقد قال الإمام الشافعي:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

فمن هو أبو سليمان الداراني؟

تكلم عنه ابن القيم في المدارج وقال: (كان أبو سليمان الداراني مضرب المثل في العبادة من أهل الشام مثلما كان الحسن البصري بالبصرة وهو من أبرز علماء الصوفية الحقيقية في القرن الثالث الهجري وكان يلقب بعباد أهل الشام)

وقال ابن كثير: (وهو أحد أئمة العلماء العاملين أصله من واسط قدم دمشق وسكن في قرية غرب دمشق يقال لها داريا، فنسبه بالداراني إلى داريا رحمه الله)

وذكره الإمام الذهبي في سير الأعلام بالإمام الكبير زاهد عصره.

فأبو سليمان له حكم في الصوفية مفادها نبد الدنيا والزهد فيها، فهو من شيوخ الجيل الأول الذين مهدوا الطريق أمام الحركة الصوفية وأسسوا قواعد من الآداب النظرية والعلمية وقد سبقهم جيلان من زهاد الصحابة والتابعين.

نشأ أبو سليمان في واسط ثم هاجر في شبابه فنزل داريا وقضى معظم سني عمره جارا لأقربائه العنسيين فيها.

وداريا تحتضن عدداً كبيراً من العلماء والمحدثين والصوفيين المشهورين في العصور الماضية.

كأبي مسلم الخولاني وأبو إدريس الخولاني من أشهر رواة الحديث وقد شاركوا الأمويين غزواتهم على الروم والداراني معهم وغيرهم كثير وخولان وعنس من أصول عربية خالصة تنتمي إلى قبائل في اليمن.

اسمه ومولده:

عبد الرحمن بن أحمد وقيل عبد الرحمن بن عطية وقيل ابن عسكر العنسي الداراني، ولد عام 140 للهجرة في مدينة واسط.





روى عن:

سفيان الثوري وأبي الأشهب العطاردي وعبد الرحمن بن زيد البصري وعلقمة بن سويد وصالح بن عبد الجليل.

تلاميذه:

أحمد بن أبي الحواري وهاشم بن خالد وحميد بن هشام العنسي وعبد الرحيم بن صالح الداراني وإسحاق بن عبد المؤمن وعبد العزيز بن عمير وإبراهيم بن أيوب الحوراني وغيرهم...

و قد اشتهر بأقوال بالغة الحكمة سنورد بعضاً منها:

* ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة

* أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

* لكل شيء علم ومن علم الخذلان ترك البكاء، و لكل شيء صداً وصداً القلب الشبع.

* إذا تكلف المتعبدون أن يتكلموا بالإعراب ذهب الخشوع منهم.

* من خلق الله خلقاً لو رُئيت لهم الجتان ما اشتاقوا إليها، فكيف يحبون الدنيا وقد زهدهم فيها.

* لولا الليل لما أحببت البقاء في الدنيا ولربما رأيت القلب يضحك ضحكاً.

* من اشتغل بنفسه شُغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شُغل عن نفسه وعن الناس.

* من وثق بالله في رزقه زاد في حسن خلقه، وأعقبه الحلم، وسخت نفسه، وقلت وساوسه في الصلاة.

* الفتوة أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفتقدك حيث أمرك.

* من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

* أصل كل خير الخوف من الدنيا ومفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع.

* إذ غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت.





* إذا سكنت الدنيا في قلب ترحلت منه الآخرة.

* كل عمل ليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخرة.

* إذا جاع القلب وعطش صفا ورق، وإذ شبع وروي عمي.

* لكل شيء صدقٌ وصدقُ اليقين الخوف من الله تعالى.

* من كان الصدق وسيلته كان الرضا من الله جائزته.

* من أراد واعظاً بيناً فليُنظر إلى اختلاف الليل والنهار.

* لكل شيء معدن ومعدن الصدق قلوب الزاهدين.

* إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة من القلب.

وله الكثير في هذه المعاني الراقية في (تاريخ دمشق) و(الحلية).

توفي سنة 215 هـ ، و قيل سنة 235 هجري، ودفن في داريا وقبره فيها مشهور عليه بناء وقبله مسجد بناه الأمير ناصر الدين عمر النهرواني.

نختم بكلام أبي سليمان الداراني:

الدنيا تطلب الهارب منها فإن أدركته جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلتها.

ندعو الله أن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

المصادر:

. تاريخ دمشق / ابن عساكر

. سير الأعلام / للذهبي



أبو شامة المقدسي [599هـ - 665هـ]

شهاب الدين أبو القاسم المقدسي الدمشقي الشافعي

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم

إخوتي القراء:

نمضي معا في قراءة ترجمة المؤرخ و المحدث، الحافظ الذي اشتهر بأبو شامة المقدسي ثم الدمشقي، سائلين الله أن يوفقنا في قرائتنا هذه بعظة مفيدة للروح و العقل معا، بإذن الله.

اسمه و مولده:

أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، (599 - 665 هـ، 1202 - 1267 م) ولقب بأبو شامة، لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر.

ولد سنة تسع وتسعين وخمس مائة في دمشق، وتوفي سنة خمس وستين وستمائة. قرأ القرآن وله دون العشر، وقرأ القراءات كلها سنة ست عشرة على الشيخ علم الدين السخاوي. وسمع بالإسكندرية من أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره.

له عناية بالحديث، سمع أولاده، وقرأ بنفسه، كتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودّرس وأفتى، وبرع في العربية وصنف شرحاً للشاطبية، واختصر تاريخ دمشق مرتين، الأولى في خمس عشر مجلداً، والثانية في خمسة، شرح القصائد النبوية للسخاوي في مجلد.

وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، وكتاب الذيل عليها، وكتاب شرح الحديث المفتى في مبعث المصطفى وكتاب ضوء القمر الساري إلى معرفة الباري، وكتاب البسمة الأكبر في مجلد، والباعث على إنكار البدع والحوادث، وكتاب السواك، والأصول من الأصول.

ونظم المفصل للزخشري، وشيوخ البيهقي وله غير ذلك، وأكثرهم لم يفرغ منها.

ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية ومشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية.

وقد اشترط الملك الأشرف رحمه الله أمرين اثنين لمن يتولى مشيخة دار الحديث سنة 630 هـ: الأول أن يجتمع في الشيخ علم الرواية، والشرط الثاني: علم الدراية. وتقدم الرواية على الدراية. وكان أبو شامة الثالث في تولي مشيخة دار الحديث ومن بعده تدلى الإمام النووي. وعُرف أبو شامة بكثرة ترحاله، ارتحل إلى الإسكندرية وسمع من شيوخها، وشد رحاله إلى مصر أكثر من مرة، وإلى بيت المقدس، ومكة والمدينة، والمدن الشامية، وزاد عدد شيوخه على الأربعين. أخذ عنه القراءات الشيخ شهاب الدين حسين الكفري، والشهاب أحمد اللبان، وزين الدين أبو بكر بن يوسف المزري وجماعة، وقرأ عليه شرح الشاطبية الشيخ شرف الدين الفزاري الخطيب. دخل عليه اثنان جبليان إلى بيته بأخر المعمور من حكر طواحين الأشنان في صورة فتياً، فضرباه ضرباً مبرحاً كاد يتلف منه، ولم يدر به أحد ولا أعمته، وتوفي في 19 رمضان ودفن بباب الفراديس. قال رحمه الله: جرت لي محنة بداري بطواحين الأشنان فألهم الله الصبر، وقيل لي: اجتمع بولاة الأمر فقلت: أنا قد فوضت أمري إلى الله وهو يكفيني. وقلت في ذلك:

قلت لمن قال أما تشتكي
ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا
ما يأخذ الحق ويشفي الغليل
إذا توكلنا عليه كفى
وحسبنا الله ونعم الوكيل

رحمه الله تعالى

المصادر:

- . شذرات الذهب / لابن العماد
- . طبقات الشافعية / ابن قاضي شهبة

أبو مسلم الخولاني [... - 62هـ]

عبد الله بن ثوب من سادات التابعين فقيه زاهد

فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله

إخوتي القراء:

رحل من اليمن إلى المدينة المنورة طالباً رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم وآمن به دون أن يراه...

لم يعلم أن الرسول توفي وقد بُويع أبو بكر الصديق خليفة للمسلمين، وعندما دخل المدينة المنورة وعلم بالخبر حزن حزناً شديداً فدخل المسجد النبوي ليصلي ويصلي عند سارية في المسجد، فلمحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبسرعة البرق ذهب إليه يسأله: **ممن الرجل؟** فرد عليه: من اليمن. فسأله: **ما فعل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟** فرد قائلاً: **ذاك عبد الله بن ثوب!** فقال سيدنا عمر: **أنشدك بالله أنت هو؟** فرد الرجل: اللهم نعم. فاعتقه عمر وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وقال: **الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله عليه السلام...**

هذه القصة الرائعة بنسائمتها الروحية الايمانية، تتناولها كتب التاريخ والحديث في سيرة وترجمة عبد الله بن ثوب أبو مسلم الخولاني.

فمن هو هذا الرجل الذي بكى عمر بن الخطاب عند رؤيته؟ وما سبب تعرضه للحرق في اليمن؟ ومن هو الكذاب الذي حاول حرقه؟

مولده واسمه ونسبه:

ولد في اليمن يوم حنين وقيل أنه ينتمي لقبيلة (خولان) وهي من أشهر قبائل اليمن، أسلموا جميعاً وآمنوا بالله ورسوله عندما بلغهم دعوة الإسلام، ولكن ظهر في اليمن رجلٌ يدعي النبوة ويطلب الناس بالإيمان به، كان هذا الرجل أول من ادعى النبوة قبل "مسيلمة الكذاب" الذي ظهر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ادعى هذا الرجل النبوة في حياة رسول الله واسمه "الأسود العنسي" من قبيلة (مذحج) وقبل أن يدعي النبوة كان يُعرف بالمشعوذ وقُتل قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

و عندما ادعى النبوة وازداد سلطانه في اليمن على هذه الضلالة رفض عبد الله بن ثوب التسليم بنبوته وقد سأله العنسي وكرر ثلاث مرات أن يشهد بنبوته فظل متمسكاً بقوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأشعل العنسي ناراً كبيرة وعظيمة ورماه فيها ثلاثة أيام خرج بعدها أبو مسلم الخولاني سليماً ولم يحترق، وعندما رأى العنسي هذه الكرامة التي أكرم الله عز وجل هذا المؤمن خاف على سلطانه وأمر أبا مسلم بالخروج من اليمن فرحل قريراً سعيداً بإيمانه العظيم واتجه صوب المدينة المنورة لينعم برؤية رسول الله ووجده قد توفي قبل أن يصل إليه.

نجد هذه القصة في مصادر التاريخ الإسلامي رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق وروى لنا أن أبا مسلم مدفون في داريا قرب دمشق رحمهم الله وجمعنا وإياهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، اللهم آمين.

أما اسم أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب كما قال لسيدنا عمر بن الخطاب، وقيل عبد الله بن عوف، والأول أكثر شهرة، وغلبت عليه كنيته الخولاني، ويقال ابن ثواب وابن أثوب، ويقال ابن عبد الله وابن عوف، ويخبرنا المزي في كتابه "تهذيب الكمال" أن أبا مسلم الخولاني قد نزل الشام وسكن في داريا بالقرب من دمشق.

و يعد من كبار التابعين من تابعي أهل الشام، ذكره ابن سعد في "الطبقات" في الطبقة الثانية وقال: "كان ثقة توفي زمن يزيد بن معاوية".

شيوخه:

عمر بن الخطاب، عبادة بن الصامت، عوف بن مالك الأشجعي، معاذ بن جبل، معاوية بن أبي سفيان، أبو عبيدة الجراح وأبي ذر وغيرهم...

تلاميذه:

إبراهيم بن عليّة، جُبَيْر بن نُفَيْر، حرام بن حليم الدمشقي، شرحبيل بن مسلم الخولاني، صخرة بن حبيب، عبد الله بن عروة بن الزبير، عطاء بن أبي رباح.

كراماته:

أما عن كراماته التي لا تعد ولا تحصى - وكانت بدايتها أن قلب الله النار برداً وسلاماً عليه - فذكرها علماء الحديث الشريف، قال الزهري: كان قد أوتي الحكمة.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن شعيب عن بعض المشيخة قال أقبلنا من أرض الروم فمرنا بالعمير محل أربعة أميال من حمص في آخر الليل فاطلع راهب من صومعته فقال: هل تعرفون أبا مسلم الخولاني؟، قلنا: نعم، قال: إذا أتيتموه فاقرؤوه السلام فإننا نجد في الكتب رفيق عيسى ابن مريم أما إنكم لا تجدوه حياً، فلما أشرفنا على الغوطة بلغنا موته.

والمشهور عنه في عبادته وصلاته أنه كان يضع السوط بجانبه يضرب به رجله قائلاً: "والله إنك أحق بالضرب من دابتي".

لقد كان خير سلف لخير خلف اللهم ارزقنا حسن المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في خلقه وسلوكه كي نحظى بحبه فيكرمنا الله برؤيته في الدنيا والآخرة.

ومن نوادر فضائله أنه كان إذا دخل أرض الروم غازياً لا يزال في المقدمة فإذا أذن لهم كان في الساقة، وكان الولاة يقيمون بأبي مسلم فيمررونه على المقدمات وكان يرتجز في إحدى المعارك قائلاً:

"ما علي ما علي وقد لبست درعتي أمت عند طاعتي".

رحم الله أبا مسلم الخولاني توفي شهيداً غازياً في جيش معاوية رضي الله عنه ضد الروم سنة 62هـ ودفن في داريا بالقرب من دمشق.

إخوتي الكرام:

الزمان يمضي ويمر مر السحاب ونحن سنمضي من هذه الدنيا كمن سبقنا، هؤلاء الذين كانوا يشاركوننا الزمن والأرض والإنسانية، ولكن يختلف الواحد عن الآخر بما صنع وعمل من أعمال بر وخير للبشرية، بحسب إيمانه واجتهاده وبذل جهد الفكر للعمل بنية رضي الله ورسوله، هذا هو الهدف السامي والنبيل، قال تعالى: **{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ}**



فعندما تقرأ صفحات وأسطر مشرقة نيرة مرت في تاريخنا العظيم تأسف لتقصير قد ألمّ بنا، ونعتذر من هذه القامات الإيمانية، ندعو المولى و بدعاء مستمر كي ينجينا الله من غفلة تباعدنا عن مشاهدته و الفوز برضاه كما يحب و ينبغي له.

المصادر:

. تاريخ دمشق لابن عساكر

. تهذيب الكمال للمزي

. تاريخ الإسلام للذهبي



أبو يزيد البسطامي [208هـ - 261هـ]

العارف بالله طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى البسطامي

ليس العجب من حي لك وأنا عبدٌ فقيرٌ...

بل إنما العجب من حبك لي وأنت مليونٌ قديرٌ...

إخوتي القراء:

ذكر ابن عساكر (رحمه الله) عن النبي صلى الله عليه وسلم: (بأن مدينة دمشق ستكون في آخر الزمان أكثر المدن أهلاً وأكثرها أبدالاً وأكثرها مساجداً وزهاداً وعلماء، وأقلها كفاراً...).

فمدينة دمشق تميزت، لمن عاش فيها أو مر منها عابراً، بمشاعر السكينة والطمأنينة والراحة تعبر وتنفذ إلى القلب والنفس، ذلك لانبعاث نسائم إيمانية روحانية قوية كأبخرة المسك والعود المنبعثة من ترابها الممزوج بدماء الصحابة والعلماء الربانيين العارفين بالله، الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم بالأبدال، حيث قال:

(الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، فيسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب).. وصفهم بأنهم ليسوا بكثرة صلاة وصيام، ولكن بسخاء الأنفس وسلامة الصدور، والنصيحة لكل الناس بالحكمة والموعظة الحسنة...

وقال: ((الشام صفوة الله من بلاده، إليها يجتبي صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخط منه، ومن دخلها من غيرها فبرحمة))

ونحن نرجو الله عز وجل أن يرزقنا نور الفهم للعبارة والعظة في مسيرة حياتنا هذه، ويدركنا بعظيم رحمته كي نقول ونعمل بما يحب ويرضى الله عز وجل ورسوله الكريم، فوق ترابك يا دمشق اللهم آمين...

والآن، ما المقصود بالأولياء الربانيين والعارفين بالله...؟

ندعوكم لقراءة متأملة في سيرة العارف بالله (أبو يزيد البسطامي) رحمه الله، والذي أجاب عن معنى العارف بالله عندما سُئل، فقال: الذي لا يفتر لسانه عن ذكره، ولا يميل من حقه، ولا يستأنس بغيره.

فأنصتوا يا إخواني...

يُعدّ البسطامي من الشيوخ الأجلاء وسلطان العارفين صاحب الكرامات والمقامات، ترجم له الكثير من قدامى العلماء المعروفين أمثال: الذهبي وابن كثير والأصفهاني وغيرهم، يصفونه بسُلطان العارفين. ونأسف في يومنا هذا ممّن يوجه سهام حقه للإسلام من خلال التشويش والتشكيك بالصوفية، وما هي إلا اتباع للأخلاق والآداب الإسلامية المقتبسة من القرآن والسنة، بنيت الوصول إلى درجة الإحسان، والتي تعرف بأن تعبد الله كأنك تراه...

فالتصوف: مجموع الأخلاق الإسلامية ومكارمها الغنية التي نزلت في قرآننا العظيم وترجمها نبينا الكريم بسيرته العطرة الرائعة لتكون دستور ومنهج لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. **والصوفيون:** هم علماء ربايون وعلماء تربية وسلوك... لكن أعداء الإسلام عندما أرادوا إبعاد المسلمين عن لب وجوهر الإسلام، (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، بدؤوا بالإساءة لهؤلاء العلماء الربانيين، فافتروا عليهم بدسائسهم الباطلة الزائفة، وللأسف أمة (اقرأ) لا تقرأ اليوم، فقد انشغلت باتباع النفس وهواها... أعاذنا الله وإياكم من غيبة ننته مدمرة في غفلة قاتلة... اللهم آمين.

نكمل قراءة سيرته وبعض أقواله، ثم انظروا...

اسمه:

طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى البسطامي، الزاهد المشهور، والبسطامي: بفتح الباء، نسبة إلى (بسطام) قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة على جادة الطريق إلى نيسابور، وهي أول بلاد خراسان من جهة العراق، كان جده (شروسان البسطامي) مجوسياً فأسلم، وله أخوان عابدان زاهدان أيضاً: آدم أكبرهم، وعلي أصغرهم، كان أبو يزيد أوسطهم وأجلهم.

قال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): أبو يزيد أحد الزهاد، أخو الزاهدين.

قل ما روى وله كلام نافع.

بعض أقواله:

كان يزجر نفسه فيصيح عليها ويقول: يا مأوى كل سوء، المرأة إذا حاضت طهرت في ثلاثة أيام وأكثره عشرة، وأنت يا نفس قاعدة منذ عشرين وثلاثين سنة بعد ما طهرت، فمتى تطهرين؟ إن وقوفك بين يدي الله عز وجل طاهر فينبغي أن تكوني طاهرة.

. عملت في المجاهدة ثلاثين عاماً فما وجدت شيئاً أشدّ علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

. لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.

. قال العباس بن حمزة: صليت خلف أبي يزيد الظهر فلما أراد أن يرفع يديه ليكبّر لم يقدر إجلالاً لاسم الله تعالى، وارتعدت فرائضه حتى كنت أسمع تققع عظامه، فهالني ذلك.

. وقيل: صعد أبو يزيد ليلة سور بسطام فلم يزل يدور على السور إلى وقت طلوع الفجر يريد أن يقول لا إله إلا الله فيغلبه ما يريد عليه من هيبة الاسم فلا يستطيع أن يطلق لسانه، فلما كان وقت طلوع الفجر نزل فبال دماً.

. قال: فقدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب.

. قال أبو موسى الديلمي: سمعت أبا يزيد يقول: عرج قلبي إلى السماء فطاف ودار ورجع، فقلت: بأي شيء جلت معك؟ قال: المحبة والرضا..

. وقال علي بن المثنى: سمعت عمي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا يزيد يقول: رأيت رب العزة تبارك وتعالى في المنام، فقلت: يا رب كيف الطريق إليك؟ قال: أترك نفسك ثم تعال.

. سأله رجل مرة: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي عز وجل، فقال: أحب أولياء الله تعالى ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فلعلة أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك.

إخوتي القراء:

أقواله النافعة، كما وصفها الذهبي (رحمه الله)، كثيرة ورائعة.. ولكن الأهم من ذلك، هل تحرك الفؤاد طرباً بذكر أحباب الله عز وجل؟ إن لأمس شغاف قلبك مشاعر مبهجة لا توصف بكلمات... فقد حصل المقصود من سياحتنا هذه، فهنيئاً لك... فلنقرأ فاتحة الكتاب لروحه الطاهرة.

وفاته:

توفي أبو يزيد البسطامي في عام 261 هجري، وله من العمر 73 سنة، وقد قيل أن من كراماته وجود عدة مقامات له، في دمشق وبسطام ومصر وغيرها..

نختم سيرة أبي يزيد (رحمه الله) بصفات العارف بالله علي لسان ذي النون المصري (رحمه الله): (هم قوم ذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيماً لربهم عز وجل لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، أقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته...).

رحمهم الله أجمعين، ونفعنا وإياكم من طيب سيرهم وذكرهم، فهم نبراس يتألاً من منهج النبوة المحمدية.

واستمع أيها السائح المسلم لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي قال:

إن الله تعالى قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ولكن سألني لأعطيته، ولكن استعاذني لأعيذته).

جعلنا الله عز وجل وإياكم ممن يطمع بوجهه جل وعلا سبحانه، فنعمل ونشغل لنزداد منه قرباً قبل فوات الأوان... ويحضرني قول أحد العارفين بالله عندما سأله رجل في جنازة عن اسم الميت، فقال: (إنه أنت)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾... ما أجملها من حكم معبرة العظة هي مقصدنا، ونقل بعضهم أن تضارب الروايات حول مكان وجود ضريح البسطامي قد جال بفكر الشيخ عبد الغني النابلسي عند زيارته لضريح البسطامي في الرستن، لكنه حسم الأمر وأكد أن الضريح

الحقيقي هو الذي يقف أمامه في الرستن فقال: على قبره جلاله وهيبته يحققان حضوره هناك ويشيران إليه.

المصادر والمراجع:

. حلية الأولياء / للأصفهاني.

. المنتظم / لابن الجوزي.

. معجم البلدان / للحموي.

. سير أعلام النبلاء / للذهبي.

. الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية / المجلد 35



أبي الزهر الكلي [654هـ - 742هـ]

جمال الدين أبو الحجاج الإمام العلامة الفقيه المزي

يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف بن عبدالملك بن يوسف الشافعي



إخوتي القراء:

إن الله عز وجل قد أراد لمدينة دمشق أن تكون المدينة الفريدة بين مدن العالم بدورها الهام في مستقبل الأمة الإسلامية، حيث ورد عن سيد الرسل أنه سينزل المسيح عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، وإلى ذلك الزمان ستبقى دمشق فريدة بعلمائها الذين وُلدوا أو ماتوا فيها، أو اتخذوها سكناً لهم لنشر منهج النبوة المحمدي بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى مر العصور.

و لقد احتضنت دمشق رفات علماء أجلاء ساهموا في بناء حضارة إسلامية، ومركزٍ لنهضة علمية في جميع الفنون والآداب، فهي مدينة العلم والحضارة التي أرادها الله أن تكون بداية التاريخ ونهايته

ومرتكزه، ومهما خبا نورها، ولكنه لن ينطفئ أبداً... بل ينبعث من جديد أقوى مما كان ليشتع في العالم علماً وحضارة، وأسطورة لا تنتهي...

فهيلاً معاً ننتقل ونسجل ما أمكن، من قراءة متأمله في سيرة هذا العالم الجليل، حلبيّ المولد، دمشقي النشأة والوفاة، الذي سكن دمشق وطرّ فيها أروع الصفحات... إنه صاحب الكتاب الشهير (تهذيب الكمال في معرفة أحوال الرجال)، الشيخ الحافظ المتقن المزيّ.

فمن هو؟ ولماذا لُقّب بالحافظ المزيّ؟

اسمه ونشأته:

جمال الدين أبي الحجاج، الشيخ المتقن، يوسف بن الزكي الحلبي ثم المزيّ، وُلد في مدينة حلب من أسرة عربية الأصل ترجع إلى قبيلة كلب القضاعية التي استوطنت البلاد الشامية منذ فترة... ولد سنة 654هـ جري ثم انتقل إلى القرية الكبيرة الواقعة في وسط بساتين دمشق جنوب غربها، التي تدعى . المزة . لذلك قيل فيها: مزة كلب، وفيها على ما يُروى قبر الصحابي دحية الكلبي القضاعي، فلعل هذا يفسر اختيار المزيّ ذلك المكان من دمشق سكناً له.

والظاهر أن الكلبيين كوّنوا القسم الأكبر في تلك المنطقة منذ العهود الأولى للإسلام، ولذلك لُقّب بالمزيّ، ولُقّب بالمتقن الحافظ لحفظه وإتقانه وتفقهه بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وبراعته في علومهما.

كان معتدل القامة مشرباً بحمرة، قوي البنية، مُتّع بجواسه وذهنه، وكان يمشي إلى الصالحية على الأقدام وهو شيخ في التسعين من عمره، ويستحم بالماء البارد في الشتاء، يمشي في مطالبه دون استعانة بأحد.

عصره:

كانت بلاد الشام منذ منتصف القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد، تعيش في ظل دولة المماليك البحرية التي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية بعد ضعفها وتسلب المغول عليها، لكن تمكنت دمشق من هزيمتهم ووقف الزحف المغولي التتري الهمجوي في عام 658 لتصبح من أقوى وأعظم مدن

العالم الإسلامي في ذلك العصر، ومركزاً كبيراً لنهضة علمية وفكرية في مختلف العلوم آنذاك... فيها المدارس العامرة، ودور القرآن والحديث...

وأنتجت دمشق تراثاً علمياً تبوّأت فيه السيادة العلمية والفكرية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فأنجبت أجلاً وأبرز العلماء، منهم الشيخ المزّي، في هذه البيئة السياسية القوية والنشاط العلمي الفكري، وُلد وعاش الحافظ المزّي.

شيوخه وأقرانه:

اتصل المزّي اتصالاً وثيقاً بثلاثة من شيوخ ذلك العصر، وترافق معهم، وهم: ابن تيمية، والمحدث البرزالي، والذهبي، فكان المزّي أكبرهم سناً، وقرأ الثلاثة على المزّي واعترفوا بأستاذيته وافتخروا بها... وسَمِعَ بدمشق وحلب وحمّاة والحرّمين وبعليّك وغيرهم، وفي البداية كتاب الحلية على ابن أبي الخير، ثم المسند والكتب الستة ومعجم الطبراني من الإربلي، ثم من العزّ الحزّاني وأبي بكر بن الأنماطي، وغيرهم خَلَقَ كثير، فقد سَمِعَ ببلاد كثيرة، وجمّع له الدراية والرواية وعلوّ الإسناد، وحدّث نحو خمسين سنة.

سمع منه ابن تيمية، والبرزالي، والذهبي، وابن سيد الناس، وتقي الدين السبكي، وخَلَقَ لا يحصون. وصنّف مصنفات كثيرة أشهرها مصنف تهذيب الكمال المجمع على أنه لم يُصنّف مثله، وكتاب الأطراف الذي سماه تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف.

فأتى بكل نفيسة، وبالغ في استيفاء شيوخ الرواة، وفي عدالتهم ومناقبهم، أما كتاب الأطراف، فقد عني به عناية فائقة الوصف بطريقة تسهل على القارئ معرفة الأسانيد المختلفة، ولكن مجتمعة في موضع واحد.

وقام كثير من العلماء البارزين في الحديث بتصنيف مختصرات لكتب المزّي، أمثال ابن حجر العسقلاني والذهبي وغيرهم، بهدف إيصال العلم والمنفعة في أحاديث سيد الخلق.

اشتهر المزّي في العلوم والحديث والخط، ونسخ بخطه المصحح المتقن كثيراً لنفسه ولغيره، نظر في اللغة والتصريف فمهر فيها، وفي معرفة الرجال، كان هو حامل لوائها والقائم بأعبائها.

وتخبرنا المصادر بأن الشيخ المزي قد عُني بأهل بيته، فكان يُحضرهم مجالس السماع، وكانت زوجته تُعرف بالمرأة الصالحة الحافظة لكتاب الله، عائشة بنت إبراهيم بن صديق، والتي توفيت قبله بتسعة شهور ودُفنت في مقابر الصوفية... وقد قرأ عليها من النساء خلقاً، وانتفعن بها وبصلاحها ودينها وزهداها في الدنيا، وكانت والدته زينب زوج ابن كثير رحمهم الله.

وللمزّي وَلَدٌ اسمه عبد الرحمن، الذي وُلِّيَ مشيخة المدرسة النورية، وأصيب بالطاعون ودُفن بمقابر الصوفية مع والده.

ما قاله العلماء عن المزي:

كان خاتمة الحفاظ وناقد الأسانيد والألفاظ، وهو صاحب مُعضلاتنا، وموضّح مشكلاتنا... ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ من الإمام أبي الحجاج المزي . الذهبي .

هو إمام المحدثين، والله لو عاش الدار قطني، لأستحي أن يدرس مكانه . تقي الدين السبكي .

ويقول تاج الدين السبكي: (وكننت إذا جئت غالباً من عند شيخ، يقول لي الوالد: هات ما استفدت، ما قرأت، ما سمعت... فأحكى له مجلسي مع شيوخ دمشق، فكنت إذا جئت من عند الذهبي يقول: جئت من عند شيخك... وإذا جئت من عند الشيخ المزي، يقول لي: جئت من عند الشيخ، ويفصح بلفظ الشيخ، ويرفع بها صوته وأنا جازم بأنه كان يفعل ذلك ليثبت في قلبي عظمته، ويحثني على ملازمته).

شغل الشيخ المزي مشيخة المدرسة الأشرفية التي كانت تعدّ كأكبر حاضرة علمية في علم الحديث، فقد وليها عظماء العلماء المحدثين أمثال: ابن الصلاح والنووي وابن شامة وغيرهم، وأصبحت هذه الدار مسكنه لحين وفاته قرابة خمسين عاماً، ينشر بين الناس الدرر المحمدية، من كتب وغيرها، كصحيح البخاري، ويقول السبكي: (وعندما شجر مكاناً فيها، أنزلني المزّي فيه، فعجبت من الوالد الذي كان يقول إنه لا يرى تنزيل أولاده في المدارس، وكان يؤخّرنا إلى وقت استحقاق التدريس، وها أنا... وعندما سألته قال: ليقال إنك كنت فقيهاً عند المزّي، على هذا ربّانا الوالد... وعندما أمر المزّي أن يكتبوا اسمي في الطبقة العليا انزعج الوالد وقال: خرجنا من الجدّد إلى اللعب، لا والله، عبد الوهاب شابّ، ولا يستحق الآن هذه، اكتبوا اسمه مع المبتدئين).

وولي المزي التدريس في أقدم وأعرق دار للحديث بدمشق، وهي دار الحديث النورية إلى حين وفاته..

كان ثقةً وحنةً كثير العلم، حسن الخلق، كثير السكوت، قليل الكلام، صادق اللهجة، لم تُعرف له صبوة.

ومتواضعاً حليماً صبوراً، مقتصداً في ملبسه ومأكله، كثير المشي في مصالحه، كثير المحاسن، وإذا آذاه أحد لا يتكلم فيه، كثير السكوت لا يغتاب أحداً...

هذه دمشق العظيمة التي رشتت بهؤلاء العلماء الأجلاء مفاهيم ومبادئ عمود القرآن الذي وُضع بالشام، وتتجلى آثار صدقهم بأخلاقهم المحمدية، فالحلم والصبر على أذى الناس وكثرة السكوت والتواضع من شيم الكبار الذين يبلغون رسالة نبيهم العظيم، فهو الذي أخبرنا قائلاً: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فالمسلم ليس بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء... والمؤمن هو الذي يحب لأخيه في الإنسانية الخير قبل أن يحبه لنفسه، فالخلق كلهم عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعياله، وما يكون النفع إلا بصفات طيبة تُذكر بين الخلق...

وفاته:

قام يتأهب لصلاة الجمعة فشعر بألم في بطنه، والذي كان طاعوناً، فمات وهو يقرأ آية الكرسي، سنة 742 هجري في المدرسة الأشرفية... التي ظل يتولى مشيختها إلى حين وفاته، وصلى عليه جمعٌ غفير في الجامع ثم خارج باب النصر، ودُفن بمقابر الصوفية، غربي قبر ابن تيمية خلف المشفى الوطني بدمشق. رحمهم الله جميعاً وجعلنا خير خلف لخير سلف.

المصادر:

- الدرر الكامنة/ لابن حجر العسقلاني

الطبقات الكبرى/ للسبكي

- الوافي بالوفيات/ للصفدي

تذكرة الحفاظ/ للذهبي

أبي السعود بن مفرج [977هـ - 1061هـ]

الغزّي العامريّ المؤرّخ المُسنَد الأديب الشافعيّ القرشيّ الدمشقيّ

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن مفرج

المكنى بـ أبي المكارم وأبي السّعود

إخوتي القراء:

من دمشق مدينة . العلم و العلماء . نقرأ سير علماء جمعوا بين علوم أصيلة متنوعة، فكانوا خير خلف لخير سلف مستمر بإذن الله، إلى يوم القيامة.
و هذا الغزّيّ المشهود له بإجماع الثقات في عصره، والذي اعتبره البعض خاتمة حُفّاظ الشام، وآخر مؤرّخيها الثقات، فلنستمع... ونتأمل في قرائتنا، ما هو المفقود في عصرنا اليوم؟

أصله ومولده:

أصله من غزة، ومولده ووفاته بدمشق، حيث وُلد في عام 977 هـ / 1570 م.

هو محمد، نجم الدين بن محمد، بدرالدين بن محمد، رضيّ الدين بن محمد، بن أحمد الشهاب بن عبد الله بن بدر بن مفرج بن بدري بن عثمان بن جابر، العامري القرشي الغزي الدمشقي الأشعري الشافعي.

والنسب يدل بوضوح تام على أن نجم الدين الغزي قد انحدر من أسرة عربية أصيلة، استقرت في دمشق، وافدة من غزة.

كان جدّ العائلة هو الشهاب أحمد، الجدّ الثالث للنجم، بدليل ما قاله والد النجم بدر الدين في إجازته الشعرية للزيادي:

وبالغزّيّ شهرتنا لأن الشها ب بها توطن في المنادي

ومن المرجح أن هجرة جده (الشهاب أحمد) من غزة إلى دمشق قد كانت هجرة لطلب العلم، كما كانت عادة علماء ذلك العصر، ثم مع الأيام تولى الشهاب أرفع المناصب الدينية في دمشق، مدينة العلماء.

بدأ الشهاب، على نهج السلف الصالح، يغرّس شجرة العلم المرفوق بالعمل في الأسرة، ليتوارثها الأولاد والأحفاد من بعده، ويُلاحظ من تراجع الأسرة تأكيداً مُلحَّح على ربط نسبهم بقريش.. هكذا إلى أن جاء والد مؤرخنا نجم الدين، بدر الدين، الذي ذاع صيته في الآفاق بالعلم والدين والمناصب الاجتماعية المرموقة.. ثم كانت ولادة مؤرخنا في ذاك المناخ الأُسريّ المفعم بالتقى والعلم والصلاح.

لنتأمل ماذا تروي المصادر عن مولده، محاولين استنباط بعض العبر...

قد قرأ الغزي تاريخ ولادته بخط والده، والذي أرفقه بدعاء: (أنشأه الله تعالى وعمّره، وجعله ولدًا صالحًا، بَرًّا تقيًّا، وكفاه وحماه من بلاء الدنيا والآخرة، وجعله من عباده الصالحين، وحزبه المفلحين، وعلمائه العاملين، ببركة سيد المرسلين).

أمّ تربوي هام عمل والد نجم الدين على تأصيله فيه منذ الصغر، وهو احترام العلماء والأدب في حضرتهم، فكان الغزيّ دومًا ينسب أي أمر لبركة دعائهم، وكان والده يفخر به دومًا أمامهم طالبًا دعائهم.

توفي والده وهو في السابعة من عمره، فأكملت والدته بناءه الإنساني السليم الصحيح، الذي يبدأ بطبيعة الحال من الأسرة، فكتب الغزيّ بمتدح والدته قائلاً:

(ثم زُييت أنا وإخوتي بعد وفاة والدي، فأحسنّت تربيتنا، علمتنا الصلوات والآداب وقامت في كفالتنا بما هو فوق ما تقوم به الرجال، مترمّلة علينا، راغبة من الله سبحانه في حسن الثواب والنوال، وجزيل الحظ من قول المصطفى: أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول لها: مالك؟ ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدتُ على أيتام لي).

في هذا الجو المشحون بالإيجابيات والروحانيات الراقية، نشأ وترعرع مؤرخنا، فقد اقتحم ميادين العلم والعمل منذ صغره، ودرس في الجامع الأموي وهو دون سن البلوغ، فراح ينهل من العلوم المتنوعة من كبار علماء دمشق، منهم: الشيخ زين الدين عمر بن سلطان، والشيخ أحمد بن يونس العيثاوي

مفتي الشافعية، وأبوبكر الحموي... وانتفع من محدثين كثر من مصر وحلب والقدس. من مؤلفاته نلمح ثقافته المتعددة الجوانب.

ومن أشهر مؤلفاته:

(الكواكب السائرة بمناقب أعيان المئة العاشرة)، (لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن العاشر)، (رسالة في رحلة النجم الغزي إلى الحج)، (إتقان ما يحسن من بيان الأخبار الدائرة على الألسن)، (تحفة الطلاب)، و(شرح قطر الندى وبل الصدى).

كما أن له مؤلفات كثيرة في فن الخط والأدب والأخلاق، منها: (حسن التنبيه لما ورد في التشبه)، و(زجر الإخوان عن إتيان السلطان)...

ورغم انشغاله بالتأليف، فقد تصدّر للإفتاء والتدريس تحت قبة النسر في الجامع الأموي لحوالي 27 عام.

كان مغرماً بالسفر والحج، فأول حجة له كانت في سنة 1001 هجري، وأخرها في سنة 1059 هجري، وقد أصيب في أواخر سنين حياته بفالج خفيف لم يمنعه من ممارسة أعماله العلمية الدينية، وتوفي بعدما رجع إلى دمشق من زيارته للمسجد الأقصى، ودفن فيها، رحمه الله وجزاه المولى خير جزاء..

يقال أنه قبل وفاته بأربع أيام، طلع إلى بساتينه. أوقاف جده. واستبرأ ذمته من فلاحيه، وطلب منهم المسامحة، ثم عاد إلى مسكنه في زقاق الوزير الآخذ إلى سوق جقمق.. وبعد صلاة المغرب جلس مستقبلاً القبلة ينتظر العشاء مردداً: لا إله إلا الله، وسمع منه: (بالذي أرسلك أرفق بي)، فدخلوا عليه ووجدوه ميتاً، رحمه الله وجعلنا وإياكم من صفوة وخيرة الخلق الذين بشر بهم رسول الله، حتى نكون خير خلف لخير سلف.

دُفن بمقبرة الشيخ أرسلان رحمهما الله، وحضر جنازته عددٌ لا حصر لهم، وراثه الكثير ممن استفاد من علمه:

يا نجم دين الله من أفق دمشق أفلا

لما لجنت العلى شيخ الشيوخ انتقلا

المصادر والمراجع:

. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر / للمرادي

. معجم المؤلفين / لعمر رضا كحالة



أحمد ابن خلكان [608هـ - 681هـ]

شمس الدين أبو العباس الإربلي الشافعي قاضي القضاة

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان

أيس من سلامتي

أنا والله هالكُ

قد أقامت قيامتي

أو أرى القامة التي

هذين البيتين كان يكرهما من الليل وقبل طلوع الفجر، وهو يدور حول البركة في بيت العادلية. فمن هو ابن خلكان صاحب الكتاب الشهير «وفيات الأعيان»؟

مولده:

ولد في إربل 608 هـ، وإربل هذه تقع في شمال العراق، أما خلكان: فقد قيل أنها قرية من أعمال إربل، وقيل: اسم لبعض أجداده، وقيل: ابن خلكان، فارسية جاءت عندما سُئل عن نسبه فقال: خل كان، يعني أسأل عن الرجل ودعك من السؤال عن آباءه وأجداده، ووالده الشهاب محمد، من البيوت العريقة والمعروفة بين الناس، هكذا قال الاسنوي في طبقات الشافعية وقد ترجم لوالده الذي توفي عام 610 هـ. قدم ابن خلكان إلى بلاد الشام في شبوبيته بعد أن تفقه ودرس على بعض علماء الموصل وهذه من العناية الإلهية التي رافقته منذ صغره، فالحضن الأسري له من الأهمية البالغة والتي تسهم في توجيهات الأبناء في الربيعان من الشباب، والله نسأله التوفيق.

نشأته العلمية:

سمع ابن خلكان «صحيح البخاري» في إربل من محمد بن هبة الله بن مكرم الصوفي، وأجاز له المؤيد الطوسي وعبد العزيز الهروي وزينب الشعرية. وتفقه بالموصل على كمال الدين ابن يونس، وأخذ بحلب عن القاضي بهاء الدين ابن شداد وغيرهما.

روى عنه:

المزي والبرزالي والطبقة، وكان ابن خلكان شديد الولع بالقراءة والعلم، كان فاضلاً بارعاً متفنناً وعالمًا بالمذهب حسن الفتاوى جيد القريحة بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس.

أما عن رحلاته:

دخل مصر وسكنها مدة وتأهل بها وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري ثم عاد إلى الشام وتولى القضاء فيها، ثم عزل سنة 669 هـ وتولى عنه القضاء القاضي عز الدين ابن الصائغ، ثم عُزل ابن الصائغ بعد سبع سنين، فقدم من مصر ودخل دمشق دخولاً لم يدخله أحد غيره، من الاحتفال والزحمة، وكان يوماً مشهوداً وجلس في منصبه وتكلم الشعراء، ومنهم قال فيه:

أنت في الشام مثل يوسف في مصر وعندي أن الكرام جناس
ولكل سبع شداً وبعد السبع عام يغاث فيه الناس
وقال سعد الدين الفارقي:

أذقت الشام سبع سنين جذباً غداة هجرته هجرًا جميلاً
فلما زرته من أرض مصرٍ مددت عليه من كفيك نيلاً

وهذا الاحتفال إن دل فقد يشير إلى خلقه الحسن وحلمه وصبره في أموره مع الناس، وكان كريماً جواداً، ثم بعد مدة عزل مرة أخرى بابن الصائغ فقد كان منصب القاضي بينه وبين ابن الصائغ دولاً يُعزل مرة ويتولى هذا، ثم يُعزل هذا ويتولى هذا...

ومن وظائفه وأعماله:

التدريس، فقد درس في مدارس كثيرة في الشام، لم يجتمع لأحد غيره في عددها، إلى أن لم يبق معه في آخر عمره سوى مدرسة الأمينية، ويبد ابنه كمال الدين موسى المدرسة النجيبية جوار النورية.

وقيل أنه عمل تاريخاً للملك الظاهر ووصل نسبه بجنكيز خان، فلما وقف عليه قال: هذا يصلح أن يكون وزيراً، اطلبوه، فطلب وبلغ الخبر صاحب بهاء الدين ابن حنا فسعى في القضية إلى أن أبطل ذلك، وناسى السلطان عليه، فبقي في القاهرة في عزلة وفاقة ولا يحنو عليه صاحب، حتى فاضه الدوادر وقال له: إلى متى تبقى على هذه الحالة؟ فجهزه إلى دمشق وإلى منصب قاضي القضاة فيها.

وابن خلكان كان له منظومات شعرية كثيرة وقد جاءت في كتابه «وفيات الأعيان» منها:

وسـربِ طباءٍ في غدِيرِ تخالـعوا بدورٌ بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول عدوكي والغرام مصاحبي أمالك عن هذي الصبابة مذهب
وفي دمك المطول خاضوا كما ترى فقلت له: ذرهم يخوضوا ويلعبوا

ومن منظومه:

روحي بك يا معذبي قد شقيت في جنب رضاك في الهوى ما لقيت
لا تعجل بالله علمها فعسى أن تدركها برحمة إن بقيت

أما عن أقوال العلماء في ابن خلكان فلنقرأ التالي:

قال الشيخ تاج الدين الغزاري في تاريخه: كان ابن خلكان قد جمع حسن الصورة، فصاحة المنطق، غزارة العلم، نزاهة النفس.

وقال الذهبي: كان إماماً، فاضلاً، عارفاً ومتقناً بالمذاهب، حسن الفتاوي، جيد القريحة، بصير بالعربية، كثير الاطلاع، كريماً، جواداً، جمع كتاباً نفيساً في «وفيات الأعيان وأبناء الزمان».

أما ابن كثير فقد قال: هو أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء، والصدور الرؤساء، فهو أول من جدد في أيامه قضاة القضاة من سائر المذاهب، فاشتغلوا بالأحكام بعد ما كانوا نواباً له.

ولكن انتقده ابن كثير وغيره من العلماء لعدم تحريجه لابن الراوندي الزنديق، فقد ترجم له في الوفيات، ولم يذكر له أي تحريج، رغم أن الراوندي عرف بالزندقة بين الناس.

وفي المقابل فقد أجمع العلماء عند ذكر محاسن ابن خلكان بصفات لا يتصفها إلا من نهي النفس عن الهوى، وابتعد عن شر منزلق النفس، فقد كان لا يجروُّ أحد على الغيبة أمامه أو الحديث عن أحد بسوء. وفي هذا السياق وردت قصة في المصادر تقول: أن رجل جاءه فحدثه في أذنه أن عدلين في مكان يشربان الخمر، فقام من مجلسه ودعا برجل، وقال: اذهب إلى مكان كذا، وأمر من فيه بإصلاح أمرهما وإزالة ما عندهما، ثم عاد فجلس في مكانه، إلى أن علم أن نقيبه قد حضر، فدعا بذلك

الرجل، وقال: أنا أبعث معك النقيب فإن كنت صادقاً ضربتهما الحد، وإن كنت كاذباً أشهرتك، وقطعت لسانك، وجهاز النقيب معه، فلم يجدوا صاحب البيت وليس عنده شيء من ذلك، فأحضر الدرّة وهدده، فشفع النقيب فيه، فقبل شفاعته، ثم أحضر مصحفاً وحلفه أن لا يعود بقذف عرض مسلم.

ومن صفاته التي اشتهر فيها إضافة إلى بغضه للغيبة وعدم السماح لأحد بذكر أخيه بسوء، صفة الكرم والجود، وها هو ابن جعوان يقول:

لما تولى قضاء الشام حاكمه قاضي القضاة أبا العباس ذو الكرم
من بعد سبع شداد قال خادمه ذا العام فيه يُغاث الناس بالنعيم

أما عن كتابه الشهير والذي كتبه بعد قراءة مئات الكتب، وتلخيص كل كتاب، ثم التأمل العميق بسير كثير من العظماء علماء أمراء شعراء... وقرأ ما يقول في مقدمة وفيات الأعيان: هذا مختصر في التاريخ، دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من ألي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر،... ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة، وغلق على خاطري بعضه فصرت إذا أصبحت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجها، لكونه غير مرتب، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثاني حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها، على غيره فقدمت إبراهيم على أحمد، لأن الباء أقرب إلى الهمزة من الحاء،... وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة،... وسميته كتاب وفيات الأعيان، وأبناء أبناء الزمان، مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتة العيان ليستدل على مضمون الكتاب بمجرد العنوان.

وفاته:

توفي في المدرسة النجيبية بإيوانها، في يوم السبت آخر النهار، 26 رجب 681 هـ. وشيعه خلق كثير، ودفن رحمه الله في مقبرة الجوعية بسفح قاسيون.

المصادر:

- العبر في خبر من / للذهبي - البداية والنهاية / لابن كثير



- طبقات الشافعية / لاسنوي

- شذرات الذهب / لابن عماد



أحمد الصياد [574هـ - 670هـ]

سلطان العارفين وصياد أفئدة السالكين إلى حضرة القرب الأمين

أحمد عز الدين بن عبد الرحيم الرفاعي

الملقب بـ (أبو الخير في اليمن وأبو علي في الشام)



بشّر به جده الإمام أحمد الرفاعي الكبير الذائع الصيت في نيل شرف تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم أمام الخلق عند الحجرة الشريفة، حملة وهو صغير وأثنى عليه فقال: ستكون له دولة وتزوره الأسود...!

كُتِبَ عند ضريح الصياد أبيات له:

قم يا نديمي فهذا الحب يسقيني
لقد سقاني فأحياناً وحيرني
لما حباني بها صهباء صافي
أنا الفتى الصياد فزت بها
لما شربت بفضل الله رائقها
وما تأخرت يوم الجمع عن أدب
سرياً أخا الصدق لا تكسل بخدمته
خل المعابد الأطراف تسكنها
خمرًا به طالب سكري قبل تكويني
وغبت ما بين تمكيني وتلويني
عددت في القوم من زهر السلاطين
من بعد سحق عظامي في الهواوين
مزجت بالشرع تمكيني وتلويني
إلا وأضحى صيد القلب يدنيني
وكن ملكاً في زي مسكين
وانهض بعزم الذي سواك من طين

إخوتي القراء:

لقد جعل الله عز وجل لكل زمان وعلى مر العصور نجومًا يُستضاء بها ليكونوا هداية للخلق، فلا يتخبطوا في دجى الظلام والجهل والتخلف... علماء وعارفون بالله يرسخون منهج النبوة الحقيقي بسلوك محمدي رائع يدل على أهم عنوان: ((إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).
وما بداية الخلق الرفيع إلا بحفظ لسان عن كل لفظ قبيح يطل خلق الله وعياله، ضالّين كانوا أو غير ذلك، فأحبنا إلى الله أنفعنا لعياله...

وقد جعل الله عز وجل لهذه المهام شخصيات فريدة نادرة تتمسك بالكتاب والسنة الشريفة بتقى وورع شديد، منهجهم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بأحوالهم الدالة على دعوتهم.

والإمام أحمد عز الدين الصياد، عراقي المولد، شامي النشأة والوفاء، كان له دور كبير في ترسيخ المبادئ الإسلامية والقيم الأخلاقية الراقية التي تميز بها إسلامنا بالحال قبل المقال...

بدايةً لأبد لنا، أيها القارئ المتأمل المتبصّر، أن نعرف معنى التصوف، والذي يعد ومرتبته الإحسان متلازمين متمثلين بالمعاني الراقية التي تهذب القلب في توجه نحو الخالق الواحد الأحد...

فما زالت البشرية تتخبط في أسس أخلاقية بعيدة كل البعد عن منهج النبوة الحقيقي، الذي يأمرنا أن نجتنب الغيبة والكذب والغش والخداع وفضول الكلام من الثثرة وسوء الألفاظ، إلى سوء الظن، وهذا الأمر خطير جداً ما لم نتداركه في البيت فالأسرة والأولاد هم عماد المجتمع وبهم يتم البناء...

أنصت أيها القارئ لما يقوله الإمام أحمد الرفاعي الكبير وهو يعرف التصوف قائلاً: (كل الآداب منحصرة في متابعة النبي قولاً وفعلاً وحالاً وخلقاً، فالصوفي آدابه تدل على مقامه، زنوا أقواله وأفعاله بميزان الشرع يعلم لديكم ميزانه...) (

وقال: (التصوف هو الجد في السلوك إلى ملك الملوك) وقال الإمام الشاذلي: (ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو الصبر على الأوامر واليقين في الهداية)

ويميز هؤلاء العارفين بالله التواضع ولين الجانب، فيأسرون الناس بسلوكهم وحالهم قبل أن يبهرهم بأقوالهم...

إخوتي القراء:

هيا معاً نقرأ في سيرة الإمام أحمد عز الدين الصياد، حفيد الشيخ أحمد الرفاعي الكبير، راجين المولى أن يلهمنا أحسن الأخلاق، ولنتعرف لماذا لُقّب بصياد الأسود؟

اسمه:

هو الإمام أحمد عز الدين بن عبد الرحيم الصياد، والده القطب والإمام السيد عبد الرحيم ابن السيد سيف الدين عثمان ابن السيد حسن ابن السيد محمد عسلة ابن السيد الحازم أبي الفوارس... وعُرفوا بالرفاعي لجدهم السابع رفاعه، ويتصل نسبهم بنسب الإمام علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

نسبه لأمه:

هو الإمام أحمد بن زينب، بنت شيخ الأمة ومظهر التجليات الربانية، سيد الأولياء: الشيخ أحمد الرفاعي الكبير، صاحب المكرمة الربانية في تقبيل يد سيد البرية.

ولادته ونشأته:

ولد في مدينة واسط بالعراق سنة 574 هجري قبل وفاة جده القطب الشيخ أحمد الرفاعي بأربع سنين، وكان يزور ابنته ويدعو لابنها، أحمد عز الدين، قائلاً:

(اللهم يا من يحسن بلا أسباب، ويرزق من يشاء بغير حساب، أسألك بكلامك القديم ونيك العظيم أن تمنح هذا الطفل عمراً وبركة وإيماناً كاملاً وتوفيقاً وعرفاناً صحيحاً وسراً طاهراً شاملاً وبيتاً عامراً ونسلاً مباركاً وفتحاً ومجداً وتجرّداً لك عن غيرك بحولك وقوتك إنك على كل شيء قدير) ويقول الصياد: كان جدي يُجلسني على ركبتيه ويقول: سيكون له شأن كبير وشهرة، تزوره الأسود التي في هذه البقعة.

ولنتأمل دعاء جدّه له، فكم يحتاج أبناءنا أن ندعو لهم بمثابرة ونجعل ذلك من أولويات تربيتنا التي باتت تفتقر إلى الروحانيات... ففي ذلك اتصال مستمر مع الله تعالى صاحب الربوبية والألوهية المطلقة.

شيوخه:

أخوه لأبيه: أبي الحسن عبد المحسن، تلقى الفقه على المذهب الشافعي والتفسير والحديث من الشيخ عبد المنعم الواسطي، وأخذ الطريقة من الشيخ المرشد عبد المحسن الذي تلقى من سلطان أهل الحال والسماع، شمس العراق، أحمد الرفاعي.

تلاميذه:

الشيخ ابن نميلة الحسيني حاكم المدينة، والإمام عبد الكريم محمد الرفاعي القزويني، والشيخ علم الدين علي بن محمد السخاوي، والعلامة تاج الدين الابيدري، والشيخ أبو بكر العدني، وولده صدر الدين علي، وغيرهم الكثير...

زواجه:



تزوج من زوجتين، الأولى: السيدة هاجر آل الملك، تزوجها أثناء رحلته إلى مصر وأنجبت له ولداً واحداً اسمه السيد علي، الملقب بأبي الشباك.

والثانية: السيدة خضرا أم الخير، تزوجها في مكّتين، وُزق منها بأربعة ذكور.

رحلته العلمية:

خرج في ال 48 من عمره إلى الحجاز ليزور جده، ثم جاور الرسول صلى الله عليه وسلم وذاع صيته في المدينة، فهاجر إلى اليمن ومكث 7 سنين، وعندما ذاع صيته هاجر إلى مصر في عام 638هـ فقام في مسجد الحسين، وفيها تزوج، وله ولد لقب بأبي الشباك، ثم هاجر إلى الشام وأقام في حمص ثلاث سنين، ثم هاجر إلى مكّتين. وهي قرية من أعمال معرة النعمان-قرية من حماة، سنة 643 هجري، بنى فيها رباط كبير وتلمذ على يده الآلاف من الخلق بقي فيها إلى أن توفي ودفن في رباطه المشهور.

فالتأمل لسيرته يلحظ كثرة سفره لكرهته من أي شهرة أو صيت يذاع له، فعاش متنقلاً مهاجراً إلى الله ورسوله، إلى أن جاءه الإلهام الرباني بالاستقرار في الشام، جنة الله في الأرض التي يجتبي إليها صفوته من خلقه...

ألّف كتاب (الوظائف الأحمدية)، والذي يعد من أهم الكتب على الطريقة الرفاعية، له عدة أورايد أهمها (ورد الجوهرة)، وهو مجرّب للفتوح وقضاء الحاجات، وله شعر لطيف يُسفر عن روعة نفسه وروحه، فدخلنا في نسمة إيمانية رائعة.

صفاته:

فلنتأمل بم وصفه العلماء من أخلاق؟

(كثير الحياء والخشوع، كثير البكاء قليل الكلام، كثير الذكر لين الخلق كريم النفس، حسن المعاشرة كثير الحلم دائم الأطراق، دائم الدعاء، عالماً جليلاً هيناً ليناً، محدثاً فقيهاً، قارئ مجود، حافظ مجيد، ولياً صالحاً، صادقاً كريماً، حسن المجاورة لجميع الأصناف من الخلق...).

كراماته:



وقعت في زرع أهالي مكتين نار عظيمة في يوم كثير الهواء شديد الرياح، فلجأ إليه الناس، فخرج من زاويته واتجه نحو النار وقال: لا إله إلا الله... فما أتم كلامه إلا والنار قد خمدت.

استسقى الناس بعد قحط شديد ببركته فلم تمسك السماء عن الهطول، وكاد أن يتلف الزرع فنزل عن دابته ومشى بين الزرع ممثلاً بقول الشاعر:

رجال إذا الدنيا دجت أشرقت بهم وإن أمحلت يوماً بهم ينزل المطر

يا شامتاً بالموت لا تشمتن بهم حياتهم فخرا ومماتهم زخرا...

فما خرج إلا والسماء قد أمسكت عن الهطول.

قال الشيخ شرف الدين أبوبكر عبد المحسن: كنا كلما مررنا على نهر استقبله السمك من النهر إلى الشاطئ، وازدحم على قدميه، وكذلك الدواب والهوماء والغزلان في البر، حتى أن الحيوانات نراها تقف له على حافتي الطريق كالرجال، تزدحم إلى قدميه.

أما عن سبب لقبه بالصيد، فتلك حكاية أخرى:

تخبرنا المصادر أن أحد الملوك التتار في العراق جاء لزيارته، وكان منقطعاً في رواق له، وكثر قصّاده وزوّاره، فقال المغولي: يا سيدي، أردنا أن نجعل لرواقك المبارك هذا أقواتاً وأوقافاً كثيرة تستعين بها على مصالح الفقراء لكثرة الواردين إليك، وأنت ليس لك صنعة ولا كسب...

فظهر الجلال على وجه أحمد عز الدين وقبض بيديه في الهواء وألقى أسدين مربوطين بجبل من ليف النخل، وقال له: ((صنعتي هذه وعزة ربي لقد صدتهما من فلاة بربع الخراب))، فهابه الملك وقال: أنعم بك من صيادا! فاشتهر بهذا اللقب...

وهناك من يقول إنه لقب بالصيد لأن كل من حضر مجلسه انجذب قلبه إليه ولازمه، لذا لقب (بصياد القلوب).

ومنهم من لقبه (بصياد المناقب والمفاخر)

وفاته:



توفي سنة 670 هجري وُدُفن في زاويته، رحمه الله، كان كثير التنقل والسفر... وله تلاميذ ومريدون في كل مكان قد انتفعوا منه وبنفعا غيرهم.

اللهم لا تحرمنا الفهم والعمل بما يرضي الله ورسوله، ويرحم الله القائل:

إنما المرء حديث بعده **فكن حديثاً حسناً لمن وعى**

فاقرأ واطلع أيها القارئ في سير هؤلاء العلماء الصالحين المصلحين، الذين حفظ الله تعالى بهم الدين، وسيحفظه إلى يوم الحساب.

المصادر والمراجع:

الأعلام / للزركلي

تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر / محمد مطيع الحافظ

الفيوضات المحمدية على الطريقة الرفاعية / لفواز الحسيني



أحمد بن قاضي شهبة [797هـ - 851هـ]

تقي الدين الأسدي الدمشقي

أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب

إخوتي القراء:

إن من أسرار سياحتنا هذه السماح لأرواحنا، بإشراف عقولنا، أن تتلمّس كل نسمة إيمانية روحانية منبعثة من خلال الوقوف معاً عند أي معلم أو عين، لنستفيد ونتزوّد، فالروح تنشط بذكر الصالحين، والعقل يزداد بهم معرفة وعلماً، أن كيف يجيا ويعمّر هذه الأرض؟

و شيخ الشافعية ابن قاضي شهبة جزاه الله عنا خير جزاء، هو من سكان دمشق الذين تعشقوا الإرث المحمدي وعملوا على ترسيخه، فتركوا من بعدهم عظات وعبر، وسطروا إلهاماً في سيرهم، عدا عن العلم والدين القوي المتين...

عندما قرأت سيرة قاضي تقي الدين، وجدت أن لقبه (ابن قاضي شهبة) ليس له وحده، إنما حملت عائلته من الجد والأب والولد والعم نفس اللقب، لتتوصل إلى أهمية التربية المنزلية، حيث لا تتحلى آثارها إلا بعد وقت وحين من الزمن... فعندما نقرأ الكتب التربوية الإسلامية نجدتها تتحدث عن أهمية الأسرة في بناء مجتمع صالح قوي معافي ومتماسك، ومن الأسرة تبدأ عملية الشذب والجذب... شذب وتقليم أي خلق مذموم، وجذب كل ما هو محمود للفرد ولغيره...

وابن قاضي شهبة قد منّ الله عليه أن نشأ وترعرع في بيت علم ودين، جدّه قاضٍ ووالده قاضٍ ومن ثم ولده كذلك، تميزت سيرتهم بألق رائع ساحر، فهل تشوقنا لمعرفة كيف كان ذلك؟

من المعروف أن ابن قاضي شهبة هو صاحب كتاب الطبقات الشافعية، لكن عندما تقرأ في المصادر والكتب تجد الكثيرين ممن عُرفوا بابن قاضي شهبة، فمن هو صاحب الكتاب الشهير هذا الذي بسببه دُلّ على مكانة أسرته العلمية الدينية المميزة؟

اسمه:

أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ذؤيب، تقي الدين، المعروف بابن قاضي شهبة، الدمشقي، الشافعي، فقيه الشام ومؤرخها وعالمها، اشتهر بابن قاضي شهبة بضم الشين لأن أبا جده نجم الدين عمر الأسدي أقام قاضياً بشهبة السوداء، وهي قرية من قرى حوران، أربعين سنة.. فُتسب أبو بكر إلى جده هذا.

. جده: محمد بن عمر بن عبد الوهاب، شمس الدين، أبو عبدالله الأسدي الدمشقي المعروف بابن قاضي شهبة، 691 . 782 هجري. المعروف بابن قاضي شهبة.

. وعمه: يوسف بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب، أبو المحاسن، 720 . 781 هجري. والمعروف أيضاً بابن قاضي شهبة.

. والده: أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الوهاب، شهاب الدين، أبو العباس، الأسدي المعروف بابن قاضي شهبة، 737 . 790 هجري. كان شيخ الشافعية، وألف كتاب الفرائض.

. ولداه أيضاً ممن اشتهروا بابن قاضي شهبة، وهما: محمد بن أبي بكر أحمد، بدرالدين، تولى منصب القضاة وأخذ عن والده وله مؤلفات، توفي 874 هجري، حمزة بن أبي بكر أحمد، سري الدين، والمعروف بابن قاضي شهبة، أخذ عن والده ودرس له مؤلفات، توفي 860 هجري.

هؤلاء ممن اشتهروا باسم ابن قاضي شهبة في مدينة اشتهرت منذ القدم أنها مباركة أرضها، يجتبي إليها المولى خيرة عباده، والإنسان الحَيْرَ المستخلف عن الله هو الذي يقيم في كيانه الإنساني شرع الله المنشود قبل أن تصدّقه أعماله على الأرض، وإن هذه الأسرة الجليلة نموذجٌ لأسرة تطمح بمباهاة سيد الخلق يوم العرض أمام رب العزة والجلال...

مولده:

وُلد بدمشق سنة 779 هجري، في بيت كريم كثير العلم، تفقّه بوالده الذي كان يُحضره مجالس العلم منذ صغره، وقرأ عليه صحيح البخاري في حداثة سنه... توفي والده وهو في الحادية عشر من عمره ليتابع على ما نشأ عليه، فأخذ عن عمه يوسف العلم والدين المتين. أهمية الأسرة في النشأة، وتلقى العلم أيضاً من أكابر أهل العلم، وهم كثر نذكر منهم:

السراج البلقيني 805 هجري، الملكاوي 803 هجري، والشهاب بن حجي 813 هجري، وآخرون كثر يصعب حصر عددهم.

صفاته:

برع في العلوم وكان شديد الذكاء عالي المهمة رحب الصدر متحلياً بأحلى الأخلاق، وقوراً مُهاباً بين الناس، وكان مولعاً بالنسخ مُجيداً للخط، حياته موزعة بين التدريس والتأليف والقضاء والنسخ، وسمع منه كبار العلماء في دمشق والقدس، فطار صيته في الآفاق، وعدد تلاميذه لا يحصى، كما قد اشتهر بالفصاحة والشهامة والتقوى وحسن السيرة.

مناصبه:

. مريباً مسؤولاً في بيته، وولداه خير من يُستدلّ بهما على حسن سيرتهم.
 . مدرساً، حيث درّس في عدد كبير من المدارس: الظاهرية والشامية البرانية والجوانية، والناصرية، الركنية وغيرها من المدارس في دمشق فكان عدد تلاميذه كبير جداً.
 . قاضياً تولى منصب نيابة القضاء بدمشق عام 820 هجري، ثم ارتقى إلى رئاسة القضاء مستقلاً به عام 837 هجري، وكان موضع ثقة بالغة.
 . مؤلفاً، فما لبث أن اعتزل القضاء وانقطع إلى العلم والتأليف... لم يؤلف كتاباً خاصاً بالشافعية، وإنما شرح أمهات كتب المذهب الشافعي: منهاج الطالبين للنووي والتنبيه للشيرازي.

مؤلفاته:

بلغ عددها 25 أهمها: في الفقه والتاريخ والتفسير والطبقات: طبقات الشافعية وطبقات اللغويين والنحاة وطبقات الحنفية، الذيل على تاريخ ابن كثير، المنتقى في الأنساب لابن السمعاني و المنتقى من نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، والمنتقى من تاريخ ابن عساكر، وغير ذلك من المؤلفات الهامة.
 استمر في طلب العلم ولقاء علماء عصره حتى طارت شهرته في بلاد الشام، وأصبح إماماً علاماً في الفقه والتاريخ وغيرهما، وتصدّى للإفتاء والتدريس، وحدث في بلده دمشق وبيت المقدس، وسمع منه الفضلاء من أهل العلم، فانتفع به خلق وعباد كثر، وجاء إليه طلاب العلم من كل حدب وصوب،



وشهد له علماء عصره في البلاد، فانطبق عليه حديث المصطفى: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية).

وفاته:

أطال في شرح وفاته السخاوي لعظة تحتاج منا التأمل، يروي عن ولده بدر الدين، حيث قال: (كان والدي يُدرّس فذكر الخلاف في موت الفجأة، ثم قال: وأنا أختاره لمن هو على بصيرة لأن أقل ما فيه أمن الفتنة عند الموت، ثم ركب على بغلته عائداً للبيت فقال لولده: والله يا بني ما بقي فينا شيء)... ثم توجه للناصرية فدرّس بها وجوه الكلام في فضل الموت من يوم الجمعة وليلتها، ثم سأل الله الوفاة في ذلك فأجابته الله.. لما كان في اليوم التالي بعد عصر الخميس ليلة الجمعة جالساً يُحدّث ولده والقلم بيده وهو يكتب، وضعه في الدواة واستند إلى المخدة والتوى رأسه فقام ولده يلتمسه فوجده قد مات، وقال: (و الله ما أعلم أنه حصل له ألم الموت).

وهكذا فقد توفي يوم الخميس بعد العصر، 851 هجري، وطار الخبر في العالم فحضر جنازته أعيان وعلماء وقضاة وصلحاء البلد وعمامة الناس، لا يحصى عددهم، ودُفن في مقبرة الباب الصغير مع والده وجده وعمه ثم ولديه من بعده، بالقرب من تربة سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنهم ورحمهم جميعاً، وجزاهم عنا خير جزاء...

انتهت رحلتنا هذه التي سافرنا بها بين الحروف والسطور في زمن ما من الماضي لنتزود من المعرفة التاريخية لعقولنا ولأرواحنا نسماة إيمانية تنبعث من سير الصالحين ففي قراءة سيرهم فائدة تقوي وتشحن الهمم للأفضل وأثناء ذلك تستيقظ الفطرة السليمة التي فطرنا الله عليها لتنبعث من جديد مطلقة نداء خفي لذاك الإنسان المستخلف عن الله ولكنه تاه في ظلمة النفس والهوى ووساوس الشيطان، فيا رب إنا نعوذ بك من ضعف الصبر على الطاعة والاستقامة، ونعوذ بك من فراغ النفس وضياع الأمل في الفوز برضاك.

المصادر والمراجع:

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع/ للسخاوي

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد





الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي

الأعلام / للزركلي

معجم البلدان / للحموي

معجم المؤلفين / لعمر كحالة



أحمد بن قدامة المقدسي [491هـ - 558هـ]

والد الشيخ أبي عمرو والشيخ موفق مؤسس حي الصالحية بدمشق

(هذه قصة لاجئين من فلسطين، ملؤوا الشام علماً، نشأ منهم أفذاذ، ما أظن أن أسرة في الشرق والغرب أخرجت أكثر منهم: ابن قدامة الكبير، أبو عمر، والموفق، والضياء، والحافظ عبد الغني، وهم في الفقه والحديث كأسرة قتيبة والمهلب في القيادة، وجرير في الشعر، وقد دخل عبد الغني صاحب العمدة مصر، ونشر المذهب الحنبلي فيها.. والمختارة للضياء التي تعد من أصح الكتب المؤلفة في زوائد الصحيحين، وكتاب المغني للموفق أعظم كتاب في فقه الحنابلة، وكان من نسائهم نابغات لا يدركهن العد، مضوا ولكنهم خلفوا آثاراً لا تفتى، ومن آثارهم حي الصالحية.

وبعد، فهل يليق بأهل دمشق وهي دار الوفاء، وبأهل الصالحية خاصة، أن ينسوا هؤلاء العباقرة الأعلام، فلا يذكرهم ذاكراً، ولا يعرف سيرتهم أحد، ولم يسم بأسمائهم مدرسة في الصالحية ولا شارع).

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله من كتابه / دمشق، صور من جمالها

فمن هؤلاء العباقرة الأعلام؟ والذين سُمي حي الصالحية في دمشق نسبة لصلاحهم، و يذكرنا بهم شيخنا الجليل علي الطنطاوي جزاه الله عنا خيراً..؟

إخوتي القراء:

تروي المصادر أن من هؤلاء الصالحين من قد اشتهروا أحياناً باسم المقداسة، ونحن هنا نبدأ بترجمة رأس مقدمهم الشيخ الكبير أحمد بن قدامة، فهو أول من قام بوضع حجر الأساس في بناء حي الصالحية، فمن هو هذا الشيخ الكبير أحمد بن قدامة؟

عصره وأسباب هجرته:

في أواخر القرن الخامس الهجري وبداية السادس، كان العالم الإسلامي يعاني من هجمات الفرنج المستمرة عليه، مستغلة ضعف الخلافة العباسية في أواخر مراحلها، والمستغلة انقسامهم إلى دويلات وإمارات عديدة، وفي دمشق كان نور الدين زنكي 549 هـ، يحاول توحيد المدن لمجابهة الفرنج على

الحدود، وانتهت تلك الفترة بسقوط بيت المقدس بيد الصليبيين واحتلال مدن فلسطين الداخلية، طبرية - بيسان - نابلس - جماعيل وغيرها.

حكم الصليبيون المدن وفق النظام الإقطاعي، الذي اعتادوا عليه في أوروبا، فرضوا سيطرتهم على الأراضي الزراعية وجعلوا تحت إمرتهم نواب عنهم يقومون على سرقة خيرات البلاد بالظلم، وفرض الضرائب المتنوعة، حتى أصبح الفلاح يعمل أجيراً في أرضه.

هذه الأوضاع السيئة دفعت الكثير من الفلاحين في فلسطين إلى ترك أراضيهم وممتلكاتهم والقيام بهجرة إلى دمشق.

وقد شهدت دمشق وغوطتها هجرات فردية وجماعية، هذه الهجرات انضوت في بوتقة المجتمع الدمشقي والمناطق المحيطة، فمثلت مدينة دمشق ظاهرة هذا التجانس والتلاحم بين أفرادها.

ومدينة دمشق ونابلس كانتا مرتبطين برابطة اجتماعية اقتصادية وعلمية وطيدة.

من أعلام تلك المرحلة التي سبقت هجرة آل قدامة الإمام نصر الدين المقدسي ثم الدمشقي الفقيه الشافعي الرحالة الذي تقدمت ترجمته.

حيث كان يعيش في دمشق على غلة له في نابلس، فالترايط وطيد بين البلدين منذ القدم، أما الهجرات التي تمت فيما بعد وأقصد - آل قدامة وبعض المقدسة - كان من أسبابها:

الغزو الصليبي ومضايقاتهم وتهديداتهم المستمرة لهم، وترك الفلاحين لأراضيهم طلباً للعلم الشرعي عند الشيخ أحمد بن قدامة، حيث كان يحرضهم ضد الغزو الفرنجي، و بعد وشاية أحد المتآمرين لدى الفرنج من ازدياد نفوذ وتأثير الشيخ لدى الفلاحين.

أمر الصليبيون بقتل الشيخ أحمد، مما دفع الشيخ إلى الهجرة لمدينة دمشق، شجعه وجود نور الدين زنكي في دمشق ومحاولاته في توحيد المدن للاستقرار والأمن السياسي لمواجهة خطر الفرنج، والسبب الآخر لاختياره دمشق للهجرة إليها، وجود آل الحنبلي فيها. ، هاجر الشيخ متخفياً ومعه ثلاثة من أسرته: ابن أخيه محمد بن أبي بكر، وزوج أخته عبد الواحد بن علي بن سرور - والد المحافظ عبد الغني المقدسي، والثالث ابن أخته عبد الواحد بن أحمد - والد الضياء.

نزلوا جميعاً إلى دمشق عند آل الحنبلي في باب شرقي، في مسجد أبي صالح حيث يقيم آل الحنبلي في أوقاف لهم بجوار المسجد.

عاد الجميع إلى جماعيل وبقي الشيخ أحمد وقد أرسل لأهله رسالة يأمرهم بالخروج والهجرة إلى دمشق مشبهاً هذه الهجرة بهجرة ابراهيم عليه السلام، بقوله: (... فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وعندما هموا بالخروج لاقوا المصاعب ومنعهم اهل القرية وأعلموا الفرنج بهم، الذين نصبوا كميناً لهم. ما لبثت أن تمت هجرتهم بلطف من الله عز وجل وحفظه، حيث مكثوا ثمانية أيام في الطريق، يمشون ليلاً ويقومون نهاراً، وكان عددهم في الفوج الأول خمسة وثلاثين فرداً من آل قدامة.

وقام أحد الأفراد عند دخوله سور دمشق مسرعاً نحو الشيخ يبشره بوصول أهله، وتصف الروايات كيف أن أحد أفراد أهل دمشق أرسل لهم نجياً ليركبوا عليه، هذه إشارة لموقف أهل دمشق من المقدسة، حيث استقبلوهم بالترحيب.

ثم ما لبثت أن بدأت أفواج من المقدسة تصل مدينة دمشق حاضرة العلم والثقافة في كل زمان.

السيرة الذاتية للشيخ أحمد بن قدامة:

شكل آل قدامة الجماعليون النواة التي أسست صاحية دمشق، لتغدو حاضرة العلم والثقافة لعدة قرون، عرفنا لماذا هاجروا، ولماذا اختاروا مدينة دمشق، والآن نتعرف على من هؤلاء آل قدامة.

آل قدامة أسرة من قرية جماعيل (بالفتح، وتشديد الميم، وألف، وعين مهملة مكسورة، وياء ساكنة، ولام): وهي قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين، وهي قريبة من بيت المقدس، بينهما مسيرة يوم واحد. - ياقوت الحموي / معجم البلدان -.

ولد الشيخ أحمد في عام 491هـ / 1068م.

كان جده قدامة يتردد إلى القدس لينهل العلم، وكذلك ابنه محمد وحفيده أحمد أبو العباس مؤسس الصاحية، وينتهي نسب جدهم قدامة بن مقدم إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

إذاً عرفت الأسرة بالأسرة العلمية جد عن أب وأحفاد، فالشيخ أحمد بن قدامة هو والد الإمام أبو عمر مؤسس المدرسة العمرية في الصالحية، ووالد الشيخ موفق بن قدامة صاحب كتاب المغني المشهور. وابنته الصالحة رقية زوجة الإمام عبد الواحد بن أحمد الذي لازم خاله الشيخ أحمد وتعلم منه الكثير - وهذه المرأة الصالحة ذات هيبة ومكانة بين قومها هي والدة الشيخ الضياء المقدسي - مؤسس المدرسة الضيائية للحديث الشريف.

عودة للشيخ أحمد بن قدامة، تقول المصادر أن الشيخ سمع صحيح مسلم من الإمام المحدث الشهير نزيل مكة رزين العبدي الذي توفي عام 535 هـ في مكة.

وحدث عن الشيخ أحمد ابنه أبو عمر والموفق في دمشق عندما نزلوا في جامع أبي صالح في باب شرقي وأبو صالح الحنبلي هو مفلح بن عبد الله أبو صالح المتعبد، حيث كان من كبار الصوفية في القرن الرابع الهجري وإليه ينسب المسجد المشهور بظاهر باب شرقي.

نزل آل قدامة في هذا المسجد ومكثوا فيه قرابة ثلاث سنوات (551 - 554 هـ) قبل انتقالهم إلى سفح قاسيون.

أما عن أسباب انتقالهم إلى الجبل فهي:

عرفنا أن سبب نزولهم في هذا المسجد بالقرب من آل الحنبلي الموجودين منذ زمن فيه، لاعتناقهم المذهب الحنبلي، وسوف تظهر معالم النبوغ العلمي لدى الشيخ أحمد، إذ أخذ الناس يأتون للشيخ أحمد يسألونه ويستفتونه، مما أثار حفيظة آل الحنبلي فطلبوا منهم أن يكتبوا لهم ورقة تشير بأن ليس لهم مطمع في أوقافهم، كتب لهم الشيخ، وعندما عادوا لمضايقتهم ووصل الأمر لنور الدين زنكي - عن طريق أبي عصرون، أخذ الأوقاف من آل الحنبلي وجعلها تحت إمرة الشيخ أحمد بن قدامة.

بعد مدة تألم وحزن الشيخ أحمد لذلك وقال جملة الشهيرة: هل هاجرت لأنفس الناس على دنياهم ما بقيت لأسكن ههنا. مردداً حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

أما السبب الثاني: الوباء والموت. تذكر المصادر أنه مات منهم ثمانية وعشرون نفساً، دُفن منهم ستة في مقابر مسجد أبي صالح، والباقي في سفح قاسيون، وقد أصيبوا بوباء بسبب تلوث البيئة، ويقول ابن طولون قد تكون إقامتهم في منطقة سهلية غير ملائمة لهم لتعودهم على الجبل، فقد أتوا من قرى جبلية.

تعرف الشيخ أحمد على سفح قاسيون وارتاح للمكان على الرغم أنه كان مقفراً موحشاً، حيث قال: ما هذا إلا موضع مبارك ثم شرع في بناء الدير، ويقول ابن طولون نقلاً عن الإمام أبي عمر: بنينا الدير في سنتين، أول سنة بنينا ثلاثة أبيات والسنة الثانية أتمناه يعني تمام عشرة أبيات وانتقلنا إليه.

وفي الروايات الأولى لانتقال المقداسة يظهر لنا، أن هناك موضعان لهم:

المسجد العتيق والدير وعرف فيما بعد بدير الحنابلة، لا يقصد بالدير هنا بدير الرهبان، وإنما الدير من الدور وهي امكنة للسكن، وفي بعض البلدان يسمونها (الديرة).

وهكذا وضعت النواة الأولى لانطلاقة الحياة في الجبل، والذي سيمسى بالصالحية مدينة المقداسة أو آل قدامة، لتتوالى الأبنية من بيوت ومراكز حضارية، ولقد جاء عن الضياء المقدسي في وصف حياتهم في هذا الدير على صعيد تناول الطعام إذ يقول: يجتمع أهل الدير في بيت الشيخ أبي عمر وتطبخ زوجته الطعام ويأكل الرجال جميعاً والنساء، وعندما يأتي شيء لهم يفرق على الجميع.

وهكذا ببركة هذا الشيخ الجليل أحمد بن قدامة أصبح لجبل قاسيون فيما بعد من الأهمية بمكان، حيث تؤكد المصادر أن اختياره للجبل لم يكن لقداسة فيه أو أي أهمية دينية، فقط لموقعه الجغرافي، وكان يمر منه فرع من نهر بردى نهر يزيد، وتؤكد المصادر أن هذا الجبل عُرف فيما بعد بالصالحية - أي بعد سكن آل قدامة والمقداسة ومن الآثار الموجودة في هذا الجبل قبل مقدمهم هي على التوالي:

مغارة الدم، محاريب الأربعين وخلواتهم في رأس الجبل، مسجد الكهف والغار الذي فيه وقبور الشهداء فيه، مغارة الجوع، وهذه الآثار تعد من التراث الشعبي لعدم توثيقها.

أما إذا تساءلنا عن سبب تسمية الجبل بسفح قاسيون، فنقول كما عرفه ياقوت الحموي 626 هـ

بقوله:

قاسيون الذي يمثل الحد الشمالي لمدينة دمشق فيقول: قاسيون: بالفتح وسين مهملة والياء تحتها نقطتان مضمومة وآخره نون وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق، وفيه عدة مغاور وفيها آثار للأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، وهو جبل مقدس يروى فيه آثار، وللصالحين فيه آثار....

وقال ابن طولون نقلاً عن ابن الجوزي: قاسيون جبل شمالي دمشق ترتاح النفس إلى المقام به، ومن سكنه لا يطيب له سكن غيره غالباً، واختلفوا لأي معنى سمي بذلك فقيل لأنه قسا على الكفار، فلم يقدروا أن يأخذوا منه الأصنام، وقيل لأنه قسا فلم تنبت فيه الأشجار على رأسه غالباً.

والغالب أن جبل قاسيون عبارة عن: (قاسي + ون) وهو جبل قاسٍ ليس فيه نبع أو عين ماء.

نستنتج بعد هذه الملاحظة أن هذه السفوح شهدت وصول الإنسان إليها، ولكن ليس للسكن الدائم، وإنما أماكن للتعبد، ومنها بعض الأديرة القديمة التي كانت مكاناً لاعتكاف الرهبان، ويؤكد الضياء المقدسي حفيد الشيخ أحمد بن قدامة عن وجود أديرة للمساكين والمقعدين ومنها الدير الشرقي وكان الشيخ أبو عمر ولد الشيخ أحمد يزورهم للتفقد.

ودير البياتمة: فيه المساكين، والذي كان يتفقدهم خاله الشيخ أبو عمر. وربما يكون الدير الذي بناه الشيخ أحمد بن قدامة، سبب تسميته بالدير لوجوده بالقرب من هذه الأديرة القديمة، وتؤكد المصادر أن هذا الدير هو موقع الجامع الذي سيعرف بجامع الحنابلة.

وتؤكد المصادر أن النواة الأولى لضاحية الصالحية، هم المهاجرون الذين قدموا من قرية جماعيل من أعمال نابلس، ولذلك سميت بالصالحية نسبة إليهم، وعرفوا بالمقادسة نسبةً لبيت المقدس وذلك للمقارنة، فنابلس وأعمالها تتبع بيت المقدس.

نعود للشيخ أحمد بن قدامة - رحمه الله - الذي قام هو وأبناؤه ببناء الدير أو المدرسة بأيديهم فهم لا يملكون مالاً ليستأجروا عمالاً، فكان البناء بسيط جداً، فلا خيرة لديهم في البناء، هدفهم إعمار تلك المنطقة وإحيائها، فالشيخ - رحمه الله - يستظل بقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً). وهكذا تربي أبناؤه وأحفاده، بقوله تعالى: (... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى...) فقد عُرف عنهم بالصلاح والعفاف والورع، أخذ نفر من الناس لمساعدتهم عندما تلمسوا منهم النفحات الإيمانية الصادقة، وذلك بفضل عزيمة وإرادة الشيخ أحمد الصادقة التي رافقته منذ تركه للديار

والممتلكات، ومن خلال سيرته المباركة، نجد لسان حالنا يردد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له). لقد أكرم الله عز وجل هذا الشيخ الجليل، بجمعه الأعمال الثلاث التي تجزيه خيراً بعد رحيله رحمه الله.

نرجو من الله عز وجل أن يرزقنا أحد هذه الأعمال الثلاث: ولد صالح أو علم ينتفع به أو صدقة جارية. ونحمد الله عز وجل على يسره معنا ولطفه، إذ جعل حريقاً (أو) وليس (و). اللهم اجعلنا خير خلف لخير سلف اللهم آمين.

رحمك الله يا شيخ أحمد بن قدامة، تركت من أجل الله عز وجل، عوضك الله خيراً وخيراً.

ورحمك الله يا شيخ علي الطنطاوي وجزاك الله خيراً، بقولك البليغ: فكيف نسيهم أهل دمشق؟!!

وفاته:

توفي الشيخ أحمد بن قدامة في عام 558 هـ، ودفن في سفح قاسيون، بجنازة مهيبة خرج فيها أهل دمشق لوداعه والدعاء له، وليشهدوا الله عز وجل، أنه قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، في خلافته على الأرض.

وترك خلفه أبناء علماء أفذاذ في العلم والدين، لا بل وأحفاد يحملون في قلوبهم أسرار المحبة الإلهية والمحمدية، بالعلم والتطبيق، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه، والسير نحو الحق بجناحي كتاب الله والسنة الشريفة.

وبدأت مسيرة الأولاد والأحفاد وغيرهم، تترجم لنا وتسطر من بعده أجمل وأجمل سير، فكانوا خير خلف لخير سلف صالح رضي الله عنهم وجزاهم خيراً.

وهكذا بدأت الصالحة تشهد حياة ملؤها العلم، وأخذت أحاديث السمر فيها طابعاً علمياً، واصطبغت الأسر في الصالحة بالعلم، ظهر ذلك عند المرأة والطفل، وبمناهج تعليمية تعد من أرقى المناهج والتي تعادل مناهج ونظام جامعات في وقتنا الحالي.



وإذا ما حاولنا للبحث عن ترجمة لأبناء وأحفاد الشيخ أحمد بن قدامة، سنجد جواباً لسؤال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله التعجبي فكيف نسيهم أهل دمشق؟ ونحن هنا على هذه الصفحات التي نرجو فيها من الله عز وجل أن يقبل منا عملنا هذا وينفعنا بما علمنا، أن يكون من المقبولين، و نتم ترجمه أفراد هذه العائلة الكريمة، وعلى رأسهم الإمام أبي عمر صاحب المدرسة العمرية رحمه الله وجزاه خيراً.

ولندعو الله عز وجل أن يجعلنا خير خلف لخير سلف اللهم آمين.

الفاتحة لأرواحهم الطاهرة.



المصادر:

. سير الأعلام / للذهبي

. شذرات الذهب / لابن العماد



وعندما طلب أبو الدحداح من زوجته الخروج من البستان مخبراً إياها عن بيعه لله مقابل جنة وارفة الظلال في الآخرة، هتفت زوجته: (ريح البيع أبو الدحداح، ربح البيع).

قصة تتداولها كتب التاريخ لكن الصحابي هذا، ليس هو المحدث، شيخ الشام، أبو الدحداح نفسه، بل إن الناس يخلطون بينهما...!

فمن شيخ الشام هذا الذي لقب بأبي الدحداح؟

لننصت و نستمع، تقول المصادر: في بدايات القرن الرابع للهجرة، عندما كانت دمشق قبلة العلم والعلماء، كان هناك شيخ لُقّب بمحدث الشام، ولُقّب بأبي الدحداح.. حيث أنه سكن خارج الأسوار القديمة باتجاه الطرف الشمالي لسور دمشق في مرج أخضر كثيف الشجر، مجاور لمقبرة الفراديس.

كان هذا الشيخ الجليل يدل الناس على مبادئ وقيم الإسلام بأخلاقه التي ميزته ودلت عليه، ليُعرف ذلك المرج مع الزمن بمرج أبي الدحداح، تيمناً بالصحابي أبي الدحداح صاحب بستان النخيل... وربما أيضاً لأخلاقه وطيب سيرته التي فاحت نسائمها في مرج من الأشجار الرائعة المنظر والرائحة، وما الحضارة الإسلامية العظيمة التي تتغنى بها كتب التاريخ إلا حضارة ورقية الإنسان الخيّر، السليم القلب، المعافي من كل غل وحقد وحسد.

وتعالوا نمضي معاً نحو الطرف الشمالي لدمشق القديمة، بين العقبية والعمارة البرانية، والتي كانت جزء من مرج أخضر اللون (أبي الدحداح)، نسبة إلى هذا العالم الذي كان يسكن في ذلك المرج المجاور لأقدم مقبرة في دمشق، والتي هي (مقبرة الفراديس)...

وبعد وفاة هذا العالم المرسّخ لعنوان الرسالة المحمدية فوق تراب هذه المدينة المقدسة، دُفن مكان سكنه... ومع الأيام والسنين والعصور، اندمج مرج أبي الدحداح مع مقبرة الفراديس وصار جزء منها، وأصبحت المقبرة تُعرف باسم مقبرة (الدحداح)... والتي غلب عليها هذا الاسم، فنسي الناس (الفراديس)! وتغيرت حدود المقبرة مع الأيام وتوسعت وازدادت مساحتها وأصبحت تضم أضرحة شهداء وعلماء كبار وقادة وأمراء، وهي الثانية في المساحة بعد مقبرة (الباب الصغير).

هذه دمشق وهؤلاء هم علماءها المتمثلين منهج النبوة المحمدي، والذين فقهوا هذا المنهج بطيب الخلق... أدناه إمطة الأذى من الطريق، وحفظ اللسان من القول الفاحش والغيبة والنميمة، فالأرض



المباركة لا ينمو فوقها إلا الطاهر من لسان ونفس وقلب، وقد قال النبي الكريم: الشام تنفي خبثها...
وشيخنا الذي يكتى بأبي الدحداح يعدّ من كبار علماء دمشق في ذلك الزمان...

الشيخ، المحدث، الفقيه، العالم، الورع، أبو الدحداح التميمي رحمه الله:

اسمه:

أحمد بن محمد بن إسماعيل الشيخ المسند التميمي الدمشقي، الذي ينسب إليه مرج الدحداح بدمشق،
وهي أحد أقدم مقابرها.

ما معنى الدحداح؟

هي اسم صفة للمفرد المذكر، ويعني: القصير والمستدير الململم.

وتخبرنا المصادر أن أصله من العراق وانتقل إلى دمشق، فكان أهله أهل علم ودين، وقد حدث عن
أبيه وجدّه وجدّ جدّه.

سمع من:

أبيه، وموسى بن عامر، ومحمد بن خالد، ومحمد بن هاشم البعلبكي، وعبد الوهاب بن عبد الرحيم
الأشجعي، وأبو إسحاق الجوزجاني، وأبا عتبة الحجازي، ومحمد بن إسماعيل ابن عليّة، وخلق كثير.
وكان ذا عناية وإتقان، وكان مليئاً بحديث الوليد بن مسلم الذي روى عن عدة من أصحابه، وعمّر
دهراً.

حدّث عنه:

أبو بكر محمد بن سليمان الربيعي، وأبو القاسم الطبراني، والقاضي أبو بكر الأبهري، وأبو بكر بن
المقرئ، وعبد الوهاب الكلابي، وأبو بكر بن أبي الحديد وآخرون.

كان يسكن في ررض باب الفراديس، في طرف العقبية في الرقاق شرقي المقابر.

وفاته:

توفي في سنة 328 هجري ودفن في تربة الفراديس التي توسعت وأصبحت تضم مرج الدحداح فعرف
فيما بعد بمقبرة الدحداح.





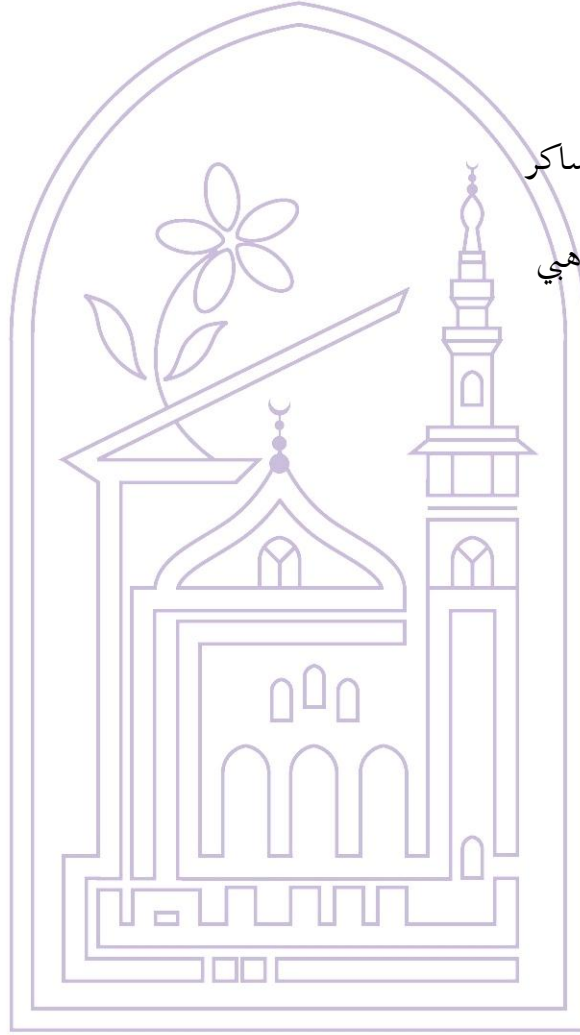
هذه الأسطر الأخيرة لا مفر منها أبداً لأي إنسان... فكل نفس ذائقة الموت، ولكن بأي خطة ومنهج ترسخ سيرتك أيها الإنسان؟ هل بما يجب الله ونيبك الكريم الذي بلغ وأدى الأمانة التي نحن مكلفون اليوم بتبليغها؟...

و الإنسان ليس إلا حديثاً يُذكر بالأعمال الصالحة النافعة للعباد.

المصادر:

تاريخ دمشق / لابن عساكر

سير أعلام النبلاء / للذهبي



أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن [... - 699هـ] العارف بالله الجعبري التركماني الدمشقي

يا من علا، فرأى ما في الغيوب، وما
تحت الثرى، وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه
أنت الدليل، لمن حارت به الحيل
إننا قصدناك والآمـال واثقة
والكل يدعوك، ملهوف ومبتهل
فإن عفوت، فذو فضل وذو كرم
وإن سطوت، فأنت الحاكم العدل

الشيخ أرسلان / رحمه الله

إخوتي القراء:

إن من مفاخر مدينة دمشق القديمة، زيارة قبور الصالحين والعظماء، طلباً للاتعاظ والتذكير، والمحاولة في تتبع آثارهم الجليلة، لا للوقوف على أطلالهم والتغني بها فقط، إنما لنعمل بعد أن علمنا كيف نوقظ هممنا الخافية، ونزيع ستره الحجب المتراكمة، من غفلات وهفوات عابرة، فمن منا لا يعاني من قسوة إيمانية أخذت بالزحف إلى قلوبنا، لتسلمنا إلى الحجج الواهية في عملية التسوييف الواهنة ومحاولاتنا في تلمس سير السلف الصالح، يسهم في رفع الهمم، والرقى بالقيم الأخلاقية الإسلامية، والتي بدأت تختفي ليظهر مكانها نزعات فردية أنانية مادية، بأشكال مختلفة.

ففي منطقة حي باب توما / الباب الشرقي، يسكن مقام شيخ جليل يُعرف بالشيخ أرسلان رحمه الله، وبجانبه مدفون شيخه أبا عامر المؤدب، وخدام الشيخ أرسلان أبو المجد. رحمهم الله.

لقد سمعنا باسم الشيخ أرسلان نعم، سمعناه من التراث الشامي، يتغنون به قائلين: شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام.

تقول المصادر: إن منطقة الباب الشرقي كانت عبارة عن امتداد لغوطة دمشق المشهورة بخضرتها الجميلة، ويمر خلالها نهر (نهر الداعياني)، سمي باسمه فيما بعد..



وقبل ستين أو سبعين سنة كانت هذه المنطقة بغوطتها تحتضن هذا، البطل الذي سطر اسمه في التاريخ باسم الوارث المحمدي أو بشيخ الشام وحميها، والآن نشاهد هذا المقام الجليل يقع عند نقطة تفرع شارعين، يجعل المقام في مفردة مفادها، من صاحب هذا المقام الجميل؟

مقامه خارج سور دمشق القديم، هذا يدلنا للوظيفة السامية التي كان يشغلها، والمسؤولية العظيمة التي يحملها، جزاه الله خيراً.

وسبب تسميته بشيخ [الشام وحميها] أن بعض من لا أخلاق لهم أراد أن يسلم دمشق للصليبيين، وجعلوا الموعد يوم الجمعة، ليقتلوا المسلمين فيها وهم في صلاتهم، وقد علم صاحب دمشق بالأمر، وقتل رأس المؤامرة الوزير المذدقاني، وتمكن المسلمون وعلى رأسهم ورباطه الشيخ أرسلان من إلحاق الهزيمة بالفرنج، ولم ينج من جيش الأعداء إلا القليل.

وأصبح الشيخ أرسلان [شيخ الشام وحميها] في ذلك الحين، سواء أكان في ميدان النضال والكفاح، ام في ميدان الإرشاد والوعظ والتدريس.

قبل أن نعيش مع شخصية الشيخ أرسلان، لا بد من لمحة عامة عن تلك الفترة التي عاشها الشيخ أرسلان.

عاش الشيخ أرسلان خلال فترة النصف الثاني للقرن الخامس هجري، والنصف الأول من القرن السادس هجري. كانت البلاد تعاني من حالة اضطراب سياسي وفتن ومعارك، وتنافس بين الأمراء. مما جعل بلاد الشام مجزأة تلك الفترة، انقضى القرن الخامس والمعارك سجل بينهم وبين الفرنج الصليبيين، جاء القرن السادس الهجري بحالٍ أسوأ، اضطراب داخلي وخارجي.

أثناء ذلك ظهرت دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل بحلب، والذي تسلم بعد مقتله ابنه نور الدين زنكي، الذي عمل جاهداً ليوحد المدن ويجعل الأمن والاستقرار نعم البلاد داخلياً، ولكن ما زال التهديد الصليبي على الحدود.

والشيخ أرسلان كان من جنود قلعة جعبر في عهد عماد الدين وفي العشرينات من عمره جعله نور الدين من أجناد دمشق، ولكثرة الاضطرابات والمشاكل السياسية، كانت اهتمام نور الدين بترميم السور القديم والأبواب، لحماية دمشق من العدد وبناء رباط بمنارة للمراقبة.



وكانت دمشق في تلك الفترة من الزمن، تعيش في ظلال حكم قاس شديد حتى توغل على الصليبيين فيها أيام المعلى بن حيدرة أمير الفاطميين، ومن بعده انتشر فيه الظلم ولحق الوباء بدمشق، وجلا عنها جزء كبير من أهلها، حتى أن المدينة خلت من قاطنيها، كما خلت الغوطة من الفلاحين، وارتفعت الأسعار...

في هذه الظروف بالذات واتباعاً لما جاء في القرآن {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} أخذ الشيخ أرسلان يدعو إلى دين الحق وإلى أعلاء كلمة الله، سيراً على هدي معلمه ومؤدبه أبي عمر المؤدب.

ولادة الشيخ ونشأته:

تقول المصادر أن الشيخ اسمه: أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري، الدمشقي التركماني الشافعي قيل ينتهي نسبه إلى جابر بن عبد الله الأنصاري.

نسبة لقلعة جعبر التي ولد فيها، ولا يُعرف شيء عن تاريخ ولادته بالضبط، سوى أنه عاصر الإمام عبد القادر الجيلاني، وأنه عاش نيفاً وثمانين عاماً، ولقب بالدمشقي بعد أن انتقل إليها. وكلمة أرسلان تركية الأصل معناها الأسد وقد شاعت في تلك الفترة هذه التسمية لدخول الأتراك مسرح الحياة العامة في القرن الثالث الهجري.

وشاء الله أن يأتي لدمشق من قلعة جعبر الوارث المحمدي شيخ الشام أرسلان الدمشقي، أقام في المكان المقدس نفسه، وقد أنشأ مدرسته هناك، وأنشأ معها سبع مدارس على صفة الكتاتيب، لكل واحدة منها قبة، ويظهر أن ما يسمى الآن بالقبة البدرية هي مكان إحداها.

أما قلعة جعبر فهي تقع على شاطئ الفرات بجوار قلعة نجم، فقد كانت من ثغور المسلمين الداخلية بينهم وبين الروم، وقلعة جعبر على الفرات بين الرقة والس.

عندما انتقل الشيخ إلى دمشق هرباً من الاضطرابات والمعارك المستمرة في تلك المنطقة، انتقل الشيخ أرسلان إلى مسجد صغير داخل باب توما اسمه درب الحجر، وبدأ بتلقي المعرفة والعلم على يد شيخه أبا عامر المؤدب، وكان للشيخ أرسلان دار صغيرة ودكان لنشر الخشب بجانب المسجد، وحفر بئراً صغيراً، كان أهل تلك البئر يشربون منه للبركة.

وعندما توفي شيخه أبو عامر المؤدب، رفع فوقه القبة التي أعيد بناؤها وتجددها مرات عديدة، كان آخرها في القرن الرابع عشر للهجرة، قال العالم الشيخ علاء الدين علي بن صدقي: إن القبة بناها الشيخ أرسلان علي شيخه أبي عامر لما أعطاه بعض التجار مبلغاً من المال، وبعث نور الدين الشهيد ألف دينار ليصرفها على اشادة المسجد، ولكنه رفض، ووزع المبلغ على الفقراء والمساكين والأيتام، وذلك بحضور الموظف الذي جاء به. وقد دفن في هذا الضريح الشيخ أرسلان نفسه وعدد من كبار الأئمة وعلماء الدين منهم الشيخ إبراهيم بن عبد العزيز الندي، تلميذ الشيخ علي الزعيمي خادم الضريح الأرسلائي، والشيخ ان سداد نجم الدين بن اسرائيل تلميذ الشيخ ابي عامر المؤدب، وأبو المجد خادم الشيخ أرسلان، والشيخ العارف بالله أحمد الحارون الحفار العسل.

وأجمع المؤرخين أن الشيخ أرسلان كان يقيم بداره في ظاهر باب توما، وقريباً من دكانه بنشر الخشب، ويقسم أجرته ثلاث: ثلث لنفقته وثلث يتصدق بها وثلث لكسوته ومصالحه، وقيل: كان يدفع الأجرة لشيخه وشيخه يطعمه، فتارة يجوع وتارة يشبع.

أما ساعات العبادة كان يقضيها في المسجد المعروف الآن بمقامه.

وقيل: أن للمسجد بابان علي أحدهما سقاية وعلى الآخر قناة، لا يعرف الباني لهما، الشيخ أرسلان يجلس بالجانب الشرقي منه للعبادة والنوم والتدريس، ولقد توطدت علاقة الشيخ أرسلان مع شيوخ الشام، وكانوا يقدرونه ويجلونه ويحترمونه حتى إنهم انتموا إليه، وهذا ما لم يحدث إلا في القليل النادر، ويحملوا وفق إرشاداته، وقد اتحد الشيخ أرسلان مع الشيخ أبي البيان محمد بن محفوظ القرشي، اتحاداً وثيقاً في العمل والهدف، وتقاسماً الجهد بحيث كل واحد منهما يتم الآخر.

ومنهم الشيخ أبا البيان (محمد بن محفوظ القرشي الذي كان يُعرف بابن الحوراني) أسس رباط مماثل للذي بناه الشيخ أرسلان وكان يقيم على الجهة الغربية، وعُرف رباطه باسم: الرباط البياني. وقد توفي بعد الشيخ أرسلان بعشر سنوات.

وإذا تساءلنا عن سر اختياره لهذه المنطقة، وقد عرفنا أنه ممن أختير أيضاً للدفاع عن دمشق، ذكرت بعض المصادر أنه اختار ذلك المكان ليقوم ثغراً أو رباطاً في مكان الخيمة التي نصبها خالد بن الوليد خارج السور أيام الفتح العربي.

واستمر على نهج الصحابة الكرام في الجمع بين الحراسة العسكرية والأذكار النبوية والدعاء، والتعليم والتدريس. **الوارث المحمدي**. لم يخلف عقباً وولد من بعده، بل إنهم قالوا أنه ما تزوج قط والعلم عند الله تعالى.

أما ما معنى كلمة الرباط: منزل للصوفية، يشبه مخافر الحدود التي تقع خارج سور المدينة ويقام فيها الجند المرابطون الذين يرصدون العدو، ويصدون حملاته، ولكن معنويات المرابطين تحتاج إلى تغذية، ولا شيء مثل الأذكار والتربية الصوفية التي تحقق هذا الهدف.

وقد برع الشيخ أرسلان في هذه التربية، وكان في مقدمة من أبعث الصليبيين عن دمشق في الفترة ما بين سقوط القدس بأيديهم سنة 492 هـ حتى وفاته سنة 541 هـ.

وهذه ليست المرة الأولى التي يندمج فيها العمل الصوفي التربوي، بالعمل الحربي العسكري في تاريخ الإسلام، فرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن بعدهم كانوا كذلك حتى صدق فيهم: رهبان في الليل فرسان في النهار، وقد ارتبط النصر بالتقوى، منذ أول معركة من معارك الرسول، معركة بدر حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه بالدعاء والتبتل، قبل أن يشهر السيف في وجه الأعداء، ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ وما المرابطين في المغرب إلا خير مثال حيث كانوا زهاداً صوفيين وقواداً عسكريين، حتى أسسوا دولتهم (دولة المرابطين)، والذين قاوموا الإيطاليين في ليبيا هم السادة الصوفية من مشايخ الطريقة السنوسية، وكذلك الجزائريين الصوفيين مع فرنسا، والصوفيين والعلماء السوريين مع فرنسا وعلى رأسهم العلامة بدر الدين الحسيني محدث دمشق، والشيخ أحمد الحارون...

وقد قال عنه عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي عنه: إن الشيخ أرسلان، كان من أكابر مشايخ الشام، وأعيان العارفين، وصدر البارعين، صاحب الإرشادات العالية والهمم السامية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والمقامات الجليلة والمكانات الرفيعة، كما أن له الطور الأعلى من المعارف، والمكان الأرفع في الحقائق، والمنصب المصدر في القرب، والكشف الواضع عن حقائق الآيات وشواهد المعيّبات، والفتح اللامع من مشارف الحياة، وفوائد الاتصالات، مع تمكين مكين، وتصريف نافذ، وهو أحد أئمة هذا الشأن وأركانه، علماً وعملاً وتحقيقاً، ومعرفة وزهداً، كما أنه أحد من أظهر الله للخلق، وأوقع له القبول التام، والهيبه الوافرة، وأطلعه على ما أسرار الكون، وصرّفه في الوجود، وأظهر على يديه

العجائب، وخرق له العادات ونصبه إماماً للسالكين، وانتهت إليه رئاسة هذا الأمر بتربية المريدين بالشام، وإليه انتمي جماعة من مشايخها.

مؤلفاته:

علمنا أن الشيخ أرسلان كان أمياً وبدأ برحلة العلم على يد معلمه الشيخ أبا عامر المؤدب، ولم يكتفي بالعلم والحراسة والتعليم، قام بالتأليف أيضاً شأنه شأن العارف بالله أحمد حارون رحمه الله وكان ظريفاً خاشعاً وشاعراً من فحول الشعراء في عصره وورعاً.

فقد ترك رسالة في التوحيد قام بشرحها عدة علماء:

- 1- الشيخ عبد الغني النابلسي واسمها: خمرة الحان وزنة الألمان
 - 2- الشيخ أبي زكريا الأنصاري واسمها: فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان
- وهناك شروح عدة لعلماء معاصرين، والرسالة محفوظة في المكتبة الظاهرية.

ويشكك المؤرخون بأن للشيخ أرسلان مؤلفات أخرى، ولكن قد ذهبت مع طوفان النهر الداعياتي الذي يمر من مدرسته ومقامه أو بسبب المعارك والفتن أو بإغفال مقصود من حساده. والله أعلم.

ما يهمننا هذه المهمة الفذة التي تمتع بها سلفنا الصالح، والتي لن نحصل على وميض منها إلا بالعودة إلى التمسك بهدي النبوة الشريفة، والمواظبة ثم المواظبة للتخلق بأخلاق سيد الخلق والذي مدحه ربه وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ. صلى الله عليه وسلم.

وفاته:

انتقل الشيخ أرسلان إلى الرفيق الأعلى في عام 541هـ، وذلك خلافاً لما ورد في بعض التواريخ، من أنه توفي سنة 699هـ، وأنه أسهم في الحروب ضد التتر.

وهذا يدل على سمعة الشيخ أرسلان البطولية الشجاعة والقوية بذكر الله عز وجل، مما أسهم في ربط اسمه مع حروب التتر.

وقد عاش الشيخ أرسلان في فترة الحوادث والفتن والحروب الصليبية والأمراض المتتالية والمتسلسلة والتي تبين لنا سبب تسميته بـ (حامي البر والشام)، حيث عاش طفلاً وفتىً في قلعة جعبر وشاباً وكهلاً وشيخاً في دمشق بباب شرقي، وتلميذاً لأبي عامر المؤدب، ورأساً لشيوخ الشام. وهذه الأحداث التي مرت بالشام، جعلت منه إنساناً، يحمل القرآن والسنة بيد، ويحمل السيف والجهاد باليد الأخرى، ويدافع وينافح ببطولة خارقة، سواء أكان كفاحاً مادياً أم روحياً.

رحم الله الشيخ أرسلان، ورحم الله السلف الصالح، الذين جعلوا القرآن الكريم والسنة الشريفة نبراساً قوياً لحياتهم.

وفي الختام فلتقرأ هذه الأبيات التي امتدح فيها الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله، الشيخ أرسلان في مقدمة شرحه للرسالة التوحيد.

عن أرسلان جاء الحقائق	حيث اهتدى رسالة للخلائق
وسقانا بكأسه منه صرفاً	فسكرنا بسائغ الشرب رائق
كل حرف منها يشير لمعنى	سائق نحو ذروة المجد شائق
كلمات قد ازدهرت بمعان	كل من رامها لقطع العلائق

وختم شرح الرسالة بقوله:

زدت نوراً يا أرسلان	وعليك الله منان
صلة التوحيد فيك زهت	ومن التحقيق تيجان
يا أبا العرفان أنت متي	كم بدالي منك غرقان
غشوم يوم الوغى بطل	كامل ما فيه نقصان
بين أهل الله ذو شرف	وعلى الخيرات معوان

من أقواله وشذراته:

- إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو شكراً لقدرتك عليه.
- الكريم من احتمال الأذى، فلم يشك عند البلوى.
- أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر.
- مكارم الأخلاق: العفو عند القدرة، والتواضع في الذلة، والعطاء تعبر منة.
- لو احتجبت عني طرفة عين، لتقطعت من ألم البين.
- قلب العارف لوح منقوشٌ بأسرار الموجودات، فهو يدرك حقائق تلك السطور، ولا تتحرك ذرة حتى يعلمه الله.
- كلما اجتنبت هواك قوي إيمانك، وكلما اجتنبت ذاتك قوي توحيدك.
- العلم طريق العمل، والعمل طريق العلم، والعلم طريق المعرفة، والمعرفة طريق الكشف والكشف طريق الفناء.
- أول المقامات الصبر على مراده، وأوسطها الرضى بمراده، وآخرها أن تكون بمراده.

الفاحة الشريفة إلى أرواحهم الطاهرة

المصادر والمراجع:

سير الإعلام / للدهبي 379/20

الوافي بالوفيات / الصفدي 224/8

الشيخ أرسلان الدمشقي 461 - 541 عرض وتحقيق / عزة حصرية.

إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني [1087هـ - 1162هـ] العجلوني الشافعي الشهير بالجراحي أبو الفداء

(إذ من النصيحة في الدين كما قال الحافظ ابن حجر في خطبة كتابه اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة التنبية على ما يشتهر بين الناس مما ألفه الطبع، وليس له أصل في الشرع، قال وقد صنف الإمام تاج الدين الغزاري كتاباً في فقه العوام، وإنكار أمور اشتهرت بين الأنام لا أصل لها أجاد فيها الانتقاد، وصان الشريعة أن يدخل فيها ما يخل بالاعتقاد، قال وقد رأيت ما هو أهم من ذلك، وهو تبين الأحاديث المشتهرة على السنة العوام وكثير من الفقهاء لا معرفة لهم بالحديث، وهي إما أن يكون لها أصل يتعذر الوقوف عليه لغرابة موضعه، أو لذكره في غير فطنته، وربما نقاء بعضهم لعدم اطلاعه عليه، والنافي له كمن نفى أصلاً من الدين، وضل عن طريقه المبين، وأما لا أصل له البتة، فالناقل لها يدخل تحت ما رواه البخاري في ثلاثياته من قوله صلى الله عليه وسلم: (من قال عليّ ما لم أقل، فليتبوأ مقعده من النار).

كلمات لشيخنا الجليل إسماعيل العجلوني رحمه الله.

فمن هو هذا العالم الجليل، المحدث المؤرخ المفسر النحوي؟

ولادته ونسبه:

ولد الشيخ إسماعيل في مدينة عجلون، وعجلون مدينة صغيرة تابعة لمحافظة إربد في الأردن، وتاريخ ولادته كان في سنة 1087هـ، فهو عجلوني أردني المولد، ودمشقي النشأة والوفاة، ولا عجب في ذلك لأن مدينة دمشق كانت ولا زالت وستبقى عاصمة العلم الشرعي في العالم العربي والإسلامي، حفظها الله لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الشام صفوة الله من بلاده، يسوق إليها صفوة عباده، من خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخل من غيرها فبرحمته).

واسمه: إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني العجلوني الشافعي الشهير بالجراح، العجلوني نسبة لعجلون، والجراح نسبة إلى مقام سيدنا أبو عبيدة بن الجراح القريب من مدينة عجلون على مسافة عشرة كيلومترات من الشرق. وعُرف بالدمشقي لنشأته ووفاته ودفنه فيها، رحمه الله.

أما ما هو السر في نشأته ودفنه في دمشق، فهذه لها حكاية وسر فما هي؟

تخبرنا الكتب أن والد الشيخ إسماعيل قد سماه في أول سنة من عمره اسم محمد، ثم غير اسمه إلى مصطفى وبقي حوالي ستة شهور، ثم غير اسمه لإسماعيل وبقي على هذا الاسم.

ولقد اعتنى والده في تربيته وتنشئته نشأةً صالحة على طاعة الله ورسوله، حفظ كتاب الله العزيز منذ الصغر عن ظهر غيب، وأخذ في تشجيعه على حضور مجالس العلم، وكان يتميز عن أقرانه بحبه وتعظيمه ومحافظته على حضور مجالس العلم.

يتعامل الأب مع أبنائه بهذا الحس الراقي العالي الرائع، فهو يدخل في سياق معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

و تطلعنا المصادر عن سر دفنه في دمشق، لرؤيا رآها الشيخ وهو في سن التحيز، أن رجلاً ألبسه جوخة خضراء اللون مركبة على فرو أبيض، في غاية الجودة والبياض، وقد غمرته لكونها سابغة على يديه ورجليه، فأخبر والده بالمنام، ابتسم والده بسرور وقال له: إن شاء الله يجعل لك يا ولدي من العلم الحظ الوافر ودعا له بذلك.

هل عرفتم مقصد هذا الأب التربوي رحمه الله؟ لقد علم من حديث النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة ذكرت في السيرة النبوية، عندما رأى أن سيدنا عمر بن الخطاب يرتدي ثوب طويل سابغ له وفسره النبي صلى الله عليه وسلم بالدين المتين لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد أخذ والده في إعداد هذه المكانة العلمية العالية ليس بالأمامي والتسويق، إنما بالعمل الجاد الهادف.

جعله في حصن العلم الشرعي الأصيل المنبع في دمشق وبين علماء مدينة دمشق والتي ذاع صيتها منذ القدم، وأخذ هذا الولد البار والصالح يرتشف من علومها، وليفهم دقائق أسرار هذه العلوم، ثم ليطل علينا بأروع مؤلفات تركها لينتفع منها الناس، حيث سينال هو ووالديه الأجر العظيم عند الله عز وجل لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا آمين.

أما عن شيوخ العالم الجليل إسماعيل العجلوني:

فهم على سبيل الحصر لا السرد من كتاب الدرر للمراي:

الشيخ أبي المواهب مفتي الحنابلة بدمشق، الشيخ محمد الكاملي الدمشقي، والشيخ إلياس الكردي نزيل دمشق، والشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي، والشيخ يونس الحصري نزل دمشق، والشيخ أحمد الغزي الدمشقي، والشيخ محمد الخليلي المقدسي، والشيخ تاج الدين القلعي مفتي مكة، والشيخ أبو الحسن السندي ثم المدني، والشيخ سليمان بن أحمد الرومي، ... وغيرهم.

وظائفه أو تدرسه:

درس في الجامع الأموي بعد وفاة شيخه يونس المصري، عند قبة النسر في عهد الوالي الوزير يوسف باشا قبطان. حيث بقي في التدريس إلى أن مات رحمه الله، وكذلك كان له درس في مسجد السفرجلاني حيث لزمه جماعة كثيرون لا يحصون عددهم من التواضع لحضور مجالس علمه.

صفاته وما اشتهر عنه:

كان حليماً سليم الصدر سالماً من الغش. سالماً من المقت صابراً على الفاقة والفقر، ملازماً للعبادات والتهجد، وملازماً في الاشتغال بالدروس العامة والخاصة، كافياً لسانه عما لا يعنيه، مع وجاهة نيرة في الوجه، ألبسه إياها الله عز وجل لصدقه في خلوته وجهره ولورعه مع الخلق.

أرجو الله عز وجل أن يلهمتنا حُسن التصرف مع اللق والنفس، ويرزقنا فهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

أما عن مؤلفاته:

1- كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: كتاب جُمع فيه أحاديث السخاوي مع تلخيص لكلامه، وزاد أحاديث كثيرة جداً حتى أصبحت حوالي 3250 حديث.

2- الفوائد الدراري بترجمة الإمام البخاري.



- 3- إضاءة البدرين في ترجمة الشيخين.
- 4- تحفة أهل الإيمان فيما يتعلق برجب وشعبان ورمضان.
- 5- نصيحة الإخوان فيما يتعلق برجب وشعبان ورمضان.
- 6- عرف الرزين بترجمة سيدي مدرك والسيدة زينب.
- 7- الفوائد المجردة بشرح مصوغات الابتداء والنكرة.
- 8- الأجوبة المحققة عن الأسئلة المفرقة.
- 9- الكواكب المنيرة المجتمعة في تراجم الأئمة المجتهدين الأربعة، ولكل واحد منها اسم خاص يعلم من الوقوف عليها.
- 10- أربعون حديثاً كل حديث في كتاب.
- 11- عقد الجواهر الثمين بشرح الحديث المسلسل بالدمشقيين.
- 12- شرحه على البخاري المسمى بالفيض بالفيض الجاري بشرح صحيح البخاري وهو من أجلها، وقد كتب من مسوداته 292 كراسة، قيل لو كمل هذا الشرح لكان من نتاج الدهر. وهناك الكثير من الكتب التي لم تكتمل، منها: إسعاف الطالبين بتفسير كتاب الله المبين، عقد اللآلئ بشرح منفرجة الغزالي، فتح المولى الجليل على أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي... وغيرها من الكتب أو المسودات التي لم يكتب لها أن تكتمل رضي الله عنه.

وفاته:

توفي الشيخ إسماعيل رحمه الله في محرم سنة 1162هـ ودفن في تربة الشيخ أرسلان رحمهما الله ورضي عنهما.

فقد كان الشيخ إسماعيل من أحد الشيوخ الذين لهم القدم العالي في العلوم والرسوخ، فكان خير خلف لخير سلف.



خرجت دمشق في جنازته المهيبه وهي تودعه وداع الحب والتقدير والدعاء له بما نفعهم من علمه وعمله وسيرته الخلقية العطرة الوضاعة التي وصفها تلميذه الشيخ سعيد السمان قائلاً: (خاتمة أئمة الحديث ومن ألفت إليه مقاليدها بالقديم والحديث، اقتدح زناده فيها فأضاء، وشاع حتى ملأ الفضاء، أخذاً بطرفي العلم والعمل، يقطع آناء الليل تضرعاً وعبادة، ويوسع أطراف النهار، قراءة وإفادة، لا يشغله عن ترداده النظر في دفاتره حرام، ولا عن نشر طيبها نقض ولا إبرام، مع ورع، ليس للرياء عليه سبيل، وغض بصر عما لا يعنى من هذا القبيل، وهو وإن كانت عجلون تربة ميلاده، فإن الشام تشرفت بطارف فضله وتلاده، فقد طلع في جبهتها شامة... ولم يزل يسبح وحده، بلل الله بالرحمة ثراه، فهو ممن أخذت عنه الإسناد، وأمدني بقراءتي عليه بما ينفع إن شاء الله يوم التناد، ..).

هذا وللشيخ شعر موزون يتسلى به كواله محزون...، يشغله قول الربيع بن هيثم: إن للحديث ضوءاً كضوء النهار يُعرف، وظلمة كظلمة الليل تُنكر.

رحمك اله يا شيخنا الجليل، وجزاك الله خيراً كثيراً، فقد انتفع من كتبك ما لا يعد ولا يحصى من البشر، فحقق حديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم: (الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله).

هيا يا أخوتي نقف معاً في محراب الله عز وجل أمام سيرة وترجمة هذا العالم القدير، وقلوبنا تنبض بفيض من التقدير والدعاء له، اللهم اجزه عنا خيراً كثيراً آمين.

المصادر والمراجع:

- سلك الدرر في التراجم / المرادي

- الأعلام / للزركلي

- موسوعة المدن العربية والإسلامية / د. يحيى الشامي

أم الدرداء الصغرى

هجيمة بنت حي الأوصابية الحميرية الدمشقية

خطبتي إلى أبويّ في الدنيا فزوّجوك لي... وأنا أخطبك إلى نفسك في الآخرة...

نحكي لكم اليوم سيرة امرأة آمنت بالله ورسوله ثم ترجمت هذا الإيمان الصادق حباً وانتماءً لنبي الرحمة بالقول النافع والعمل الصالح، فكانت مشعلاً منيراً وعنواناً رائعاً لهذا الحب في زمن مضى على أرض دمشق الحبيبة...

إخوتي القراء:

إذا تصفحنا التاريخ الإسلامي ببصيرة المحبين العاشقين لله ورسوله، نبصر وبقوة كيف شاركت النساء الرجال مجالاتٍ شتى في تأسيس مجتمعات إسلامية تميزت بحب العلم والتعلم للتقرب من سيد الكون الذي بدأت رسالته المحمدية به (اقرأ)..

في مقدمتهن كانت أمهات المؤمنين ابتداءً بالسيدة خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، ومن بعدها نساء عاملات عابدات تقيات، ينافسن الرجال بالعلم النافع والعمل الصالح، فنجدو على مر العصور كيف كنّ خير نماذج تستحق منا الوقوف على سيرهنّ لتتعلم ونتفقّه...

و الله عز وجل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ..

و من يقرأ في التاريخ الإسلامي يجد أسماء كثيرة لأناس اجتهدوا وجاهدوا على أنفسهم من دنيا فاتنة فانية، لتكون سيرهم نبراساً يتلأأ بالمنهج المحمدي العظيم الذي فقهوه واتبعوه بتقوى رائعة تجذبنا للقراءة المتعمّنة...

لم يكونوا رجالاً فقط، وإنما نساء أيضاً، أخذن ينافسن الرجال في بلوغ حقيقة الإيمان، فكنّ خير من اقتدين بأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، ومن حقهنّ علينا أن نقرأ سيرهنّ بتمعن وتأمل...

فها هو الرحالة المعروف بابن بطوطة، عندما دخل دمشق في القرن الثامن للهجرة، يقول: قصدت الأموي للزيارة ففوجئت بالمحدثات لحديث رسول الله، قد ملأن المسجد..

وقال أيضاً: قرأت على عائشة بنت محمد بن المسلم الحرائية، التي كان لها مجلس علم، وكانت تكتسب بالخياطة...

و ها هي أم الدرداء الصغرى، تطل علينا بسيرتها اللامعة من أرض دمشق، فمن هي؟

بداية لا بد أن نذكر من هو أبو الدرداء؟ إنه صحابي جليل، سيد القراء، وصفه النبي الكريم بـ(حكيم أمي)، وهو أول من سنّ سنة الحلقات القرآنية في دمشق بعدما هاجر إليها، كان الناس يلتفون حوله ويستمعون لطيب قراءته بعد صلاة الفجر.. فكان بسيرته الوضاعة وحكمته علماً ومعلماً للناس من حوله..

مختلف في اسمه: عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، أو عويمر بن عامر..

روى أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، تولى منصب القاضي بدمشق في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان له زوجتان الأولى اسمها: خيرة بنت أبي حدرد الأسلمي، توفيت قبل زوجها بعامين، وكانت من رواة الحديث، ولقبت بـ (أم الدرداء الكبرى)..

و(أم الدرداء الصغرى) هي الزوجة الثانية له، و اسمها: هجيمة بنت حي الأوصابية الحميرية الدمشقية، التي وُصفت بالعالمة الفقيهة والتي تعلمت من زوجها الكثير، وهي من سنقف اليوم عند سيرتها كي نشحن قلوباً نامت فيها العزيمة وغفت وتكاسلت عن طيب القول وصالح العمل...

لنقرأ فاتحة الكتاب لأرواحهم الطاهرة، داعين الله أن يرزقنا حسن الإتياع، ولنمض معاً في قراءة تأملية فيها معاً:

قرأت وحفظت أم الدرداء عن زوجها القرآن الكريم، وحدثت عنه الأحاديث بكل الحب والامتنان لمعلمها وزوجها، فكانت من حسن أدبها تقول: (حدثني سيدي أبو الدرداء، وأوصاني حبيبي أبو الدرداء..).

روت عنه علماً جماً، وروت عن السيدة عائشة وأبي هريرة وسلمان الفارسي وغيرهم رضوان الله عليهم.. وصفت المصادر الحب الراقي الذي جمع بين أبي الدرداء وأم الدرداء الصغرى بعبارات ومعانٍ تترجم ذلك الحب المقرون بالاحترام والامتنان.. وقد كانا يقومان الليل معاً تعبداً لله وتعظيماً له.. كساها الله عز وجل روحانية وعذوبة في التعبير، فقصدها الناس ليتعلموا منها كيف تكون رقة القلب والخشوع في الجوارح عند ذكر الله وقراءة القرآن.

من أدعيته:

(اللهم إن أبا الدرداء خطبني فتزوجني في الدنيا، اللهم فأنا أخطبه إليك فأسألك أن تزوجينه في الجنة، فقال لها أبو الدرداء: فإن أردت ذلك فكنت أنا الأول فلا تتزوجي، وعندما مات أبو الدرداء خطبها معاوية، فقالت: لا والله لا أتزوج زوجاً في الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء في الجنة إن شاء الله).
كانت محدثة فقيهة زاهدة حكيمة عابدة، وواحدة من عابدات الشام التي كان لها السبق في الخير والصلاح والإصلاح، وكانت تقول: طلبتُ العبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم.. تعلموا الحكمة صغاراً، تعملوا بها كباراً، إن لكل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر.

من أقوالها:

إن أحدهم يقول اللهم ارزقني، وقد علم أن الله لا يمطر عليه ذهباً ولا درهماً، وإنما يرزق بعضهم من بعض، فمن أعطي شيئاً فليقل، فإن كان غنياً فليضعه في ذي الحاجة، وإن كان فقيراً فليستعن به.
كان الرجال يقرؤون عليها في الحائط الشمالي بجامع دمشق، وكان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقتها يستمع لدرسها، وقد شوهد مرة يسألها فتجيبه، وعندما نودي للصلاة دخلا معاً متكئةً على يده يوصلها مكانها ثم يتجه إلى المحراب للصلاة...
سألها رجل: إني لأجد في قلبي داء لا أجد له دواء، وأجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً...
فقالت أم الدرداء: اطلع في القبور، واشهد الموتى...



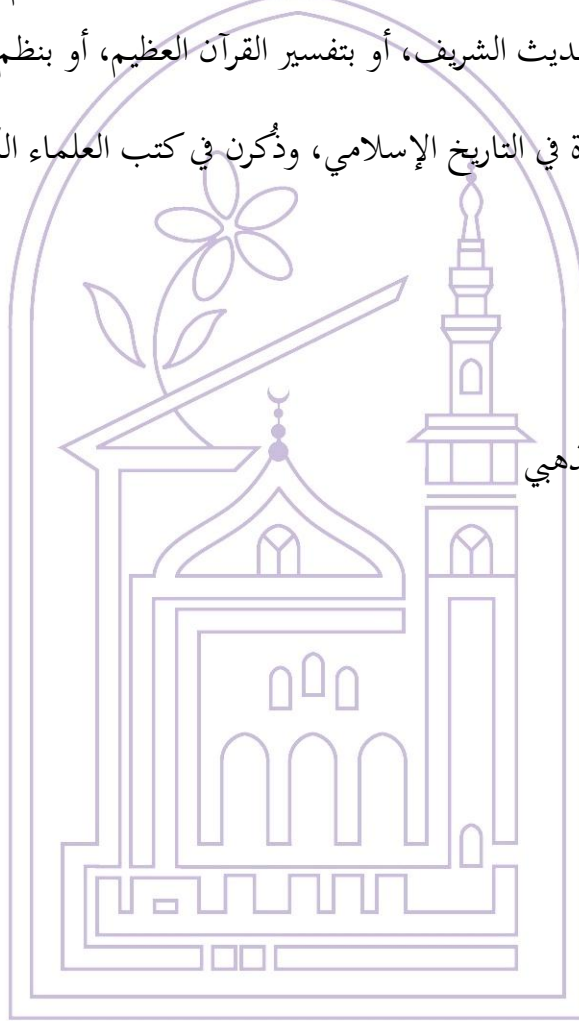
وقال ابن حبان في (الثقات): كانت تقيم ستة أشهر ببيت المقدس وستة أشهر بدمشق، وماتت سنة إحدى وثمانين للهجرة.

إخوتي القراء:

لقد كانت نساء الماضي مجالسهنّ روضةً من رياض الجنة، لسانهنّ يتنزّه عن الغيبة والنميمة، وفاحش القول... وقلوبهنّ عامرة بالحب والدعاء للغير من الخلق: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، يتفكّهن برواية الحديث الشريف، أو بتفسير القرآن العظيم، أو بنظم أبيات من الشعر المفيد.. فكانت لهنّ إسهامات فريدة في التاريخ الإسلامي، ودُكرن في كتب العلماء الكبار كالعسقلاني والذهبي وابن كثير وغيرهم...

المصادر:

سير أعلام النبلاء / للذهبي



أوسُ بن أوسٍ

ويقال ابن أبي أوس الثقفِيّ

الصحابي المدفون في مقبرة الباب الصغير بدمشق

إخوتي القراء:

تعدّ مقبرة الباب الصغير أكبر مقبرة في مدينة دمشق، وتُسمّيت نسبةً إلى باب صغير في سور دمشق القديمة، دُفن فيها الكثير من الصحابة والتابعين والعلماء والسلاطين والأمراء... ممن عاشوا فيها وساهموا في عمارة أرضها وكتابة تاريخها الحضاري الإنساني الإسلامي العالمي.

هيّا معاً في سياحةٍ بين أزقة دمشق القديمة، لتلمّس نسائمها العليّة الرائعة المنبعثة من تراجها وجدرانها حاملة نداءات إيمانية أصيلة تنادي على مَنْ غفل أو نسي، أنْ ها هنا مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، ففي كل شبرٍ من أرضها معلّمٌ أو عيّنٌ من الأعيان يدعوننا أن نُحسن التفكير والتدبر.

الصحابي: أوس بن أوس الثقفِي، من هو؟

ذكر ابن عساكر، مرشدنا التاريخي الدمشقي، في باب العليّ مسجداً يقال له مسجد أوس بن أوس الثقفِي، الصحابي.. وبنو ثقيف من الطائف، إحدى قبائل العرب المشهورة، أقبل غالبيتهم على النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين بعد فتح مكة وغزوة حُنين المشهورة.

والصحابي (أوس بن أوس)، ويقال: ابن أبي أوس، هو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزل دمشق وعاش فيها يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، والمشهور عنه حديثان اثنان.

كما روى عن أوسٍ: الأشعث الصنعاني، وعبادة بن نسي، وعبدالله بن محيرز، والحسن السعدي.

أما الحديثان اللذان رواهما فهما:

الأول: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من غسل يوم الجمعة واغتسل، ودنا واستمع، وأنصت، كان له بكل خطوة يخطوها حين يخرج من بيته إلى حين يأتي المسجد أجرها كصيام سنة وقيامها.

و الحديث الثاني: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن من أفضل أيامك يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثرُوا من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي..

قالوا: وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أُرمت؟ فقال: إن الله عز وجل حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

صلى الله عليك يا حبيبي يا رسول الله، ورضي الله عن الصحابة الكرام، الذين قد أدّوا الأمانة وبلّغوا الرسالة، وبذلك وضعوا حجر الأساس لمدرسة المنهج النبوي العظيم الرائع، في أرضٍ بورك وبورك أهلها على لسان نبينا وسيدنا، فهو القائل: إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم... والأحاديث كثيرة في فضل الشام وبركة دمشق، وكذلك في مديحه صلى الله عليه وسل لساكنيها..

كما قال ابن عساكر أن المؤرخ المحدث أبو زرعة الدمشقيّ قد ذكر هذا الصحابي قائلاً أن أوس بن أوس الثقفي من الصحابة، نزل دمشق ومات فيها.. وقال بأن ابن حنبل في سنده قد خلط ترجمة أوس بن أوس بترجمة أوس بن أبي أوس وهو ابن حذيفة، وكلاهما ثقفيّ.

أما ابن الأثير والنووي فقد قالوا عنه: صحابيٌّ من أهل الصفة، سكن دمشق، ومات في خلافة عثمان بن عفان، ودُفن في مقبرة باب الصغير..

و قال النووي في التهذيب: وهو تجاه المدرسة الصابونية، وعليه بناء.

كما وثقت الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية قبره في الباب الصغير، وقبره معروفٌ ويُزار.

و بعد أيها القارئ المتأمل المتفكر في سياحتك هذه، إن دمشق كانت مطمح كثير من الصحابة والتابعين لكثرة ما ورد من أحاديث عن فضائل دمشق الشام ووصف أهلها بخيرة الخلق، فيا هناء وسعادة من سدّد وقارب ليكون من صفوة الخلق وعمّار الأرض بمنهج النبوة الحقيقي الذي رسّخ معالمه فيها أصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

المصادر والمراجع:

تاريخ دمشق / لابن عساكر

تهذيب التهذيب / للنووي

أسد الغابة في معرفة الصحابة / لابن الأثير

الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية

تميم الداري بن أوس

الذي روى عنه النبي صلى الله عليه وسلم (حديث الجساسة)

مدفون في دمشق سكنها بعد مقتل عثمان بن عفان

إخوتي القراء:

إن بركات مدينة دمشق الرائعة هي من أنوار المصطفى صلى الله عليه وسلم التي ملأت دمشق الشام عند مولده من نوره، فكان ذلك أول دخول لنور المصطفى إلى الشام، ثم دخل نور الإسلام وعموده، فأشرقت دمشق وازدهرت وتهيأت لتكون ذات شأن هام في آخر الزمان، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿خيار أهل الأرض في آخر الزمان أئمة مهاجر إبراهيم﴾.

و الشام دمشق شهدت هجرة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، لذا نجد تراب دمشق وريفها قد اختلط برفات صحابة وتابعين وأولياء صالحين ربانيين كثير، جاؤوا لينالوا من بركتها..

ندعوكم أيها الإخوة لقراءة فيها تأمل وتفكر في سيرة أحد الصحابة الذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بصدقهم وحسن اتباعهم.. إنه صاحب قصة الجساسة، التي رواها عنه النبي صلى الله عليه وسلم، والمذكورة في صحيح مسلم، فهل عرفتم من هذا الصحابي الملقب بـ "راهب عصره"؟ و ماذا روى عنه المصطفى؟

صحابيُّ سكن الشام دمشق، بعد فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه:

تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن خزيمه، وقيل: سواد بن خزيمه بن ذراع بن عدي بن الداري بن هانيء، ويكنى: أبا رقية الداري، لابنة له لم يولد له غيرها.

مشهور في الصحابة، وكان من قبل نصرانياً راهب عصره، قدم المدينة فأسلم، وحسن إسلامه في سنة تسع للهجرة، له صحبة، حدّث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه النبي حديث الجساسة، وهو حديث صحيح.

و روى عنه: ابن عباس وأنس بن مالك وأبو هريرة، عبد الله بن وهب، شرحبيل بن مسلم، قبيصة بن ذؤيب، سليمان بن عامر، وغيرهم...

فما هو حديث الجساسة؟

جاء تميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر له قصة الجساسة والدجال، فصعد النبي المنبر متبسماً وحدث عنه الحادثة، فعدّ ذلك من مناقب هذا الصحابي الجليل.

ولنتأمل معا الحديث، من صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة الحديث رقم: 2942

﴿.....فَلَمَّا فَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «لَيْلَزِمُ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "إِنِّي وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ، لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافِقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجُدَامٍ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَعُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرِ الشَّعْرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ، مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ، فَقَالُوا: وَبِئْسَ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمِعْتُ لَنَا رَجُلًا فَرَقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا، حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وَتَاقًا، بِمَجْمُوعَةٍ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَبِئْسَ مَا أَنْتِ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبْرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أَنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَعْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرَبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرِ الشَّعْرِ، لَا يَدْرَى مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ، قُلْنَا: وَبِئْسَ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا، وَفَرَعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَحِيرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمَرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ طَبْرِيَّةَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَحِيرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا

مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ رُغْرٍ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنٍ تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤَذَّنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرَجَ فَاسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعُ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً - أَوْ وَاحِدًا - مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِنْهَا مَلَائِكَةٌ يَحْرُسُونَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَعَنَ بِمِنْخَصْرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: «هَذِهِ طَيْبَةٌ، هَذِهِ طَيْبَةٌ، هَذِهِ طَيْبَةٌ» - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - «أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟» فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ» وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ..... ﴿﴾

بعد إسلامه سنة تسع للهجرة، قدم تميم إلى مصر وأقام فيها مدة، وروى عنه المصريون، وقيل سكن فلسطين، وقيل تحول إلى دمشق بعد مقتل عثمان.
ومن مناقبه التي تذكرها المصادر ما يلي:

هو أول من أسرج في المسجد سراجاً، وأول من قص بعد إذن له من عمر بن الخطاب.

له قصص مع عمر فيها كرامات واضحة له، وتقدير واحترام كبير من عمر رضي الله عنه.

كان كثير التهجد لا ينام، قام ليلة حتى أصبح في آية: (أحسب الذين يجترحون السيئات).

قال ابن حبان: قدم الشام وأقام فيها إلى أن مات، رضي الله عنه.



إن المتبصر المتأمل لسطر من سيرة تميم يتلمس صدق محبته وتعظيمه للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم... وتخبرنا المصادر كم كان يتعهد بخشوع مُحتلياً مع المولى عز وجل، ففي إحدى الليالي، ذهب عنه تهجد ليلة واحدة، فعاقب نفسه عاماً كاملاً لا ينام... فأى حب وتعظيم قد انطبع به قلبه، لتصبح المناجاة ليلاً هي مطمح فكره وقلبه؟

اللهم ارزقنا وأحبابنا حبك وحب نبيك، وحب كل قول وعمل يقربنا إليك.

تذكر الحوليات الأثرية بأنه مات سنة 35 هجري، ودُفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق، رحمه الله تعالى.

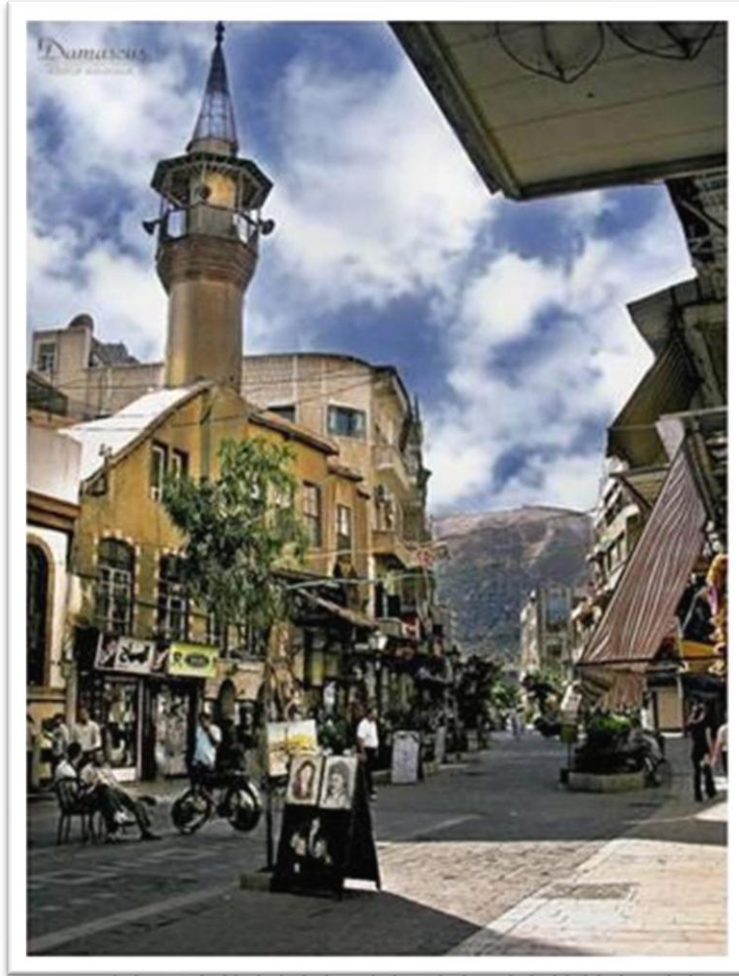
المصادر والمراجع:

- . تاريخ دمشق / لابن عساكر 571 هجري . الحوليات الأثرية / مديرية الآثار
- . أسد الغابة / لابن الأثير 630 هجري
- . الإصابة في تمييز الصحابة / للعسقلاني 852 هجري



جابر بن خالد بن مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة

الأنصاري الخزرجي النجاري الصحابي الجليل وإخوته في جامع الشهداء بدمشق



إخوتي القراء:

السياحة في الأرض، مع التأمل تحتاج إلى المعرفة التاريخية الحقيقية... لذلك ندعوكم إلى قراءة من كتاب، (تاريخ دمشق) لمؤرخه الشهير ابن عساكر الإمام العالم الحافظ المؤرخ علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي 499. 591 هجري، نجد الأحاديث النبوية الكثيرة التي يذكرها ابن عساكر عن فضل الشام ودمشق خاصة.



وأحاديث في حثه على سكنى الشام، وتكفل الله تعالى من سكنها.

وأحاديث بأن الإيمان يكون في الشام عند وقوع الفتن.

وأحاديث أن الشام صفوة الله من بلاده وإليها يجتبي خيرته من عباده.

وأحاديث عن بسط ملائكة الرحمن لأجنحتها على الشام.

وأحاديث عن دعاء النبي للشام بالبركة.

وأحاديث أن خير منازل المسلمين دمشق، وغيرها من الأحاديث الرائعة التي تدخلنا في بهجة وسرور بحمد وشكر الله أن منحنا هذه النعم.

فعندما نقرأ أحاديث فضل الشام ودمشق لا نجد غرابة بأن تراها قد احتضن الكثير من الصحابة والتابعين والعظماء من الملوك والأمراء، ولم العجب؟! فقد اصطفى الله عز وجل خيرة الخلق فيها، كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا زالت دمشق الحبيبة للان تحتضن العظماء من أهلها الذين يجتهدون بالعلم والعمل الصالح والسلوك الحمدي كي ينالوا من هذا الاصطفاء الذي أخبر عنه الحبيب، بإذن الله.

ونجد أنفسنا أمام اسم صحابي مدفون في مسجد الشهداء بدمشق، غير مشهور ولكنه بدري، أي ممن شهد بدرًا... فأصبحت شهرته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى بها شهرة...!

أيها السائح المسلم..

هذا المسجد يقع في منطقة خارج أسوار دمشق القديمة التي يقال أن الفاتحين المسلمين الأوائل وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد نزلوا فيها، وهؤلاء الشهداء هم شهداء تلك الفترة...

منهم الصحابي جابر بن مسعود وإخوته وائل بن حرملة وأخوهما مساعد، لأم من الصحابة، فماذا كتبت عنهم كتب التاريخ؟

لقد وجد في مكان دفنهم حجر كتبت عليه أسماءهم وبأنهم استشهدوا أيام الفتح الإسلامي ووصفوا بأنهم إخوة لأم، ذكر ذلك في الحوليات الأثرية السورية، وفي كتاب (قبور العظماء) لعبد القادر



الريحاوي... ومع الأيام أخذ هذا المكان اسم محلة الشهداء وخاصة بعد بناء مسجد صغير شُيّد في القرن الثامن للهجرة.

ولم نحصل على ترجمة من كتب السير والأعلام إلا لجابر بن مسعود نقرأها معاً ونقرأ لهم الفاتحة داعين الله عز وجل أن يلهمنا الرشد والصواب في الحياة الدنيا.

اسمه ونسبه:

جابر بن خالد بن مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة بن دينار، وأمه عميرة بنت سليم بن الحارث بن ثعلبة بن كعب بن عبد الأشهل بن حارثة بن دينار.

ويقال: الأنصاري الخزرجي البخاري، ولا يقال هكذا مطلقاً الأنصاري إلا لبني عبد الأشهل، رهط سعد بن معاذ، ومثل هذا يقال فيه: من بني دينار ثم من بني عبد الأشهل ليزول اللبس.

شهد معركة بدر وأحد، وقيل بأنه من الذين شاركوا العرب المسلمين الفتح في دمشق زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأجمعت المصادر على أنه لم يعقب، أي لم يخلفه ولد ولكن حلف العمل الصالح والشهادة في سبيل الله خلال الفتح العربي الإسلامي مع كبار الصحابة الكرام.

فهم ماتوا ولكن مآثرهم وأعمالهم وسيروهم مسطرة في كتب التاريخ مضيئة ومشعة، حب ورضا الله ورسوله عنوانهم ومنهج المصطفى كان طريقهم، عندما فهموا أن لا خلود على الأرض إلا بطيب الذكر أضاءوا قلوبهم بحب الله ورسوله وسطروا سيرهم بنهجه طلباً للقرب والرضا وبذلك يتم الخلود.

المصادر:

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير

الحوليات الأثرية العربية السورية



حجر بن عدي [...] - 51هـ]

أبو عبد الرحمن بن عدي بن معاوية بن جبلة
بن عدي بن ربيعة الكندي المعروف بحجر الخير

دمشق مدينة الصحابة والصالحين...

الصحابي حُجر بن عدي بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة الكندي الكوفي.. كنيته أبو عبد الرحمن، ويُعرف بحجر الخير وبحجر بن الأديب تمييزاً له من ابن عمه حجر بن يزيد الموصوف بحجر الشر الذي شهد صفين في جيش معاوية..

نسبه: الكندي نسبة إلى قبيلته كندة، والكوفي نسبة إلى إقامته في مدينة الكوفة..

قال ابن سعد: كان حجر جاهلياً، إسلامياً. شهد القادسية. وهو الذي افتتح مرج عذراء.

يقول ابن كثير في خصوص قصة حجر بن عدي: وروي أنّ زياداً خطب يوماً في الجمعة فأطال الخطبة، وأخّر الصلاة، فقال له حجر: الصلاة، فمضى زياد في خطبته، وعندما مضى زياد في الخطبة خشى حجر فوات الصلاة فضرب بيده إلى الحصار، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه. فلما رأى زياد نزل وصلى بالناس، ثم كتب إلى معاوية في أمر حجر، فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد واحمله إليّ، وتم القبض على حجر، وأحضر الشهود الذين يشهدون عليه أنه سبّ الخليفة، وحارب الأمير، معاوية عندما أمر بقتل حجر وأصحابه جاء رسول معاوية فقال لهم: إنّنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عليّ بن أبي طالب واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم.. قالوا: بل نتولاه ونتبرأ منه. فأخذ كلّ رجل من أصحاب معاوية رجلاً ليقنته. فقال لهم حجر: دعوني أتوضأ. قالوا: توضأ، فلما توضأ قال لهم: دعوني أصلي ركعتين، فأبى الله ما توضأت قطّ إلاّ صلّيت ركعتين، فتركوه يصليّ، فلما صلّى قال: والله ما صلّيت قطّ أخف منها، ولولا أن تظنّوا جزعاً في الموت لاستكثرت فيها.



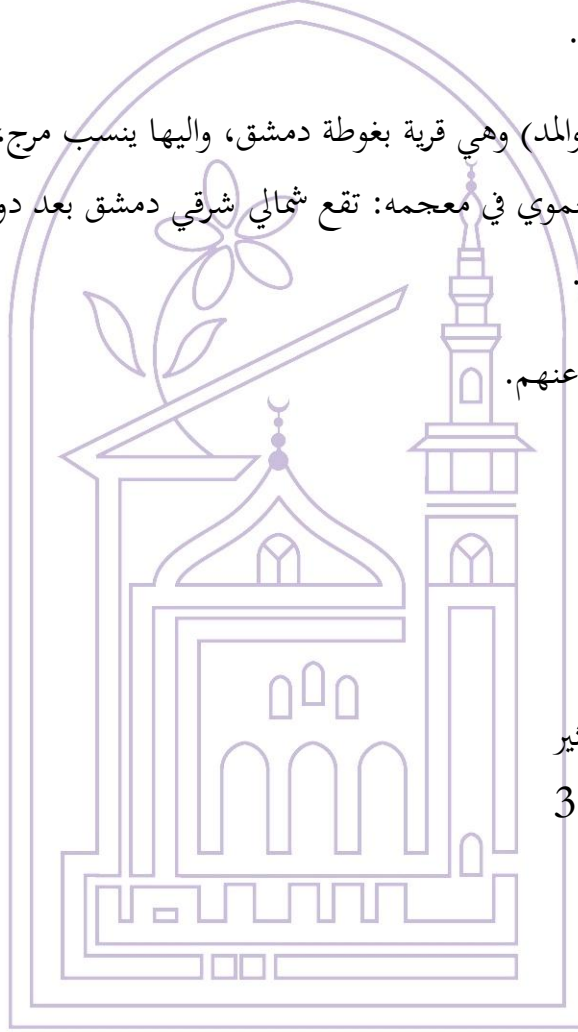


قال ابن سعد: وذكر بعض رواة العلم أنه وفد إلى النبي مع أخيه هانئ بن عدي، وشهد القادسية، وهو الذي فتح مرج عذرى، وكان في ألفين وخمسمائة من العطاء وكان من أصحاب علي بن أبي طالب، وشهد معه الجمل.

وفي (أسد الغابة) كان من فضلاء الصحابة، وكان على كندة بصفين وعلى الميسرة يوم النهروان، وشهد الجمل أيضاً مع علي (عليه السلام) وكان من أعيان أصحابه، وكان قتله سنة 51 هـ وقبره مشهور بعذراء، وكان مجاب الدعوة.

عذراء (بالفتح ثم السكون والمد) وهي قرية بغوطة دمشق، واليها ينسب مرج، وهي أول قرية تلي الجبل وبها منارة.. قاله ياقوت الحموي في معجمه: تقع شمالي شرقي دمشق بعد دوما على طريق ضمير على بعد (25 كلم) عن دمشق.

رحمهم الله أجمعين و رضي عنهم.



المصادر والمراجع:

- . أسد الغابة / لابن الأثير
- . البداية و النهاية / لابن كثير
- . الحوليات الأثرية / مجلد 35



حرملة بن الوليد

الصحابي المدفون في غوطة دمشق

إخوتي القراء:

استقطبت دمشق منذ القدم عظماء التاريخ ليسطروا فيها أروع السجلات، وبعد أن وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها الأرض المباركة، إذ قال: (.. يجتبي إليها صفوته من عباده)، نتساءل.. من هم هؤلاء الصفوة؟

لقد ثبت عبر التاريخ وعلى مر العصور أن مدينة دمشق هي مقصد الصالحين المستحقين لحمل لقب صفوة الخلق، بدءاً بالصحابة رضوان الله عليهم، ثم التابعين والعلماء الربانيين.. فقد دُفن في دمشق وأريافها الكثير من هؤلاء، وإن الوقوف عند سيرهم بوعي وتأمل يُلهمنا حسن التدبر والاعتبار لنُحسن التصرف على أرض مباركة تراها معجون بدماء خيرة العباد... بهذه النسمات الايمانية نمضي وإياكم سائلين الله عز وجل أن يجعلنا خير خلف لخير سلف..

قديم خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الشام مع جيش أبي عبيدة بن الجراح ومعه أخوه حرملة بن الوليد، والذي استقر بعد الفتح الإسلامي في قرية تدعى (جوبر) في الغوطة، عاش فيها إلى أن توفي وهو يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجد قبره فيها ومسجداً سُمي باسمه.

مكان المسجد: في المتحلق الجنوبي باتجاه جوبر، وقد كان هذا المكان من المسجد فيما مضى مكاناً تتجمع فيه قوافل الحج المتجهة إلى الديار المقدسة، يدعون المولى بالتوفيق والسلامة ببركة هذا الصحابي حرملة بن الوليد...

نسبه: هو حرملة بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي، أخو سيف الله خالد بن الوليد، وقد ذكر ابن عساکر: كان عند دير البقر بدمشق ديران، أحدهما لخالد بن الوليد أقطعَه أبو عبيدة، والآخر لأخيه حرملة بن الوليد مع قرية بالغوطة تُعرف ب(دير حرملة) بعد أن كاتب أبو عبيدة فيها عمرَ فأذن له.

هذا ما وُجد في المصادر عن حرملة بن الوليد... ويكفيه فخراً صحبته سيد الخلق ومن ثم تبليغ ما بلغ النبي ﷺ، ومن ثم زيادةً في الطاعة سُكنى الشام المباركة، وطوبى للشام بذلك..



المصادر:

أسد الغابة في معرفة الصحابة / لابن الأثير.

سير أعلام النبلاء / للذهبي.



حياة بن قيس بن رجال بن سلطان [501 – 581هـ]

الحراني الأنصاري الشيخ الكبير الولي الشهير



نقرأ فاتحة الكتاب سائلين الله حسن الاتباع، فمن هذا الشيخ القدوة ذو الأحوال والكرامات، و الذي زاره السلطان نور الدين الزنكي فقوى عزمه على جهاد الصليبيين، وزاره القائد صلاح الدين الأيوبي وسأله النصيحة والدعاء، وكان ممن حضر في عام 555 هـ المكرمة والمنحة التي منحها الله عز وجل للشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله بتقبيل يد الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي الشريف أمام آلاف الناس في الحجرة العطره الشريفه، وجميع المصادر تذكر الحادثة ثم تقول: وكان ممن حضر الحادثة من أكابر ذلك العصر؟

إنه الشيخ القدوة صاحب الكرامات المتواترة، الولي الشهير، حياة بن قيس الحراني...

إخوتي القراء:

مدينة دمشق تحتضن في ترابها الطاهر عدداً كبيراً من الأولياء الصالحين، ولتذكر أن الأولياء لا يُشترط أن يكونوا شيوخاً أو دعاة، فالوليُّ الذي يقيم أركان الإسلام وسريرته بيضاء نقية من غير غل ولسانه نظيف من الغيبة والنميمة والكذب والكلام البذيء. (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

فباب الولاية مفتوح أمام المسلمين جميعاً، إن كان أباً أو أمّاً يجتهدان في تقديم ذرية صالحة تدخلهم في منافسة شريفة طاهرة أرادها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: **(تناكحوا تكاثروا فإني مباحكم الأمم)**.

والمباهاة الحقيقية بإقامة ما يجب الله ورسوله لقوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** **﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

فمن قراءة عميقة لسير الصالحين تنزل الرحمات وتقوى الهمم في النفوس فهيا نقرأ ولساننا يدعو الله عزَّ وجلَّ أن ينفعنا بما يعلمنا.. وأن يُدخلنا في زمرة الأولياء الصالحين...

اسمه ونسبه:

حياة بن فيس بن رجال بن سلطان الأنصاري، الحراني، ولد بجران و تذكره المصادر أنه من أجلاء المشايخ وعظماء العارفين وأعيان المحققين صاحب الكرامات والمقامات والكشف الجلي حتى كان يحل به مشكلات القوم، فكان أهل حرّان يستسقون به فيسقون وله أقوال حكيمة منها:

* حقيقة العرفاء إقامة السر عن رقدة الغفلات.

* فراغ الهمم عن جميع الكائنات.

* ومن أحب أن يرى خوف الله تعالى في قلبه ويكشف بأحوال الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا في سنة أو فريضة.

* وما حرم من حرم عن الوصول ومشاهدة الملكوت إلا بشيئين سوء الطعمة وأذى الخلق.

وكان يقول وينصح:

* تعرض لرقعة القلب بمجالسة أهل الذكر واستجلب نور القلب بدوام الجهد.

* ومن علامات المرید الصادق أن لا يغتر عن ذكره، ولا يمل من حقه، ويلزم السنة والفريضة.

* واجعل الزهد عبادتك، واحذر أن تجعله حرفتك.

* والمحبة سمعة المعرفة، وعنوان الطريقة يتوصلون بها إلى بقاء المحبوب.

وكان الشيخ كلمة إجماع بين أهل بلده حرّان وهي قرية في غوطة دمشق.

صفاته:

أنه كان بشوش الوجه ولين الجانب ورحيم القلب، كان سخياً كريماً صاحب ليل وتبتّل، محباً لله راجياً عفوه وكرمه فهو في الليل قائم ولسانه ذاكر وفي قلبه خاشع.

رحمه الله تعالى، زاره الملوك والسلاطين طالبين النصيحة والدعاء فقد زاره السلطان نور الدين الزنكي وسأله الدعاء فقوى عزمه على الجهاد ضد الفرنج ودعى له، وكذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي طلب منه الدعاء رحمهم الله جميعاً وجعلنا خير خلف لخير سلف.

من سيرته الجليلة، نتلمّس معاني الحكمة العطائية القائلة:

(بجتهد فيما ضمن الله لنا من الاستخلاف ونقصر فيما طلب منا من العبودية ونطالب مولانا بالنتائج) .

فالإخلاص لله عز وجل في السر والعلن عنوان عبودية الإنسان لربه على الأرض، والله كتب الإحسان في كل شيء: القول والعمل والعبادة والمعاملة، لذلك نجد العلماء الصوفيين قد نجحوا في عبادة السر والعلن، فوقف السلاطين والملوك يطلبون دعاؤهم.

أما عن شيوخ العالم الصوفي حياة بن قيس فمنهم: أبو عبد الله الحسين البواري، تلميذ مجلي بن ياسين. رحمهم الله تعالى.

كان ملازماً لزاويته بحرّان لخمسين سنة متواصلة وتوفي سنة 581هـ ودفن فيها.



رحم الله الشيخ حياة بن قيس الذي كان من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، باتباع النبي الكريم حق الاتباع، فكان من أئمة الهدى والنور، جعلنا الله عز وجل ممن يقرؤون ويستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم آمين.

المصادر:

(البداية والنهاية) لابن كثير.

(سير الأعلام) للذهبي.



خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي [696هـ - 764هـ]

صلاح الدين أبو الصفا المؤرخ والأديب

صاحب التصانيف دفن بالمقبرة الصوفية

إخوتي القراء:

ندعوكم للتعرف على مؤرخ عُرف بأديب عصره، قدم إلى دمشق من مدينة صفد في فلسطين، كغيره من العظماء الذين عشقوا العيش في دمشق وآثروا أن يدفنوا فيها، فهي أرض السلام والأمان عند وقوع الفتن كما اخبرنا الحبيب المصطفى صلوات الله عليه، وكان يُكْتَبُ هذا المؤرخ بالصفدي نسبة لصفد، اشتهر بكتابه لتراجم الرجال المعروف باسم (الوافي بالوفيات). وغيرها من المؤلفات الكثيرة، إذا فهو صفدي المولد ودمشقي النشأة و الوفاة.

لنستمع إلى ما يقوله في مقدمة كتابه الشهير (الوافي بالوفيات) والإنصات لأخذ العبرة، بتقدير وإجلال لهم فماذا قال الصفدي؟

(جمع المؤرخون رحمهم الله أخبار تلك الأخبار، ونظموا سلوك تلك الملوك، وأحرزوا عقود تلك العقول، وصانوا فصوص تلك الفصول، فوقفت على تواريخ ماتت أخبارها في جلدتها، ودخلت بتسطيرها الذي لا يبلى جنة خلدتها... قال المتنبي يرثي التتوخي:

ورأيت كلاً ما يعالل نفسه بتعلة وإلى الممات يصير

إني لأعلم وللبيت خبير أن الحياة ولو حرصت غرور

وما نحن إلا مثلهم غير أنهم مضوا قبلنا قدماً ونحن على الأثر

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى توهمته قد عاش أول الدهر

وتحسبه قد عاش آخر دهره إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر

فقد عاش كل الدهر من كان عالماً كريماً حليماً فاغتنم أطول العمر

ثم يقول الصفدي: ((وربما أفاد التاريخ حزمًا وعزمًا وموعظة وعلمًا، وهمّة تُذهب همًا، وبياتًا يزيل وهنًا ووهماً، وحيلاً تُثار للأعادي من مكامن المكائد، وسبلاً لا تعرج بالأماني إلى أن تقع من المصائب في مصائد... فكم تشبّث من وقف على التواريخ بأذيال معال تنوعت أجناسها، وتشبه بمن أخلده خموله إلى الأرض وأصعده سعده إلى السهى، لأنه أخذ التجارب مجاناً ممن أنفق فيها عمره، وتجلّت له العبر في مرآة عقله، فلم تطفح لها من قلبه جمرة، ولم تسفح لها في خده عبرة، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.. فأحييت أن أجمع من تراجم الأعيان من هذه الأمة الوسط...)).

فمن هو؟

اسمه ومولده:

هو الإمام الأديب المؤرخ والناظم النائر الشيخ خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي أبو الصفاء، الشافعي، صلاح الدين الصفدي. ولد في صفد في فلسطين سنة 696هـ.

نشأته:

حفظ القرآن صغيراً وتعلم في دمشق مهنة الرسم فبرع فيها، وفي العشرين من عمره أقبل على العلم والأخذ من الشيوخ وعلماء ذلك العصر بشغف ونهم، وتنقل بين مصر وصفد ودمشق طالباً للعلم ومعلماً.

ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان وكتب الخط الجيد، وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى العشرين سنة، فطلب العلم بنفسه ثم أكثر من النظم والنثر والترسل والتواقيع.

شيوخه:

أخذ عن الشهاب محمود وابن سيد الناس وابن نباتة وأبي حيان وابن جماعة. وغيرهم. وقرأ على الشيخ الإمام تقي الدين السبكي كتاب (شفاء السقام في زيارة خير الأنام). وسمع بمصر من يونس الدبوسي ومن معه. ودمشق من المزري والذهبي وابن كثير والحسيني وجماعة.

مناصبه:

تولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق.

مؤلفاته:

أخذ بالتأليف بعد قراءة متبصرة لكتب التاريخ وسير الصالحين، فجمع تاريخه الكبير الذي سماه الوافي بالوفيات في نحو ثلاثين مجلد، ومصنفات كثيرة زهاء المئتين مجلد منها:

ألحان السواجع، دمعة الباكي، كشف الحال من وصف الحال، نكت الهميان، الحسن الصريح في مائة المليح، الوصف والتشبيه، غوامض الصحاح، نصرة الثائر، جنان الجناس، التذكرة، ولامية الصفدي المعروفة باسم الجد في الجد والحرمان في الكسل، وغيرها من المجلدات الكثيرة.

وقد اصطلح اسم المجلد على الكراسة التي تقدر بعشرين صفحة أي عشر ورقات، يعني أنه كتب حوالي 12000 صفحة، وشهرته في التاريخ والتراجم عي أعظم شهرة، وعرف عنه بأنه ذواق في اختيار موضوعات كتبه رحمه الله.

تقول المصادر عندما جمع الصفدي تاريخه الكبير (الوافي بالوفيات) أفرد منه أهل عصره في كتاب سماه (أعوان النصر وأعيان العصر)، ويعد من ألمع المؤرخين في عصره، وأديب كبير من أدباء القرن الثامن للهجرة، وناقدا أدبيا كبيرا.

مناقبه وأقوال العلماء فيه:

كان محببا إلى الناس حسن المعاشرة جميل المودة وذو هممة عالية في حب التحصيل من العلم والدين، مدحه العلماء وشهدوا له بخير شهادة ترجى من علماء ذلك العصر، واشتهر بينهم بأديب عصره. أما ماذا قال عنه علماء عصره فلنقرأ بتأمل:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة) كان الصفدي محببا ودودا بين الناس، وقد تصدى للإفادة بالجامع، وسمع لشيوخه الذهبي وابن كثير وغيرهم.

وقال الذهبي في حقه: الأديب البارع الكاتب شارك في الفنون وتقدم في الإنشاء وجمع وصنف، وسمع مني وسمعت له وله تواليف عده وكتب وبلاغة.

وقال الحسيني: إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.



وقال ابن كثير: كتب مايقارب مائتين من المجلدات.

وقال ابن سعد: كان من بقايا الأخيار الرؤساء، وجد بخطه خمسمائة مجلد.

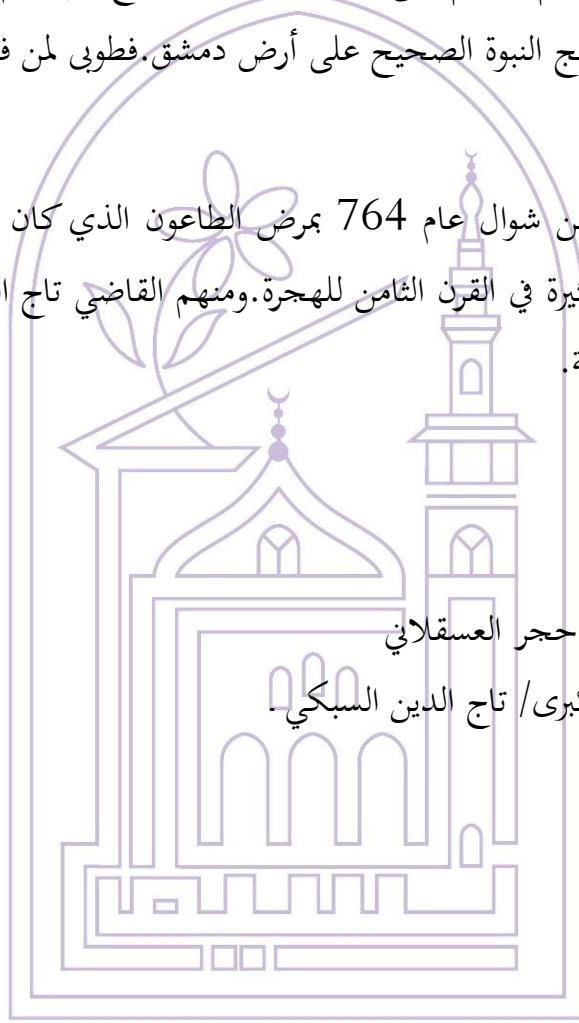
وقال تاج الدين السبكي: كانت له همّة عالية في التحصيل، فما صنف كتاب إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو لاسيما أعيان العصر، وتاج الدين ابن شيخه تقي الدين، لاضير فالدخول من بوابة العلم والفهم على الله تتطلب منا التواضع والإحترام بالعمل قبل القول لعلماء افنوا حياتهم بالإشتغال بمنهج النبوة الصحيح على أرض دمشق. فطوبى لمن فهم وعمل بذلك.

وفاته:

توفي رحمه الله في العاشر من شوال عام 764 بمرض الطاعون الذي كان منتشرًا في الديار الشامية والمصرية، فحصد أرواحًا كثيرة في القرن الثامن للهجرة. ومنهم القاضي تاج الدين سبكي. رحمهم الله. ودفن الصفدي في الصوفية.

المصادر والمراجع:

- . الدرر الكامنة/ ابن حجر العسقلاني
- . طبقات الشافعية الكبرى/ تاج الدين السبكي
- . الأعلام/ الزركلي



ذو مخمر ويقال: ذو مخبر الحبشي ابن أخ الملك النجاشي خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدفون في حي القنوات بدمشق

إخوتي القراء:

في دمشق العريقة حي رائع خارج السور القديم يدعى حي القنوات، والذي كان يسمى (حارة البكوات والباشوات) نسبة لمؤسسيه من أثرياء دمشق، وأخذ حي القنوات اسمه من أحد أهم فروع نهر بردى، إذ أن تخطيطه يسمح بإيصال المياه إلى أكثر أقسام المدينة، حيث يتفرع من ناحية الشاذروان ويخترق الحي لتسهيل مياهه ضمن قناة رومانية محمولة على قناطر حجرية ليتم سقاية المدينة القديمة... ويبدو أن ارتفاع مستوى المياه في نهر القنوات دعا الرومان إلى رفعه فوق قناطر حجرية تمتد من مدخل القنوات حتى مدخل جادة التعديل، ولكنها هدمت من قبل تيمور لنك عندما غزا دمشق ولم يبق سوى واحدة من العهد الروماني، فجاءت أهمية هذا الحي عبر التاريخ من كونه خزان مياه دمشق، وحدوده اليوم شارع النصر شمالاً والمجتهد جنوباً وخالد بن الوليد غرباً والبدوي شرقاً، في هذا الحي بُدِحَ محلة تسمى (ذو مخمر الحبشي)، حيث يقال في الحوليات الأثرية أنه دُفِنَ فيها (ذو مخمر)، صحابي حبشي قد ذُكِرَ من خدم النبي الكريم.

وقد تناولت سير الأحباش كتب التاريخ الكبرى وكتب الرجال وكتب السيرة والتفسير... فالحبشة من حيث التعريف الجغرافي تقع غرب البحر الأحمر قديماً، وكانت متجرراً لقريش، أما حديثاً فقد انقسمت إلى دول متعددة بعد ظهور أطماع الاستعمار في نهب خيرات العالم...

وفي لسان العرب: الحبش جنس من السودان، وهم الأحباش والحبشان، وقيل هم الجماعة أيأ كانوا، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا...

وبالنظر إلى هذا التعريف نلاحظ أنه يعود إلى اللون الأسمر أو إلى الحال وهو الاجتماع والترابط.

أما تعريف الصحابي مشتق من الصحبة، وهي المعاشرة، وصحبة الرسول هي تكريم من الله لجماعة من البشر اختارهم سبحانه ليكونوا بمعية النبي الكريم لكل أحداث عصر النبوة.

فقد التف حول النبي خليط من البشر والأجناس والألوان والبلدان يجمعهم الإيمان بالله ورسوله، والأحباش من الذين أكرمهم المولى بذلك.

فلما سمعوا بالنبي والقرآن فاضت أعينهم من الدمع آمنوا به وصدقوه لمعرفةهم بما كان يوصف به في الإنجيل، وفي مقدمتهم ملك الحبشة النجاشي، آمن بنبوته النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أرسل ابن أخيه ذو مخمر ليخدم النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن اجتذبه نور الإسلام وأسلم مع عمه.

فمن هو ذو مخمر الحبشي؟

الذي هاجر إلى دمشق الشام بعد وفاة النبي الكريم متمماً طاعته لنصيحة النبي الكريم في الهجرة إلى الشام فقال: (عليكم بالشام، عليكم بالشام)، ولتشتهر محلة في حي القنوات باسمه، والتي يقال أنه دُفن فيها...

اسمه:

تقول المصادر: أن اسمه ذو مخبر، ويقال ذو مخمر الحبشي، ونقل عن المؤرخين القدامى أن النجاشي أسلم وأرسل ابن أخيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخدمه، وكان ممن قدم المدينة من الحبشة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا 72 رجلاً، لزم النبي المصطفى يخدمه، وقد ذُكر في موالى النبي الكريم، وله أحاديث عن النبي مخرجها عن أهل الشام، وهو معدود فيهم.

هاجر إلى الشام وروى عنه: جبير بن نفيير، وخالد بن معدان وأبو الزاهرية حدير بن كريب ويزيد بن صلح، أخرج من أحاديثه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه.

لقد كان لهؤلاء الفضل في نشر علوم الكتاب والسنة في دمشق الشام، ومسند الشاميين من أكبر مساند البلدان مما يدل على دورهم الكبير في نشر الحديث النبوي الشريف...

لم تذكر المصادر من سيرته إلا ما قد ذكرناه... والمهم في الأمر أن نزداد من إيمان قد نقص على مر السنين، ونتيقن بيقين قوي أن هذه الأرض مباركة إلى يوم القيامة، تحتاج منا أن نرسخ المعرفة ونزداد علماً وأدباً، فالصحاباء الكرام نالوا شرف الصحبة والافتداء والطاعة، ونحن سننال شرف سكنى هذه الأرض بالعلم النافع أو العمل الصالح أو الذرية الصالحة... بإذن الله، ولنعتبر ونقتدي بهديهم.

وفاته:

إن المشهور عند أهل الشام أنه مات فيها ودُفن في حي القنوات في المحلة المشهورة باسمه اليوم.

فالشام دمشق كانت ولا زالت مطمح سكنى الصحابة والتابعين والعلماء الصالحين لكثرة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، في فضل الشام ودمشق خاصة، بما نالته من أحاديث النبي في مدح أهلها ووصفهم بخيرة أهل الأرض لتصبح حلم ومطمح كبير ينمو في النفوس والأرواح لينالوا بمباهاة وفخر النبي بهم... فإنا هناء من سدد وقارب وتعلم وعمل صالحا ليتقرب من حبيبه يوم الفلاح...

فلنجدد العهد بنية منبعثة من القلب لتجديد الإيمان بالله ورسوله..

ونقول: اللهم يا من جعلت دمشق درة الكون، ومنحتها ما لم تمنح بلداً، أتمّ عليها نعمتك وهب لها من المؤمنين الصالحين الأخيار من يجسد معاني قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، بقلوبهم الصافية البيضاء السليمة عن كل وصف يباعد عن مشاهدته، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، وبإيمان وتسليم لرب العالمين.

المراجع والمصادر:

أسد الغابة في معرفة الصحابة/ لابن الأثير

البداية والنهاية/ لابن كثير

الاصابة في تمييز الصحابة/ لابن حجر

تهذيب التهذيب/ لابن حجر

الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية/ مديرية الآثار والمتاحف

رابعة الشامية [... - 229هـ] العارفة بالله العابدة مدفونة في دمشق



راحتي يا إخوتي في خلوتي
وحيبي دائما في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضا
وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه
فهو محرابي إليه قبلتي

إخوتي القراء:

نقف عند سيرة إحدى العارفات بالله، و التي اشتهرت بأقوال وأحوال لها في حب وعشق الله عز وجل والشوق إليه.. وما الشوق إلا عبارة عن رحلة روحية يقوم بها الإنسان بوجوده وكيانه إلى الله وحيبه وصفيه..

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾. فإتباع النبي مع المحبة بداية هذا الطريق... طريق العشق الرباني الحمدي المتخلق بمنهج النبوة ..

فمن هي هذه العارفة بالله؟

هي رابعة بنت سليمان الشامية، محدثة من محدثات وعابدات الشام، لها أحوال شتى: مرة يغلب عليها الأُنس، وأخرى يغلب عليها الخوف... وما خاب عبد عاش بين جناحي الخوف والرجاء، فنحن في خوف مستمر من الله عز وجل لأننا لسنا سوى عبيد له تعالى، فهو الرب والإله القادر.. ولكن حبه لنا ورحمته بنا هما اللحن الجميل الذي نغيا به...

تجمع المصادر أن فترة حياتها كانت في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة، فهي تعد من أتباع التابعين، توفيت عام 229 هـ.

يقول الذهبي في سير الأعلام: أنها أصغر من رابعة العدوية البصرية الملقبة بـ (أم الخير) التي توفيت عام 135 هـ وقيل 180 هـ.

ويقول: كان لرابعة الشامية حكايات وكرامات تداخلت مع حكايات رابعة العدوية البصرية، ذلك لأن صيتهما وشهرتهما بلغت الآفاق بالعشق والحب الإلهي...

لكن رابعة العدوية لم تتزوج في حياتها، بينما رابعة الشامية كانت زوجة للشيخ أحمد بن أبي الحواري الزاهد العابد الذي توفي عام 285 هـ

وتخبرنا الحوليات الأثرية أن رابعة الشامية مدفونة عند (المدرسة القيمرية) بدمشق، ومشهدا إلى جانب المدرسة..

من أقوالها:

* ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا رأيت تطاير الصحف، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر..

* إن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوئ عمله فتشاغل به..

*أستغفر الله من قلة صدقي في قولي استغفر الله...

*وقال زوجها: دعوت رابعة فلم تجبني، فلما كان بعد ساعة أجابتنني وقالت: إنما منعي من أن أجيبك أن قلبي قد كان امتلاً فرحاً بالله، فلم أقدر أن أجيبك..

*وقال: إذا طبخت قدرًا قالت: كلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح...

* وكان مما قالت:

وأبحت جسمي من أراد جلوسي	ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي	فالجسم مني للجلس مؤانس
ألزاد أبكي أم لطول مسافتي؟	وزادي قليل ما أراه مبلغني
فأين رجائي منك؟ أين محبتي؟	أتحرقني بالنار يا غاية المنى

ندعو المولى أن ينفعنا ويلهب أرواحنا بالشوق والحب له من دون ابتلاء، وأن يلهم نفوسنا الإنابة المستمرة إليه، والمجاهدة في محراب ألوهيته وربوبيته بذل وانكسار بين يديه، ويصلح أعمالنا وسرائرنا بإحسان ورحمة وتفضل منه...

إخوتي القراء:

لم نجد في كتب التاريخ عن رابعة الشامية سوى ما ذكرناه، لكن من صميم سيرتها يرتشف القلب متعة وأنس، ألا بذكر الصالحين تنزل الرحمت.. ولنكمل معا في وصف حال هؤلاء العارفين بالله.. ربما يحن ويشتاق قلبك لسلوك إيماننا روحانيا يوصلك إلى الحبيب...

هم صنف من أولياء الله وأتقيائه، أعلاهم مرتبة وقربي من الله، ذلك لأنهم يحملون قلوباً طاهرة سليمة وضّاءة تنبض بحب الله ورسوله، ينيرون للخلق السبيل بهذا النور الذي ورثوه من النبوة المحمدية، ليقتدي بهم ويهتدي بهديهم العباد..



فالعارفون بالله يا إحتوي، هم بقية الله في الأرض.. وما أروعهم من وصف وحال، لكن الصعوبة في التطبيق ومجاهدة النفس وهواها، حتى تبقى صافية نقية، ويبقى القلب سليماً طاهراً يتشرف في دخول أجواء معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

واقراً، أخي المتبصر المتأمل، كلمات للإمام الرفاعي، سلطان العارفين، يعرّف المعرفة الإلهية قائلاً: (المعرفة الإلهية، شجرة نورانية ثمينة الجواهر مثمرة الأغصان حلوة الثمار، نقيّة أرضها، عذب ماؤها.. وشجرة المعرفة الإلهية لا يغرستها الله عز وجل إلا في بستان قلب عبد مؤمن سليم من الأحقاد.. فالعارف بالله له أربعة أجنحة: الخوف والرجاء والحب والشوق.. والمعرفة لا تجيء بالتمني والتعني..).

اللهم أدركنا من أحلام الغفلة قبل فوات الأوان، واجعلنا من المعتبرين قبل يقظة الموت...



المصادر والمراجع:

. سير الأعلام/ للذهبي

. صفوة الصفوة/ لابن الجوزي

. الحوليات الأثرية العربية السورية



رقية بنت أحمد بن قدامة [... - 621هـ]

أم أحمد عالمة محدثة والدة المحدث ضياء المقدسي

إخوتي القراء:

مهما عاش الإنسان وبلغ من العمر ما بلغ، سيدركه الموت ولو بعد حين، فنتتهي حياته فوق الأرض... ولكن..

هناك بعض الناس من تمتد حياتهم إلى ما بعد الموت فيبقوا أحياء بما سطره التاريخ لهم من أعمال تنفع الأجيال اللاحقة، هذا على الرغم أنهم أموات في قبورهم مع الأحداث، محققين قول النبي ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

وهؤلاء الصالحين بقيت أسماءهم وأعمالهم، شعلة مضاءة في صفحات التاريخ، تدعو لمن أراد العلم للنفع والفائدة، وللعمل ثم العمل، لقوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

و قال ﷺ: (النساء شقائق الرجال) فعندما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدور الهام للمرأة المسلمة كي تساهم في بناء أسرة ومجتمع متماسك البنيان، عن طريق العلم و الدين و الأخلاق الفاضلة، ولنا فيمن سبقنا من النساء العاملات العاملات، أسوة حسنة، فمن صدقهن أصبحن صورة حقيقية لصحبايات رسول الله صلى الله عليه وسلم، هيا معا نتعرف على سيدة صالحة تذكرها الكتب و المصادر، وهي ابنة الشيخ أحمد بن قدامة. من هي؟ ولماذا يذكرها التاريخ؟

رقية بنت الشيخ الكبير أحمد بن قدامة، أم أحمد.

مولدها ونشأتها:

اتفق المؤرخون على أن رقية ولدت في قرية جماعيل من أعمال نابلس في سنة 536هـ، ولم ينقلوا لنا شيئاً عن تحديد الشهر واليوم الذي ولدت فيه.

أما عن نشأتها العائلية العلمية:

عاشت رقية رحمها الله مع إخوة لها علماء أفذاذ، في أسرة علمية ومدنية، فولدها الشيخ الكبير أحمد بن قدامة، كان خطيباً مشهوراً في قريته، وحريصاً كل الحرص على تربية أبنائه تربيةً دينيةً صحيحة، فوجههم نحو دراسة العلوم الشرعية المخفوفة بحب الله ورسوله، فكان معظمهم علماء - رحمه الله -

وهكذا اتجهت رقية إلى التحصيل العلمي الشرعي لتقر عين والدها، فتابعت المسير بتوجيه منه وطلباً للفهم والعمل عن علم، لقول النبي ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين). بدأت هذه المرأة الصالحة بنهل العلم منذ الصغر مستفيدة من ملكاتها الفطرية، وما ورثته من والدها مترجمة هذا الإرث بالعمل المحب لله ورسوله لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ملامحها العلمية:

بدأت منذ حفظها للقرآن الكريم، ولأحاديث رسول الله ﷺ، فحدثت بالإجازة: عن أبي الفتح محمد بن عبد الباقي، وأبي بكر أحمد بن مغرب الكوفي، وشهادة الكاتبة وغيرهم.

وروى عنها:

الحافظ المنذري، وابنها الضياء، وابن أخيها شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر، وحفيدها الفخر علي بن البخاري.

هذا مما يدل على أثر المرأة المسلمة العلمي والديني منذ العصور الماضية، يوقظ في نفوسنا سؤال دهشة واستفسار، ما سر هذا العلم والعمل؟ وأنا أقول سره في الحب والعشق لله ورسوله وطلباً للقرب منهما يفسر هذه المعاني، الأبناء والأحفاد يحدثون بحديث النبي ﷺ!!!

الوضع العائلي:

تزوجت السيدة رقية بنت أحمد بن قدامة من الإمام عبد الواحد بن أحمد، الذي لزم خاله الشيخ أحمد أبا العباس وأخذ عنه العلم الشرعي، فزوجه من ابنته رقية.

وأنجبت له: الضياء، أكبر محدثي الشام في ذلك العصر، وصاحب المدرسة الضيائية، وآسية، التي عرفت بالعالمة، حفظت القرآن الكريم في الصغر ثم أخذت تلقنه للكثير من النساء، وزينب، زوجة المحدث



البهاء عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، سمعت المحدث الكبير الحافظ أبا طاهر السلفي الأصبهاني وغيره، وصنفت مسموعاتها أحاديث منتقاة عوالم رضي الله عنهم.

أما عن صفات السيدة رقية بنت أحمد رحمها الله:

ولا نقصد هنا الصفات الجسدية الجسمية فهي ليست للتأسي بها، وإن كان لها أهمية للعناية بها من أجل العون لنا في طلب رضا الله عز وجل.

ونقصد هنا الصفات ذات التأثير المباشر في حياتها الخاصة، وعلى علمها، وأثرها الإيجابي في نفوس من حولها، سواء كانت خلقية أو خُلُقِيَّة.

كان لها ذاكرة قوية وممتازة، وحافظة مميزة، وموهبة عظيمة في حفظ مواليد ووفيات المقادسة فكانت مرجعاً لهم.

هذا ما قاله ابنها الضياء، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على قدرة الحفظ، ومَلَكة الاستحضار لديها، وهي أعظم المواهب الإلهية لمن حفظ جوارحه في الصغر فحفظها الله له في الكبر.

ومن صفاتها:

قوة الشخصية أو بمعنى آخر أنها كانت ذات هبة ومكانة بين قومها، وكانوا يخافونها ويوقرونها، فهي تأمر بالمعروف وتنههم عن المنكر بحكمة و موعظة حسنة ، و يقول ولدها العالم المحدث ضياء الدين محدث ذلك العصر، أن مروياته كانت من والدته. رضي الله عنهم.

وفاتها:

توفيت هذه العاملة الجليلة في دمشق عام 621هـ / 1224م، ودفنت في سفح قاسيون، بعد أن شيعت بجنازة حافلة، اعترافاً بفضلها ومكانتها، - رحمها الله -

نسأل الله عز وجل التوفيق والسداد في فهمنا على الله عز وجل، بعملٍ دؤوب، ودعاءٍ مستمر، وبصبرٍ ومثابرة، وتوكل على الله عز وجل.

المصادر:

. شذرات الذهب / لابن العماد



شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عبد الله بن الكندي [... - 18هـ] و عرف بشرحبيل بن حسنة نسبة لأمه

إخوتي القراء:

صحابي من أرض دمشق الحبيبة نتعرف عليه، لتخبرنا المصادر بأنه شارك في حروب الردة، وسيره أبوبكر الصديق رضي الله عنه نحو فتوح الشام. فكان مع قوات المسلمين الأوائل في فتح العراق سنة 12 هـ. شهد معركة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد، وتولى شرحبيل في هذه المعركة التاريخية قيادة كراديس الميمنة، وسار مع يزيد بن أبي سفيان في فتح الساحل اللبناني سنة 15 هـ.

يدعى بشرحبيل بن حسنة، وحسنه هي أمه على ما جزم به غير واحد، وأبوه عبدالله من المطاع بن عبدالله بن عبد العزى بن جثامة بن مالك الكندي، ويقال التيمي.

ويُكن شرحبيل: أبا عبد الرحمن، ويقال: أبو عبد الله.

وقال ابن عبد البر القراطي: كان من مهاجرة الحبشة، معدوداً من وجوه قريش، وكان حليفاً لبني زهرة.

وقال ابن الأثير: أن حسنة أم شرحبيل هي امرأة سفيان بن معمر بن سفيان بن وهب بن حذافة بن جُمح، وكان له منها من الولد: خالد، وجُنادة، ابنا سفيان بن معمر، وسفيان بن معمر، رجل من الأنصار، أحد بني زريق بن عامر، تزوج حسنة ولها من الولد شرحبيل وأخاه.

خرجوا إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، وغلب عليه اسم أمه حسنة، لأن والده مات وهو صغير فبقي في حجرها هو وأخوه.

من صفاته:

كان مؤمناً تقياً، ورعاً، كريماً، مضيافاً غيوراً، يعرف القراءة والكتابة، وقيل أنه كان من كتبة الوحي. وقال ابن حجر العسقلاني: روى شرحبيل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن عبادة بن الصامت.

وروى عنه: ابنه ربيعة والد جعفر، وعبد الرحمن بن غنم، وأبو عبد الله الأشعري وغيرهم، وحديثه في الطاعون ومنازعتة لعمر بن العاص في ذلك مشهورة، أخرجه أحمد وغيره.

توفي سنة ثمان عشر، وهو ابن سبع وستين سنة، بطاعون عمواس، (قال الواقدي: طاعون عمواس، مات فيه خمسة وعشرون ألفاً، قلت: هذا الطاعون منسوب إلى بليدة صغيرة، يقال لها: عمواس. وهي بين القدس والرملة، لأنها كان أول ما نجم هذا الداء بها، ثم انتشر في الشام ومنها يُنسب هذا الاسم).

ومن هذا الوباء توفي أبو عبيد الجراح، ومعاذ بن جبل، وولده، وغيرهم. رضي الله عنهم، أجمعين.

توفي بدمشق ودفن فيها.. ذكر ذلك كثيرون منهم: ابن عساكر في التاريخ، وابن سعد في الطبقات، وابن حجر في الإصابة، مما يرجح صحة نسبة هذا القبر.

رحمه الله و رضي عنه و عن الصحابة أجمعين.

المصادر:

البداية والنهاية / لابن كثير

الإصابة في تميز / الصحابة

تهذيب التهذيب / العسقلاني

الكامل في التاريخ / لابن الأثير

تاريخ مدينة دمشق / لأبن عساكر

الطبقات الكبرى / لابن سعد

عائشة بن عبد الحميد المقدسية [723هـ – 816هـ]

المحدثة العاملة العالية السند أسند أهل زمانها الحنبلية

عائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد المقدسية

إخوتي القراء:

تعد المرأة على مر الأزمنة عاملاً أساسياً مؤثراً على البنية الاجتماعية، فهي تتأثر وتتأثر ليتكامل دورها في المجتمع مع الرجل في إحداث التغيير المنشود في رفعة ورقي الأمم والمجتمعات.

وقد سطرت المرأة في العصور الماضية ومن أرض دمشق أروع الأسطر في جميع المجالات، بمسؤولية واعية حكيمة، فقد كانت الأدبية والفقيهة والقاضية والمقرئة والراوية للأحاديث النبوية الشريفة... وما زالت تساهم بكل طاقتها في رعاية الأبناء والأفراد لتساهم في بناء مجتمع قوي سليم معاني يحمل سمات الرقي والعلم والمعرفة الصحيحة، التي تقرنا من نيل رضى سيد الكون الذي قال: (فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته...).

و ساهمت النساء الدمشقيات إلى جانب الرجال في مجالات شتى، فبنين المدارس في بيوتهن، ومارسن واجباتهن على أكمل وجه، فكن للرجال شقائق بحق. وتركن أسمائهن في سجلات التاريخ نجومًا تلتصق إلى يوم الدين.

هذا وإن بناء أجيال يفاخر بها النبي الكريم في الحياة الآخرة هو أمر يستحق منا العناية والاهتمام، لذا فإن مسؤولية المرأة في بناء مجتمع سوي سليم معاني نفسياً واجتماعياً تبلغ من الأهمية مكانة بالغة الخطورة، من حيث أنها مصدر السكن والحنان والود والرحمة في الحياة الأسرية ثم المجتمعية.

ولنعد معاً إلى القرن الثامن للهجرة، عصر المماليك البحرية (648.784هـجري)، الذي شهد ازدهاراً حضارياً رائعاً جاء متمماً لعصر الأتابكة والأيوبيين في مختلف النواحي، ولنقف عند سيرة محدثة عالمة كانت لها شهرة وذكر بين الناس، وما أكثرهن! ولكن أن ننفض الغبار عن الكتب لتتعلم ونعمل، هنا بيت القصيد...

فمن هي هذه المرأة الصالحة المحدثّة العالية السند؟

إخوتي القراء:

إن من الأئمة المحدثين من السلف الصالح من حملوا على عاتقهم تكاليف الجهاد العلمي والنقل والتوثيق منذ أن نشطت وازدهرت حلقات العلم والتأليف في القرون الأولى، فكان كل جيل يسلم الأمانة من العلم إلى من بعده، لصون وسد الثغرات في وجه الدسائس التي تحاول التشويش على هذا الإرث النبوي... ففي نفس الوقت الذي بدأ فيه جمع الحديث الشريف، وُضعت ضوابط دقيقة للسند والرواية، تمكّن المتبصر من ملاحظة أي وهم أو تدليس..

وتتابع ظهور العلماء المحدثين الأماناء، ونشطت الحركة العلمية النسائية بالتوازي مع ذلك، وفي القرن الثامن للهجرة... برزت أسماء النساء في مناصب هامة في المجتمع، وقد أتينا على ذكر الفقيهة القاضية الشاعرة عائشة الباعونية، وأيضاً عالمة عصرها المحدثّة:

عائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الأصل الصالحية، أم محمد، سيدة المحدثين في ذلك الوقت بدمشق.

مولدها ووفاتها: في دمشق 723. 816 هجري، التي شأت وترعرعت في حضن أسرة علمية دينية تقية، كانت قد احتضنتها دمشق العظيمة فيما سبق من الأيام...

قرأت: صحيح البخاري على الحافظ الحجاز، وروت عن أبي العباس صحيح البخاري بالسمع وتفردت بذلك، وسيرة ابن اسحاق.

وروى عنها: ابن حجر العسقلاني، وقرأ عليها كتباً عديدة.

درست فقهاء: كالواسطي، وزينب بنت الكمال، وزينب بنت يحيى بن عبدالسلام، بالإسماع والإجازة، وقد أجازها الكثيرون، وأخذ عنها الأئمة.

والعلو في السند واحدة من طرق نقل الحديث النبوي الشريف، وطلبه سنة عن سلف، لذلك استُحبت الرحلة، كما قال الإمام النووي.

وتفردت المحدثثة في آخر عمرها لعلم الحديث النبوي الشريف، وكانت سهلة الأسلوب في التعليم والإقراء.

قال الصفدي: كانت أسند أهل الأرض في عصرها.

وقال الحافظ ابن حجر: وهي آخر من حدث عن شيوخها بالسمع والإجازة، ونزل الناس بموتها درجة الآفاق.

وفاتها: توفيت في 4 جماد الأول 816 هجري، وصلي عليها في جامع الحنابلة بسفح قاسيون، ودُفنت بالعفيف بسفح قاسيون . رحمها الله ..

فكن، يا أخي، لحديث المصطفى ملازماً، ولأوراده مذاكراً، واستحضر في القلب ساعة صدق للوقوف بين يدي الخالق، وكن للوقت مغتماً، وتحلّ بالصدق والأمانة، فهما بوابة الولوج إلى الحضرة الإلهية.. وقد كان الصدق صفة ملازمة للنبي ﷺ وعلى الأنبياء أجمع، فقد كان يلقب بالصادق الأمين، ووصفته السيدة خديجة رضي الله عنها عند نزول الوحي عليه بقولها: إنك لتصدق الحديث...، فحريّ بنا نحن المسلمون أن نتأسى برسولنا الكريم في صدقه وأن نجعل من الصدق صفة ملازمة لنا، ولتكن لك، يا أخي، جلسة صدق مع الله في كل حين ترمم بها ما فات... وما أجمل قول الشاعر:

وعود لسانك قول الصدق تحظّ به إن اللسان لما عودت معتاد

فكن للصدق ملازماً ولا تُفحم نفسك في خوض حديث الشائعات، فقد تصبح معول هدم وأنت لا تدرك... وكم أثارت الشائعات من فتن وويلات، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:

﴿كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ﴾

فعلم الحديث بالنسبة لباقي العلوم الإنسانية بمثابة القلب النابض، ومن هنا كانت الحاجة ملحة إلى دراسة كل ما يتعلق بالحديث وعلومه، وما يثار حوله من الشبهات المضللة... فإنني أوصي بتخصيص أقسام في الجامعات والمعاهد العلمية الإسلامية لدراسة تاريخ العلوم والمعارف عند المسلمين.

ولتنصت، إلى توقير العلماء المحدثين لغيرهم من حملة الإرث النبوي، حيث قال الإمام السبكي عندما زار دار الحديث الأشرفية:

أُصَلِّي في جوانبها وأوي

وفي دار الحديث لطيف معنى

مكاننا داسه قدم النواوي

عساني أن أمس بحُرُوجي

هذه هي الشام، وهذه هي دمشق التي قد سكنت في قلوب الصالحين من العلماء، فهي سيدة الأرض بعد الحرمين، وسيكون مؤول الإيمان والإسلام فيها كما أخبر وحدّث خير البرية، وستظل رسائل العلماء لنا عبر التاريخ والعصور باقية: أن نحيا بخلق محمدي دون تحييد لهذا وذاك..

المصادر:

. الدرر الكامنة/ للعسقلاني

. القلائد الجوهريّة/ لابن طولون

. وفيات الأعيان/ ابن خلكان



عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني [865هـ - 922هـ] المعروفة بالباعونية الشيخة العاملة الأدبية أم عبد الوهاب الدمشقية

تحدثت عن نفسها قائلة:

(كان مما أنعم الله تعالى به علي أنني بحمده لم أزل أتقلب في أطوار الإيجاد، في رفاهية لطائف البرّ الجواد، إلى أن خرجت إلى هذا العالم المسجون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته وبدائع آياته، المشوب مرارة بالأقدار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممر لا بقاء لها إلى دار القرار، فرباني اللطف الرباني في مشهد النعمة والسلامة، وغذاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة في بلوغ درجة التميز، أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز، ومنّ علي بحفظه على التمام ولي من العمر ثمانية أعوام، ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف حتى بلغت درجة التكليف). سيرتها ملأت كتب كبار العلماء كالغزي وابن العماد الحنبلي وغيرهم، وصنّف اسمها في موسوعات الشعر العربي الأصيل، حيث كتبت قصائد كثيرة في مدح النبي، وتصدرت قائمة المكرمين في منظمة اليونسكو عام 2006 م...

و لتأمل تغنيها بدمشق، فقالت:

نزه الطرف في دمشق ففيها	كلما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل	كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر	أشرقت من جوهها الأقمار
وتناغيك بينها صارخات	خرست عن نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال	وقصور مشيدة وديار

إخوتي القراء:

تشوقنا لمعرفة هذه السيدة الجليلة، فمن هي ؟

اسمها و مولدها:

عائشة بنت القاضي يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني، المعروفة بالباعونية.

الشيخة الصالحة الأدبية العاملة أم عبد الوهاب الدمشقية أحد أفراد الدهر ونوادير الزمان فضلاً وأدباً وعلماً وشعراً وديانة.

يقول ابن العماد: تنسكت على يد السيد الجليل إسماعيل الخوارزمي، ثم على يد خليفة المحيوي يحيى الأرموي.

ووصفها الشيخ عبد الغني النابلسي: (أنها فاضلة الزمان وحليفة الأدب في كل مكان).

وباعون من قرى عجلون في شرق الأردن، فنسبتها إلى (باعون) تعود لجدها الخامس أو السادس ووالدها مقدسي المولد عام 805 هجري ويكنى القُدسي أما عائشة ولدت في صالحة دمشق في عام 865 هجري، نشأت في بيت فقه وعلم وأدب بين أحضان أسرتها التي سكنت دمشق حبا وعشقا لأرضها المباركة فانعكس ذلك على شخصيتها العلمية والفقهية والأدبية بامتياز... كان الدمشقيون يجلونها ويحترمونها فهي بعلمها المتين والخلق النبوي الأصيل قد فرض هيبتها بين الناس... تخبرنا المصادر أن هذه العائلة تتبع أسلوب التدريس العائلي فجدها تعلم على يد أخيه وأخوها تتلمذا على يد عمهما... وهي تتلمذت وتعلمت وحفظت القرآن في الثامنة من عمرها بين أحضان عائلتها... فما أروع أن نسلط جل اهتمامنا الأسرية التربوية بطريقة علمية دينية ذوقية أدبية تنظر إلى المستقبل بعيون نبوية راقية عالية لينشأ مجتمع صالح سليم معافى من الأمراض الأخلاقية السلوكية والنفسية... اللهم اجعلنا قرّة أعين لنبيك العظيم.

هذه السيدة العاملة الشاعرة تلقت منذ الصغر الرعاية الأسرية الصحيحة، متتبعين منهج النبوة بحب وشغف أسمعتها والدها علوم الدين واللغة والأدب من شيوخ وعلماء الشام ورحلت إلى مصر لتنهل من علمائها فالعلم الأصيل لا يعرف له حدود هذا ما ميز العلماء المسلمين الكبار وتابعت تعلمها على يد شيوخ دمشق الكبار أمثال إسماعيل الخوارزمي ثم يحيى الأرموي...

فصار لها حلقات تدريس وتخرج العلماء الكبار من مجالسها... ولم تتوقف عن التعلم والتدريس وكانت من الخطاطات صاحبة خط جميل كتبت معظم مؤلفاتها بخطها...

نالت إعجاب معاصريها من العلماء وتقديرهم لها لإتقانها علوم الدين والفقه والتصوف بورع وسمو أخلاق أجزت للإفتاء والتدريس ثم أخذت بعد ذلك بالتأليف والكتابة حتى أصبح لديها مجموعة كبيرة من الكتب النافعة للقلب والعقل... جاءت فيما بعد قصائدها البديعية للنبي جائزة لروحها التواقة المشتاقة للنبي بنسمات روحانية عالية الوصف ففاقت شهرتها البلاد.

ومن كتبها:

نظمت بديعتين ومعنى البديعية هو نظم ينظمه الشعراء على وزن البحر البسيط في مدح النبي الكريم: (بديع البديع في مدح الشفييع). (الفتح المبين في مدح الأمين). وأشهر من عرف بذلك البوصيري وابن الفارض وجاءت هذه السيدة من بعدهم لتزيد وتسكب من دلوها في مدح النبي بعاطفة رومانسية روحانية رائعة ولازال المنشدين يتغزلون ويستعيرون من قصائدها الرنانة في الطرب بمدح سيد الكون والبشر...

تقول في مطلع بديع البديع:

فِي حُسْنِ مَطَلَعِ أَقْمَارِ بِنْدِي سَلَمٍ	أَصْبَحْتُ فِي زُمْرَةِ الْعُشَّاقِ كَالْعَلَمِ
أَقُولُ وَالِدَمْعُ جَارٍ جَارِحٌ مُقْلِي	وَالْجَارُ جَارٍ بَعْدَلٍ فِيهِ مُتَمِّي
أَحِبَّةٌ لَمْ يَزَالُوا مُنْتَهَى أَمَلِي	وَأَنْ هُمُوبًا لَتَنَائِي أَوْجَبُوا أَلْمِي
عَلَوْا كَمَا لَأَجَلُوا حُسْنًا سَبَّوْا أَمَمًا	زَادُوا ذَلَالًا فَنِي صَبْرِي فَيَا سَقَمِي
بَلَّغْتُ فِي الْعَشْقِ مَرْمَى لَيْسَ يُدْرِكُهُ	إِلَّا خَلِيْعٌ صَبَا مِثْلِي إِلَى الْعَدَمِ
كَتَمْتُ حَالِي وَيَأْبَى كَتَمَهُ شَجْنِي	بِحُكْمِي الْفَاضِحِينَ الدَّمْعَ وَالسَّقَمِ
أَحِبَّةٌ مَا لِقَلْبِي غَيْرُهُمْ أَرْبُ	وَحُبُّهُمْ لَمْ يَزَلْ يَرِبُ مِنْ الْقِدَمِ
لَهُمْ شَمَائِلٌ بِالْإِحْسَانِ قَدْ شَمَلَتْ	وَعَلَّمَتْ كَرَمَ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ

مُحَمَّدُ الْمُصْطَفَى ابْنُ الذَّبِيحِ أَبُو
الزَّهْرَاءِ جَدُّ أَمِيرِي فَتْيَةِ الْكَرَمِ
خَيْرُ النَّبِيِّينَ وَالْبُرْهَانُ مُتَضِحٌّ
عَقْلاً وَنَقْلاً فَلَمْ تَرْتَبْ وَلَمْ نَهْمِ

. كتاب (در الغائص في بحر المعجزات والخصائص) وهو قصيدة رائية.

. كتاب (الإشارات الخفية في المنازل العلية) وهو أرجوزة.

. كتاب (الملاحح الشريفية والآثار اللطيفة) يحتوي على إنشاد صوفي ومعارف ذوقية.

. (القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيح) أرجوزة ملخصة للسخاوي.

. (المورد الأهنى في المولد الأسنى) باسم مولد النبي للباعونية.

. (فيض الفضل).

لها مصنفات كثيرة في الشعر والنحو والعروض والفقهاء والسنة النبوية زادت على عشرين من الكتب النافعة والمفيدة... ولها موشحات وزجل نظمته بفن وذوق أدبي رفيع ذاع صيتها وأصبحت مشهورة في العصرين المملوكي والعثماني فقد عاصرت أواخر الدولة المملوكية وأوائل الدولة العثمانية، وأهم مرحلة في حياتها عندما سافرت للحج والعمرة ومن ثم جاورت النبي صلى الله عليه وسلم وأخذت في الكتابة بعد أن طافت نسيمات مقدسة من حولها فأمدتها بمدد صلوات ربي عليه...

وفاتها:

توفيت في دمشق عام 922هـ وقبرها في أعلى الروضة أي شمال (جامع المظفري) بدمشق، وهي تربة الموفق المقدسي المتوفى عام 620هـ، وتربة الروضة أعظم تربة في السفح وسبب تسميتها بالروضة أنها رؤيت غير مرة أنها روضة من رياض الجنة بعد أن دفن فيها الموفق رحمهم الله جميعاً.

المصادر:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد.



أعلام النساء / لرضا كحالة.

معجم المؤلفين / لرضا كحالة.

الأعلام / للزركلي.



عباس بن مرداس وخفاف بن ندبة من الصحابة المدفونون في مسجد السنجق دار



إخوتي القراء:

ندعوكم للتعرف على صحابة مدفونين في دمشق الحبيبة، خارج أسوارها القديمة في مسجد السنجق دار ... و لنقف نستشعر عظمة رسولنا العظيم، و عظمة ما بلغ عن ربه عز و جل، كيف ستكون نهاية العالم من الشام دمشق، بنزول عيسى عليه السلام فيها.

نتعرف على صحابته الكرام المؤمنين بذلك، فسكنوا في دمشق و عاشوا ثم ماتوا و دفنوا في ترابها، هلموا نسمع حكاية هؤلاء و قلوبنا و ألسنتنا تدعو لمن سبقنا بالإيمان ... تخبرنا المصادر:

أن خُفاف بن ندبة، بالفتح أو الضم، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله: يا رسول الله، أين تأمرني أن أنزل، على قرشي أم على أنصاري، أم أسلم، أم غفار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا خفاف، ابتغ الرفيق قبل الطريق، فإذا عرض لك أمر بصرك، وإن احتجت إليه زدك).

لقد كان هذا الحديث الوحيد الذي رواه خفاف بن ندبة، ووجوده مدفوناً إلى جانب صديقه العباس بن مرداس دليل على تأثره وتطبيقه لحديث المصطفى عليه السلام.

وكلنا يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يأمر بصحبة الأخيار وينهى عن صحبة الأشرار، والله عز وجل أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

والنبي صلوات الله عليه قال: (الرجل على دين خليليه فليُنظر أحدكم من يخال). فهذا الصحابي وصديقه رضي الله عنهما، قد أيقظا في نفوسنا الرغبة القوية في تطبيق ما ورد في الحديث الشريف، ولينظر كل واحد منا في خلوة مع الله عز وجل سائلاً نفسه من يكون صاحبه؟ وكيف هو سلوكه؟

إخوتي القراء:

وتروي لنا المصادر: أن خفاف من الذين ثبت إسلامهم يوم الردة، واشتهر بالفروسية والشعر في بنو سليم، وقد نسب إلى أمه ندبة بنت أبان، وكان من عادة العرب النسب إلى الأم إذا لم يعرف اسم الأب وربته أمه، أو لشهرة الأم بعلم أو خلافه...

ومن أشهر من انتسب لأمه من الصحابة الكرام، ابن أم مكتوم، وكان النبي يستخلفه على المدينة ويصلي بالمسلمين رضي الله عنهم، والصحابي شرحبيل بن حسنة، وغيرهم...

ومنهم خفاف بن ندبة صاحب العباس بن مرداس، كانا من بني سليم التي اشتهرت بين القبائل بالفروسية والشعر، وطار ذكر فرسانها بين العرب، وأصبح لكل فارس حكاية تروى على مر الزمان.

خفاف بن ندبة بنت أبان بن الشيطان، من بنو الحارث بن كعب، وأبوه عمير، ويكنى أبا خراشة، وهو ابن عمر صخر وخنساء ومعاوية، أولاد عمرو ابن الحارث بن الشريد.. اشتهر بالشعر، وكان أسوداً حالكاً من أغربة العرب.

وقال الكلبي: هو خفاف بن عمير بن الحارث بن عمرو بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصبية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهشة بن سليم السلمي.

وقال الأصمعي: هو أحد فرسان قيس وشعرائها، شهد فتح مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو حامل لواء بني سليم يوم الفتح، وشهد حنين والطائف مع الرسول الكريم

وقد أنشد قائلاً عندما قتل مالك بن حمار سيد بني شمع بن فزارة:

إن تك خيلي قد أصيب صميماً
فعمدا على عيني تيممت مالك
وقفت له علوي وقد خان صحبتي
لأبني مجدا أو لأثارهالك
أقول له والرمح يأطرمته
تأمل خفافا إني أنا ذلك

ويقال أنه بقي إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً.

أما عباس بن مرداس، فهو عباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارية بن عبد بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن حي بن الحارث بن سليم بن منصور السلمي.

أبو الفضل، و أبا الهيثم.

قيل: قدم دمشق و ابتنى بها دارا.

ونختم كلامنا في وقفة صمت باحترام أمام سيرة هذين الصحابين اللذين طمعا بأحاديث النبي عن الشام: (عليكم بالشام...) ونحن نعلم كم هي كثيرة، أطاعوه وجعلوا الرفقة قبل الطريق... سكنا دمشق وعاشا فيها بمنهج النبوة وسيرتها العطرة، فكانا من السلف الصالح، ربنا اجعلنا وأهلينا خير خلف لخير سلف، اللهم آمين..



المصادر:

. أسد الغابة في تمييز الصحابة/ لابن الأثير

. الوافي بالفيات / للصفدي



عبد الرحمن الفزاري [624هـ - 690هـ]

تاج الدين الفرّاح الدمشقي الشافعي فقيه الشام

عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاريّ

دمشق مدينة العلم والعلماء، امتدحها النبي الكريم بأحاديث كثيرة تُخبر عن مكانتها الدينية والعلمية الهامة، ففيها سَتَعَلَن غلبة الحق على الباطل على يدي سيدنا عيسى عليه السلام بعد نزوله عند المنارة البيضاء.

في دمشق تجد سير الأعلام والأولياء والأصفياء الكثيرة ممن تحلّوا بالخلق والسلوك النبوي بأفعالهم قبل أقوالهم، ليكونوا ممن يباهي بهم سيد الخلق إن شاء الله.

تعالوا نقف معاً عند سيرة أحد أولئك الصالحين الذي شهد له جماعة من العلماء الثقات بحسن السيرة.. من هو هذا الشيخ الجليل الذي يدعوننا لاستخلاص الحكمة والعظة من صفحات ترجمته؟ إنه عبد الرحمن الفزاري الملقب بالفرّاح، مصري الأصل، سكن دمشق وتوفي ودُفن فيها، لقّب بالفرّاح بسبب حنّف في رجليه، أي اعوجاج.

اسمه و مولده:

الإمام العلامة، الفقيه الشافعي، الأديب الشاعر المؤرخ المفسر المحدث، عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الدين الفزاري، البدري، المصري الأصل، الدمشقي، مُفتي الإسلام، فقيه الشام.. قَدِم دمشق وعاش وتوفي ودُفن فيها، وسمع من علمائها واستفاد من علمهم، ودرّس وناظر وألف كتباً، وإليه انتهت رئاسة المذهب الشافعي، ثم لولده برهان الدين إبراهيم، رحمهم الله جميعاً.

تفقه على يد شيخ الإسلام: العزّ بن عبد السلام، فروى صحيح البخاري عن الزبيدي، وسمع من ابن الصلاح، وحدث عنه جماعة.. بلغ رتبة الاجتهاد وتخرج به جماعة من القضاة والمفتين.

كتب كتباً متنوعة تدل على تبخّره في العلم، كما كان حسن الأخلاق والآداب، كثير الانشغال بالعلم مُحبباً إلى الناس، لطيف الطباع.

شرح (التنبية للشيرازي)، وشرح (ورقات الإمام الحرمين في أصول الفقه)، وله على (الوجيز) مجلدات.

وفاته:

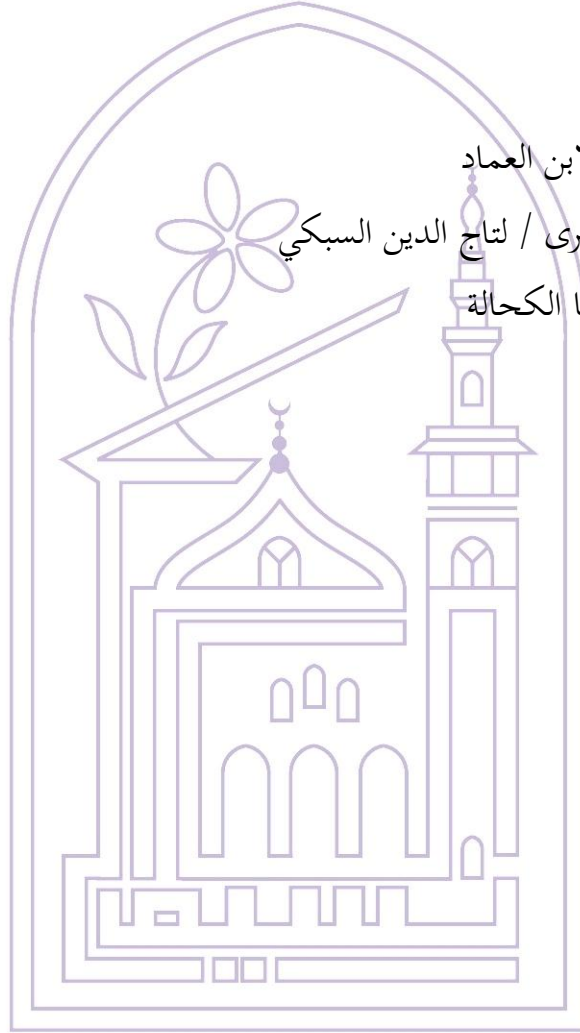
توفي وُدُن في دمشق سنة 690 هـ وهو على تدريس البادرئية، بمقبرة الباب الصغير. رحمه الله.

المصادر والمراجع:

. شذرات الذهب / لابن العماد

. طبقات الشافعية الكبرى / لتاج الدين السبكي

. معجم المؤلفين / لرضا الكحالة



عبد الرحمن بن رجب [736هـ - 795هـ]

الحافظ عبد الرحمن ابن المحدث شهاب الدين أحمد

البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي رحمهما الله

في دارِ الخرابِ تَظَلُّ تَبْنِي
وما تركت لك الأيام عذرا
وتعمّر؟ ما لعمران خلقت
تنادي للرحيل بكل حين
لقد وعظتك لكن ما اتعظت
ونسمةك النداء وأنت لاه
وتعلن إنما المقصود أنت!
وعن الداعي كأنك ما سمعت
وتعلم أنه سفر بعيد
وعن إعداد زاد قد غفلت
فَمَا بَعْدَ الْمَمَاتِ سِوَى جَحِيمٍ
لعاصٍ أو نعيمٍ إن أطعت

إخوتي الكرام:

لقد تربعت دمشق في قلوب المؤمنين الصالحين، فسكنوها وعمروها بأفضل الصفات وأحسن الأعمال، فالنبي صلى الله عليه وسلم بشر أن من يسكنها هم خيرة العباد وصفوة الخلق.

وعلى مر العصور، ظهرت كتب كثيرة، قديمة وحديثة، تتعنى بفضائل الشام، أمثال:

(ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام) لعبد الرزاق الدمشقي، و(بغية المرام سكنى المدينة والشام) لعبدالمطلب الخطيب، و(محاسن الشام) للبدري... وغيرها الكثير، و(فضائل الشام) لابن رجب الحنبلي، وهو بغدادي المولد، دمشقي النشأة والعلم والوفية.

جاء مع والده صغيراً، فتعلم من علمائها، ولزم منابر الوعظ والإرشاد، في فترة تاريخية عصيبة مرت على البلاد والعباد. حيث عمت الفوضى ونشأ اضطراب داخلي بسبب الخطر الصليبي، وذلك في عهد المماليك الشركس.

بقي في دمشق إلى أن مات ودُفن فيها، ناصحاً بعدم الخروج منها، وإن عظم البلاء فيها دعاهم للصبر والمصابرة، لحديث المصطفى القائل: ﴿الشام صفوة الله من بلاده، إليها يجتبي صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخلها من غيرها فبرحمة﴾ مسطراً سيرة رائعة له فوق هذه الأرض المباركة، تستلزم منا قراءتها بتأمل...

ولعلكم تشوقتم لمعرفة من هو ابن رجب الحنبلي؟

ابن رجب الحنبلي: صاحب شهرة علمية واسعة، اشتهر بوعظه التربوي الرباني، وبمجالسه المزدحمة دائماً، التي كان السامع فيها يكتسب رقة في القلب، ومعرفة في العقل.

ولادته:

ولد في بغداد ربيع الأول عام 736هـ، وقدم مع والده إلى دمشق وعمره ثمان سنوات في عام 744هـ، ترعرع وتعلم وعلم في دمشق، فقد عشقها معظماً أحاديث النبي الكريم في فضلها وكان يقول في كتابه (فضائل الشام): (إن من بركات الشام الدينية أن نور النبي صلى الله عليه وسلم، سطرع إليها، فأشرق قصورها منه، فكان ذلك أول مبدأ دخول نور دينه وكتابه فأشرق به، وطهرها مما كان من الشرك والمعاصي وكمل بذلك قدسها وبركتها). فعاش فيها إلى أن مات ودفن فيها. رحمه الله.

اسمه ونشأته:

الحافظ زين الدين وجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ الإمام المقرئ المحدث: شهاب الدين أحمد، ابن الشيخ الإمام المحدث: أبي أحمد رجب عبد الرحمن البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير (بابن رجب).

نشأ في أسرة علمية، حرص فيها والده على اصطحابه إلى مجالس العلماء، فكان أول شيوخه: والده الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن، حيث قرأ عليه ختمة جامعة للقراءات العشر، وكذلك القاضي أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبداً لله المشهور (قاضي الجبل).

وقرأ على الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد العسقلاني القراءات العشر، فساوى والده في علو

السند.

وقرأ على محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز، وعلى إبراهيم بن داود العطار، وغيرهم. أجازه ابن النقيب والنوي، وقام برحلات علمية، فسمع بمكة على الفخر عثمان بن يوسف، واشتغل بسماع الحديث بإشراف وعناية والده... وسمع بمصر من الميذومي ومن جماعة أصحاب البخاري.

انتصب لإقراء القرآن بالقراءات في المسجد الحرام كل يوم بكرة وعشية، ثم جاور النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، وتصدى فيها للإقراء ليصبح مع الأيام مقرئ الحجاز، وقد نفع الله به الناس. استقر في دمشق بعد رحلاته العلمية الكثيرة وسكن بالمدرسة السكرية بالقصاعين، درس في المساجد وبمدرسة الحنابلة.

أكثر من المسموعات، وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنّف، فأصبح أعرفهم بالعلل، وتتبع الطرق، وأثنى عليه علماء كبار لسعة علمه وزهده وورعه وعبادته وتوحيده وتواضعه وبعده عن أصحاب المناصب.

امتلك لغة الوعظ بأسلوب قصائدي مميز، فكان من يسمع وعظه ينتبه من غفلته ويرتاح لكلامه، اللهم اجعلنا ممن سمع واتعظ وانشغل بإصلاح ذاته عن العباد... اللهم لا تجعلنا من الغافلين يا رب...

من مؤلفاته:

له من فوق الخمس والخمسين كتاباً، مثل: (شرح جامع الترمذي)، (شرح علل الترمذي)، (ذيل الطبقات للحنابلة)، (جامع العلوم والحكم في الحديث المعروف بشرح الأربعين)، (فضائل الشام)، (القواعد الفقهية)، (الافتباس من مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم)، (أهوال القبور)، (كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة)، وشرح قطعة من صحيح البخاري سماه (فتح الباري)، وكتاب (الفرق بين النصيحة والتعبير)،

و (لطائف المعارف فيما لموسم العام من وظائف). حيث شرح هذا الكتاب شرحاً وافراً يجعل القلوب تشفق إلى رب الأرباب عن طريق تنبيهها إلى تقصيرها... حيث قال: (الشهور والأيام والساعات، لا تجعلها تُغرك بكثرة عددها، وتعلم أن العمل قد حان والأجل قد آن).

وكتب الكثير من الكتب النافعة التي عاجلت صداً للقلوب وقسوتها. فكان منهجه منهج الطبيب الحاذق يكشف أعراض المرض فيصف له الدواء بدقة، صفاته صفات العلماء الريانيين بحق...

يقول ابن العماد في شذرات الذهب عنه:

(كانت مجالسه تذكيراً للقلوب صارعة وللناس عامة مباركة نافعة، اجتمعت الفرق عليه ومالت القلوب بالحببة إليه، له مصنفات عديدة ومفيدة أتقن الحديث وصار أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبع الطرق، تخرج به أصحابنا الحنابلة بدمشق).

ويقول ابن حجر العسقلاني:

(هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه، تخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق).

مدحه وأثنى عليه كبار العلماء في علمه وخلقه رحمه الله، فكان خير خلف لخير سلف...

وكان قبل كل ذلك قرّة عين لوالديه وأهليه والناس كلهم...

من أقواله:

. (إخواني المعول على القبول لا على الاجتهاد، والاعتبار ببر القلوب لا بعمل الأبدان، رب قائم حظه من قيامه السهر، كم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا نام وقلبه ذاك، وهذا قام وقلبه فاجر).

. (أرض الجنة اليوم قيعان، والأعمال الصالحة لها عمران، بها نبني القصور وتغرس أرض الجنان، فإن تكامل الغراس والبنيان انتقل إليه السكان)

. (أنين المذنبين أحب إليه من زجل المسيحين لأن زجل المسيحين ربما شاباه الافتخار وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار).

وقال: (من لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته، فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن).

وقال: (شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه).

وقال في الترمذي مرفوعاً: ((من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله))، فكان يشدد على آداب النصيحة والوعظ، فالمسلم ليس بالسبّاب ولا باللعان ولا بالفاحش أو بالبذيء، فسباب المسلم فسق وقتاله كفر...

رحمك الله يا شيخنا الجليل، ورزقنا الله قلباً يحب الله ورسوله بصدق فيعمل بما يرضي الله وليس بما يرضي العباد...

فيا أهل الشام، شيخنا يرسل إلينا نصيحة هامة:

لا ترغبوا عن الشام وتمسكوا بنصيحة نبيكم الكريم، اسكنوها وربطوا فيها بطيب الأخلاق، فلن يضركم من خالفكم ولا من خذلكم، اصبروا وصابروا واعملوا على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتذكروا قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لاتزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلم حتى تقوم الساعة))....وله نصائح على شكل رسائل نختار لكم هذه حيث قال: في زمن الفتن التزم العبادة بالقلب واللسان والجوارح لأن في زمن الفتن يتبع الناس أهوائهم فيصبحون بحال شبيهه بالجاهلية الأولى...لقول النبي: ((العبادة في الهرج كهجرة إلي))...

رحمه الله وجزاه كل الخير ومن لامست الرقة والراحة شغاف قلبه، فقد نال من الشيخ جزءاً من روحانياته الإيمانية ألا بذكر الصالحين تنزل الرحمات...

وفاته: (رحمه الله) فيها موعظة لنا، فتأمل أخي القارئ هذه السطور:

قيل إنه جاء إلى حفار للقبور وقال له: احضر لي هنا لحدّ، وأشار له إلى بقعة، قال الحفار: فحفرت له ونزل فيه واضطجع فيه فأعجبه وقال له: هذا جيد، ومات بعد أيام فدفن فيه!

كانت وفاته في رمضان عام 795هـ - (رحمه الله) - ودفن بالبواب الصغير جوار قبر الفقيه الزاهد أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي المقدسي المتوفى عام 486هـ جري.

فاجتهد يا أخي بتزكية نفسك باستمرار في الحياة الدنيا، علك تفوز بنسمات الشوق والسعادة للقاء الله عز وجل... فيصبح الموت طرياً لا كرباً، كسيدنا بلال الذي كان يقول عند احتضاره: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه...



جمعنا الله بهم جميعاً، تحت لواء سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، اللهم آمين.

تعالوا يا إخواني نعوذ أنفسنا وأبناءنا على تزكية النفس باستمرار في خلوة صادقة مع الله، ندعو المولى بذلّ وانكسار أن يحفظنا من شرور النفس وهواها، ولنا في رسول الله، الذي كان يخلو بنفسه في غار حراء، أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...

المصادر:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد الحنبلي.

السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة / للمكي.

درر العقود الفريدة / للمقريزي.

معجم المؤلفين / لكحالة.

الأعلام / للزركلي.



عبد الغني النابلسي [1050هـ - 1143هـ]

الصالحي الحنفي النقشبندي القادري

عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل الدمشقي

خال عن الأغراض والأسباب	نسب المحبة أقرب الأنساب
حجبتك عنك كسائر الحجاب	ومتى تدنسه المحبة بالسوى
دعوى الوجود تغزبفتح الباب	خلص محبتك التي هي فيك من
يوم القاء في حضرة الأحباب	لا تدعى ما لم يكن لك تفتضح
شربوا الكؤوس وخمرة الأكواب	هيمات أين محبة القوم الأولى
منهم به فلهم أعز جناب	وتعلقوا بالغيب لا بتعلق
سلمان منا قالها بصواب	سلمان من آل النبي بها كما

من ديوانه / نسب المحبة

إخوتي القراء:

كان العصر الذي ولد فيه الشيخ عبد الغني، عصر فوضى اجتماعية وانحطاط أخلاقي، سياسياً كانت الدولة العثمانية تحتضن العالم العربي تقريباً في القرن العاشر الهجري، وكانت الأمم الإسلامية مستغرقة في إتباع الشهوات والأهواء حيث ماتت الفضيلة بين الناس، وساد الجهل، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى، هذا قبل بداية العهد الثاني والجديد للدولة العثمانية، فكان عصرُ شيخنا عصر المستبدين، فانصرف العلماء في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والهند إلى التدريس، والإفادة، والباحثون والمفكرون إلى التأليف والتحقيق، والمشايخ والصوفية الريانيون اتجهوا إلى إصلاح النفوس وتركية القلوب.

هذا وقد غلب على أهل العلم في هذا العصر ذوق الشعر والأدب، ليكون وسيلة راقية للوصول بها إلى قلوب الحائرين والتائهين. والشيخ عبد الغني كان، شاعراً، أديباً، عالماً ربانياً، فقيه، مفسر.

نسبه:

ينسب الشيخ إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وأصل أسرته من حماة، واسمه: عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي، المقدسي الشهير بابن النابلسي.

وجده الثاني عشر برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ولد بحماة سنة 596هـ، ثم انتقل إلى دمشق ليتلقى العلوم، وفي عام 675هـ قصد بيت المقدس لزيارته، فمات بعد وصوله بأيام، فبقيت أسرته في بيت المقدس، ودرس أولاده منها، وتعلموا في مساجدها، وعلى مشايخها اخذوا العلوم، ثم تولوا بعد ذلك إلى خطابة المسجد الأقصى وغيره.

وأول من انتقل إلى دمشق منهم جد النابلسي الرابع إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم برهان الدين، فأسرته عُرفت بالعلم والقضاء والخطابة، بدءاً من موفق الدين ابن جماعه إلى عبد الغني النابلسي وهذه من أسباب نبوغه المبكر.

مولده وطفولته:

ولد يوم الأحد في دمشق 4 ذي الحجة عام 1050هـ / 1640م حيث كان والده في القاهرة للتجارة، وتطلعنا الكتب أن الشيخ عبد الغني كان يتفوق على إخوته بالنبوغ والذكاء المبكر، مما مهد لاهتمام والده به، حيث كان والده أول من قرأ على يديه القرآن الكريم في سن الخامسة، وفي سن العاشرة حفظ مقدمات العلوم، الألفية، الجزرية، الرحبية، وحضر دروس والده في التفسير والفقه، وتابع دروس نجم الدين الغزي 1061هـ - 1651 في الحديث تحت القبة في الجامع الأموي، وحصل على أول إجازة في الحديث وفي الثانية عشر في عمره توفي والده، وكتب أول أشعاره في رثاء والده معلمه الأول، ثم تابع تحصيله العلمي تحت إشراف والدته.

وفي العشرين من عمره مارس التدريس في الجامع الأموي في دمشق بالقرب من منزله الواقع في العنبريين.

وشيخنا الجليل ورث حب العلم وتقديسه، وورث ذكاء ونبوغ مبكر، وسط أسرة تربوية تحمل في ثناياها أشكال الورع في السر والعلن، مما مهد لظهور شخصية العارف بالله عبد الغني النابلسي، والذي لقب في ذلك الزمان بـ الأستاذ الأعظم.

شيوخه:

في علوم اللغة العربية: الشيخ محمود الكردي المتوفى (1049هـ) والشيخ محمد المحاسني المتوفى (1072 هـ) وإبراهيم الفتال المتوفى (1098هـ)

في علوم الفقه وأصوله: أحمد القلعي الحنفي (1067) وملا حسين بن اسكندر الرومي وفي علوم الحديث: عبد الباقي الحنبلي المتوفى (1071هـ)، ونجم الدين الغزي المتوفى (1061هـ)، ومحمد بن كمال ابن حمزة المتوفى (1085هـ) وفي علم الفرائض والحساب: كمال الدين محمد بن يحيى الشهير بالفرضي (1088هـ).

وظائفه:

رغم تنوع وغزارة علوم الشيخ عبد الغني، ولكن لم يشغل إلا منصبين: الأول: وظيفة القضاء في محكمة الميدان عام 1075هـ ولم يلبث أن تركها. والثاني: انتخبه أهل دمشق في عام 1135هـ مفتياً لدمشق، ما لبث أن جاء المرسوم السلطاني من إستنبول بذلك. ولكنه لم يلبث أن ترك الوظيفة، ليتفرغ للخلاوة التي ستمهد له الطريق للوصول

خلوته:

اعتزل في بيته سبع سنوات لا يخرج إلا للضرورة، إلا أنه لم ينقطع عن التأليف واستقبال طلابه للتدريس وذكر الله في السر والعلن. ولا ننس أنه منذ الصغر دأب على قراءة سير الصالحين والمتصوفين مما جعله مهياً لهذا الدور الصوفي؛ والخلاوة سنة نبوية شريفة كم تحتاج في الزمان إلى من يُعيد في إحيائها. خرج الشيخ عبد الغني النابلسي بعد سبع سنين إلى الناس الذين ازدادوا في احترامهم له بعد أن رموه بالحجارة.

خرج وعليه هيبة ووقار العارفين بالله، ومنذ ذلك اليوم ذاع صيته في العالم الإسلامي، وبدأ الفتوح الرباني للتأليف، وقد برع أكثر ما برع في الدفاع عن الصوفيين، وجمع شعره الصوفي في ديوان الإلهيات. وأخذ يتردد على ضرائح الأولياء، وقبور الصالحين، يزورهم ويقراً في سيرتهم، ويدافع عنهم عند المنكرين، ويمدحهم نثراً وشعراً.

وتلقى الطريقة النقشبندية عن الشيخ أحمد البلخي الذي زار دمشق سنة 1087هـ. وتلقى الطريقة القادرية عن الشيخ عبد الرزاق الكيلاني عام 1075هـ.

دروسه:

تفرغ بعد ذلك للعلم باحثاً ومصنفاً وشاعراً وأديباً ومعلماً، وكانت دروسه كالتالي: دروس عامة، ودروس خاصة، دروس العامة بعد الفجر وضحوة النهار وبعد العصر، من ثلاثة مواضع: الجامع الأموي، المدرسة السلمية، أما الدروس الخاصة فهي في منزله. ومواد دروسه: تشمل العلوم كلها من مبادئها إلى التخصص بدءاً بعلم الحديث ثم التفسير، الفقه، التصوف.

والشيخ عبد الغني النابلسي هو أول من دأب على تفيقه أهل الصالحية بعلوم المذهب الحنفي والشافعي، بعد أن كان المذهب الحنبلي هو السائد لديهم بالصالحية منذ إنشاء جامع الحنابلة والمدرسة العمرية الحنبلية بصالحية الشام. وذلك بعد أن انتقل من بيته بجوار الأموي إلى بيته في الصالحية. وفي الصالحية لم يتوقف عن إلقاء الدروس في تسهيل التفسير القرآن للبيضاوي، وفي تدريس الفتوحات الملكية لابن العربي.

وظل الشيخ يستقبل طلبة العلم في إيوان داره عدد كبير من طلبة العلم للمذهب الحنفي، وظلت كذلك في عهد ابنه الشيخ إسماعيل وحفيده مصطفى رحمهم الله.

مؤلفاته وكتبه:

كانت مؤلفاته كثيرة، وقد بلغت زهاء ثلاث مئة مؤلف، ما بين كتب ورسائل ودواوين ذكرها خلال رحلته الكبرى، تميز بدافعه عن الصوفية.

ومنها: الوجود الحق وجواهر النصوص في شرح كلمات الفصوص وغاية المطلوب، في محبة المحبوب وهدية الفقير، وتحية الوزير والساحات النابلسية، والسارحات الأنسية وبداية المريد، ونهاية السعيد، وكتاب بذل الإحسان، في تحقيق معنى الإنسان وغير ذلك من الكتب والرسائل...

رحلاته:

بعد خلوته التي تحدثنا عنها قام بعدة رحلات إلى لبنان، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى الشام ومصر والحجاز.

والرحلة الكبرى هي إلى مصر والحجاز والشام في سنة 1105هـ، خرج من داره بجانب الجامع الأموي تحول في دمشق مودعاً وزائراً قبور الصالحين والأولياء والصحابة.

بعد أن طاف في الشام اتجه إلى بيت المقدس، ثم إلى مصر، ثم إلى الحجاز والحج إلى بيت الله الحرام، وهو عائد إلى الشام يموت أخوه فيدفنه، ويتجه نحو الشمال، ليصل إلى تبوك، ومعان، إلى أن يصل لدمشق في يوم 388 من بدء رحلته. بدأت 1105/1/1، وانتهت 1106/2/5.

ومرافقه في رحلته: ابنه إسماعيل، وخادمه، أخوه الذي توفي في طريق العودة.

والنابلسي من المغرمين بالرحلات، فقد كان هدفه زيارة الأولياء الصالحين أحياء وأموات، والتباحث مع علماء هذه الأمصار، والهدف الأخير هو الاستمتاع بالتنزه.

وفاته:

في عام 1119هـ انتقل من بيته في دمشق قرب الجامع الأموي ليسكن في الصالحية حيث توفي بعد مرض ألم به في 24 شعبان 1143هـ/1731م.

ودُفن في القبة التي كان قد بناها في بيته، ثم أُقيم على قبره جامع في بدايات القرن الثالث عشر للهجرة.

ونختم ترجمة الشيخ الجليل بهذه الأبيات من كنوز شعره خلوة القبر أشرف الخلوات.

بلقاء الحبيب في الخلوات

خلوة القبر أشرف الخلوات



يشغل الروح عن إثم الصفات

خلوة القبر للتجرد عما

لسعيد قد ذاق سر الممات

خلوة القبر لذة ونعيم

ودخول في أشرف الجنات

خلوة القبر راحة وسرور

أي جمع أكمل الحالات

حضرة تجمع المتيم فيها

يترقى بها علا الدرجات

هي سعد لكل عبد سعيد

يتدلى بها إلى الدركات

وهي سجن لكل عبد شقي



المراجع:

الإعلام / للزركلي

معجم المؤلفين / رضا كحالة

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي تحقيق رياض

عبد الحميد مراد



عبد القادر النعيمي [845هـ - 927هـ]

الشافعي الشيخ العلامة مؤرخ دمشق وأحد محدثيها

محيي الدين أبو مفاخر عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف

صاحب كتاب (الدارس في تاريخ المدارس)

إخوتي القراء:

في رحلتنا هذه نتجول معاً بين أسطر التاريخ الدمشقي الذي يؤصل مراحل نشأة النهضة العلمية الدينية الثقافية لمدينة دمشق عبر التاريخ، وذلك من خلال قراءتنا المتبصرة لسيرة مؤرخ دمشقي أرخ ازدهار وتآلق الحياة الفكرية لمدينة دمشق، مدينة العلم والعلماء، في كتابه الشهير الدارس في تاريخ المدارس، والذي يعد من الكتب الموسوعية التي تذكرها المؤسسات التعليمية الكثيرة في مدينة دمشق، فيحصي المؤلف عدد المدارس بأنواعها على مر العصور، من دور القرآن الكريم، والحديث الشريف، والزوايا والترب، وأهم المساجد، ومن ثم جاء تلميذه ابن طولون المتوفى 951هـ بكتابه الشهير القلائد الجوهريّة، يحكي ويوثق تاريخ حي الصالحية بأسلوب جديد متأثراً بأستاذه الشيخ عبد القادر النعيمي...

فمن هو الشيخ النعيمي، مؤلف كتاب الدارس في تاريخ المدارس؟

إنه مؤرخ دمشقي محدث عصره.. ساروسار فوق ترابك يا دمشق بودووقار يتلمس علماً نافعاً أو عملاً صالحاً، ليُفيد بعد أن استفاد من علم العلماء الأجلاء الدمشقيين، فما الحضارة إلا نتيجة تفاعل مستمر لجهود الناس مع إرث من مضوا، فهيا نمضي معاً ونتعرف من هو النعيمي؟ وفي قلوبنا شعلة وضأة لا تخبو تبحث وتساءل، تدفعنا سير الصالحين لتعلم أن كيف يكون الإعمار والخلافة فوق أرض الله؟ فلنقرأ ونتفكر...

مولده:

ولد في دمشق في عام 845 هـ، فهو دمشقي المولد والنشأة والوفاة، برع بعلمي الحديث والتاريخ، وتأثر بمؤرخي دمشق الشام الذين شغلهم أحاديث المصطفى العدنان عن الشام ودمشق أمثال: ابن عساكر صاحب كتابه الشهير تاريخ دمشق..

من مؤلفاته:

الأشهر: الدارس في تاريخ المدارس، الذي اشتهر بعدة أسماء كـ (تنبيه الطالب لإرشاد الدارس فيما بدمشق من الجوامع والمدارس) و(الدارس بتواريخ المدارس)، والذي يعد من أجل الكتب التي ألقت عن دمشق، ومصدراً هاماً لدراسة التاريخ العمراني للمدينة، وأيضاً تذكرة الإخوان في حوادث الزمان، و التبيين في تراجم العلماء والصالحين، والعنوان في ضبط مواليده ووفيات أهل الزمان، والقول المبين المحكم في إهداء القرب للنبي صلى الله عليه وسلم، وتحفة البررة في الأحاديث المعتمدة، وإفادة النقل في الكلام على العقل، وغيرها من الكتب.

اختصر كتابه الموسوعي مؤرخون كبار: ابن طولون والشيخ عبد الباسط العلموي ومحمود بن محمد العدوي، والبقاعي من مؤرخي القرن الحادي عشر، ثم عبد القادر بن بدرانو وغيرهم، وإن هذه المختصرات تدل على أهمية الدارس في تاريخ المدارس.

وقد كان أسلوب النعيمي مميزاً، حيث رصد أماكن المدارس بمواقعها، ثم ذكر اسم بانيها وأسماء المدرسين الذين تعاقبوا فيها للتدريس، وقدم معلومات هامة حول أوقاف كل مؤسسة وما آلت إليه في عصره، ثم ذكر أسماء دور القرآن والحديث، والخوانق، والرباطات، والزوايا، والترب، والمساجد والجوامع.

شيوخه:

تلقى النعيمي عناية ورعاية دينية علمية محفوفة بسلوك محمدي من قبل والديه، ثم جاء دور مجالسه التي تعلق بها، مجالس العلم والدين الرشيد، على يد شيوخه: - ابراهيم الناجي شيخ المحدثين، - زين الدين عبد الرحمن بن خليل، - زين الدين خطاب الغزالي، - زين الدين مفلح بن عبد الله الحبشي المصري ثم الدمشقي... وغيرهم.

تلاميذه:

تتلمذ على يديه ابن طولون الصالح المتوفى عام هـ، صاحب كتابه الشهير: القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، والذي جاء مهتدياً بمن سبقه من العلماء، فرصد وعانين تاريخ الصالحية وما مر بها من أحداث من خلال عرضه لأماكنها وأوابدها ضمن إطار تاريخي.



وفاته:

توفي في دمشق سنة 927 هـ، وُدُن في مقبرة الحِمريّة بمحلّة الشويكة، والشويكة: محلّة في دمشق جنوب باب سريجة كان اسمها (بوابة الشويكة)، ثم اختصر إلى الشويكة، وقد قال عنها البدري في كتابه نزهة الأنام: (مقبرة الحمريّة بها المرحومون من الأولياء والصالحين...).

فماذا نستفيد من تأمل في سيرة النعيمي؟

لقد عشق النعيم بضم النون . شامنا المباركة و دمشق الرائعة، فاجتهد ليلزم أدب هذا العشق بالبحث المستمر في ثنايا القلب والروح عن سرّ ذلك الإنسان الذي يتفاعل مع مكونات الأرض ومواردها باحثاً سائلاً ذاته عن مقصد الله في خلقه: (و ما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون)، وإن من لوازم العبادة الاجتهادُ في إيجاد منفعة غيرنا قبل أنفسنا لتستمر الحياة وسلطان ومحبة الله مهيمن على قلوبنا دون أذى و لو بالقلب... هلاً أدركنا وتبصّرنا؟

المصادر:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد

نزهة الأنام في محاسن الشام / للبدري

الأعلام / للزركلي

معجم المؤلفين / رضا كحالة



عبد الله بن أبي عصرون [492هـ - 585هـ]

شرف الدين التميمي الحديثي الموصلبي شيخ الشافعية وقاضي القضاة

أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن أبي عصرون

لمحة عن عصره:

إخوتي القراء:

لقد مر العالم الإسلامي في منتصف القرن الخامس الهجري، بتطورات وتغييرات أدت إلى التأثير على دول العالم الإسلامي.

ف عندما ضعفت الخلافة العباسية، انفصل عنها إمارات صغيرة، وظهرت بعض الدول القوية التي كان لها أثر كبير في محاربة الصليبيين، من هذه الدول الدولة الزنكية في المشرق.

وبشكل عام كان الفساد الاجتماعي والضعف الاقتصادي، من سمات الدول الإسلامية في تلك الفترة، مما مهد لظهور الفرق الضالة والمضلة.

ولكن بحكمة نور الدين الزنكي القوية في التعامل مع هذه الظروف، وجعله لإقامة العدل في المجتمع نصب عينيه، ساهم في سيادة الاستقرار السياسي، والعمل على تنشيط الاقتصاد، كل ذلك أدى إلى إغناء الحركة الفكرية والعلمية للعالم الإسلامي بشكل عام، ولمدينة دمشق العريقة بشكل خاص، وكأنها أخذت تدعو علماء العالم الإسلامي للقدوم إليها والتمتع بفضاؤها العلمي العالي المستوى، تحت ظل سيادة الدولة الزنكية والأيوبية المشجعة للعلم والعلماء بكافة الوسائل.

نسبة ونشأته:

هو عبد الله بن محمد بن هبة ابن المطهر بن علي بن أبي عصرون التميمي الحديثي الأصل، الشافعي، ولد في الموصل 492هـ و قيل 93هـ.

نشأ على حب العلم والتعلم والعمل بما تعلم، ظهرت سماته من خلال قراءة سيرته، حيث حفظ القرآن الكريم وهو في مقتبل العمر، ثم أخذ الفقه من خيرة الفقهاء، ثم أخذت ملامح شخصية الفقهية تتبلور

بقوة، مما دفع نور الدين زنكي إلى بناء مدارس في عدة مدن حلب، حماه، حمص، بعلبك، وجعله المشرف عليها، فأصبحت لديه مع الأيام ملكة فقهية قوية تؤهله لتسلم مهام أعلى في المستقبل.

إخوتي القراء:

إن الغور في سير هؤلاء العظام الذين سطروا تاريخهم في كتب عديدة، ما هو إلا لتحريك الهمم المتقاعسة والمتكاسلة عن الطاعات، والاكتفاء بالمحدود منها، فعندما نقرأ سير علماء مدينة دمشق العريقة، يجب أن نعمل على تحفيز وتحريك مشاعر اليقظة العلمية لدينا بما ينفعنا وينفع غيرنا، خاصة ما ينفع أبنائنا أجيال المستقبل، لنحرك فيهم السعي للعلم المفيد والعمل به، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا.

شيوخ ابن أبي عصرون:

تفقه على المرتضى الشهرزوري والد القاضي كمال الدين، وعلى أبي عبد الله الحسين بن خميس الموصلية

وتلقن على المسلم السروجي، وتلا بالسبع على أبي عبد الله الحسين بن محمد البار، وبالعشر على أبي بكر المزني، ودعوان بن علي وسبط الخياط عبد الله بن علي. والنحو على أبي الحسن بن ديبس. تفقه بواسطة على القاضي أبي علي الفارقي، وأخذ الأصول عن أبي الفتح أحمد ابن برهان.

ثم عاد إلى الموصل سنة 523هـ وسكن سنجار مدة، ثم رحل إلى حلب والتقى بنور الدين زنكي مشجع العلم والعلماء بحب لله، حيث لمس فيه غزارة وبراعة علمه الفقهية، فولاه الاشراف على مدارس عدة.

تلاميذه:

حدث عنه جماعة منهم الشيخ موفق الدين ابن قادمة، وأبو القاسم، والقاضي أبو نصر بن الشيرازي، وعبد اللطيف ابن سيما، والعماد أبو بكر عبد الله بن النحاس والإمام بهاء الدين الجميزي، وغيرهم.

الوظائف التي شغلها:

إن الملكة الفقهية التي امتلكها ابن أبي عصرون ساهمت في شغله منصب شيخ وإمام الشافعية في ذلك العصر، فقد برع في الفتيا والتدريس الشرعي، وتشجيع نور الدين زنكي له، نشأت علاقة ودّ قوية بينهما، حيث اعُرِف عن نور الدين حبه الشديد للعلم والعلماء، فولاه القضاء، والإشراف على مدارس عدة في مدن بلاد الشام، ودرس بالغزاليه في الأموي.

ولاه قضاء ديار بكر ومنحه صلاحيات واسعة، ثم انتقل هذا الودّ إلى صلاح الدين الأيوبي، والذي عُرف عنه أيضاً المحبة ومجالسة العلماء.

فعندما مات قاضي الشام كمال الدين الشهرزوري، تولى القضاء ابن أخيه القاسم بن يحيى بن عبد الله الملقب بضياء الدين، وبما أن القضاء من المراتب العالية، ولا ينفع فيها التوريث، وحباً ورغبة من صلاح الدين الأيوبي، تولى ابن أبي عصرون قضاء الشام، أصدر مرسوماً يقضي بتولييه القضاء سنة 573 هـ. وولى النيابة لأبو المعالي محي الدين محمد بن زكي الدين، عندما فقد بصره ابن أبي عصرون، تولى ابنه محي الدين القضاء كنائب، ولم يعزله صلاح الدين لاحترامه الشديد له، وبقي لسنة 578 هـ، ثم تولى المنصب أبو المعالي بن زكي المنصب 587 هـ.

مؤلفاته:

بدأ ابن أبي عصرون بكتابة مؤلفاته منذ الشباب، فقد كان يمتلك ملكة أدبية أيضاً، حيث قام بالتصنيف منذ أن كان في الموصل، إلى أن أصبح في بلاد الشام.

من كتبه: صفوة المذهب في نهاية المطلب 7 مجلدات، كتاب الانتصار 4 مجلدات، المرشد مجلدين، الذريعة في معرفة الشريعة، التيسير في الخلاف 4 مجلدات، مآخذ النظر والفرائض والإرشاد، والتنبيه في معرفة الأحكام وفوائد المذهب مجلدين، وصنف جزءاً في جواز قضاء الأعمى وهو خلاف مذهبه، وفي جوازه وجهان.

وفاته:

توفي ابن أبي عصرون في 11 رمضان سنة 585 هـ، ودفن في المدرسة التي بناها في منطقة الحميدية والتي تحولت إلى مكتبة لبيع القرطاسية، والتي عُرفت فيما بعد بالعصرونية رحمه الله



المصادر

الوافي بالوفيات / ح 17 / 309

سير الأعلام للذهبي 125 / 21



عبد الله بن أم مكتوم [ت 15هـ]

عبد الله وقيل عمرو بن قيس بن زائدة القرشي العامري

مؤدّن رسول الله ﷺ الضير المبصر

دفن بالبواب الصغير



يدعوننا الصحابي ابن أم مكتوم رضي الله عنه لقراءة سيرته تحت قول الإمام الشافعي (رحمه الله):
من سمع بأذنه صارَ حاكياً... ومن أصغى بقلبه كانَ واعياً... ومن وعظَ بفعله كانَ هادياً...

إخوتي القراء:

جميعنا يعلم بأن الصحابي بن أم مكتوم (رضي الله عنه) كان ضريراً لم يرَ النبي صلى الله عليه وسلم بعينه وإنما ببصيرة قلب مؤمن بالله ورسوله مطيعاً متبعاً لنبي الهدى والرحمة، فكان هادياً بسيرته المفعمة بقول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ {17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ {18}﴾.

يدعونا لنحذو حذوه ونحرص على ديننا بالسؤال والاستفسار، فمن شدة حرصه على الفوز برضى الله ونبه نزل فيه عتاب المولى عز وجل لنبيه الكريم.. فأني بذرة حب وتعظيم لله كان يراها وينمّيها في قلبه؟

حرص على سماع ما يقول معلمه ومربيه من أمر ونهي، وإن أشكل عليه أمر سأله مستفسراً مطيعاً حريصاً: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

ولا دهشة..! فهؤلاء هم صحابة الحبيب المصطفى الذين قالوا: كنا نترك تسعة أعشار الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام... رضي الله عنهم.

إن أي رحلة سياحية ندعوكم للقيام بها سواء كانت وقوفاً على قصة معلم أثري، أو سيرة لأحد الصالحين، هي جزء من حركة ومنهاج حياتنا فوق أرض دمشق الحبيبة، وتعد أسلوباً من أساليب التربية المعنوية النفسية التي أرادها الله عز وجل للإنسان، ألا وهي (الوعظ والاعتبار)..

لذلك يجب أن تكون هذه الرحلة السياحية ذات طابع راقٍ فيها الكثير من الإجلال والتقدير لهؤلاء الذين ترجموا منهج النبوة بسيرهم الرائعة، وربنا القائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾... فالنظر هنا حالة وجدانية نفسية عقلية يجتهد فيها الإنسان على حاله ليميز ويقارن ويتسائل في إدراكٍ ووعيٍ كبيرٍ ماذا يريد الله منا بالتحديد؟

فنكسب الأجر أجرين، أجر الطاعة وأجر المجاهدة..

ليجتهد كل منا بعبارة من هنا وعظة من هناك، والحياة الدنيا مليئة بوسائل وأساليب تسهم في صحوتنا وإيقاظنا قبل فوات الأوان... وقراءة سير الصحابة تعد من أهم الأساليب المعنوية النفسية، لأنها ترشدنا إلى أمر هام: كيف عملوا على إجلال وتعظيم الله كعبادٍ له في نفوسهم أولاً، ومن ثم مطيعين لرسوله بأدبٍ وحبٍ كبيرٍ له: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وعندما نسأل كيف يا رسول الله؟.. يجيبنا: (تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتي..).

وهذه دمشق العظيمة التي تحتضن في ترابها الطاهر عددا كبيرا من الصحابة والأولياء الصالحين، والولي هو الذي أقام أركان الإسلام بسريرة بيضاء نقية لا حقد فيها ولا غل لأحد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحب وشفقة لعباد الله جميعاً (... لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى...)

غداؤهم التقوى، مآكلهم ومشربهم حلال، وألستهم نظيفة من قول فاحش أو غيبة أو كلام بذيء...
بذيء...
بذيء...
بذيء...

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) هذا عنوان الإسلام العظيم ومنهج النبي الكريم وصحابته الأوفياء المتقين... الذين أقاموا الخلافة الحقيقية على الأرض بسيرهم العطرة.. فيها معاً نتأمل...
نتأمل...
نتأمل...
نتأمل...

كان الصحابي الضرير ابن أم مكتوم يلازم النبي صلى الله عليه وسلم مستفسراً خوفاً من أن يفوته أي أمر، بقلب جمع بين الخوف من الله والرجاء برحمة الله عز وجل _ اللهم ارزقنا قلباً تفقه أسرار هذا الجمع بين الخوف منك والرجاء بك، اللهم أمين...
اللهم أمين...
اللهم أمين...
اللهم أمين...

بداية، ابن أم مكتوم من الأوائل السابقين إلى الإسلام في مكة، ومن الأوائل المهاجرين إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما، قدما المدينة المنورة وعملا على قراءة القرآن لأهلها.
أهلها...
أهلها...
أهلها...

اسمه ونسبه:

عبد الله، وقيل عمرو بن قيس بن زائدة القرشي العامري، أمه: عاتكة بنت عبد الله المخزومية. وأبوه قيس بن زائدة، تربطه بالنبي صلى الله عليه وسلم قرابة، فهو ابن خال السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فأم خديجة هي أخت قيس بن زائدة واسمها فاطمة.
فاطمة...
فاطمة...
فاطمة...

وقيل: كان اسمه الحصين فسماه النبي الكريم عبد الله.. وأهل المدينة يسمونه: عبد الله بن أم مكتوم، وأهل العراق يسمونه: عمر بن أم مكتوم، واتفقوا على نسبه أنه ابن قيس بن زائدة الأصم بن رواحه القرشي العامري.
العامري...
العامري...
العامري...

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في كتب السنن، وروى عنه عبد الله بن شداد وعبد الرحمن بن أبي ليلى وأبو رزين الأسدي وآخرون.

كان مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم مع بلال، وسعد القرظ، وأبي محذوره، مؤذن مكة. وروي عن البراء: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، جعلنا يُقرئان الناس القرآن. وقال ابن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا، حتى ينادي ابن أم مكتوم).. وكان أعمى لا ينادي حتى يقال له أصبحت.

كراماته:

قال عروة رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم مع رجال من قريش منهم عتبة بن ربيعة يحدثهم عن الإسلام، فجاء ابن أم مكتوم يسأل عن أمراً ما أعرض عنه النبي ليكمل حديثه مع عظماء قريش، فأنزل الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى...﴾

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلفه في المدينة المنورة لإدارة شؤونها في غيابه وليصلي بالناس إماماً..

وقال بن أبي ليلى: أن ابن أم مكتوم عندما سمع قول الله عز وجل: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله..)، حزن حزناً شديداً، وجلس يناجي المولى عز وجل: يا رب ابتليتني فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ...﴾

فماذا فعل؟ هل جلس في البيت بعد أن رفع الله عنه الحرج؟

تخبرنا المصادر بأنه شارك الصحابة الكرام في بعض الغزوات يحمل اللواء، وفي معركة القادسية شوهده يرفع اللواء واقفاً بين الصفين وعليه درع سابغة..

قلوب نبضت بحب صادق لله ورسوله، فجاءت أعمالهم مترجمة لهذا الصدق..

نفوس تواقه كهذه، مشتاقة للفوز برضى الله والرسول جديرة بأن تكون لنا مصدراً لغذاء العقل والروح، فمن داوم على قراءة سير هؤلاء النجوم اللامعين في فضاء التاريخ الإسلامي مع حسن مراجعة

النفس والضمير بصدق وإخلاص في محراب ربوبية مطلقة لله عز وجل سيصل بإذن الله إلى رضا الرحمن.. وهذا أسمى وأرقى هدف يطمح له الإنسان.. وكلما تعب الإنسان على تيرئة ذمته في خلوة مع الله من قول فاحش أو بذيء أو سباب أو حسد أو غيره أو إتباع هوى نفس، كان من أولئك الذين قال فيهم الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

وابن أم مكتوم في سيرته يعلمنا كيف ندرّب نفوسنا للجلوس مع الله في خلوة نسأله الفتوح والتوفيق لما يحب ويرضى... فلنقرأ يا إخوتي فاتحة الكتاب لروحه الطاهرة.

ختاماً أيها القراء، نأتي على آخر صفحة تُكتب في سيرة الإنسان، وهي وفاته وأين دُفن؟

قال ابن الأثير في (أسد الغابة): شهد القادسية ومعه اللواء وقتل فيها.

وقال الواقدي: رجع إلى المدينة ومات بها ولم يُسمع له بذكر بعد عمر.

وقال الذهبي في سير الأعلام: رجع المدينة ومات بها، وقيل استشهد في آخر شوال سنة 15.

وقال ابن حجر العسقلاني: رجع المدينة بعد القادسية ومات بها ولم يُسمع له ذكر بعد عمر بن

الخطاب رضي الله عنهم.

إخوتي القراء:

إن هذا الخلاف في مكان وفاته مع وجود ضريح له في مقبرة (الباب الصغير) بدمشق قرائن تدل

على احتمال هجرته إلى الشام طاعة للنبي صلى الله عليه وسلم في نصيحته لصحابته الكرام قائلاً:

(عليكم بالشام، عليكم بالشام...)، وقد اشتهر عن الصحابة رضوان الله عليهم الارتحال إلى الشام

طاعةً للحبيب صلى الله عليه وسلم...

أرجو أن يوفقنا الله وإياكم إلى حسن التدبر والاعتبار، وإعادة شحن نفوسنا بحب الحبيب مؤدّبنا

ومربّينا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم... فلنكثر من الصلاة والسلام عليه في نفوسنا، وفي

بيوتنا، رجاءً أن يتجلى منهجه التربوي النبوي الفريد في صفحة حياتنا...

هلاً وقفنا معاً في محراب العبودية لله نسأله أن يرزقنا من نسمات هذا الحب الغالي؟



المصادر:

سير أعلام النبلاء / للذهبي.

الإصابة في تمييز الصحابة / لابن حجر العسقلاني.

أسد الغابة / لابن الأثير





عبد الله بن بسر المازني

آخر من مات من الصحابة في الشام

إخوتي قراء زاوية "معالم و أعيان":

لقد أراد الله عز و جل لمدينة دمشق أن تكون تلك المدينة الهامة بين مدن العالم لما ينتظرها من دور هام في آخر الزمان، و إلى ذاك الزمان ستبقى دمشق متميزة بمن سكنها و عاش و مات فيها راجين المولى أن يجعلنا من صفوة و خيرة الخلق في أرض دمشق، فيالها من متعة روحانية رائعة تنتظرها أفئدتنا العطشى التي تسأل الله أن يجعلنا من خيرة العباد الذين يجتهدون في ترسيخ منهج النبوة المحمدي بحب و رحمة ..

فمن هو ذاك الصحابي الذي سيلهمنا حب و تقدير هذه الأرض المباركة التي دعا لها نبينا الكريم في قوله: (اللهم بارك في شامنا .. اللهم بارك في شامنا)

الصحابي:

عبد الله بن بسر المازني، بن مازن بن منصور بن عكرمة، يكنى أبا بسر. و قيل: أبا صفوان. له صحبة، روى عن النبي نحو عشرين حديثاً.

وروى عنه: محمد بن عبد الرحمن، راشد بن سعد المقرائي، حسن بن نوح، يزيد بن حمير، و غيرهم من أهل حمص.

وروى عنه الشاميون أمثال: خالد بن معدان، سليم بن عامر، راشد بن سعد، و غيرهم.

وقال البخاري: أبو صفوان السلمي المازني أخو بني سليم، و قيل: من مازن الأنصار.

قدم دمشق مجتازاً ساحلها.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه و سلم، عندما رآه قائلاً: يعيش هذا الغلام قرناً، فعاش مائة سنة.





توفي سنة: 88هـجري، و قيل 96، و قيل توفي أيام عبد الملك بن مروان، و قيل مات بجمص، و قيل في دمشق.

وهو آخر من مات من الصحابة بالشام.

رضي الله عن الصحابة الكرام ، و رضي الله عنا أجمعين .

اللهم اجعلنا قرة أعين نبينا الكريم .. فأعنا على حسن تدبر سيرته صلى الله عليه و سلم .



المصادر والمراجع:

. تاريخ دمشق / لابن عساکر 571هـجوي

. أسد الغابة / لابن الأثير 630هـجري

. الإصابة في تمييز الصحابة / للعسقلاني 852هـجري



عبد الله بن قدامة المقدسي [541هـ - 620هـ]

موفق الدين أبو محمد المقدسي الجماعيلي صاحب التصانيف

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي

إخوتي القراء:

تمثل مدينة دمشق العريقة القلب النابض للحضارة الانسانية والاسلامية في العالم العربي، فالتراكم الحضاري البنياني والسكاني المتنوع على مر العصور جعلها تأخذ هذا الدور الهام، كانت ولا زالت العاصمة الثقافية الاسلامية للعالم الاسلامي.

فعندما نقرأ التاريخ نجد نجومًا تلمع فوق تلك الاسطر بوضوح في فخر وعزة تناديناهي نحذو حذوهم للسير في ركب الحضارة من خلال التمسك بمنهج النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فتكون خلافتنا على الأرض خلافة حق وخير.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: (تركتم فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي...).

فالمهمة الأساسية التي كُلف الإنسان بها هي عمارة الأرض مادياً، معنوياً، اقتصادياً، علمياً... إلخ، بما يحب ويرضى الله ورسوله.

وهاهي إحدى العائلات الفلسطينية، عائلة بني قدامة التي كانت قد هربت بدينها من ظلم وجور الصليبيين أثناء احتلالهم للقدس ومدن أخرى عام 492هـ.

قصدوا مدينة دمشق وسكنوا في سفح قاسيون الذي كان مقفراً منعزلاً خارج أسوار دمشق القديمة.

ولكن، كيف عمروا هذا السفح، حتى صار من أهم أحياء دمشق القديمة والذي عُرف فيما بعد بحي الصالحية نسبةً لصلاحهم؟.

وما هو هذا السر الغامض الذي جعلهم مميزين عن غيرهم من السكان الذين شاركوهم الأرض والحياة ذاتها؟ فالأرض والحياة عنصران من عناصر الحضارة، لكنّ أهمّ هذه العناصر هو العنصر الثالث: الإنسان، فهو المحور الأساسي وسر نهضة الحضارات، بما يحمل من مفاهيم ومبادئ خيرة تعم عليه وعلى غيره بالخير المديد.

وكنا سابقاً قد تكلمنا عن الشيخ الكبير أحمد بن قدامة، الذي وضع حجر الأساس في بناء حي الصالحية بإرادة وهمة ابتغى بها رضى الله ورسوله، فجاء أبناءه وأحفاده من بعده، كي يرسوا معالم هذا الهدف السامي، وينالوا مباحة الرسول بهم، يوم لا ينفع الإنسان إلا العمل الصالح.

كما وتكلمنا عن ولده الأكبر: أبو عمر، صاحب المدرسة العمرية، وعن رقيّة، الداعية الحافظة لكتاب الله، وعن رابعة المحدثّة.

أما الآن، فسنتناول الحديث عن الأخ الرابع: العالم الفقيه الجليل، صاحب "المغني"، للمذهب الحنبلي: موفق بن أحمد بن قدامة.

الشيخ الإمام القدوة العلامة المجهّد شيخ الإسلام موفق الدين محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالح الحنبلي.

مولده ونشأته:

وُلد في جماعيل وهي قرية من قرى نابلس قريبة من القدس سنة 541هـ.

هاجر مع أهله وأقاربه وله من العمر 10 سنين، حفظ القرآن الكريم ولزم العمل منذ الصغر... ولنا أن نتأمل ونتصور نشأته التربوية في ذلك العصر الذي تعصف به التحديات عصفاً، الصليبيون يحتلون بعض المدن العربية والقدس وما حولها، فماذا فعل هذا الشاب المقدسي؟؟

بقي مع أهله قبل الهجرة يتلقى العلوم الشرعية الصحيحة ليعرف دينه من دنياه، ويجعل دنياه خادمة لدينه، حفظ القرآن صغيراً، هاجر وهو ابن 10 سنين، وعاش وتعايش مع الظروف الصعبة التي تعرض لها هو وأهله بصبر وعزيمة وإيمان قوي لهدف واضح نُقش وسُطرت معانيه في قلبه وقلوب أهله منذ الصغر بيد والدهم، ذلك الشيخ الكبير رحمه الله، هاجر موفق الدين مع ابن خاله الحافظ عبد الغني

المقدسي زوج أخته المحدثّة رابعة بنت قدامة، إلى بغداد وعمره عشرون عاماً، طلباً للعلم، فأدركا الشيخ الجيلاي قبل وفاته بأربعين يوماً، ونزلا في مدرسته وتعلما واشتغلا بها.

سمعا منه الحديث كما سمعاه من: هبة الله بن الحسن الدقاق، أبي الفتح بن البطي، أبي زرعة بن طاهر، أحمد بن المقرب، علي بن تاج القراء، وشهدة الكاتبة، وغيرهم...

وتلا بحرف نافع على أبي الحسن البطائحي، وبحرف أبي عمرو على أستاذه أبي الفتح بن المني.

وسمع بدمشق من أبي المكارم بن هلال وعدة، وبالموصل من خطيبها أبي الفضل الطوسي، وبمكة من المبارك بن الطباخ.

حدّث عنه:

البهاء عبد الرحمن، و الجمال أبو موسى بن الحافظ، و ابن نقطة، و ابن خليل، و ابن شامة، و ابن النجار، و العز أحمد بن العماد... و غيرهم كثير رحمهم الله.

لقد كان الموفق عالم أهل الشام في ذلك الوقت، وكان مشرفاً إدارياً وعلمياً للمدرسة العمرية التي أسّسها مع أخيه أبي عمر فلنستمع إلى شهادات أهل العلم في عصره عنه.

قال ابن النجار: "كان موفق الدين إمام الحنابلة بجامع دمشق، وكان ثقة حجة، غزير الفضل، نزيهاً ورعاً عابداً، عليه النور والوقار، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه".

وقال عمرو بن الحاجب: "هو إمام الأئمة، ومفتي الأمة، خصّه الله بالفضل الوافر، والخاطر الماطر، والعلم الكامل، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار، أخذ بمجامع الحقائق النقلية والعقلية، وله المؤلفات الغزيرة، متواضع حسن الاعتقاد، ذو أناة وحلم ووقار، مجلسه معمور بالفقهاء والمحدّثين، كان كثير العبادة، دائم التهجد، لم نر مثله، ولم ير مثل نفسه".

إخوتي القراء:

هذه بعض شهادات العلماء لهذا العالم الجليل الذي عاش تحديات تماثل في صعوبتها تحديات عصرنا، غير أن الفرق بيننا يكمن في عمق الإيمان، فهم لم يتحسروا على ما تركوا من بيوت وأراض

ومتع خوفاً على دينهم، بل انشغلوا بزرع هذه البذرة الإيمانية وتنميتها بمجاهدة النفس وهوى الفؤاد المدعوم بالعمل الصالح والعلم النافع.

و ها هو الضياء المقدسي ابن رقية الحافظة أكبر محدّث في ذلك العصر، يصف لنا خاله موفق الدين في جزأين قائلاً: "كان تام القامة، أبيض مشرق الوجه، أدعج، كأن النور يخرج من وجهه لحسنه، واسع الجبين، طويل اللحية، . قائم الأنف، مقرون الحاجبين، صغير الرأس، لطيف اليدين والقدمين، نحيف الجسم، متمتعاً بحواسه". و يتابع الضياء: "أقام هو والحافظ في بغداد أربع سنين، فأتقنا الفقه والحديث والخلاف.

أقاما عند الجيلاي ثم عند ابن الجوزي، ثم انتقلا إلى رباط البقال، و اشتغلا على ابن المتي، ثم سافر في سنة 567 ومعه الشيخ العماد".

وقال: "كان خالي إماماً في التفسير، وفي الحديث ومشكلاته، إماماً في الفقه، وإماماً في أصول الفقه، وإماماً في النحو والحساب...".

رأيت أحمد بن حنبل في النوم فألقي عليه مسألة، فقلت هذه في الخرقى "كتاب للموفق"، فقال: ما قصر صاحبكم الموفق في شرح الخرقى".

كما قال: "كان الموفق لا يناظر أحداً إلا وهو مبتسم، وما علمنا أنه أوجع قلب طالب، وقد كانت له جارية تؤذيه بخلقها فما يقول لها شيئاً، وأولاده يتضاربون وهو لا يتكلم. فكان حسن الأخلاق لا يراه أحد إلا مبتسماً، يحكي لنا الحكايات ويمزح".

وقال المفتي أبو عبيد الله عثمان بن عبد الرحمن الشافعي: "ما رأيت مثله، كان مؤيداً في فتاويه".

كانت له كرامات عدة، أما عن صفة الشجاعة التي كان يتصف بها فله بذلك صفحات وصفحات في معارك شارك فيها الجيوش لمقاتلة الصليبيين، فكان مقداماً يتقدم إلى العدو بشجاعة كبيرة.

ووصف لنا الضياء صلته: "كان يصلي بخشوع، ولا يكاد يصلي سنة الفجر والعشاءين إلا في بيته، وكان يصلي بين العشاءين أربعاً ب"السجدة" و"يس" و"الدخان" و"تبارك".

من مؤلفاته:

"المغني" عشر مجلدات. "الكافي" أربعة. "المقنع" مجلد واحد. "التوابين" مجلد. "البرهان" جزء. "ذمّ التأويل" جزء. "القدر" جزء. "فضائل الصحابة". "وصيته" جزء. "مختصر العلل للخلال" مجلد، وغيرها من الكتب الكثير...

أسرته:

تزوج من ابنة عمته، وله: المجد عيسى، ومحمد ويحيى، وصفية وفاطمة.

وفاته:

توفي سنة 620هـ، وشيَّعه الخلق الذين لا يُعدّون، ودُفن في سفح قاسيون، رحمه الله تعالى.. ورضي عن هذه العائلة الكريمة، التي زرعت بذور الخير في تربة سفح قاسيون، فأثمرت وأينعت ثمارها، ولا زالت نسائم هذا الخير تهب تارة بالمؤلفات الكثيرة التي تركوها، وتارة بالمدارس والمؤسسات العلمية التي أنشئوها... رحمهم الله وجزاهم المولى خيرا.

ولذلك قال الشيخ علي الطنطاوي في كتابه (دمشق) بقوله:

"وبعد هل يليق بأهل دمشق وهي دار الوفاء، وبأهل الصالحية خاصة، أن ينسوا هؤلاء العباقرة الأعلام، فلا يذكرهم ذاكراً، ولا يعرف سيرتهم أحد، ولم يسمّ بأسمائهم مدرسة في الصالحية ولا شارع؟..".

في نهاية المطاف، نقرأ الفاتحة على أرواحهم.. وندعو الله تعالى أن يكرمنا بحسن الاتباع والهمة للعلم النافع والعمل الصالح.

المصادر:

سير أعلام النبلاء للذهبي.

تاريخ الإسلام للذهبي.

عبد الوهاب بن تمام السبكي [727 - 771هـ]

تاج الدين أبو نصر الشافعي شهيد الطاعون قاضي القضاة

عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي

(الإمام تاج الدين السبكي لم يكن عالماً جليلاً وحسب، بل كان قاضياً عدلاً، وحاكماً سمحاً، شغل منصب قاضي القضاة، ... وأشرف على المدارس والعلماء، وعلى المحاكم والحسبة والقضاء، ... فبنى بذلك نظريته التربوية على أساس متين، من إخلاص شكر النعم لرب العالمين، وجعل لكل نعمة شكراً يقوم على تسخيرها لخدمة الأنام، فبين الهدف من كل وظيفة وحرفه، وحذر من سوء استخدام النعمة، حتى لا تنقلب إلى نقمة..).

الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي - المبادئ التربوية عند التاج السبكي

فمن هو التاج السبكي؟

اسمه ونسبه:

هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن تمام بن يوسف بن موسى ابن تمام السبكي، أبو نصر: قاضي القضاة في الديار الشامية، فهو ابن قاضي القضاة تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام الأنصاري الخزرجي الشافعي شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين، وكانت له كتب ومؤلفات: (إحياء النفوس في صنعة إلقاء الدروس) و(الابتهاج في شرح المنهاج) في الفقه وكتب كثيرة ما تزال مخطوطة في الرباط والقاهرة..

لقد تعلق تاج الدين بكتب أبيه تعلق التلميذ بأستاذه، وتعلق المرید بشيخه، فكانت أسرته المؤسسة التربوية العلمية العملية الأولى في حياته، مما ساهم في بناء شخصيته المميزة عن أقرانه، كبر وترعرع منذ الصغر في جو يجمع بين العلم والدين والتطبيق، ف(قال الله وقال رسول الله) متلازمان بالعمل والخلق النبوي الرفيع، رحمه الله.

ولد تاج الدين السبكي في سنة 727 في القاهرة ويرجع اسم الأسرة (السبكي)نسبة إلى (سبك) من أعمال المنوفية بمصر، قدم إلى دمشق مع والده عندما تولى منصب قاضي القضاة في الشام في عام 739 حيث كان في الثانية عشر من عمره.

شيوخه:

تلقى تاج الدين العلم عن أبيه، وعن غيره من أكبر علماء مصر، فعاش منذ الصغر في كنف أب يجمع بين العلم والقضاء والسلطان والإفتاء.

ثم أخذ العلم عن شيوخ ومحدثي بلاد الشام، كالذهبي والمزي وتفقه في الفقه الشافعي على شيخ المدرسة الشامية محمد بن أبي بكر الشهير بابن النقيب، الذي ما لبث أن لمس ذكاء ونباهة تاج الدين فأجازه للفتيا وهو في العشرين من عمره.

وقال ابن حجر العسقلاني في الدرر: أجاز له: ابن الشحنة ويونس الدبوسي، وعندما قدم دمشق سمع من: زينب بنت الكمال وابن اليسر وغيرهما، وقرأ بنفسه على المزي ولازم الذهبي.

وظائفه ونشاطه الاجتماعي:

ولي وظيفة التدريس في أكبر مدارس دمشق العريقة: العزيزية، العادلية الكبرى، الغزالية، العذراوية، الشاميتين، ومشيخة دار الحديث الأشرفية، والناصرية والأميزية والشيخونية والميعاد بالجامع الطولوني بمصر. وغيرها من المدارس التي تشهد له بسعة علمه وفصاحة لسانه مع خلق نبوي رفيع. رحمه الله.

وفي عام 756 عندما أحس والده بضعف السنين والعمر، نزل لابته عن قضاء الشام مدة طويلة، وتولى توقيع الدست عن نائب الشام أمير علي المارديني، وهي وظيفة جليلة حيث معروضات أو عرائض يتقدم بها أصحاب الحقوق إلى نائب الشام، ثم تولى بعدها نيابة الحكم عن أبيه قاضي قضاة، فجمع بين الوظيفتين.

أقوال العلماء فيه:

قال ابن كثير: (جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله، وحصل له من المناصب ما لم يحصل لأحد قبله).

وأثنى عليه الذهبي كثيرا.

وقال الحافظ شهاب الدين بن حججي: (خرج له ابن سعد (مسيخة) ومات قبل تكميلها، وحصل فنونا من العلم في الفقه والأصول، وكان ماهراً فيه، والحديث والأدب، وبرع وشارك في العربية، حيث كان له يد في النظم والنثر، وطلاقة لسان وجرأة جنان، وذكاء مفرط، وذهن وقاد، صنف تصانيف عده في فنون على صغر سنه وكثرة أشغاله قرئت عليه وانتشرت في حياته وبعد موته.

وقال: انتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام، وحصلت له محنة بسبب القضاء وأوذي فصير وسجن فثبت، وعقدت له مجالس فأبان عن شجاعة وأفحم خصومه مع تواطعهم عليه، ثم عاد إلى مرتبته وعفا وصفح عن من أساء له، فكان سيّداً، جواداً، كريماً مهيباً، تخضع له أرباب المناصب من القضاة وغيرهم. رحمه الله.

مؤلفاته وتصانيفه:

جمع تاج الدين بين علوم مختلفة وواسعة، مع خبرة أصيلة في التدريس أكتسبها منذ الصغر في أكبر المدارس، مع معرفة بأساليب الحكم، فترك مؤلفات وآثاراً جداً نافعة، ومن أهم تلك المصنفات:

(شرح مختصر ابن الحاجب)، (شرح منهاج البيضاوي)، (القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر)، (طبقات الفقهاء الكبرى)، (جمع الجوامع)، وشرحه بشرح سماه (منع الموانع) وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة التي تشهد له بسعة أفقه العلمي والتربوي، التي تدل عليه: تلميذاً، مدرّساً، مفتياً، عالماً قاضياً، حاكماً وأمين الحسبة.

وكتاب (معيد النعم ومزيل النقم) الذي لفت أنظار الغرب إليه فقاموا بترجمته ووضعوا له مقدمه أشادوا بالمؤلف والبيت السبكي، أمثال: بروكلمان، والمستشرق السويدي مهمن وغيرهم.

عُرف هذا الكتاب بالتربوي والاجتماعي الأخلاقي، فهو يحث على الأخلاق الحميدة في كل مجالات الحياة، فيدعو لإصلاح النفوس بالتدرّج، يبدأ بإيقاظ الضمير أو قل بتحفيز النفس للاعتراف بالذنب، وهذا أول طريق العلاج، فيقول في المقدمة:

(وأنا أرجو أن من كانت عنده نعمة لله تعالى في دينه أو دنياه وزالت، فنظر هذا الكتاب نظر معتقد، وفهمه، وعمل بما تضمنه بعد الاعتقاد، عادت إليه تلك النعمة أو خير منها، وزال همه بأجمعه، وانقلب

فرحا مسرورا) ويخاطب سائله قائلا (الأمر الأول أن تعلم من أين أتيت...) وهنا يدفع الشاكي له هما وحرنا إلى معرفة عيوبه بنفسه.

إخوتي القراء:

نحتاج إلى هذه الطريقة الإصلاحية الذاتية، فهناك كم من الأفراد ينكر النعم ويكفر بها لكبر نفسه الأمانة بالسوء، مع أن أول درجة من شجاعة الإنسان تقاس بقدر صدقه مع نفسه، ولذلك يدفع التاج السبكي الفرد لعملية الإصلاح الذاتي للاعتراف ومواجهة عيبه بنفسه، فما رأيكم؟

لنقرأ معا ملخص طريقته التربوية والتي تأخذ الطابع الحوارية، فأهم مبادئ ودعائم هذه الطريقة:

أن كفران انعم وسوء استخدامها وعلى غير ما يريد الشرع، هذا سيؤدي لفقدانها وزوالها فعلى جميع أفراد المجتمع باختلاف مهنتهم وأعمالهم، يجب استعمال النعمة التي رزقهم الله إياها بالخير له ولغيره، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

و أن الشكر كفيلا ببقاء النعمة واستمرارها وزيادتها لقوله تعالى: (لئن شكرتم لأزيدنكم).

فقال السبكي: (اعلم أنها لم تزل عنك إلا لإخلالك بالقيام بما يجب عليك من حقوقها وهو الشكر، فإن كل نعمة لا تشكر جديرة بالزوال، ومن كلامهم: النعمة إذا شكرت قرت، وإذا كفرت فرت).

وقد عرض السبكي طريقته الإصلاحية بالسؤال والجواب، مفترضا أن السائل يسأل ثم الجواب يأتي إيضاحا لأمر غامض كقوله: (فإن قلت فما الشكر؟ قلت... الشكر يكون بالقلب واللسان والأفعال هذه أركانه الثلاثة) ثم فصل في القول لكل ركن، وقد رتبته كالأتي: الشكر بالقلب والاعتقاد، الشكر باللسان، الشكر بالأفعال، وهو بذلك يقوم بتربية الجوارح والغرائز، ويدربها للرفق والترفع عن سوء الأخلاق، والانطلاق نحو الخلق الذي يقربه من مرضاة الله).

هذا الكلام يوصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

رحم الله التاج السبكي الذي كان للسلف الصالح خير خلف، ترك مؤلفات وكتب تحكي سيرة إنسان عاش على أرض دمشق الحبيبة، فكان خيرا لها حيث دخل قي أجواء قدسية حديث المصطفى صلى

الله عليه وسلم الذي قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، علم ينتفع به، صدقة جارية).

وفاته:

لقد ظل في عمله ومنصبه يعمل بإخلاص لله عز وجل، بالرغم من تعرضه لمحن وشدة وابتلاء ومن منا يضمن عدم تعرضه لابتلاء؟ المهم هو كيف تعاملت وإخلاصك لله؟ ولمنهج نبي الله؟

صبر الإمام وتخطى المحن والدسائس برباطة جأش وسامح من كاد له، وبقي في منصبه وعمله خطيباً مفوهاً ومدرساً تربوياً ناجحاً، أفاد الكثيرين بعلمه وأدبه وخلقه الرفيع إلى أن أصيب بمرض الطاعون في سنة 771 وهو في منزله بالدهشة في دمشق، ودفن في سفح قاسيون في مقبرة السبكية.

وقفه تأملية، في كيفية وفاته:

قدر الله عز وجل و شاء، للإمام السبكي الموت بمرض الطاعون لينال الشهادة، لقول رسول الله الشهداء خمسة: (المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم والمقاتل في سبيل الله).

وقد سئل الإمام السبكي مرة عن أجر الشهادة فقال: (هذا وليعلم أن لنيل أجر الشهادة شروط، فهي حالة شريفة تحصل للعبد عند الموت ولها سبب وشرط ونتيجة، من هذه الشروط: الصبر والاحتساب وعدم وجود موانع شرعية، كالغلول والدين وعصب حقوق الناس أو يموت بسبب معصية دخل دارا لیسرق فأندم عليه الجدار لا يعد شهيداً كذلك الميتة بالطلق الحامل من الزنا).

وقال: (من سلك سلوكاً يستوي فيه احتمال الهلاك أو السلامة يجب أن يكف عنه، فإن لم يكف فقد أعان على نفسه بالهلاك فلا يعد شهيداً).

رحم الله الإمام السبكي وحزاه الله خيراً.

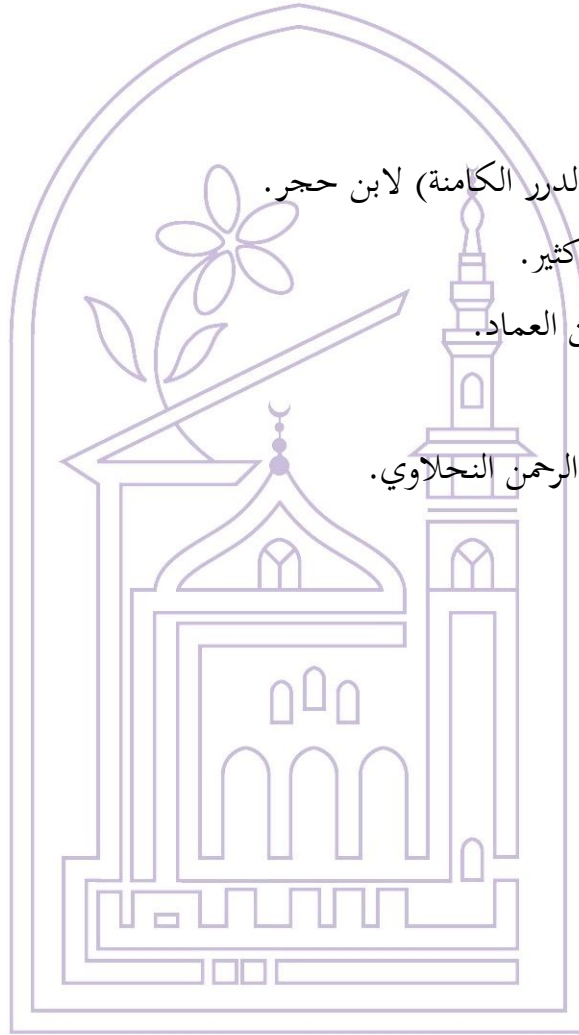
و كأننا يا إخواني نسمع ندائه لنا من على سفح قاسيون حيث يرقد، يا أهل وساكني أرض دمشق اقرؤوا كتابي ((معيد النعم ومبيد النقم)) واجتهدوا بمجاهدة النفس الأمارة بالسوء بتزكية مستمرة لا منقطعة موصولة بالله الخالق البارئ، لقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا).



واجتهد أيها الساكن أرض دمشق الحبيبة بإعمارها بما يحب ويرضى الله عز وجل ونبيه الكريم، فأدي الحق الذي عليك واسأل الله الصواب والرشد والتوفيق فيأتيك الفلاح والخير.

لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]

المصادر والمراجع:



(تهذيب التهذيب) و(الدرر الكامنة) لابن حجر.

(البداية والنهاية) لابن كثير.

(شذرات الذهب) لابن العماد.

(الأعلام) للزركلي

(المبادئ التربوية) لعبد الرحمن النحلاوي.



عثمان بن الصلاح [557هـ - 643هـ]

تقي الدين بن الصلاح الحافظ الشعرزوري الموصلبي الشافعي

أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي

إخوتي الكرام:

ظهر في العالم الإسلامي علماء هم ورثة الأنبياء بحق، طلبوا الرحلة للعلم وبالغوا في التأكد والتثبت من صحة الحديث فوضعوا قواعد وشروط صارمة، للرواية والراوي، كي يجنبوا السنة الشريفة زيف المزيفين ودس المدسوسين.

فعندما مات النبي صلى الله عليه وسلم، حفظ الصحابة الكرام حركاته وسكناته وأخلاقه، وحفظوا لنا الأمور الخلقية التي جعله عليها المولى من لون بشرته وطوله خير حفظ، قاموا بعمل جليل تركوه للأجيال اللاحقة.

هذا وإن علم الحديث من أفضل العلوم الفاضلة وأنفع الفنون النافعة، يجب ذكر الرجال وفحولتهم، ويعنى به محققو العلماء ...

وها هو الإمام السيوطي يمتعنا قائلاً: إن علم الحديث رفيع القدر، عظيم الفخر، شريف الذكر، لا يعتني به إلا كل حبر، ولا يجرمه إلا كل غمر، ولا تفنى محاسنه على ممر الدهر.

وقال الكرماني في شرح البخاري: واعلم أن الحديث موضوعه ذات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفعاله وأحواله، وغايته هي الفوز بسعادة الدارين

و لكل زمان علماءه حيث في القرن السابع للهجرة، كان يحدث ذاك الزمان، هو ابن الصلاح، هاجر إلى الشام المباركة قادماً من حدود اربل العراقية لينشأ ويتزعرع في الشام، ثم لينفع العباد والبلاد، من أشهر مؤلفاته في الحديث:

كتاب علوم الحديث الشهير بمقدمة ابن الصلاح، والذي ذكر فيه ابن الصلاح 65 نوعاً منه.

ويقول ابن حجر العسقلاني: (لقد اجتمع في كتابه ما تفرق في غيره، ولا يحصى كم ناظم له ومختصر، ومستدرك عليه ومقتصر، ومعارض له ومنتصر) وقال السيوطي: (عكف الناس عليه، واتخذوه أصلاً يرجع إليه).

وكتب الكثير من العلماء شرحاً وتعليقاً على المقدمة، منها: الإرشاد للنووي، والإفصاح على نكت ابن الصلاح، لابن حجر، والذي لخصه فيما بعد باسم النكت على كتاب ابن الصلاح وكتاب الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح للأبناسي، وغيرهم.

لقد حظي الكتاب باهتمام علماء الحديث، فهدبوه واختصروه ونظموا له شعراً، منهم: الإمام النووي، وابن كثير، والسيوطي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم من العلماء...
وكتب العلامة الدكتور نور الدين عتر حفظه الله، الذي قام بالتحقيق لكتاب ابن الصلاح، فقال في مقدمة الكتاب:

(إن من خصوصيات هذه الأمة الإسلامية المشرفة على غيرها من الأمم عنايتها الفريدة برواية الحديث الشريف وحفظه وترجمته إلى عمل تطبيقي ولكن الخصوصية الأكبر لهذه الأمة في نقلها للحديث النبوي عنايتها العظمى لصيانة الحديث من التحريف فيه والدخيل عليه، وذلك بما توصلت إليه من قوانين للرواية، هي أصح وأدق طريق علمي في نقل الروايات واختبارها.

وإن أحسن كتاب صنفه أئمتنا السابقون في هذا العلم العظيم هو هذا الكتاب الذي اشتهر بمقدمة ابن الصلاح للإمام أبي عمرو عثمان بن الصلاح الشهرزوري، الذي أبان أصول هذا العلم تبياناً لم يسبق لمثله، حتى صار كتابه مرجعاً أصلياً).

فمن هو ابن الصلاح؟

هيا معاً ننصت لسير هؤلاء الصالحين، سائلين المولى أن يجعلنا من الذين اشتاق إليهم النبي صلى الله عليه وسلم وسماهم إخواني، المتبعين بشوق وتعظيم له، غير مبتدعين عنه...

الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان الموصلبي الشافعي، صاحب كتاب علوم الحديث.

كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقهاء وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة، وكانت له مشاركة في فنون عديدة، وكانت فتاويه مسددة، قرأ الفقه أولاً على والده الصلاح، وكان من جلة مشايخ الأكراد، تنقل بين المدن في رحلة العلم من الموصل إلى خراسان ثم إلى الشام ليتولى التدريس في المدرسة الناصرية بالقدس، ثم انتقل إلى دمشق وتولى التدريس بالمدرسة الرواحية التي أنشأها الزكي أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد ابن رواحة الحموي، ولما بنى الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب دار للحديث بدمشق فوض تدرسيها ابن الصلاح، ثم تولى التدريس بمدرسة ست الشام زمردة خاتون بنت أيوب وهي داخل البلد قبلي البيمارستان النوري، وهي التي بنت المدرسة الأخرى ظاهر دمشق، وبها قبرها وقبر أخيها وزوجها أسد الدين شيركوه.

فكان ابن الصلاح يقوم بوظائفه في الجهات الثلاث من غير إخلال بشيء منها إلا لعذر ضروري.

مولده ونشأته:

ولد عام 577هـ هجري، في قرية تدعى (شرخان) قريبة من شهر زور، التابعة لأربل شمالي العراق، فنسب إليها، وكان والده يلقب بصلاح الدين فنسب إليه وعرف بابن الصلاح. سنة 577هـ هجري، أما هذه القرية الصغيرة التي انتسب لها جمع غفير من العلماء الأجلاء الذين تبؤوا مناصب هامة في بلاد الشام، فمدينة شهرزور نموذج لمدن رفع أبناؤها أسمها بما قدموا من علم ينتفع به، أو عمل صالح رفع الله ذكركم فكانوا من صفوة الخلق في الشام، ولقب الشهرزوري غدا دليلاً على تلك البيوت التي أنجبت هؤلاء الأفاضل، وابن الصلاح بداية تفقه على والده بشهرزور فقيه شافعي قدم إلى حلب ودرس في مدارسها وأخذ عنه جم غفير ومات بحلب، أما ولده ابن الصلاح قام برحلة علمية أخذ يجول العالم طلباً للعلم، ثم اشتغل بالموصل وسمع من عبد الله بن السمين، ونصر بن سلامة الهيني، ومحمود بن علي الموصلية، وأبي الحسن بن الطوسي، وطبقاته... وعبد المنعم بن الفراوي، والمؤيد بن محمد بن علي الطوسي، وزينب بنت القاسم الشعرية، والقاسم بن أبي سعد الصفار، وأبي المعالي بن ناصر الأنصاري، وفخر الدين بن عساكر، وموفق الدين بن قدامة والقاضي أبي القاسم عبد الصمد بن محمد بن الحرساني وغيرهم كثر في عدة مدن مرو وحران والموصل..

نشأ في بيت علم ورئاسة، فأبوه صلاح الدين من العلماء الأجلاء فقيه متبحر بالفقه الشافعي، تولى الإفتاء وعُرف بأجمل وأقدر الصفات... ورزق بابنه عثمان الذي عُرف بلقب ابن الصلاح نسبة لوالده

الصلاح... وعاش ابن الصلاح في عهد الأيوبيين ولقي من ملوكها وأمرائها التشجيع على العلم بإنشاء المدارس والمكتبات ورصد الأوقاف على المؤسسات العلمية والطلاب لتتهيئ للعلماء أقدس الأجواء في تنافس جليل يُعرض على سيد الأكوان، فينالوا المباركة المنشودة منه...

لقي تشجيعاً من أبيه وتوجيهاً دفعه للارتحال في طلب العلم بعد أن درس عليه المهذب مرتين، فكانت رحلاته قد شملت معظم عواصم البلاد الإسلامية العلمية، من بغداد وخراسان إلى بلاد الشام التي استقر فيها، فبلاد الشام كانت ولا زالت تزخر بالمعاهد العلمية التي تفاخر بها العالم لقول المصطفى: ((فيها عمود الكتاب...)).

والملاحظ في سيرته أن من شيوخه الشيخة المسندة المعمرة الصالحة والمكثرة زينب بنت أبي القاسم الشعرية مسندة نيسابور، توفيت 615هـ، وترجم لها كبار العلماء كالذهبي وابن حجر وغيرهم، فهؤلاء النساء حفظن وعملن بقوله تعالى: ((...إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى...)) نعم، إن ما نراه من فوضى واضطراب في البيوت مرده إلى ضعف الاتصال بمربي البشرية، الذي كان خُلِّقه القرآن...

إخوتي القراء:

يقول ابن الصلاح: (وطلب العلو فيه سنة أيضاً، ولذلك استُحبت الرحلة فيه على ما سبق ذكره). وابن الصلاح قد قام برحلات ورحلات ليتلقى الحديث الشريف وعلومه، وليروي ظمأه العقلي والروحي، الذي غرس بذوره في قلبه منذ الصغر والدّه التقوي الورع، وسقاه من ماء التقى والورع فوصل إلى مرحلة من النضج والقوة العلمية الإيمانية...

فكان من شيوخه:

والده عبدالرحمن المشهور بلقب صلاح الدين، والفقير عماد الدين أبو حامد ابن يونس، وعبيد الله السمين، ومحمد بن علي الموصللي، والطوسي، والسمعاني، وابن قدامة وغيرهم كثير...

أما تلاميذه:

فخر الدين عمر الكرخي، والخطيب شرف الدين الفراوي، والصدر محمد بن حسن الأموي... وغيرهم.

حدّث عنه:

الإمام شمس الدين بن نوح المقدسي، وإمام كمال الدين سلار، والإمام كمال الدين إسحاق، والعلامة تاج الدين عبد الرحمن، وأخوه الخطيب شرف الدين، والمفتي جمال الدين محمد بن أحمد الشريشي، وناصر الدين بن عريشاه، وغيرهم...

وظائفه:

درّس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس... وعندما قدم الشام، دمشق، درّس بالرواحية ثم بالأشرفية التي صار شيخها، ثم وُلّي تدريس الشامية الصغرى، أفتى وجمع وألف وتخرج به الأصحاب وكان من كبار الأمة.

وإن المتأمل في سيرته الرائعة يجد معنى قوله تعالى: ((.إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون))، فتحقيقاً لوعده الله كان عمل علماء الحديث الشريف مستمراً عبر الأجيال، وقد حُفظ في الصدور وعني به تلاوة وتعبداً وتفسيراً.

أقوال العلماء الكبار فيه:

قال الذهبي: كان وافر الجلالة حسن الهيبة موقراً عند السلطان والأمراء وتفقه به الأئمة

وقال ابن خلكان: كان من العلم والدين على قدم حسن، ولم يزل أمره جاري بأعلى سداد وصلاح حال واجتهاد في الاشتغال والنفعة.

وقال السخاوي: كان إماماً بارعاً حجة متبحراً العلوم الدينية بصيراً بالمذهب ووجهه خبيراً بأصوله عارفاً بالمذاهب جيد المادة في اللغة العربية حافظاً للحديث ومتقناً، مع الدين والعبادة والورع والتقوى، انتفع به خلق.

إمام ورع، وافر العقل، حسن السمات، متبحر في الأصول والفروع، بالغ في الطلب حتى صار يضرب به المثل، وأجهد نفسه في الطاعة والعبادة ذكره المحدث عمر بن الحاجب في معجمه.

وقال شمس الدين بن خلكان: بلغني أنه كرر على جميع المهذب قبل أن يطر شاربه، وكان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقهاء، وكانت فتاويه مسددة...

صفاته وأخلاقه على لسان معاصريه:

كان ذا جلاله عجيبة، ووقار وهيبة، وفصاحة، وعلم نافع، وكان متين الديانة، صحيح النحلة حسن البزة، وافر الحرمة، معظماً عند السلطان، وكان مع تبحره في الفقه مجوداً لما ينقله قوي المادة من اللغة العربية...

مؤلفاته:

لم تشغله أعباء مناصبه عن الفُتيا والتأليف، فصنف في علوم الحديث والرجال والفقه بالإضافة إلى شروحه، له مؤلفات كثيرة في علوم مختلفة استفاد منها العلماء بعده، فكانت من أهم المراجع والمصادر التي يعتمد عليها في عصره والعصور التي تليها، وأشهر تلك المؤلفات كتاب مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث... تتابع العلماء له شرحاً وتلخيصاً ونظماً، فلخصه الإمام النووي وسماه الإرشاد إلى علوم الإسناد، ثم لخصه السيوطي في كتابه التدريب وابن جماعة، ونظم القاضي شهاب الدين الخولي شعراً في أرجوزته أقصى الأمل والسؤل في علوم أحاديث الرسول، وقام جماعة من كبار حفاظ الحديث فوضعوا شروحاً لتلك المقدمة، ومن مؤلفاته:

. شرح الوسيط في الفقه الشافعي . صلة الناسك في صفة المناسك . الفتاوى . فوائد الرحلة، وهو كتاب ممتع جمع فيه فوائد في علوم متنوعة . المقدمة في علوم الحديث، وهو من أمتع المصنفات التي لقيت حظاً كبيراً من العلماء، وقد كتب الكثير شرحاً وتعليقاً على هذا الكتاب - طبقات فقهاء الشافعية . أدب المفتي والمستفتي . النكت على المهذب - فوائد الرحلة - شرح صحيح مسلم - الأمالي - شرح مشكل الوسيط لأبي حامد الغزالي...

وفاته:

توفي الشيخ رحمه الله في سحر يوم الأربعاء 25 ربيع الآخر سنة 643هـجري، وازدحم الخلق على سريره، وحُمل على الرؤوس، وكانت جنازته ذات هيبة ووقار، صُلي عليه بالأموي وازدحم الناس للصلاة عليه، ودفنوه بمقابر الصوفية خارج باب النصر في دمشق.



صورة نادرة لمحلة المقابر الصوفية و التكية السليمانية عام ١٩١٧ تحديد المشيدات عماد الأرمشي

إخوتي القراء:

إن من وصايا الإمام الشافعي التي قال فيها: (وأوصي بتقوى الله عز وجل، ولزوم السنة والآثار عن رسول الله عليه وسلم وأصحابه، وترك البدع والأهواء واجتنابها... ثم قال: قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)، فإنها وصية الأولين والآخرين...

فاعتبر أيها الإنسان قبل أن تصبح محاطاً بالبكاء، ميتاً يساق لقبر يغمره التراب... لا تنتظر كالأعمى الذي انعدم بصره أو كمن تحجر قلبه، وقف لحظة صدق مع الخالق واسأله حسن العبرة والاتباع في كل مقال وحال...

وقد سأل موسى ربه: كيف تعامل من عصاك؟

فقال: يا موسى: من عصائي أمهلته... فإن فعل ذنباً سترته...

فإن رجع إلي قبلته... وإن عاد إلى الذنب انتظرتة...

فإن تاب غفرت له وأحبته ولا خذلتة... وإلى نفسه وكتته كي لا يكون لعبدي حجة... وما أنا بظلام للعبيد.

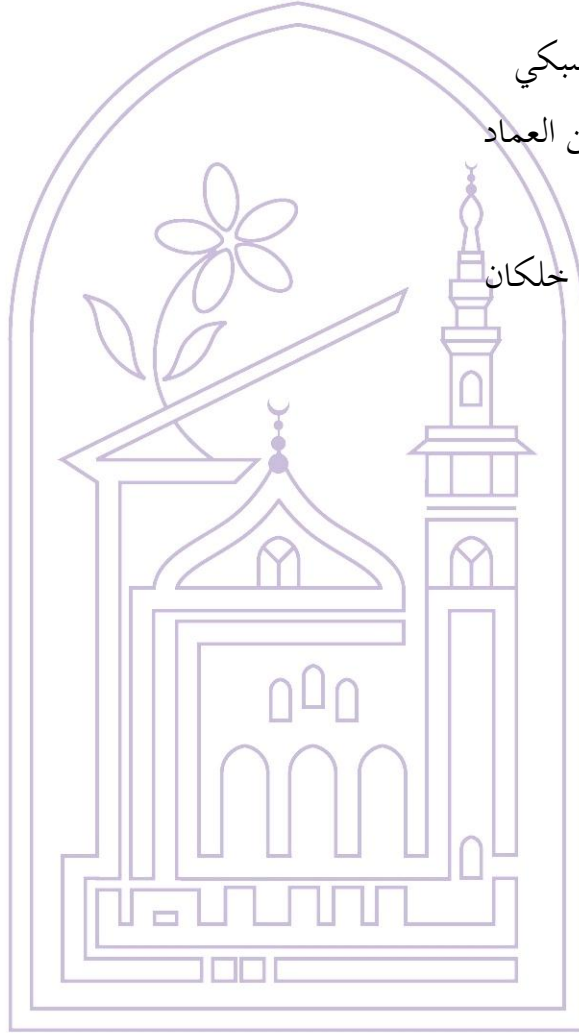
فاللهم ارحم قلوباً قد أذلتها المعاصي ولجأت إلى باب التوبة والاستغفار، لتسأل الصفوح الغفور الردّ الجميل إلى الطاعات وما يرضي المولى وحبيبه... اللهم أعنا ولا تُعن علينا... واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لنكون بأذن الله خير خلف لخير سلف صالح.



جزاك الله عنا يا سيدي الشيخ ابن الصلاح خير جزاء، أرض الشام المباركة تدعو لك ونجوم سماءها
تسأل المولى عز وجل أن تعظم أجر ما صنعت وتركت من علم مبارك ينتفع به، وتلاميذ صالحين
نافعين حملوا من بعدك الأمانة ومهمة أدائها على أحسن وجه.

المصادر:

- . الطبقات الكبرى / للسبكي
- . شذرات الذهب / لابن العماد
- . تاريخ العبر / للذهبي
- . وفيات الأعيان / لابن خلكان



عمر بن الحسين [... - 334هـ]

أبو القاسم الحنبلي الخرقى البغدادي

صاحب أول مختصر في الفقه الحنبلي المدفون في مقبرة باب الصغير



إخوتي القراء:

كثيرة هي أحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام التي تُروى عنه لتُظهر مدى أهمية الشام ودمشق وصلاح أهلها وساكنيها، حيث قال: ﴿إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم﴾، والمراد بالفساد هنا فساد الدين، والمقصود بـ فيكم أي أمة محمد عليه الصلاة والسلام، ولذلك تسابق الناس من العلماء والصالحين للسكنى فيها ونيل شرف ذلك الوصف النبوي، فحظيت دمشق بمكانة علمية دينية كبيرة نتيجة التنافس العلمي الصادق الخالص لله ونبيه الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

ومن الذين هاجروا إلى الشام دمشقَ امتثالاً لأحاديث سيد الخلق علماء كبار وأولياء صالحون من أماكن شتى، منهم: العلامة الشَّخْرِيُّ الحنبلي، صاحب أول مختصر في الفقه الحنبلي...

فمن هو؟

اسمه ونشأته:

أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبدالله البغدادي الشَّخْرِيُّ، العلامة شيخ الحنابلة من الأئمة الأعلام الزاهدين، له تصانيف جليلة ونافعة، منها (كتاب الخرق في فقه الإمام أحمد).

تفقه على يد والده الحسين صاحب المروزي، وصنف تصانيف كثيرة.

سبب تسميته بالخرقي: نسبة إلى مهنته في بيع الثياب والخرق.

قال القاضي أبو يعلى: كانت لأبي القاسم مصنفات كثيرة عندما خرج من بغداد إلى دمشق تركها في داره فاحترقت الدار بالكتب.

ومختصر الخرق من أول ما ألفه علماء الحنابلة في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد شرحه القاضي أبو يعلى بن الفراء، والشيخ موفق بن قدامة المقدسي.

كان الخرق من سادات الفقهاء والعباد، كثير الفضائل والعبادة، خرج من بغداد قاصداً دمشق طلباً للأمن والأمان امتثالاً لأحاديث المصطفى، وذلك في عصر الفوضى والاضطراب في عهد الدولة العباسية.

فأصبح الخرق في دمشق من علمائها الأجلاء الذين تفخر بهم، ودرس الفقه الحنبلي تحت قبة النسر في الأموي وبقي فيها إلى أن توفي عام 334هـ، ودُفن في الباب الصغير غربي زاوية المغاربة.

وقد زاره أبو بكر الخطيب البغدادي في قبره القريب من قبر الشهداء بالباب الصغير.

ولم نجد له معلومات كثيرة، ويكفي المرء من خبره أنه ترك وراءه من يترحم عليه ويدعو له بالخير، فكُتبه وعلمه استفاد منهما ناس كثير .. فمتى نوقن نحن، ساكني دمشق اليوم، كيف يكون الإعمار الحقيقي في أرض مباركة؟



لا بد يوماً أن يتم العدد

فيا أيها المعداد أنفاسه

وليلة تأتي بلا يوم غد

لا بد من يوم بلا ليلة

اللهم اجعلنا خير خلف لخير سلف.. اللهم آمين..

المصادر:

البداية والنهاية/ لابن كثير

شذرات الذهب/ لابن العماد



كعب الحبر [... - 34هـ]

أبو إسحاق كعب بن ماع الحميري اليماني تابعي ثقة

إخوتي القراء:

دخل نفر من أهل دمشق عليه وهو مريض يعاني من سكرة الموت، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟

قال: (أجدني جسداً مرتئناً بعمللي، فإذا بعثني الله من مرقدني بعثني لا ذنب لي، وإن قبضني، قبضني لا ذنب لي، إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه، وإذا بعثه، بعثه خلقاً جديداً لا ذنب له).

وقال: (لأن أبكي خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بوزني ذهباً). روى له أبو داود والترمذي والنسائي.

وهناك رواية تقول: إنه خرج مع جيش المسلمين غازياً ومات في الطريق، ودُفن في حمص...

فمن هو كعب الأحبار؟ وما معنى الأحبار؟

فهيّا نهل من بين السطور العبرة والعظة، و المعرفة التاريخية مع ...

إذا بحثنا وتبصّرنا نجد أقوالاً كثيرة للعلماء تترجم لكعب الأحبار، فيقول الإمام الذهبي رحمه الله:

(هو كعب بن ماع الحميري اليماني العلامة، الحبر، الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قدم المدينة من اليمن أيام عمر رضي الله عنه فجالس الصحابة وكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويحفظ عجائب، ويأخذ السنن عنهم، وكان حسن الإسلام، متين الديانة، وثقة).

وقال ابن حجر العسقلاني: (كعب الأحبار تابعي ثقة، كان من علماء اليهود وعنده علم غزير،

وله إطلاع تام على كتب بني إسرائيل، ويحدّث بأشياء كثيرة عنها).

وقال ابن عساكر في (تاريخ دمشق)، في باب من حلها من أمثال البرية أو اجتاز بها أو بأعمالها

من ذوي الفضل:



(هو كعب بن مانع بن هيسوع، ويقال هلسوع، من آل ذي عين، ويقال من ذي الكلاع، ثم من بني ميثم المعروف بكعب الأخبار، من مُسَلِّمَة أهل الكتاب.

أدرك النبيَّ وأسلم في خلافة أبي بكر، ويقال في خلافة عمر.

روى عن عمر رضي الله عنه الأحاديث، وروى عنه ابن عباس، وعبد الله بن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وسعيد بن المسيب، وغيرهم.

وعندما كان يروي عن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((...إن أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين))، كان يقول: والله ما أخاف على هذه الأمة غيرهم.

وقال ابن عساکر: يقال له (الحبر)، ويقال (الأخبار)، ويكنى بأبي إسحاق.

قيل أنه توفي سنة 32، والصواب 34هـ).

ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ في التقریب: كان خبيراً بكتب اليهود وله معرفة في صحيحها وباطلها.

واتفق جمهور العلماء المفسرين على أنه روى الإسرائيليات على أنها مما في كتبهم، وليس أنها من قول النبي صلى الله عليه وسلم.

و(الأخبار) جمع حبر، بالكسر والفتح، أي صاحب العلم الواسع والغزير، كما كان يقال لابن عباس الحبر والبحر لعلمه.

وأجاب أبو الدرداء عندما سُئِلَ عن كعب فقال: (إن عند ابن الحميرية لعلماً كثيراً)، وفي قول آخر: (إنه أحد الحكماء).

إن المتأمل المتبصر لسيرته في كتب التراجم يجد نقله للإسرائيليات بدقة وحسن نية، والأهم أنه لم ينسبها للنبي الكريم، بل حدّثها كقصص وحكايات مما حفظ من التوراة، لذا سُميت (الإسرائيليات)...

ومن كتب التفسير المشهورة بكثرة الروايات الإسرائيلية في تفسير بعض القصص القرآنية، تفسير ابن كثير، الذي تحدث هو بنفسه عن ذلك في المقدمة قائلاً: (لسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن



الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو من القسم الذي لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، فيجوز روايتها للاعتبار... وهذا الذي نستعمله في كتابنا هذا).

وقد دخل كثير منها في كتب التفسير الإسلامية عن طريق بعض الذين أسلموا، أمثال كعب الأحمبار، ووهب بن المنبه، وعبد الله بن سلام، ثم بعد فترة أصبح بعض علماء التفسير يرجعون إلى الكتب الدينية المقدسة لتفسير بعض قصص القرآن الكريم، للعبرة والعظة فقط.

إذاً فهناك ثلاثة أقسام من الإسرائيليات:

الأول: جاء تصديقه من القرآن والسنة، فهذا يصدق ولا يكذب.

الثاني: ما لا يوافق ولا يخالف، فهذا لا يصدق ولا يكذب لقول المصطفى: (لا تصدقوا ولا تكذبوا، وقولوا آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم...)، نحكيه فقط للعبرة والعظة ولا نؤمن بصدقه أو كذبه، امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

الثالث: مرفوض لتناقضه مع شريعتنا أو لمخالفته للعقل، ولا يصح تصديقه.

واستمع لابن خلدون يعلق على ذلك في مقدمته: إن أسباب الاستكثار من المرويات الإسرائيلية أن كتبها المتقدمون ومنقولاً منهم تشمل الغث والسمين، والمقبول والمردود، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب وعلم، إنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وتشوّقوا إلى معرفة مما سبقوهم، وكل نفس بشرية تشوق إلى ذلك، ومعظم من نقل عنهم من أهل البادية من (حمير).

تُجمع كتب التراجم على أن كعب الأحمبار مات غزياً مع جيش المسلمين في الشام. كما تروي أن جمعاً غفيراً قد زاره في مرض يعودونه، فسألوه كيف حالك يا أبا إسحاق؟ فتأملوا في معاني رده وهو يعاني من مرض سكرة الموت:

أطمع برحمة ربي لي، وهو إذا شاء عذبني أو يرحمني، وأرجو أن ألقاه وليس عندي ذنب، وأن أبعث لا ذنب لي....

رحمك الله يا كعب الأحمبار، وجعلنا الله وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.



المصادر:

سير الأعلام/للذهبي

تاريخ دمشق/لابن عساكر

الإصابة/لابن حجر العسقلاني

البداية والنهاية/لابن كثير



محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز [673هـ - 748هـ]

الإمام الحافظ المحدث والمؤرخ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي

إخوتي القراء:

في مدينة دمشق الحبيبة مقابرٌ عدَّةٌ موزعةٌ بين أحيائها القديمة هنا وهناك، تحكي لنا قصص بعض من أصحابها الذين كان لهم أثر في تسطير تاريخ دمشق الإسلامي العظيم.

ومن أقدم تلك المقابر مقبرة (الباب الصغير) الواقعة في منطقة باب مصلى، ففيها عدد من الصحابة الكرام والعلماء الأجلاء الذين قد سُطِّرت أسماءهم وحُفِظت في كتب ومؤلفات كي تكون لهم الشاهد والدليل على طيب وحسن سيرهم أمام نبي الرحمة الذي دعى للشام وأهلها، وأخبر أن فيها صفوة الخلق، فاجتهد علماؤها على أنفسهم متتبعين نهج النبوة المحمدية بأخلاق ونفوس نقية، لتتألاً سيرهم في كتب التاريخ ولتكونَ عبرةً وعظةً فقط لمن قرأ وسمع ببصيرةٍ متصلةٍ بالله عز وجل طالبةٍ رضا الله ورسوله..

وتحت قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

نمضي و نسير في دمشق القديمة داعين المولى الفائدة و المتعة في سيرنا هذا، فمن هو هذا الذي يدعونا لقراءة سيرته العطرة من مدينة دمشق المباركة التي حظيت بدعاء نبينا الكريم؟

إنه الإمام الذهبي الحافظ، محدث ومؤرخ بلاد الشام في القرن الثامن للهجرة، الذي تميز بالجمع الموسوعي للتاريخ الإسلامي والإحاطة الدقيقة لقواعد الجرح والتعديل، حيث زحرت وازدانت المكتبة الإسلامية بمؤلفاته ومصنفاته المفيدة والمتنوعة، واستفاد منه جمع غفير من الناس، وطافت شهرته في البلاد شهرة استقطب بها العلماء وطلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامي الواسع يتوافدون للتعرف عليه والاستفادة منه، نعم ولم العجب؟ هؤلاء هم علماء الشام دمشق.

اسمه ونسبه:

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل، الفارقي ثم الدمشقي الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، ولد في 3 ربيع الآخر عام 673 هـ في دمشق ونشأ فيها وترعرع بين أحضان أسرة كريمة، وكان والده يعمل في صناعة الذهب ومنها عُرف بالذهبي، وكان والده رجلاً صالحاً محباً للعلم اعتنى بتربيته وتنشئته على حب العلم والمعرفة فانضم إلى حلقات تحفيظ القرآن الكريم حتى حفظه وأتقن تلاوته في سن مبكرة وطلب الحديث وهو ابن ثمان عشر.

(فالأسرة) هي من أهم العوامل المؤثرة في نشأة الأبناء ونبينا حذر من التهاون في ذلك فقال:

(.. وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راع في بيته...)، اللهم لا تحرمنا فقه فهم هذ المسؤولية التربوية التي يقصدها مربيينا نبي الرحمة، وإن ما يتلقاه الأبناء في الصغر سيظهر للملأ ولو بعد حين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه...).

أما العامل الثاني في التكوين الشخصي للإنسان هو (المجتمع)، ودمشق العزيرة التي حباها الله نعم كثيرة كانت ومازالت تقدم لساكنيها شرف سُكناها ليعمل ويجتهد كل فرد منا في مكانه ويسعى للفوز برضا الله ورسوله.. فحملت ألقاب عدة منها: مدينة (العلم والعلماء) و(مدينة المدارس) وغير ذلك.

وإمامنا الذهبي الذي حظي برعاية أهله وعنايتهم به أخذ يبرز ذكاؤه أمام العلماء لينال اهتمام شمس العلم في عصره أمثال المزي والسبكي وابن كثير وغيرهم... فأخذت تبرز شخصيته العلمية بقوة ليصبح من جهاذة العصر.

استغل الذهبي هذا الجو العام الذي تهيأ له فملأ المكتبة الإسلامية بالعلم النافع وأقرنه بالعمل الصالح، يتعلم ويعلم دين الإسلام المحمدي الأصيل.

فلم تعرف المكتبات مؤرخاً غزير الإنتاج متنوع التأليف كالإمام الذهبي، الذي جمع بين ميزتين لم تجتمعا إلا لقلائل من العلماء، فإلى جانب إحاطته الواسعة بالتاريخ الإسلامي وحوادثه ورجاله، فقد أحاط بمعرفة واسعة في قواعد الجرح والتعديل، فكان مدرسة بذاته ذهبي الاسم والمضمون رحمه الله وجزاه خيراً.

شيوخه:

كان شيوخه كثرة بلغوا من فوق الألف، ولن نطيل بتعدادهم ولكن لنلفت النظر على حرصه الشديد في ملازمة الصالحين من أجراء ذلك العصر لتزداد شخصيته العلمية سعة ومتانة مع ازدياد في التواضع، ولينال الثناء من علماء وعامة ذلك العصر..

أجازه أبو زكريا بن الصيرفي والقطب بن عصرون والقاسم الأزبكي وعمر بن القواس وأحمد بن هبة الله بن عساكر ويوسف بن أحمد وغيرهم...

كان المزري وابن تيمية وتاج الدين السبكي من شيوخه وأقرانه على الرغم من فارق العمر. عشق الذهبي الرحلات العلمية التي اشتهر بها سادة العلماء لنشر معالم النبوة الحق عبر أخلاقهم وعلمهم النافع المفيد لكل زمان ومكان..

منعه والده خوفاً عليه فارتحل ضمن الخارطة الشامية وأول رحلاته كانت إلى (كفر بطنا) بغوطة دمشق تولى الخطابة وألف أفضل كتبه فيها، ثم تولى مشيخة دار الحديث.

ومن شيوخه: عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمرو وغيرهم من بعلبك...

ومن حلب سنقر الزيني وغيره، ومن نابلس العماد بن بدران وغيره...

وبعد وفاة والده ذهب للحج فسمع في مكة من التوزري وغيره...

ومن مصر الأبرقوهي وعيسى بن عبد المنعم بن شهاب وشيخ الإسلام بن دقيق العيد والحافظين أبي محمد الدمياطي وأبي العباس بن الظاهري، وسمع بالإسكندرية من أحمد العراقي وأبي الحسين يحيى بن أحمد بن الصواف وغيرهم..

تلامذته:

سمع منه جمع كثير لا يحصى عددهم توافدوا من أنحاء العالم الإسلامي، وأخذ طلاب العلم الشرعي الأصيل يتزودون منه..

وكان من أبرز من روى عنه ابن كثير والسبكي والصفدي وابن رجب الحنبلي... وكانت لهم أقوال مدح وثناء فيه، فماذا قالوا...؟

أقوال العلماء فيه:

قال أبو المحاسن: (صنف الكتب المفيدة فمن أطولها تاريخ الإسلام ومن أحسنها ميزان الاعتدال في نقد الرجال)

قال ابن حجر: (ورغب الناس في تواليغه ورحلوا إليه بسببها وتداولوها قراءةً ونسخاً وسماعاً، ومهر في فن الحديث وجمع له المجاميع... حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً..)

قال ابن كثير: (الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه) وقال ابن السبكي: (يشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ وبينهم عموم وخصوص: المزني والبرزلي والذهبي والشيخ الوالد، لا خامس لهم في عصرهم... كأنما جُمعت الأمة في صعيدٍ واحدٍ فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها... جزاه عنا أفضل الجزاء).

وقال ابن العماد: (وأطنت باسمه الأمثال، وسار اسمه مسير لقبه الشمس، إلا أنه لا يتقلص إذا نزل المطر، ولا يدبر إذا أقبلت الليالي، أقام في دمشق يرحل إليه من سائر البلاد، وهو بين أكنافها شرفٌ تفتخر وتزهو به الدنيا وما فيها..). **رحمهم الله جميعاً..**

فالنفس تجد راحةً بسماع أخبارهم وسيرهم، وهنيئاً لمن أحبهم واجتهد على نفسه كي ينال الفائدة قبل المتعة و الأهم قبل فوات الأوان...

مؤلفاته:

كان له تصانيف هائلةٌ ومفيدةٌ منها:

(تاريخ الإسلام الكبير) ومختصره (سير أعلام النبلاء).

(العبرة في خبر من عبر) ومختصره (الدول الإسلامية) ومختصره (الإشارة) ثم مختصره (الإعلام في وفيات الأعلام).

(ميزان الاعتدال في نقد الرجال) (المغني في الضعفاء) (النبلاء في شيوخ السنة) (طبقات الحفاظ) (طبقات مشاهير القراء).

اختصر (تهذيب الكمال) لشيخه المزي وسماه (تهذيب التهذيب) ثم اختصره إلى (الكاشف).
واختصر (تاريخ بغداد) للخطيب و(تاريخ ابن السمعاني).

اختصر (وفيات المنذري) اختصر (سنن البيهقي).

(المعجم الكبير) (المعجم الأوسط) (المعجم الصغير).

(المشبه في الأسماء والأنساب) (تذكرة الحفاظ).

وغيرها من المصنفات الكثيرة المفيدة والأوراد الهائلة..

ولا عجب أن حصل على ثناء العلماء الكبار وعامة الناس، فقد كان يحمل قبل العلم سمو الأخلاق ورفقها في نفسه وأهله وبلده.

وهذا عنوان إسلامنا العظيم الذي حرص على ترسيخ الدعوة إلى الله بالحب والرحمة والشفقة على عباد الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقهم، وأقرهم من النبي مجلساً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً... نرجو من الله تعالى أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه..

لقد تميز الذهبي بمنهجٍ منفردٍ عن غيره، فبعد أن أكثر بالأخذ عن الشيوخ الأكابر قام برحلاتٍ علميةٍ واسعةٍ ثم عكف على التصنيف والتأليف ثم اختصر واختصر لغيره في مؤلفات عدة ليستفيد أكبر عدد من الناس...

ومن إنشاده:

العلمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ
وحدارٍ من نصبِ الخلافِ جهالةً
إن صحَّ والإجماعُ فاجهد بهِ
بينَ الرسولِ وبينَ رأيِ فقيهِ

وفاته:

توفي سنة 748 بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح في قاعة سكنه.

يقول تاج الدين السبكي: (رآه الوالد قبل المغرب وهو في السياق وسأله: أدخل وقت المغرب؟ فقال له الوالد: ألم تصل العصر؟، قال: نعم، ولكن لم أصل المغرب إلى الآن. وسأل الوالد عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً فأفتاه بذلك ففعله، ومات بعد العشاء قبل نصف الليل، ودُفن بالباب الصغير).

إخوتي، إذا تأملنا بعمق إيماني روحاني بعد هذه القراءة، نجد بأن هناك نسمات من الخلود تتناهى أنغامها لتغطي سماء دمشق مثلاً لئلا تكونها تحتضن كمّاً هائلاً من العلماء الريانيين الذين عشقوا خالقهم وأحبوا نبيهم ثم عملوا على أنفسهم لاشك بجهد ومشقة كبيرة لينالوا شرف الفخر المحمدي صلى الله عليه وسلم، فخلدتهم أعمالهم الصالحة النافعة المتخلقة بالأخلاق النبوية والتي ميّزتهم عن سائر علماء الأرض... فالإسلام دين غالى على الله يحتاج منا مجاهدة النفس باستمرار..

والذهبي رحمه الله حتى اليوم يستفيد منه خلقٌ كثيرٌ، لأنه فقهٌ معنى الإخلاص لله (فالأعمال صورٌ قائمةٌ وأرواحها سرٌ وجود الإخلاص فيها)، وسيظل هناك من يستفيد ليوم تشخص فيها الأبصار، وسيظل أناس يكتبون عنه ويدعون له: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علمٌ نافعٌ، ولدٌ صالحٌ يدعو له، صدقةٌ جاريةٌ)... فالخلود بالعمل الصالح والعلم النافع... اللهم ارزقنا ولا تحرمنا...

جزاك الله خيراً يا إمامنا الذهبي... قد متّعنا بسيرتك التي قدمناها ادعوا الله لنا أن يفرج عنا ويجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

المصادر:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة / ابن حجر العسقلاني

طبقات الشافعية الكبرى / لتاج الدين السبكي

محمد بن طولون [880هـ - 953هـ]

شمس الدين الإمام العلامة المحدث الفقيه المؤرخ

أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد

الدمشقي الصالحي الحنفي

ميلوا عن الدنيا ولذاتها
وابتغوا الحق كما ينبغي
فأطيب المأكول من نحلة
وأفخر الملبوس من دودة
فإنها ليست بمحمودة
فإنها الأنفاس المعدودة

أبيات لمحمد بن طولون، لم ينظم إلا الشعر القليل، وإنما إقباله على العلوم المتنوعة والتي بلغت 38 علماً، كانت له نافعة ومفيدة، فقد منته صورة ومثلاً يحتذى به لضمود الثقافة العربية الإسلامية في عصر الاضطراب، في نهاية العصر المملوكي وبداية العثماني.

فمن هو ابن طولون؟

قام ابن طولون رحمه الله بترجمة ذاتية لنفسه في كتاب سماه الفلك المشحون في أحوال ابن طولون، إضافة إلى ما ترجمه كثير من العلماء في القرون التالية لعصره، كالغزي، وابن العماد.. وغيرهم. وهكذا بالمحصلة لنجد أعلام كبار كتبوا لأعلام كبار، سبقوهم في الزمن، ولكن أخذوا منهم العبر والعظات في سيرهم، فكانوا لهم خير خلف لخير سلف.

ونحن نرجو الله تعالى أن ينالنا الخير في قراءة سيرهم، وينفعنا بذلك ويقبلنا فنكون من المقبولين والصالحين، اللهم آمين آمين، نقرأ الفاتحة الشريفة إلى أرواحهم الطاهرة رجاء القبول.

نعود لترجمة ابن طولون، بعد أن تساءلنا بشغف من هو ابن طولون؟؟



إنه أحد أكبر الشخصيات العلمية بدمشق، وأكبر مؤرخيها بعد ابن عساكر، في القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي.

اسمه ولقبه:

شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الشهير بابن طولون الدمشقي الصالح الحنفي، الإمام العلامة المسند المؤرخ.

ولد في الصالحية، القائمة على سفح جبل قاسيون، والمطلّة على دمشق، والتي كانت بمثابة المركز العلمي العالمي، منذ أن هاجر إليها المقادسة في القرن السادس الهجري، فراراً بدينهم من الصليبيين، كما أسلفنا في سيرتهم، فعجت الصالحية بالعلماء والفقهاء والمحدثين والصالحين، وتناثر في جنبات الصالحية، المدارس العديدة والمساجد، والخوانق والزوايا وغير ذلك من الأوابد العلمية، في فترات متباعدة، من مصائب نزلت على تلك البلاد والعباد، فكان علماءها الصالحين المصلحين، نماذج يُحتذى بهم .. منهم ابن طولون رحمه الله.

ففي أوائل سنة 880 هـ، كان العهد المملوكي في الشام قد بلغ من الفساد والانحطاط مبلغه الكبير، فولد محمد بن علي بن طولون، بالقرب من المدرسة العمرية، لأبوين تركيين، ولكن قدر الله له وشاء، أن ينشأ يتيماً منذ الصغر، فرعاه عمه قاضي القضاة ومفتي الديار الجمال بن طولون.

وأخذ ابن طولون في المضي والسير على ما سار عليه عمه، في طلب العلم منذ الصغر، فلا ننسى كم لأثر الأسرة في تحديد وجهة ومعالم المولود.

لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

كان لحنم وحفظ القرآن الكريم منذ الصغر، هو مبدأ انطلاقه للعلوم والمعرفة في عصره، وساعده في ذلك ذكائه الخارق وذاكرته القوية، مما ساهم في تكوين ثقافته الإسلامية وشخصيته العلمية ونستطيع أن نستفيد من هذا العرض، إطلاعنا على الجانب الثقافي لذلك العصر، كيف السير في مركبه، وذلك من سيرة هذا الفتى العالم.



انصرف إلى الفقه الحنفي، فحفظ المختار للمجد البغدادي، والهداية للمرغيناني.. وغيرهم، ثم انصرف إلى القراءات فحفظ الجزرية والشاطبية، وقرأ القرآن بالقراءات.. ثم انصرف إلى الحديث، فقرأ على ما يقرب من 500 شخص خلال عشر سنين، من الصحاح جميعها، ولم يقرأ الحديث رواية فقط وإنما قصد الدراية أيضاً.

ثم اهتم بأصول الفقه فقرأ عدة كتب مع دراستها، وقرأ في التفسير للسيوطي، وللمخشي، وقرأ الفرائض.

واهتم بالعلوم العربية، في النحو، وأصوله، وعلم اللغة، والعروض، والتصريف، وعلم القوافي، ثم اهتم في علم الكلام قرأ كتب مختارة في المنطق، وفي التصوف، أما التاريخ فقد قرأ للسيوطي الشماريخ، وغيرها. وقرأ في الطب: للرازي وابن النفيس كتب كثيرة، فكان مقصداً للناس في علومه المتنوعة رحمه الله.

وقرأ وتعلم في علوم الهندسة، ككتاب أشكال التأسيس للشمس السمرقندي، وعلم الحساب ككتاب منظومة الجيب للعلاء الزمزمي.. وغيرها من الكتب.

وعلم الفلك: كشف الحقائق في حساب الدرج والدقائق للمهدي، والكواكب السبعة من مختصر زيج ابن الشاطر، وغير ذلك من كتب الفلك.

هكذا كانت حياته مليئة بالعلوم، أو بحرف العلوم والتي تجاوزت الـ 38 إلى 72 علماً كما ورد في كتابه الفلك المشحون.

هذه العلوم هي ثقافة عصره، وقد أتيح لابن طولون من خلال هذه الثقافة العلمية الكبيرة الاتصال بعلماء ذلك القرن، والقراءة على أيديهم ونيل الإجازات العديدة من علماء الشام، الذين شهدوا له بعلمه وإتقانه ودرايته، ثم انتقل لعلماء مصر لينال منهم الإجازات عن بعد.

و هذا النشاط العلمي الذي تمتع به ابن طولون، مهد له طريق إلى الوظائف المتنوعة التي شغلها وسوف نأتي على ذكرها.

وقبل المضي في سيرته، لا بد لنا من إعادة لقراءة ما سبق، قراءة تربية، فابن طولون عاش وترعرع يتيماً، بلا أبوين كما سلف، ولكن عرف كيف يجعل من عمه القاضي الجمال الدين بن طولون قدوة

له، فقد عُرف عن عمه بعلمه وخلقه الرفيع النبوي، فأخذ منه وجعله نصب عينيه قدوة له، فأجاد وجاد وبرع وأبدع.

فالقُدوة الصالحة، يستهدي بها الأبناء خلال مراحل نموهم و رعايتهم، ومن لطف الله عز وجل لنا أن خلقنا مفاطورين على حب التقليد، ليسهل على الإنسان الاقتداء، ولكن.. الاقتداء بمن؟

هذا يعود لدرجة يقظة وحذر الوالدين من تأثير القدوة، فهما بالمحصلة هدفهما نيل رضى الله ورضى رسوله.

لقوله تعالى: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ).

فاللبنة الأساسية تبدأ في البيت من خلال تعويدهم على سلوك نبوي يومي، يرافق هذا العمل التربوي العظيم، شحنات الحب والولاء لنبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، و هو القائل: (تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي...)، و قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ).

شيوخه:

القاضي ناصر الدين بن زريق السيراج بن الصيرفي، الجمال ابن المبرد، الشيخ أبو الفتح المزني، ابن النعيمي، وآخرون.. رحمهم الله.

وكما ذكرنا فقد درس الفقه وقرأ على عدة مشايخ وعلم ذلك العصر. وبقية العلوم والفنون الأخرى.

أما عن تلاميذه وطلابه، فقد أقبلوا عليه ليتعلموا منه وينتفعوا بعلومه، لا بل وأقبل عليه الكبار.

لا ننسى هذا نتاج تحصيله وسعيه العلمي منذ نعومة أظفاره، أي منذ الصبا نشأ وترعرع على حب العلم والعلماء، والحرص للانتفاع والفائدة منهم.

ومن تلامذته:

الشيخ شهاب الدين الطيبي، شيخ الوعاظين والمحدثين في دمشق.

والشيخ نجم الدين البهنسي خطيب جامع دمشق.

وشيوخ الأسلاك إسماعيل النابلسي مفتي الشافعية.

والشيخ زين الدين بن سلطان مفتي الحنفية.

وشيوخ الإسلام شمس الدين العيتاوي مفتي الشافعية.. وغيرهم من الكبار.

فقد كان شيخاً لكبار العلماء والشيوخ، فحسب ذلك، أمام نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، عندما يباهي بمن سلك درب الفلاح والرشد والصلاح، للوصول إلى جنة الفردوس، لقوله صلى الله عليه وسلم: (تكاثروا فيني مباح بكم الأمم يوم القيامة).

ويكفيه فخراً أيضاً أمام نبينا، أنه أكتسب ألقاب كثيرة ذات طابع علمي، تكشف لنا جانبه العلمي، منها: المحدث - عالم التراجم - الفقيه - المسند - عالم النحو والتعبير - المؤرخ - وشارك في علم الطب والفلك.. وغير ذلك.

فأي معذرة شديدة اللهجة وقوية التعبير نحتاج للاعتذار من هؤلاء العلماء الأفاضل أصحاب القامات العلمية العالية، أم بأي عبارة أو جملة سنبحث عنها في وقوفنا يوم العرض والحساب، أم بأي وجهاً نقابل نبينا عند ذلك ونحن نطلب منه الشفاعة..؟؟

مؤلفاته:

لقد ترك نتاج علمي كثير ومؤلفات كثيرة ومتنوعة الفوائد والنفع، فقد بلغت 746 كتاباً، وهذا ليس بعدد قليل، فقد تناولت هذه الكتب موضوعات وعلوم مختلفة، وسنقوم بإلقاء الضوء على بعضها بتعداد ما نستطيع وليس لحصرهم جميعاً، فله في التاريخ والتراجم وأسماء الرجال عدة كتب منها:

- أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين.

- الاختبارات المرضية في أخبار النبي ابن تيمية.

- تبيض القراطيس فيمن دفن بباب الفرديس.

- إعلام الوري بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى.

- التاج الثمين في أسماء المدلسين.



- الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام.
 - حور العيون في تاريخ أحمد بن طولون.
 - الدرّة النفيسة في ترجمة الست نفيسة.
 - الذيل على طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي، ثلاث مجلدات.
 - السفينة في تراجم الفقهاء السبعة بالمدينة.
 - الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الإثني عشر عند الإمامية.
 - عجب الدهر في تذييل من ملك مصر.
 - غاية البيان في ترجمة الشيخ رسلان.
 - القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية: تناول فيه الصالحية كل ما يتعلق فيها مع الوصف الدقيق.
 - المعزة فيما يتعلق بالهزة.
 - محن الزمن بين قيس واليمن.
 - هداية السالك إلى ترجمة ابن مالك.
- .. وغيرها من المؤلفات التي تدفعنا دفعا للإعجاب بابن طولون، ولتدفع عقولنا للسؤال كيف كان له هذه المؤلفات الكثيرة، وبأي همة وعزيمة قدمها...؟؟
- إن مؤلفاته لها قيمة تاريخية هامة جداً، قدمها ابن طولون لتكون إرث إسلامي يتوارثه الأجيال فينفعهم وينتفع ابن طولون وهو يقف بين يدي الله تعالى، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات المؤمن انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).
- لقد استفاد الناس من علمه وإرثه هذه في ثلاث جوانب:

1- في التراجم.



2- في تاريخ الدول والحوادث.

3- وفي تاريخ المدن والأماكن.

وعد ابن طولون من عظماء المؤرخين، ومن الذين جعلوا للتأريخ الإسلامي شأن عظيم، لأسلوبه الذي اتبعه في كتاباته، والتي ميزته عن غيره من العلماء، فقدم علم التأريخ بلباس جديد زاهي موثق بالوصف العمراني الدقيق، وذكر تاريخ البناء مع سيرة للبابي، فما فتح المجال أمام القادمين من الأجيال للتقدم في ركب الحضارة الإسلامية، إنشاء الله.

وظائفه أو المناصب العلمية التي شغلها شيخنا الجليل رحمه الله:

لقد وصل إلى وظائف علمية عديدة، وبأماكن عدة، لشهرته العلمية التي سبقت عمره الفتي، من هذه الوظائف:

- التدريس والإمامة وقراءة القرآن والتأليف الذي سبق ذكره.
- عين مدرساً في الفقه في المدرسة الماردينية والمدرسة المرشدية مع عمه.
- وعين فقيهاً في جامع الجديد وقراءة القرآن في الخاتونية والدلامية.
- ومدرساً ومقرئاً في المدرسة العمرية.
- ومقرئاً للصحاح في جامع الجديد.
- ومقرئاً ومدرس تحت قبة النسر في الجامع الأموي.
- إمامة عمارة السلطان سليم، وهو أول من وليها.
- إمامة الخانقاه اليونسية.
- إمامة الزاوية السيوفية.
- الخطابة بالمدرسة الركنية.

ثم عُرض عليه الخطابة في الأموي والإفتاء فاقتنع رحمه الله.



تفرغ لمؤلفاته وتعليقاته، بخط يده، وتفرغ لطلابه الذين ازدحموا عليه للانتفاع من علمه رحمه الله.

هذا وتذكر المصادر أن ابن طولون لم يتزوج ولم يعقب له أحد، ولكن بإمكانكم أيها الأخوة الكرام أن تقفوا عند تلاميذه ومن سار خلفه و قفوا وقفه تربوية بقراءة تأملية دقيقة، وبقلب محب وعقل سائلٍ متفحص، كيف سينال ابن طولون رحمه الله شرف الخيرية من أرض دمشق الحبيبة، و من نسائم حديث المصطفى نتمس قوله: (يجتبي إليها خيرة خلقه)، يفصد الشام دمشق، صلى الله عليه و سلم.

أما عن وفاته:

كان وفاة العالم والمؤرخ ابن طولون في يوم الأحد 11 جمادى الأول، عام 953 هـ ودفن بترية عمه القاضي في سفح قاسيون، قبلي الكهف والخورزمية.

رحمه الله تعالى، ورضي الله عنه وعننا، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم آمين آمين يا رب العالمين.

المصادر والمراجع:

شذرات الذهب / لابن العماد.

الأعلام / للزركلي.



محمد بن عبد الرحمن المقدسي [569هـ - 643هـ]

الحافظ الكبير ضياء الدين أبو عبد الله الصالحي الحنبلي محدث عصره

محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن المقدسي

إخوتي القراء:

احتضنت مدينة دمشق العريقة مجموعة من الأحياء القديمة، فكان لكل حي قصة وحكاية.. وفي طيات القصة سرّ عجيب نتلمّسه عندما نملك قلباً محبباً للعلم والعمل، وعقلاً شغوفاً بالمعرفة والاستكشاف... للفائدة قبل المتعة...

وحيّ الصالحية واحد من تلك الأحياء العريقة، ونموذج رائع لمجتمع متلاحم متعاون، أساسه قائم على العلم، ولذلك سُمّي ب(مدينة العلم)...

ولا عجب... فالشيخ أحمد بن قدامة رحمه الله وضع حجر الأساس لذلك الحي بإرادة وإيمان قويين، مورثاً ذلك لأبنائه وأحفاده من بعده، مما جعل حي الصالحية نموذجاً رائعاً يبين الهدف من خلق الله للإنسان واستخلافه على الأرض، وهو العبادة بإعمار الأرض على الأسس التي يحبها ويرضاها الله ورسوله.

و نحن على موعد مع سيرة واحد من أحفاد ذلك الشيخ الكبير مؤسس الحي...

إنه محدث عصره، الذي عُرف آنذاك بمحدث الديار الشامية، وصاحب المدرسة (الضيائية) المختصة في الحديث النبوي الشريف...

ضياء الدين المقدسي صاحب المدرسة الضيائية للحديث الشريف.

فمن هو؟ وبأي منهج تربوي تربي ونشأ و ترعرع عليه، ثم عمل فوق أرض دمشق المباركة؟

مولده ونشأته:

ولد في دمشق بالدير المبارك في سفح قاسيون سنة 569، والدته العالمة الواعظة رقية بنت الشيخ أحمد بن قدامة، ووالده الإمام عبد الواحد بن أحمد الذي لزم خاله الشيخ الكبير أحمد فزوجه ابنته رقية التي أنجبت له الضياء وزينب وآسيه...

اسمه: محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور ضياء الدين أبو عبد الله السعدي المقدسي الجماعيلي.

طلب له أهله الإجازة من كبار العلماء، ومع ملازمته لأحواله العلماء الربانيين، تعلم منهم الكثير في علم الحديث والفقه، وكيف يستفيد من رحلاته العلمية.. فكان شديد الشغف بأن يأخذ طلابه في رحلاته العلمية ليدهم على الشيوخ ويعلو إسنادهم ويساعدهم في نسخ الكتب..

ومع شغفه بتحصيل العلم لم ينس واجبه الوطني الديني، فمن الإيمان حفظ الأوطان من كل شر ومكر و سوء، جاهد ضياء الدين ضد الصليبيين تحت قيادة القائد صلاح الدين الأيوبي، وقد كتب الضياء بخطه واصفاً جهاد المقدسة في حملة صلاح الدين لتحرير القدس.

وولد الضياء ونشأ وترعرع منذ الصغر في بيت علم ودين، فكان العلم الشرعي غذاؤه وشرايه، وتفتحت معالم صباه وشبابه على حب الله ورسوله، فاصطبغت جوارحه بالتقى والورع والخشية من الله مولدة حبه وحب نبيه شعلةً في قلبه تحفزه على العمل والعلم باستمرار.

ومحدث الديار الشامية في القرن السادس الهجري: ضياء الدين المقدسي، الذي من الله عليه بأبوين صالحين وأسرة متديّنة كريمة، فكان للإحسان أفضل ما يكون، رحمه الله... هيا معاً نقرأ بتأمل:

عائلته:

(جده لأمه) الشيخ الكبير أحمد بن قدامة 558هـ.

(خالاه) الإمام الرباني أبو عمر 607هـ والعالم الفقيه الموفق بن قدامة 620هـ.

(جده لأبيه) أحمد بن عبد الرحمن 553هـ، ووالده هو الشيخ عبد الواحد الذي هاجر مع خاله الشيخ أحمد بن قدامة وزوجه من ابنته رقية فيما بعد، التي عُرفت بعلمها ودينها، وكانت تاريخاً للمقادة، وروى عنها ابنتها الضياء الكثير من الأحاديث.

(إخوة الضياء) الشيخ الحافظ شمس الدين أبو العباس أحمد بن عبد الواحد، كان عالماً محدثاً، وكان يُعرف بالبخاري 623هـ...

وكان للضياء شقيق هو عبد الرحيم بن عبد الواحد، وأخته آسية أم الإمام الحافظ سيف الدين، وأخته الأخرى زينب التي كانت راوية للأحاديث.

(زوجة الضياء): آسية بنت الشهاب محمد بن خلف بن راجح، وهي سبطة الشيخ أبي عمر، كانت خيرة وحافظة لكتاب الله، وراوية للأحاديث 633هـ.

لقد ظهر في هذه العائلة الكريمة عشرات الحفاظ ومئات المسنين، الذين كان لهم أثر كبير في نشر العلم - وخاصة علم الحديث -، اشترك جميعهم في السماع والتسميع والرحلة في طلب العلم.

شيوخه:

تقول المصادر: أن الحافظ السلفي قد أجازته، وكذلك عبد الحق اليوسفي وخلق كثير..

سمع الحديث:

من أبي المعالي بن صابر، وعمر بن حموية، وبركات الخشوعي، وخلق كثير.. وبدمشق من البوصيري، والصيدلاني والمؤيد الطوسي، وزينب الشعرية، وجماعة كثير.

هذا وقد بقي في رحلة مشرقية مدة سنتين، والرحلة في طلب العلم هي ما يميز علماء المسلمين، هذا الجانب العلمي المميز يتصف به جميع بنو قدامة، فالموفق بن قدامة - خاله - قد قام برحلة مماثلة مع الحافظ عبد الغني.

لقد سمع من علماء مدن إسلامية كثيرة، كبغداد ومرو وحران والموصل وهمدان وغيرها من المدن..

كتب عن أقرانه، وحصل الأصول الكثيرة، وجرح وعدل، وقيد وأهمل، مع الديانة والأمانة والتقوى والورع، وبقي ملازماً للعلم والرواية والتأليف إلى أن مات.



تصانيفه كثيرة:

فضائل الأعمال، الأعلام (ثلاث مجلدات)، الأحاديث المختارة، الموافقات، سيرة المقداسة، فضائل القرآن، النهي في سب الصحابة، وغير ذلك الكثير...

روى عنه:

ابن نقطة، ابن النجار، زكي الدين البزالي، شرف الدين بن النابلسي..

والملفت في محدثنا الضياء أنه أول ما سمع وحدث به من الحديث هو من والدته العاملة الشيخة "رقية" وخاله أبو عمر وموفق الدين وخالته رابعة.. فجلسات السمر لديهم ذات طابع ديني علمي، بعيدا عن جلسات الغيبة والمهترات اللغوية السقيمة التي لاتسمن ولا تغني، رحمهم الله جميعاً. هي ثقافة تربوية علمية دينية، ذات معنى راقى وهدف أسمى... ألا وهي مباهاة النبي المصطفى بمنهجه الأصيل في الانجاب للذرية صالحة.

شهادة علماء عصره فيه:

* قال عمر بن الحاجب: شيخنا الضياء شيخ وقته ونسيح وحده علماً وعملاً وثقة ودينياً من العلماء الربانيين، وهو أكبر من أن يدل عليه مثلي.

* وقال الشيخ عز الدين عبد الرحمن بن العز: ما جاء بعد (الدارقطني) مثل شيخنا الضياء.

وغير ذلك من الأقوال الكثيرة في شيخنا الضياء رحمه الله، الذي لم يقنع بالعمل القليل، وإنما نراه تارة يكتب ويؤلف، وتارة يعلم ويؤدّب، وينشر سنة النبي صلى الله عليه وسلم بكل شغف ومحبة... وتارة أخرى يعمل بجدّ واجتهاد ليبيّن مدرسة خاصة للحديث النبوي الشريف، من جيبه وعرقه...

ما أروعك وأنت تغتنم الفرص والفرص لتنال شرف القرب من الله ورسوله..

لقد قال العلماء في وصف ضياء الدين المقدسي: كثير البرّ والمواساة.. "الكلمة الطيبة صدقة"، دائم التهجد، أثار للمعروف بالمعروف.

وصفه الخلق:

بهي المنظر، مليح الشبية، محبباً إلى الموافق والمخالف، مشتغلاً بنفسه رضي الله عنه.





وبعد هذه القراءة، ندعو الله عز و جل اللهم حبّب إلى قلوبنا كل قول وعمل تحبه وترضاه، اللهم آمين.

وفاته:

محدّثنا الضياء، فقد توفي في يوم الاثنين من 28 جمادى الثانية عام 643 هـ، وشيّعته خلق كثير من التلاميذ العلماء، والفقراء الذين برّهم وواساهم بالكلمة الطيبة قبل النفقة... ودُفن بالقرب من خاله الموفق وأبو عمر رحمهم الله جميعاً.. فهل عرفنا من هو ضياء الدين المقدسي؟

ولد بار وطالب علم شغوف، وأب صالح لأبناء صالحين، فقيه ومحدّث، مصنّف ومعلم، مربّب وصاحب مدرسة للحديث النبوي... مجاهد ضد الصليبيين لتحرير القدس رحمه الله.. جزاك الله عنا خير جزاء، لقد تلمسنا في قراءة سيرتك اجتهادك المستمر لتكون من خير خلف لخير سلف..

نقرأ له الفاتحة الشريفة، راجين من الله تعالى في قراءتها القبول والاستجابة والتوفيق.

المصادر:

- . البداية والنهاية / لابن كثير
- . تاريخ الإسلام الذهبي
- . سير الأعلام/ الذهبي
- . شذرات الذهب / لابن العماد



محمد بن قدامة المقدسي [528هـ - 607هـ]

أبو عمر المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي

محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم أخو موفق الدين

إخوتي القراء:

لننصت للعالم الفقيه الحنبلي موفق الدين بن قدامة، ماذا قال:

(ربانا أخي، وعلمنا، وحرص علينا، كان للجماعة كالوالد يحرص عليهم يقوم بمصالحهم، وهو الذي هاجر بنا، وهو سفرنا إلى بغداد، وهو الذي كان يقوم في بناء الدير، وحين رجعنا زوجنا وبنى لنا دُوراً خارج الدير، وكان قلما يتخلف عن غزاة).

و إذا تساءلنا من هو هذا الشيخ الجليل الذي كان لإخوته الأب والأم والأخ والمرشد الموجه والناصح لهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة؟.

إنه الشيخ أبو عمر المقدسي، واقف المدرسة العمرية التي عُرفت في الصالحية منذ القدم كجامعة إسلامية من حيث النظام والمنهاج وعدة أمور قد أفادت غيرها من المدارس، لننصت و نقرأ في سيرة هذا الشيخ المرابي العالم العلامة .

مولده واسمه ونسبه:

ولد في سنة 528 بقرية جماعيل التابعة لنابلس في فلسطين، وقد تأسس علمياً فيها وتلقى العلوم الشرعية على يد والده الشيخ الكبير أحمد بن قدامة رحمه الله.

إذاً أبو عمر رحمه الله قد نالته وحظيت به العناية الإلهية في محضنه الأول، ألا وهي الأسرة التي تُصَف كأول مؤسسة تربوية في المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع، فالأسرة نواة المجتمع ومن تجمع عدة نواة يتكون هذا المجتمع، لا تنسى في ترجمة الشيخ الكبير رحمه الله قلنا أننا سنحاول تسليط الضوء على هذه العائلة المبجلة لتتعلم منهم تربوياً أولاً، ومن ثم نحاول ونجد ونجتهد في الدعاء لله تعالى أن يلهمنا الرشد والصلاح في مؤسساتنا التربوية التي تفتقر لمعاني كثيرة من هذا النوع، أقصد التربوي مع بلورة هدفنا من التربية، لنحدد وسائلنا برقي يسمو ويعلو نحو الدرجات العلى إن شاء الله.

ونذكر أن هذه الكلمات والعبارات والمعاني لم تكن لتخرج لولا كلمتين قرأناها للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، (فكيف نسيهم أهل دمشق وهم أهل وفاء... رضي الله عنهم).

عودة للشيخ أبو عمر، الذي سمع الحديث من أبيه، وأبي المكارم بن هلال، وسلمان بن علي الرحبي، وأبي الفهم بن أبي العجائز، وغيرهم. ومن مصر عبد الله بن بري النحوي، واسماعيل بن قاسم الزيات وغيرهم..

أما من روى عنه: أخوه الشيخ موفق الدين، وابناه عبد الله وعبد الرحمن، والضياء، والزكي المنذري، والقوصي، والزين ابن عبد الدائم، والفخر علي وآخرون.

صفاته وأعماله وعبادته:

جمع له الحافظ الضياء سيرة في جزئين فشفى وكفى، فلنقرأ من خير دليل..

قال: لا يكاد يسمع دعاءً إلا حفظه، ودعا به. ولا حديثاً إلا وعمل به، ولا صلاةً إلا صلاها، كان يصلي في النصف من شعبان مئة ركعة وهو مسن، ولا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته، وإذا رافق الناس في السفر ناموا وحرسهم وهو يصلي.

وقال: كان قدوة صالحاً، عابداً قانتاً لله، ربانياً، خاشعاً مخلصاً، عديم النظير، كبير القدر، كثير الأوراد والذكر، وكثير المروءة والفتوة قل أن ترى العيون مثله.

وقال: كان ربما تهجد فإن نعس ضرب على رجليه بقضيب حتى يطير النعاس، وكان يُكثر من الصيام، ولا يكاد يسمع بجزاة إلا شهدها، ولا مريض إلا عاده، ولا جهاد إلا خرج فيه، ويتلو كل ليلة سُبُعاً مرتلاً في الصلاة، وفي النهار سُبُعاً بين الصلاتين، وإذا صلى الفجر تلا آيات الحرز ويس والواقعة وتبارك، ثم يُقرئ ويُلقن إلى ارتفاع النهار، ثم يصلي الضحى، فيطيل ويُصلي بين العشاءين ويصلي صلاة التسبيح كل ليلة جمعة، ويصلي يوم الجمعة ركعتين بمئة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ). وله التساييح الكثيرة، ولا يترك غُسل الجمعة، وينسخ الحرقى من حفظه. ومن سافر من الجماعة يتفقد أهاليهم، وكان يأتونه الناس في القضاء ليصلح بينهم، وكان ذا هيبة ووقع في النفوس.

وإذا تصدق ربما يتصدق بسرأويله، ينام على الحصير، وقالت رقية أخت الشيخ أبو عمر وهي والدة الضياء المحدث: مكثنا زماناً لا يأكل أهل الدير إلا من بيت أخي أبي عمر، وكان يشجعنا على

الصدقة ويقول: إذا لم تتصدقوا من يتصدق عنكم، والسائل إن لم تعطوه أنتم أعطاه غيركم، وكان هو وأصحابه في خيمة على حصار القدس، فقد شارك في فتح القدس، رضي الله عنك يا شيخنا أبو عمرو جزاك الله خيراً كثيراً، فيما سطرت الأقلام في الكتب الكثيرة عن منهجك في السعي نحو الفوز برضى الله ورضى رسوله الكريم.

قال محدث ذلك العصر الضياء ولد رقية بنت أحمد بن قدامة وأخت الشيخ أبو عمر، كان له معرفة في الفقه والفرائض والنحو مع الزهد والعمل وقضاء حوائج الناس، ويتفقد ليس فقط الناس وأحوالهم وحاجاتهم، بل ويتفقد الأشياء النافعة كالنهر والمصانع والسقاية..

وقال الضياء سألت خالي الشيخ موفق الدين عنه فقال: أخي وشيخنا، ربانا وعلمنا، وحرص علينا، وكان للجماعة كالوالد، ويقوم بمصالحهم ومن غاب عن أهله قام هو بهم، وهو الذي هاجر بنا، وهو الذي سفرنا إلى بغداد، وهو الذي كان يقوم في بناء الدير، وحين رجعنا من بغداد، زوجنا وبني لنا دورنا الخارجة عن الدير، وكان يسارع في الغزوات، قلما يتخلف عن غزوة، وإذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته، ويكتب إلى الملوك.

فهل عرفتم يا إخوتي لماذا أشار الشيخ علي الطنطاوي إلى هذه الأسرة الكريمة التي أسست على التقوى والحب لله ورسوله..!!

جزاك الله خيراً يا شيخ علي ورحمك الله، فقد كانت إشارتك هذه دافعا قويا لجمع معلومات عن حي الصالحية وما حمل بين ثناياه من أروع وأصدق القصص والترجمات لأفراد صدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا خير خلف لخير سلف، رحمهم الله.

هذا ونعود لشيخنا أبو عمر المقدسي ولنكمل سيرته العطرة، التي كان له فيها كرامات قبل وفاته كما رواها الضياء في حكايتين يُفهم من هذه الحكايتين أن الشيخ أبو عمر في آخر عمره أصبح قطب ذلك العصر والزمان، فقد أخذ الصالحون من بقاع الأرض شرقاً وغرباً تأتيه في زيارة له قاصدة التقرب والتبرك رضي الله عنه، في عصره لم يعرف الوسائل الحضارية المتقدمة من وسائل اتصال متعددة. فكيف هو السبيل في تفسير ذلك؟ ... الجواب نتركه إليكم.



صفته الخلقية:

كان ليس بالطويل، صبيح الوجه، كث اللحية، نحيفاً أبيض، أزرق العينين، عالي الجبهة، حسن الثغر رحمه الله.

تزوج بأربع وهي فاطمة عمة الضياء وكانت أسن منه، وطاووس امرأة من بيت المقدس وفاطمة الدمشقية وآمنة بنت أبي موسى وهي أم الشيخ عبد الرحمن بن أبي عمر أصغر أبنائه.

أولاده:

الخطيب الإمام شرف الدين عبد الله خطيب بالجامع المغفري، وهو والد الإمامين العلامة الزاهد القائد العز إبراهيم بن عبد الله ومن أولاده العلماء والصلحاء، وقاضي القضاة شرف الدين حسن بن عبد الله.

الأحفاد:

الجمال أبو حمزة، وقاضي القضاة ومُسنَد الشام محيي الدين سليمان بن حمزة، وشمس الدين أبو الفرج شيخ الإسلام والإمام العلامة هو آخر من مات من أولاده. ومعظم أبنائه مات في حياته، وقد قال شعراً في ولده الكبير عمر:

إني أقول فاسمعوا بياني يا معشر الأصحاب والإخواني
أوصيكم بالعدل والإحسان والبر والتقى مع الإيمان
فاستمسكوا بطاعة الرحمن واجتنبوا الرحمن من الأوثان

وفاته:

توفي أبو عمر رحمه الله في عشية الاثنين في 28 ربيع الأول سنة 607 هـ.

وتقول المصادر أنه قلل من الأكل قبل موته في مرضه حتى أصبح كالعود. وعندما عاتبه أهله على صيامه قال: إنما أصوم أغتتم أيامي، لأني إن ضعفت عجزت عن الصوم، وإن مت انقطع عملي. رحمه الله ورضي عنه.



هذا وقد مات وهو عاقد على إصبعيه يعني يسبح بعد أن قال قبل وفاته: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) اللهم ثبتهم على الكتاب والسنة، ثم مات وهو عاقد على إصبعيه. رحمه الله.

وقيل: إن الماء الذي كان يخرج من تغسيله كأنه سدر، وحضر جنازته أكثر من عشرين ألف. وما زاره احد في قبره إلا وشعر برقةٍ وبكاء من القلب خشية لله ومحبة، رحمه الله وجزاه الخير الكثير.

والآن هل انتهت الدنيا أم توقفت، بل استمرت وتتابع الأجيال والأجيال.. ولكن أين الخبر اليقين في سرد هذا الكلام والحديث عن أناس سبقونا علموا وعملوا ودعوا الله القبول ونالوا الأجر والثواب إن شاء الله، ودُكرت في الكتب ترجمات حياة هؤلاء الصالحين، على يد علماء أفذاذ نقلوا إلينا هذه السير، لا عبثاً ولا تسلياً ولا لهواً، إنما للعظة والعبرة التي باتت على وشك الاختفاء والفقدان.. نسأل الله عز وجل العفو والعافية في الدنيا والآخرة لي ولكم ولجميع المسلمين أجمعين آمين يا رب العالمين.

أما عن الشيخ أبو عمر بن قدامة فلنا عودة في سيرته الفذة، عندما نسرد ترجمةً للمسجد والمدرسة العمرية التي كانت وقفاً له، رحمه الله.

الفاتحة لروحه الطاهرة وعلى نية القبول والتوفيق آمين آمين.

المصادر:

سير الأعلام / الذهبي

تاريخ الإسلام / الذهبي

شذرات الذهب / لابن العماد

مدرك بن زياد الفزاري

صحابي مدفون في غوطة دمشق بقرية راوية "أول مسلم يدفن بها"

إخوتي القراء:

سأل الصحابي عبد الله بن حوالة الأزدي: يا رسول الله خّر لي بلداً أكون فيه. فقال: عليك بالشام، إن الله يقول: يا شام أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي.

ويقول البدريّ، أحد علماء القرن التاسع، يقول في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام: (في بلاد الشام من الأنبياء والصحابة والصلحيين)، وقال الحافظ العراقي: دمشق بلد الأنبياء وموطن الأصفياء من الصحابة والأولياء .

ندعوكم لرحلة سياحية بين أحضان غوطة دمشق في قرية من قرأها تدعى (راوية)، ولنقف عند قبر أحد الصحابة الذين سكنوا دمشق عملاً بنصيحة المصطفى.

الصحابي مدرك الفزاري:

قدم مع أبي عبيدة بن الجراح في فتوح الشام، وسكن في قرية من قرى غوطة دمشق يقال لها: راوية، إلى أن توفي ودُفن فيها... وتذكر المصادر التاريخية بأنه أول صحابي يُدفن بها. رضي الله عنه وعن جميع الصحابة الكرام.... حيث يقول أبو ياقوت الحموي في معجم البلدان:

راوية بكسر الواو وياء مثناة من تحت مفتوحة، بلفظ راوية الماء: هي قرية من غوطة دمشق بها قبر السيدة أم كلثوم وقبر مدرك بن زياد الفزاري، وهو صحابي قدم الشام مع أبي عبيدة فمات بدمشق ودُفن براوية، وهو أول صحابي سكن الراوية ودفن بها.

وقال أبو ياقوت الحموي رحمه الله:

حَجِّيراً بالفتح ثم بالكسر، وياء ساكنة، وراء، وألف مقصورة: من قرى غوطة دمشق، بها قبر مدرك بن زياد الفزاري رضي الله عنه.

فقبره بين قرية ححيرا وقرية راوية في غوطة دمشق، رضي الله عنهم أجمعين، ونسأل المولى أن يلهمنا التوفيق في إرساء معالمنا بطيب الأثر والنفع...

ويقول ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق:

مدرك بن زياد صاحب رسول الله، قدم مع أبي عبيدة فتوفي بدمشق بقرية يقال لها راوية، وكان أول مسلم يدفن بها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم)، يكفيننا حديث واحد لأن نعمل بجد واجتهاد وحذر شديد، من أجل نيل الخيرية التي ذكرها رسول الله، اللهم اجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

المصادر والمراجع:

- تاريخ دمشق / لابن عساكر
أسد الغابة / لابن الأثير
معجم البلدان / لأبي ياقوت الحموي
نزهة الأنام في محاسن الشام
الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية

يوسف بن المبرد [840هـ - 909هـ]

جمال الدين المؤرخ العلامة الصالحي الحنبلي

يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي

مدفون بقاسيون

إخوتي القراء:

لقد ظفرت مدينة دمشق بمؤرخين أجلاء قديرين قاموا بتدوين وذكر زوارها ووُلاتها وحكامها ودورها وقصورها وخاناتها وحمّاماتها وزواياها ومساجدها ومن ثم تزيينها، بطريقة متميزة وإن دلّ هذا على شيء فهو يدل على مدى سعة أفقهم الفكري وتألق روحهم الوجداني، فلسان حالهم يقول: عسى أن نكون من صفوة الخلق الذين امتدحهم رسول الله، ومن أشهرهم مؤرخ دمشق (ابن عساكر) المتوفى 571هـ، والذي جمع وصنّف ورَتّب مادته العلمية ثم قام بعرضها علينا من خلال مجلداته الثمانين في كتابه تاريخ دمشق، برسالة مفادها أن اقرئوا وتأملوا وتفكروا أين تكمن العبرة والعظة بين السطور والكلمات والأحرف التي جُمعت من أفواه الثقات؟ أمثال: ابن المعلى 286، وابن أبي العجائز، وغيرهما من المؤرخين الشيوخ ضمن إطار عنوانه قول المصطفى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهَا صَفْوَةَ خَلْقِهِ﴾.

ثم جاء من بعده مؤرخون قرئوا وتأملوا وتفكروا وكتبوا وقلوبهم لله خاشعة ولسير من سبقونا مقدرة مجلّة داعين الله عز وجل: اللهم اجعلنا خير خلف لخير سلف.

ونحن نقف وإياكم - من خلال هذه الوقفة التأملية - لنمتع الروح بسير الصالحين ونستأنس بما خطّه التاريخ بحروف من ذهب منادياً علينا: قفوا وتفكروا، واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.

المؤرخ الشهير بابن المبرد، ابن عبد الهادي:

اسمه ومولده:

يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي، الشهير بابن المبرد الصالحي الحنبلي، ولد سنة 840هـ هجري، مُحدّث، فقيه، نحوي، مؤرخ، صوفي، له مؤلفات كثيرة، درّس وأفتى، وحضر دروساً وأخذ الحديث عن أصحاب ابن حجر، ابن العراقي، وغيرهم من أكابر علماء الشام.

كان إماماً، علامة، يغلب عليه علم الحديث والفقه والنحو والتصريف والتصوف والتفسير، وقد ألف تلميذه شمس الدين ابن طولون مؤلفاً ضخماً في ترجمته، وكتب في حياته ومصنفاته عدد من الباحثين.

مؤلفاته:

تصل إلى 400 مصنف، أبرزها في الحديث الشريف والتاريخ، وأشهرها ما ترك عن تاريخ دمشق العمراني، منها: كتابه الشهير تاريخ الصالحية، صالحية دمشق، والذي يعد أول كتاب يؤلّف عن هذه المدينة التي أسّست عام 555هـ، ولخّصه ابن كنان المتوفى 1153 هـ، وأسماه ثمار المقاصد في ذكر المساجد.

وكتاب الدر النقي في شرح ألفاظ مختصر الخرق في فروع الفقه الحنبلي، التمهيد في الكلام على التوحيد، إرشاد الحائر إلى علم الكبائر، دخول الحمام وقوانينه... وغيرها.

و ترك رسائل صغيرة مواضيعها قد دلّت على سعة الأفق الفكري لديه، ومنها:

زهة الرفاق في شرح حال الأسواق، . عدة الملمات في تعداد الحمامات، . غدق الأفكار في ذكر الأنهار، وغيرها..

وفاته:

توفي في عام 909 هـ، ودُفن في سفح قاسيون، جزاه المولى عنا خير جزاء...

إن الوقوف عند سير علماء الشام يستلزم منا لحظ ذلك التنوع العلمي الديني، تجده صوفياً، فقيهاً، محدّثاً، مؤرخاً، نحويّاً، ... تنوع راق يبدأ بمجاهدة النفس لتستقيم ثم بعملية البناء الفكري السليم، فمن كان منكم يا أهل الشام يطمح لذلك، فليتعلم وليعمل بقلب يناشد المولى أن يشملته مديح النبي صلوات الله عليه (صفوة خلقه).

إخوتي القراء سائحي دمشق العظيمة:

قدّر الله سبحانه وتعالى لأرواحنا هذه التي تسكن أجسادنا إلى ما شاء الله لها، كما قدّر لأجسادنا، قدّر لها أن تمتلك مواهب وطاقات يرسم بها كل واحد منا عنوانه، وقدّر لهذا الجسد الفناء مهما عظّم واشتد بعد خروج الروح لبارئها.. ويبقى من هذا الإنسان فقط سيرته وعمله وعلمه، وماذا قدّم من صدقاتٍ تنجيه من هول الحساب الذي لا مفر منه؟ فهل نحن مدركون لخطورة الأمر؟

يقول النبي الكريم: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن جسده فيم أبلاه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه). فأين تذهبون؟

اللهم ألهمنا السداد والرشد في القول والعمل قبل فوات الأوان.

المصادر والمراجع:

. شذرات الذهب / لابن العماد

. معجم المؤلفين / لعمر الكحالة

. الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية



المسجد الأموي الكبير

يقول ابن عساكر ت: 571هـ، في (تاريخ دمشق)، في باب ذكر شرف المسجد الجامع بدمشق وفضله، وقول من قال أنه لا يوجد في الأقطار مثله، عن قتادة قال: أقسم الله تعالى بمسجد أربعة، قال: و(التين) وهو مسجد دمشق، و(الزيتون) وهو بيت المقدس، و(طور سينين) وهو حيث كلم الله تعالى موسى عليه السلام، و(البلد الأمين) وهو مكة.

وقال ابن عساكر في رواية أخرى: أن حيطان مسجد دمشق الأربع هي من بناء هود عليه السلام، وما كان من الفسيفساء إلى فوق فهو من بناء الوليد.

وفي رواية أخرى: أنه يُعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

وفي رواية أخرى وضحها بالمنقطع: أن النبي صلى الله عليه صلى في موضع المسجد ليلة أسري به.

وعن كعب الأخبار قال: ليبيت في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا.

وقال الحموي، ت: 626هـجري، في (معجم البلدان): أن هود عليه السلام نزل دمشق وأسس الحائط الذي قبلي جامعها، وقال شيوخ دمشق الأوائل: أن دار شداد بن عاد بدمشق في سوق التين، يفتح بابها شاماً إلى الطريق.

وقال البدر في (محاسن الشام)، وما ورد في فضل مسجدها نقلاً عن بعض المفسرين: أن المقصود بالقسم بالتين هو مسجد دمشق، وأنهم أدركوا فيه شجراً من تين قبل أن يبنيه الوليد، وفي رواية أخرى قال: أن التين مسجد دمشق، كان بستاناً لهود عليه السلام وفيه تين قدسم.

وقال الطنطاوي رحمه الله: هذا الأموي له حياة طويلة ولحياته تاريخ طويل، تاريخ لا يدري إلا ببعضه التاريخ، لأن الأموي وُلد قبل أن يكتب التاريخ، لا نعرف ولا يعرف أحد من الذي وضع الحجر الأول فيه، ولا متى شُيّد، فكأنه قام ليصل الأزل بالأبد، صارع النار والدمار، وثبت على الأدهار والإعصار، تكسرت على جدرانه موجات القرون كما تتكسر الأمواج على صخرة الشاطئ، ثم ترتد عنه ميته وهو حي قائم.

هدية السيد للسيد

كنيسة صارت إلى مسجد

وعلى سيدنا محمد خاتم الأنبياء

صلى الله على سيدنا المسيح

هيا إخوتي القراء سائحي دمشق الحبيبة، تعالوا معاً لرحلة رائعة في أقدم وأعرق أرض، ومن الجهة الشرقية الجنوبية لدمشق القديمة، فلنبداً هذه الرحلة، نرى من الخارج معلماً دينياً وصرحاً علمياً كبيراً، قد شهد عهوداً وعصوراً متتالية، فعنده الخبر والحكاية.

واسم الصرح "جامع بني أمية الكبير"، نُسب إلى بني أمية، والمؤكد في كتب التاريخ أن الفن العربي الإسلامي قد وُلد في ظل الدولة الأموية وقتئذٍ، لأن دمشق مثّلت المركز الأول بين مراكز الحضارة العربية الإسلامية.

و الأمويون أسرة عربية عريقة من مكة المكرمة، فكان لانتقال مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق أثر كبير على الشام وعلى الحضارة الإسلامية، وما يهمننا هنا الحضارة التي تخضع لتأثير التقليد والاقتراس من حضارات أخرى، مع زيادة بعض التأثيرات الفنية التي تلائم العقيدة الإسلامية.

من الجامع الأموي نتعرف على خصائص وميزات حضارات توالى على مرّ عصور شهدت لقاطنيها وأهلها بعشقهم وحبهم أرضاً بوركنت على لسان نبينا العدنان.

ألا ليت يعود عهدك يا دمشق! فقد كان لأهلك حكاية عشق مع الإبداع، وإن أهل الشام اشتهروا بذلك منذ عهود، قد ألفوا الناس وأخذوا واقتبسوا ثم ازدادوا بروح الحب والتعظيم الأسمى..

من المعروف أن أقدم المساجد وأولها مسجد النبي بالمدينة، وعرفناه بشكله المربع البسيط، فأصبح أساس المسجد يتكون من: صحن وحرم تحيط به أروقة مسقوفة، وبدأت تخرج عن بساطتها هنا في الأموي، متأثرة بحضارات مضت، وقد عرف التاريخ مساجد كالأموي في شكله في عدة مدن للعالم الإسلامي، لكن تعديلات كثيرة طرأت عليها مع الزمن.

تاريخياً:

وُلد الأموي مع الفتح الإسلامي لدمشق بعد تحريرها من الحكم البيزنطي سنة 14هـ/ 635 ميلادي، وقع اختيار المسلمون على هذه الأرض المقدسة لإقامة المسجد، لشهرة هذه الأرض منذ آلاف السنين.

كان المسجد معبداً للإله حُدُد الآرامي في الألف الأول قبل الميلاد، ثم معبداً للإله جوبيتر في العهد الروماني، ثم تحول هذا المعبد في أواخر القرن الرابع الميلادي إلى كنيسة يوحنا المعمدان، وعلى الأرجح كانت تحتل الجانب الغربي من المعبد، ثم اقتسم المسلمون المعبد مع المسيحيين وشيّدوا مسجد الصحابة في الجانب الشرقي، ومع قدوم بني أمية أصبحت الحاجة ملحة لإقامة جامع كبير يليق بالخلافة، وفعلاً بعد سبعين عاماً في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك 86هـ، بدأ العمل على تشييد صرح كبير يناسب زيادة عدد المسلمين، حيث ما عاد المسجد يتسع لأعدادهم الكبيرة، فشهد التاريخ حكاية المفاوضات والتصالح التي تمت بين الوليد بن عبد الملك والمواطنين المسيحيين، وحينها قال جملته الشهيرة: " إني أريد أن أبني مسجداً لم يبني من مضى قبلي ولن يبني بعدي مثله "، وهكذا ظهر الأموي من جهود تضافرت بين مبدعي الشام دمشق من مهندسين وفناني الخط والزخارف، وبدأت عملية التشييد لهذا الصرح الجميل، ولم يقف عند ذلك العهد، بل تتالت العصور والعهود، وكلُّ يضع بصمته المميزة الفنية والمعمارية، والأهم الروحية، في هذا الصرح الذي شهد لعلماء وشيوخ من مختلف المذاهب يتسابقون لنيل الفوز بمباهاة سيد الخلق بهم.

و الآن نمضي وندخل الباب الرئيسي للأموي، ونرى أنه تصويرياً وصفيّاً:

جامع مستطيل الشكل (156.97) متر، يحتل قسمه الشمالي صحن مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة، والقسم الجنوبي هو الحرم والمصلى، وله ثلاثة أبواب رئيسية تؤدي إلى الصحن، لتصله إلى جهات المدينة الثلاث، الشرقية والغربية والشمالية، وهناك بابٌ رابع في الحرم في الجانب الغربي منه.

أقسام الجامع:

1. السور والأبواب: كان يحتل زوايا السور أبراج مربعة الشكل، بقي منها البرجان الجنوبيان، وعليهما أقيمت المئذنتان.

2. الصحن والأروقة: مستطيل مبلّط بالحجر يتخلله ثلاثة مبان صغيرة، في الوسط البحرة، فوقها قبة على أقواس وأعمدة، والجبهة الغربية الخزنة مضلعة الشكل، والجبهة الشرقية قبة أخرى على ثمانية عُمد تسمى قبة زين العابدين، نلمح تغير مستوى الأرض وارتفاعها لتتشوه مع الزمن.

3. الحرم وقاعة الصلاة: يتألف من ثلاث بلاطات موازية للقبلة، محمولة على صفيين من الأعمدة الحجرية مؤلفة من طابقين، ويغطي الحرم سقوف سنامية الشكل، صنعت من الخشب، مصفحة من الخارج بالرصاص.

و نلمح في الحرم بناء صغيراً شرقي المحراب، هو ضريح النبي يحيى أو القديس يوحنا المعمدان، ويستمد الحرم نوره من نوافذ مفتوحة في جدرانه الشمالية الجنوبية، شبيهة بالقناطر العليا الموجودة في الأروقة.

4. المآذن: كان للمعبد "سابقاً" أربعة أبراج، لم يبق منها سوى الجنوبيين، اتُّخذاً معذنتين، ثم شُيّدت الثالثة إلى جانب الباب الشمالي على هيئة برج مربع، وعُرفت باسم معذنة العروس، وشُيّدت المعذنة الشرقية فوق برج المعبد وسميت بمعذنة عيسى، أما الغربية التي شُيّدت فوق البرج ثم رُممت سنة 893هـ، فقد سُميت باسم السلطان قايتباي المملوكي.

5. العناصر الزخرفية: كانت يزين الجامع عنصران رئيسيان هما الفسيفساء والرخام، وتميز التزيين بخلوّه من الصور، مقتصرًا على مشاهد الطبيعة والعمائر والزخارف النباتية والهندسية.

هذا الوصف الكلامي يحتاج بجدّ تأمل هذا الصرح العظيم، مشاهدة وتفكّرًا، كيف بدأت حكايته؟ من نية في إظهار عظمة وعالمية الدين الإسلامي، ولا يزال الجامع الأموي يحمل لنا من المعرفة التاريخية والمتعة الروحية، فهناك مشاهد ومحارِبُ مذاهب متعددة، ومتحف يحمل لنا من الأسرار المدهشة.

ذاك هو الأموي! يحمل لنا تنوعاً مدهشاً مذهلاً رائعاً، فقد جلس واعتكف الغزالي عشرة أعوام فيه، واشتهرت الغربية بالغزالية، وهناك كتب كتابه الشهير (إحياء علوم الدين).

فهل سُنحِي ونجدد نفوساً ألفت الكسل والخمول والجهل، بقراءة متبصرة في سير من سبقونا بالإيمان، طموحهم مباحةً محمديةً في أرض بوركت على لسانه الشريف وبأحاديثه المتواترة التي تُنبئ بنزول السيد المسيح هنا، معلناً إقامة دولة الحق والعدل الإسلامي الصحيح، فهلاً لبينا نداء النبي وعُدنا لننطلق من ركعتين في حرم الأموي بنية تحية المسجد ونية التغيير للأفضل.



المصادر والمراجع:

. تاريخ دمشق / ابن عساكر

. معجم البلدان / الحموي

. محاسن الشام / للبدري

. الجامع الأموي / الطنطاوي

. الحوليات الأثرية / مديرية الآثار



مسجد الباشورة أو شجاع سابقاً داخل أسوار دمشق القديمة في منطقة الشاغور الجوّاني



في نهاية جادة الدقاقين من ناحية الجنوب يقع الباب الصغير (باب الحديد)، الذي سُمِّي بذلك لأنه مُصنَّعٌ بالحديد، وهو أحد الأبواب التي اختطّها اليونانيون لمدينة دمشق القديمة، وقد خصّها اليونانيون والرومان بـكوكب المريخ.

وذكر ابن عساكر في "تاريخ دمشق" قائلاً: مسجداً في باب الصغير، ملاصقاً لل سور كبيراً يُعرف بمسجد أبي شجاع، له منارة خربت ووقف ومؤذن وإمام، وفيه بئر، وعلى بابه مطهرة.. وله صحنٌ مفروش بالحجارة السوداء والبيضاء، وفي الجهة الغربية من الصحن رواقٌ يقوم على عمود ضخم، أما الجهة القبليّة فلها شبّاكان يُطلان على الصحن، وفيهما محرابٌ حجريّ حديث ومنبرٌ خشبيّ.

جُدّد الباب زمن الأيوبيين، وسُمّيت مقبرة الحيّ باسم الحيّ نفسه: مقبرة الباب الصغير، وإلى الجانب الشمالي الشرقي من الباب الصغير، محلّة (الباشورة)، التي تميّزت بجامع الباشورة الذي سمي باسمها. ويُخبرنا الجغرافي المؤرخ الشيخ النعمي في "الدارس في تاريخ المدارس" قائلاً:

(مسجد شجاع أو مسجد الباشورة: مسجدٌ على باب الصغير، ملاصقٌ لل سور، كان فيه درس للفقّه في الأيام النورية والصلاحية والعادلية، وفيه بئر وعلى بابه مطهرة).

مدخل المسجد رائع، وواجهته حجرية جميلة تدلنا على معرفة إنسان ذاك العصر وإدراكه للفنّ والجمال.. صحنه مربع ومئذنته حجرية جميلة خالية من المقرنصات ذات جذع ضخم مُثَمَّن بسيط في عمارته، وفي نهاية الجذع شرفة مُثَمَّنة الأضلاع بارزة عنه.

ويقال: **الباشورة** تعني الطريق المتعرجة والمنعطفة، حيث ظهر هذا النوع من التخطيط زمن نور الدين زنكي.. إذن فهو أحد أهم المساجد التي بُنيت في عهد السلطان نور الدين زنكي.

وقد جددت دائرة الأوقاف الجامع سنة 1922، و1948م.

إخوتي القراء:

في دمشق، نجد من عشقها وعمل على ترك ثمراتٍ تدل على عشقه وحبه وسعيه لنيل رضى الله ورسوله، ونجد المعالم المتنوعة فوق أرض دمشق الحبيبة تهتف منادية علينا أن لا ندع تلك العظات والعبر التي تحاول لفتنا إلى أننا قد امتلكننا أرضاً مباركة... أما الإنسان، وعمره فيم أفناه؟؟ فذاك هوبيثُ القصيد وما ينبغي أن نعمل لأجله ما دمنا أحياء.

المصادر والمراجع:

- تاريخ دمشق / لابن عساكر
- الدارس في تاريخ المدارس / للنعيم

مسجد التينبيّة

مسجدٌ أصله تربة في مَجَلَّة الميدان الوسطاني

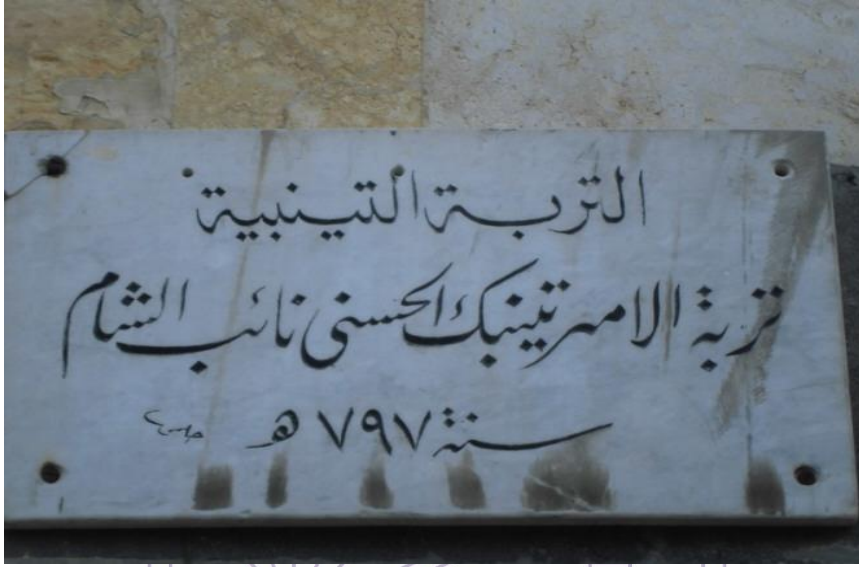
له عدة أسماء: جامع تنبك، جامع يشبك، جامع التينبية



إخوتي القراء سياح دمشق العزيزة:

لا عجب من وجود المساجد التي لا يحصاها العدد في بلاد الشام، والمصطفى قد أخبرنا بكثرة مساجدها، ففي كل حارة وزقاق تجد المآذن قائمة تدعو العباد لخير يعمهم، فالشام بلد الأمن والأمان والبركة التي دعى لها رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وإن من آداب أهل الشام عقب صلواتهم الجامعة إقبالهم على مصافحة بعضهم بعضاً تمسكاً بسنة نبوية شريفة، في من يصافح إثر الصلوات (و لا سيما صلاتي الصبح والعصر) رجاء طلب المغفرة من الله عز وجل.. فما إن يسلم الإمام ويفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء أخاه عن يمينه وشماله، فيتجدد فيهم الإيمان ويتفرقون عن مجلس مغفرة ورحمة.

ها هو جامع (التينبية) في محلة الميدان الشهيرة بنسائمتها الإيمانية بدمشق، يدعونا للوقوف عند خبره كي نستلهم "عبرة وعظة" من سطورهِ التاريخية ... فلنستمع معاً...



تخبرنا المصادر أن جامع التينبية يتألف من قسمين: تربة ومسجداً.. حيث تقع تربة التينبية جنوب دمشق خارج أسوارها في الطرف الشرقي من محلة الميدان الوسطاني، وقد بناها نائب السلطنة المملوكي، الأمير (سيف الدين تينبك الحسني)، والذي يسمى أيضاً (تينك الظاهري)، وهو من أمراء دمشق في العصر المملوكي في عام 797 هـ الموافق 1394 م، ثم دُفن فيها سنة 802 هـ، 1399 م.

و قد تميز العصر المملوكي، على الرغم من الاضطراب السياسي، بالازدهار والنشاط في جمع نواحي الحياة، حيث بنى الأمراء المساجد والمدارس والتُّرب التي يوجد بجانب معظمها مصلى صغير يصبح مع السنين جامعاً أو مسجداً للصلاة، كما هو جامع التينبية، الذي يتألف من قسمين: المسجد والتربة التي فيها الضريح.

يقع المسجد في الجهة الجنوبية والتربة في الجهة الشمالية، واجهته مبنية من مداميك الحجارة البلقاء المتناوبة ما بين الأبيض والأسود، وهو ما يميز العمارة المملوكية، أما المئذنة فقصيرة الجذع مملوكية الأصل، وهناك قبتان على جانبي الباب مع واجهة جميلة.



كانت تنطلق من حي الميدان مواكب الحج، فرغب كثير من الأمراء أن يُدفنوا فيه لينالوا دعوات الحُجاج، متأملين نيل دعاء الأخ لأخيه.

نترككم الآن مع الوصف التصويري للجامع والترتبة، سائلين الله عز وجل أن يُكرمنا بحسن الخاتمة وصلاح القلب، لنكون خير خلف لخير سلف.

المصادر والمراجع:

- . الدارس في تاريخ المدارس / النعيمي
- . العمارة العربية الإسلامية / الريحاوي

مسجد الجديد في حي الصالحية بدمشق



إخوتي القراء:

يخبرنا ابن عساكر في كتابه الشهير (تاريخ دمشق) في باب (ذكر معرفة مساجد البلد وحصرها بذكر التعريف لها والعدد)، بأن الصحابي واثلة الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ستكون دمشق في آخر الزمان أكثر المدائن أهلاً وأكثره أبدالاً وأكثره مساجداً وأكثره زهاداً وأكثره مالاً ورجالاً، وأقله كفاراً، وهو معقل لأهلها﴾.

ويعلق ابن عساكر: (وكثرة المساجد تدل على اهتمام أهلها بالدين وكثرة المصلين فيها والمتعبدين...).

فمدينة دمشق كانت ولا زالت تتألق بما حملت من ألقاب رائعة، منها لقب (مدينة المساجد)، ليس فقط لكثرة عددها، وإنما أيضاً لقوة رسوخها في الإيمان الحقيقي البعيد عن نوايا النفاق والخصام والشقاق، فهي ملاذ الناس عند كثرة وقوع الفتن.. حيث يقول نبينا الكريم في نصيحته لصحابته

رضوان الله عليهم: ﴿عليكم بالشام..﴾، ﴿..يجتبي إليها صفوة خلقه﴾، ﴿الخير في الشام﴾، ﴿..فمن خرج منها فقد باء بسخط من الله..﴾.

هذه الأحاديث الكثيرة المشهورة بالتواتر هي من قول سيد البشر، وليست قول إنسان عادي.. مما يجعل ساكني دمشق والشام أمام مسؤولية كبيرة تجاه نبيهم الكريم، في محاسبة ومراقبة القلب والنفس وهواها، فهم من جعلهم سيد الكون العنوان الحقيقي للإسلام، بأخلاقهم النبوية المحمدية المزدانة بنسائم الرحمة وحب الخير للجميع، فالخلق كلهم عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعياله... وقال: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه﴾.

اللهم اجعلنا ممن يفقه محاسبة نفسه ومخالفة هواها قبل أن ترتبع تلك النفس الأمارة بالسوء على القلوب...

ونحن عندما ندعوكم لزيارة معلم ديني قديم من خلال هذه الزاوية، فإن دعوتنا ليست بدعوة عشوائية، تبدأ بكلام لتنتهي بتمنيات فقط، لأن رحلتنا السياحية هذه، يُراد منها اكتساب المعرفة التاريخية التي تسهم في توسّع مداركنا العقلية مع سياحة لأرواحنا في فضائيات الإيمان والرقي نتمسهما في سير من كانوا قبلنا، اجتهدوا ومجثوا لهم عن قدم صدق فوق أرض دمشق إجلالاً لأحاديث النبي الكريم.. فهياً نبدأ سياحتنا بالدعاء: (اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم، وأدخلنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم، وسهّل أخلاقنا بالحلم، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه) اللهم آمين.

إخوتي القراء:

تخبرنا المصادر بأن حي قاسيون أول وأقدم حي أنشئ خارج سور دمشق القديمة، وخلال سنوات قليلة، أصبح هذا الحي بمثابة عاصمة جديدة تنافس دمشق القديمة، ذلك للنشاط والازدهار الثقافي والاجتماعي والديني فيه، كان للنساء دور كبير في إرساء هذه المعالم الرائعة، حيث جمعن بين دورهن التربوي الأسري الهام ودورهن الاجتماعي والعلمي الثقافي في المجتمع الدمشقي.

لقد كان الدمشقيون فيما مضى مجالسهم يجعلونها محضراً للتنزه، بمسامرات ثقافية جميلة لا يراد منها إلا الفائدة، فلا ينقضي يومهم إلا بإنشاء الأشعار الهادفة...

والشواهد كثيرة تستنطقنا وترجوننا للتعرف عليها للاعتبار بها، فامضِ أيها السائح قريباً من القباب الشركسية غربي مقام ابن العربي رحمه الله، وبتجاهه الجسر الأبيض، فهناك جادة تسمى بابن المقدم..

وعلى ضفة نهر يزيد ستجد مسجداً قائماً خصائصه المعمارية تجمع بين الفن الأيوبي والمملوكي، وغربي المسجد تربة أيوبية.

ما هويتها؟ وماهي رسالتها لنا؟

فلنستمع:

تُجمع المصادر بأن من بنى التربة هي (عصمة الدين خاتون) في عام 577هـ، زوجة السلطان نور الدين الزنكي، التي عُرفت بعفتها وقوة إيمانها وحكمتها التي أهلتها لتكون مستشارة زوجها السلطان نور الدين..

تحكي المصادر أنها السبب في جناية أجراها نور الدين لضاري الطبلخانان في القلعة وقت السحر، بعد أن جزعت يوماً لعدم استيقاظها عن وردا لها في الليل... وهي ابنة الأمير معين الدين أنز السلجوقي، نائب الشام وأتابك عسكرها قبل نور الدين. ثم بعد وفاة نور الدين، بقيت في القلعة سنواتٍ معززةً يطلب الجميع ودّها، إلى أن تزوجها القائد صلاح الدين الأيوبي..

وأمرت ببناء التربة قبل وفاتها بأربع سنوات، وعندما توفيت عام 581هـ/ 1185م، دُفنت في تربتها، وسمّيت بالتربة الخاتونية.. وكان لها أيادي خيرة كثيرة في دمشق، كمثيلاًتها من النساء الأيوبيات الخواتين ذوات القدر (وخاتون معناها أميرة أو سلطانة) منافساتهن كانت تنحصر في بناء مسجد أو مدرسة أو رباط وتنفق فيها الأموال ثم تعين لها من مالها الأوقاف..... وفي عام 653هـ/ 1237م، بنى خضر بن محمد السرهندي الحلبي الناصري مسجداً صغيراً إلى جانب التربة، وفي العهد المملوكي عام 790هـ/ 1388م، قام التاجر سليمان حسين الغفيري بتوسعته بإشراف علي ابن التدمري، فُعرف باسم (جامع الجديد)، وقد كان يُطلق عليه اسم الخاتونية نسبة للتربة.



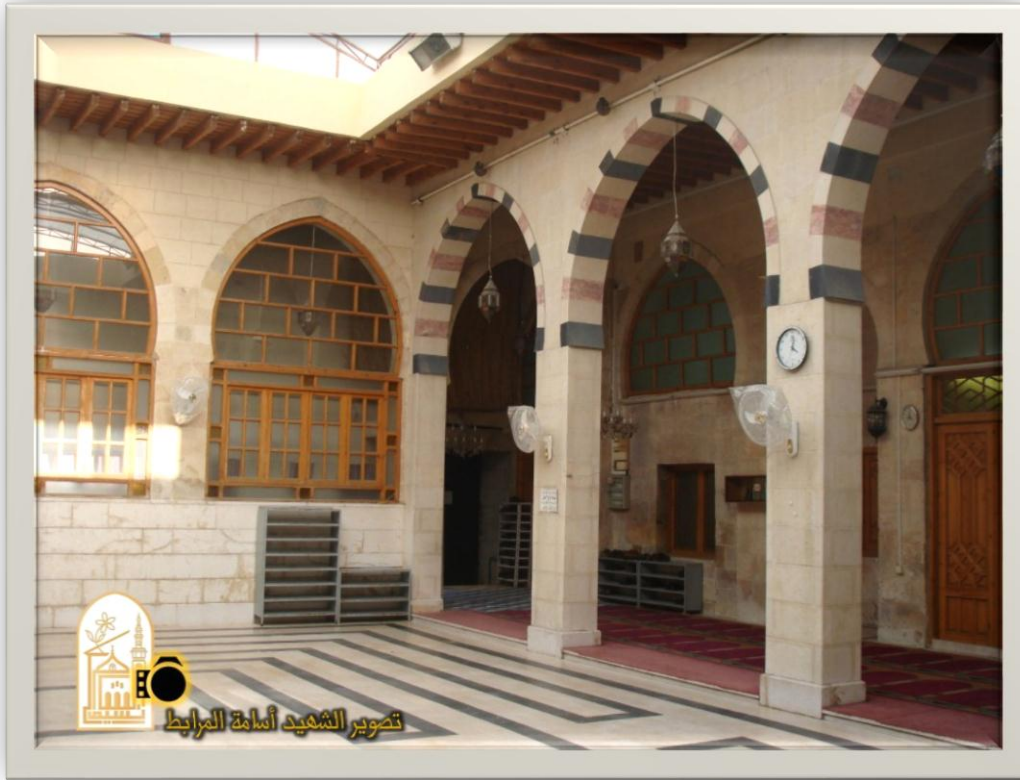
وفي عام 975هـ، قام محمد بن محمد المتروح بتوسعة المسجد ضعفي مساحته من جهة الغرب بعد هدم حائطه الغربي، وقام ببناء محراب ثانٍ له، وأجرى عليه أوقافاً، وأنفق من ماله وساعده بعض أهل الخير..

أما عن وصف الجامع:

في أعلى باب المسجد لوحة رخامية بنص مكتوب عليها التاريخ والأسماء..... كما أسلفنا، ونلاحظ بأن الفن المعماري الأيوبي والمملوكي قد تمازجا واتحدا معاً في هذا المسجد، ذلك لتجديده وتوسيعه عدة مرات.

ومن باب المسجد نبداً:

يعلو الباب الرئيسي قوس أبلق على الطراز المملوكي خالٍ من المقرنصات التي اشتهر بها الفن المملوكي والحرم مستطيل الشكل، ضيق في العرض، فيه ثلاثة محاريب ومنبر عادي، وله ثلاث شبابيك: الشرقي يطل على الطريق، والآخراين قبليان كانا يطلان على نهر يزيد. يحمل سقف الحرم خمسة قناطر، وفي وسط الصحن بحرة.



أما في الجهة الشمالية الشرقية للمصلى، فترتفع منارة حجرية.. وغرب المصلى نرى ضريح خاتون عصمة الدين يعلوها قبة أيوبية، بجانبها التربة المثقالية وضريح للأمير المجاهد مثقال بن عبد الله الجمدار/ أبو بكر بن العيتي.

أما المئذنة فقصيرة ومشيدة من الحجر، قاعدتها مربعة أيوبية، وجذعها مئمن الأضلاع مملوكي الطراز على شكل خوذة، والشرفة على الطراز العثماني لتضررها من زلزال ألمّ بها في عام 1759 م. وفي الختام يا إخوتي، نجد لسان حالنا يقول: وماذا بعد؟

نعم... ماذا بعد؟ فما زالت في الأنفاس بقية، ودمشق ستبقى مباركة أبية، تزينها شواهد تاريخية عظيمة موزّعة بين أحيائها هنا وهناك، تحكي قصة إنسان عاش قبلنا، فعرف ذاته وأصله والهدف من خلقه، وفهم دوره الحقيقي في الدنيا، ثم سعى في عمارة يفخر بها النبي صلى الله عليه وسلم، وانشغل بالبحث عن المعنى الحقيقي للخلود على الأرض، فتمتّل المنهج الحمدي العظيم، وترك لنا سيراً وآثاراً تُترجم هدفه السامي...

وبالمختصر يا إخواني، فقد فقه أهل دمشق معنى حديث المصطفى الكريم: ﴿إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له﴾.



نسأل الله لنا ولكم التوفيق في فهم وفقه مقصد النبي الكريم لمعاني حديثه الشريف ويزقنا حسن الاتباع المحمدي، لنكون من أهل دمشق الذين ينتظرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مشتاقاً إليهم، فهم إخوانه الذين آمنوا به ولم يروه، وعملوا بما يحب ويرضى.. وإن أول خطوة إلى ذلك تكون بالتفكير والتأمل في سير من كان قبلنا، وما هي إلا سنة محمدية كانت أول ما قام به رسولنا الكريم في غار حراء، التأمل والتفكير مع الدعاء للتوفيق، فهي تُحْيِيهَا معكم من خلال هذه الزاوية.

المصادر والمراجع:

القلائد الجوهريّة/ ابن طولون

تاريخ دمشق/ ابن عسك

الدارس في تاريخ المدارس/ النعيمي

العمارة الإسلامية/ الريحاوي

البداية والنهاية/ ابن كثير

مسجد الجراح

بدمشق شاهدٌ من شواهد الماضي

إخوتي القراء:

من خلال هذه الزاوية نتلمس وإياكم نفحاتٍ قدسية رائعة لعبادة قد غفلنا عنها مع أنها أول عبادة قام بها حبيبنا المصطفى، وهي التفكير والتأمل في فضاء الكون أوبين أحرف وسطور قصص التاريخ، أوفي فراغ أنفسنا، ولا يتأتى ذلك إلا بوقفه صمت وتفعيل لطاقة الروح بإشراف العقل، كي نضع النفس التائهة المتسائلة في المسار الصحيح.

يسرنا من خلال زاويتنا السياحية هذه أن ندعوكم إلى رحلة سياحية في أرض الشام، نتمشى معاً بين أحيائها القديمة قدام الأرض، نستنطق ما تراه أعيننا من أوابد وأبنية ومدارس ومساجد عن سؤال جوهرى: كيف كانت وتكون خلافة الله عز وجل في الأرض؟

تضم دمشق القديمة عدداً من الأحياء القديمة والعريقة التي يزينها عددٌ من المساجد والمدارس والشوارع المرصوفة، كما تضم عدداً من الأسواق، والقلعة والصور الروماني القديم.... وفي الجزء الجنوبي خارج أسوار دمشق القديمة نجد جامعاً قديماً عند عتبات مقبرة الباب الصغير، في جادة عُرفت بـ "الجراح" نسبة للجامع "الجراح"، فما هي حكايته؟ ولماذا سُمي بالجراح؟

- يخبرنا مؤرخ دمشق الشهير ابن عساكر (581هـ):

[باب ذكر معرفة مساجد البلد وحصرها بذكر التعريف لها والعدد]

مسجد الجنائز بباب الصغير بسوق الغنم، كبير، قديم، خرب، فيه بئر.

- ثم يخبرنا النعيمي (978هـ):

(في الجزء الجنوبي لدمشق القديمة، وعند عتبة مقبرة الباب الصغير، هناك جادة تخترق المقبرة من الشرق إلى الغرب، في منطقة الشاغور البراني، والتي كانت هذه المحلة تُسمى في العصر الأيوبي بمحلة سوق الغنم لتمرکز بائعي الغنم والمواشي، كان إلى جانب هذا السوق مسجد صغير، متاخماً من الشرق

لمقبرة الباب الصغير، تُقام فيه الصلاة على الجنائز، لذلك عُرف باسم "مسجد الجنائز"... وعندما خرب جدّده رجل صالح يدعى جراح المضحي رحمه الله.

ومع مرور الأيام والسنين، قام الملك الأشرف ابن الملك العادل ابن شقيق السلطان صلاح الدين المتوفى في سنة (635هـ) وصيّ المسجد الصغير إلى جامع كبير في سنة (631هـ)، وأوقف عليه قرية من أعمال مرج دمشق تُعرف بالزعيزعية، وشرط فيها للخطيب بالجامع في كل شهر 20 درهماً، وللإمام بالمسجد في كل شهر 50 درهماً، وللمؤذن والقيّم 30 درهماً، ولعشرة قراء في الشهر لكل منهم 10 دراهم...

لكنه تعرض لحريق مدمر في أيام الملك الصالح عماد الدين اسماعيل في أواخر سنة (642هـ) بعد توسعة الملك الأشرف، فجدّد بناءه الأمير مجاهد الدين محمد ابن الأمير غرس الدين قليج النوري سنة (652هـ).

ثم دُثر الجامع سنة (974هـ)، من حريق كبير طال الجامع وحرمه، فقام نقيب الأشراف بدمشق الشيخ الكمال الحمزاوي رحمه الله وجمع له ثم حثّ على عمارته ووضع له من ماله الخاص، وجعل له حرماً بسيطاً في الجنوب، وصحناً في الشمال، وأحدث تعديلات كثيرة له، ولكن أبقى على الحجارة الصقلية الضخمة... تميز بجدرانه المرتفعة 18 متر، له جبهة حجرية ضخمة شمالية فيها الباب، وبجانبه الأيمن والأيسر شباكان إلى الصحن وفوق الباب لوحة حجرية نصّها: ((إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة)).

وفي عام (1173هـ)، تضررت مئذنة الجامع بالزلزال، وقيل سقطت فأعيد تجديدها وبنائها... والمئذنة فوق المدخل ذات جذع أيوبي الطراز، ضخم في محيطه متقشف العمارة وطويلة، تعلو المئذنة شرفة خشبية مثمّنة الشكل مملوكية الفن.

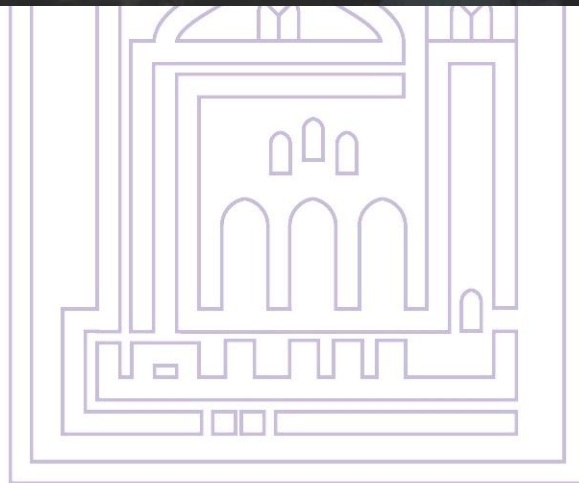
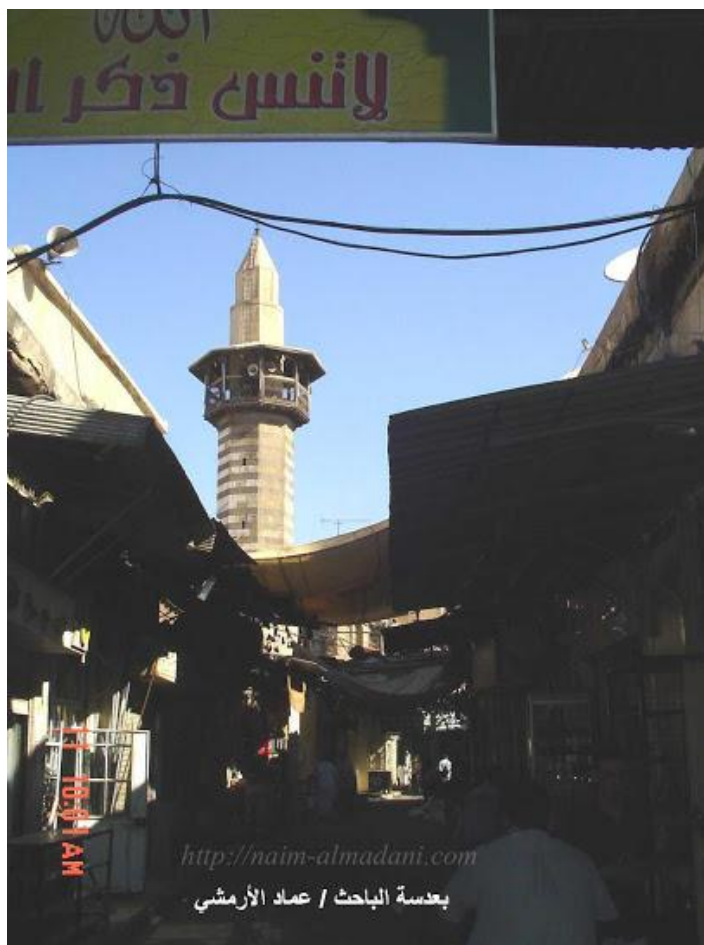
نترككم مع الصور...

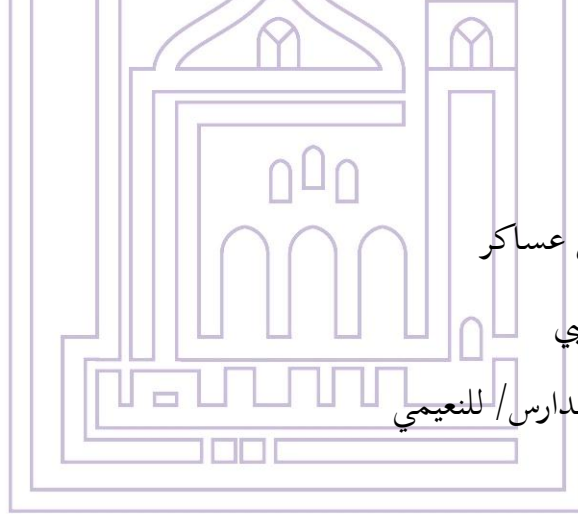
وهكذا نجد هذا المسجد الدمشقي قد جمع في تاريخ بنائه وعمارته أزمنة متتالية عدة، فقد شهد كوارث طبيعية وبشرية لكن خطر الإنسان أهم بما يحمل من أفكار ومعتقدات، فهو العنصر الهام في بناء الحضارات.

إخوتي سائحي دمشق العظيمة:

إن الإنسان بحاجة ماسة لرحلة سياحية يستلهم من خلالها عبراً وعِظاتٍ ليحصد خيرَي الدنيا والآخرة، فالأرض بالنسبة للإنسان مهد وبيت، وأخيراً لحد... فاختر لنفسك أيها الإنسان منهجاً يليق بك يوم العرض والوقوف بين يدي الخالق، ولن يكون إلا بما رسّخه المصطفى صلوات الله عليه في سيرته الرائعة... فصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تسهّل بها لنا الأرزاق، وتُنجينا بها من النفاق، وتجمع بها بيننا وبين حبيبك يوم الفراق والتلاق، اللهم آمين.







المصادر والمراجع

- تاريخ دمشق / لابن عساکر
- سير الأعلام / للذهبي
- الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي



مسجد الجوزة

من العصر الأيوبي أيوبي، جدد في العصر المملوكي

في العمارة البرانية، محلة العقيبية

نذهب معاً في جولة إلى مسجد الجوزة وقد يخلط الناس بينه وبين مسجد "الجوزية" الكائن في سوق البزورية إزاء قصر العظم، وهو موضع المدرسة الجوزية الحنبلية، فقد أنشأت دائرة الأوقاف فيها مسجداً جديداً، باسم "مسجد الجوزية".

ورحلتنا ستكون باتجاه العقيبية وبجوار محلة العمارة البرانية، فعند نقطة التقاء منطقة العمارة بسوق ساروجة، لنلمح مسجداً فوق بابه لوحة باسم "مسجد الجوزة"...

وقد ذكره مؤرخ دمشق الشهير ابن عساكر: أن مسجد الجوزة بالعقيبية، في حارة بين نهرين، له إمام ووقف، وعلى بابه سقاية.





بينما النعيمي ذكره كمسجد مملوكي بالعقبيية، قد أمّ به الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد المرادوي السبتي، ونسخ بخطه مائة مجلدة، ثم توفي سنة 827هـجري

يعد هذا الجامع من أوسع وأنزه الجوامع، له باب غربي من الحجر الأسود كُتِب عليه: حاجب الحجاب بالشام المحروس عفا الله عنه وعن ذريته، 804هـجري.

و جُدّد مرات عدة لتوالي وتغير العصور، لكن عنوان دمشق لا يتغير فهي مدينة المساجد لكثرة عددها.. فأحاديث المصطفى

صلى الله عليه وسلم قد كست مدينة دمشق حِلة الإسلام والإيمان والإحسان جميعها بإذن الله.

أما عن الوصف التصويري:

لنتأمل صور لمسجد الجوزة وندعو المولى أن يتم نعمته على الشام دمشق بالحفظ والرعاية من شر ومكر الماكزين... اللهم آمين، ندعكم مع الصور بأرواحنا التي تشتاق دوماً لبيوت الله عز وجل وندعها تتحول لثواني....

نرى للجامع صحنٌ كبير مفروش بالحجارة السوداء، وفيه بركة، وفي الجهة الشمالية دكة عالية، وفي الغربية رواقٌ ذو محراب.

المحراب حجري جميل، لكنه سُوّه بالدهان، وإلى جانبه محراب خشبي.. وللجامع منارةٌ مُثمّنة كُتِب عليها تاريخ البناء والتجديد.

نرى ونرى لنجد ألسنتنا قد ألهمت الدعاء... ربنا أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا.. ربنا
اجعلنا لك ذاكرين ومن عذابك آمين.. ربنا أكرمنا بحسن التدبر والتأمل والتفكير.. واجعل أفئدتنا
لببوتك مشتاقة مُحِبَّة دائماً...



المصادر والمراجع:

- . ثمار المقاصد في ذكر المساجد / لابن عبد الهادي
- . الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي
- . العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي

مسجد السقيفة

مسجد الثقفي "صحابي في باب توما"

مبني على ضفة نهر بردى خارج باب توما [814هـ - 1145م]

إخوتي القراء:

ندعوكم في رحلة سياحية في "مدينة المساجد" في ساحة باب توما الأثري، أحد الأبواب السبعة الدمشقية القديمة، حيث نلمح مأذنة عالية لجامع "الثقفي" الذي يسميه عوام أهل الشام بجامع (السقيفة)، بينما يدعى بجامع (الثقفي) نسبة للصحابي المدفون هناك.

و يخبرنا مؤرخ دمشق الجليل ابن عساكر في باب (معرفة مساجد البلد) بأن تلك البقعة كان قد سكنها عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم.. منهم الصحابي عثمان بن أبي العاص الثقفي من أهل الطائف، قدم الشام دمشق وسكنها في أيام الفتح الإسلامي.

الموقع:

يقع المسجد متاخماً لسور دمشق القديم عند ساحة باب توما الأثري، على يسار الذهاب إلى التربة الإرسلائية.

كانت المحلة تدعى (السبع أنابيب) قبل تغطيتها، وبطل المسجد على جسر نهر بردى الواصل بين بستان العش وطريق الصفوانية.. وقد ذكره النعمي قائلاً: "جامع السقيفة خارج باب توما، وقال ابن شعبة في سنة 814 هجري: بناه غرس الدين خليل الطوغاني.. ثم قال: في سنة 815 هجري، غرس الدين الطوغاني نقيب النقباء بدار السعادة أنشأ جامعاً عند باب توما على النهر، وجاء حسناً، ورتب فيه خطيباً ومؤذنين وقارئاً للحديث.

وقال محمد كرد علي في (خطط الشام):

"أنشأ الملك أبو بكر بن أيوب - وكان مولعاً بالعمارة فقد أنشئت بعهدده مساجد كثيرة . جامع الحاجب في سوق ساروجة، وجامع السقيفة الذي دُفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة الكرام، وفيما يقال: أنشأه خليل الطوغاني في عام 814 هجري، وكان محلّه يعرف بالسبعة" ..

قال ابن بدران في (منادمة الأطلال): أن بانيه هو خليل الطوغاني، كان رأس نوبة بدمشق في دار السعادة، خارج باب توما، سنة 814 هجري، وجدّده وجعل له شبايك على النهر.

وهو مسجد له جبهة حجرية سوداء وبيضاء حسنة البناء، وفيها باب مُقرنصٌ بديع ذو زخارف هندسية لطيفة، يُدخل منه إلى بهو فيه ضريح كُتب عليه بقلم حديث: هذا ضريح "عثمان الثقفي".

وإلى جانب الضريح (القبليّة)، بناء مُجَدّد وفيها محراب ومنبر عادي.. إلا أن فوق المحراب آية ﴿ إِنَّمَا يَعْزُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ .. ﴾ بخط مملوكي جميل، والمسجد مُعلق على نهر ي بردى وبانياس.

شهد المسجد عصر الاحتلال الفرنسي، الذي قام بأخذ جزء منه بحجة تنظيم الطريق.

و في عام 1363 للهجرة الموافق 1944 ميلادي، قامت مديرية الأوقاف بتجديد المسجد ليصبح متداخل العصور واضح الملامح.

فيا أيها السائح الدمشقي: قد أنعم المولى علينا بسكنى هذه الأرض المباركة، وأنعم علينا بالعيش فيها.. قد امتلكننا الأرض والحياة.. ليبقى عملنا وصالح نياتنا... فكن ممن يطمح للفوز برضى المولى من خلال إقامة شعائره التوحيدية بأخلاق محمدية: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ..

المصادر والمراجع:

. ثمار المقاصد في ذكر المساجد / لابن عبد الهادي . الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي

. خطط الشام / محمد كرد علي . العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي

مسجد السنجق دار

شيدته الأمير سيف الدين أراغون المملوكي [750هـ – 1348م]



في مدينة دمشق التي حباها الله عز وجل بموقع ممتاز وإقليم معتدل، وأعطها من المياه أنهاراً لنشرب منها ونسقي غوطتها، فنشكر الله ونحمده. وعندما نمشي بين الأزقة والحارات نلاحظ توزع المساجد، ففي كل حي مسجد أو أكثر، ولذلك سميت (بمدينة المساجد)... وهذا يحتاج منا الشكر والحمد لله العظيم.

وعندما تخرج أيها السائح المسلم من الباب الغربي لقلعة دمشق الذي كان السلاطين والملوك يخرجون منه، فقف وانظر قبالة ذاك الباب، ترى أمامك مسجداً قديماً يسمى مسجد (السنجق دار)، كان

يعرف بجامع (الحشر)، فما قصته؟ ومن قام ببنائه خارج أسوار دمشق القديم؟ وما تاريخ بنائه؟
أنت مدعوٌ أيها السائح المسلم لتتعرفَ معاً على هذا المسجد من خلال "زاوية معالم وأعيان" فهياً
معاً.

الموقع: يقع خارج السور القديم لدمشق، مواجه باب القلعة في محلة عُرفت فيما بعد
ب(السنجدار)، وقبل هذا البناء كان مكانه مسجد قديم عُرف باسم مسجد (الحشر).

أما ما معنى كلمة الحشر؟

فيجيبنا ياقوت الحموي /معجم البلدان، قائلاً: حشر: بالفتح ثم السكون والراء: جُبيل من ديار
بني سُليم. فيكون المقصود بتسميته القديمة هذه الصحابي المدفون فيه وهو: العباس بن مرداس والمعروف
من قبيلة سُليم.

ومسجد سنجد دار من المساجد التي بنيت في العصر المملوكي حيث يظهر للناظر إليه تناوب
الحجارة بين الأسود والأبيض (الأبلق)، وهذا من ميزات الفن المملوكي والذي تميز أيضاً بالتالي: بتنوع
وغنى العناصر المعمارية والزخرفية، ويرجع ذلك إلى طول فترة عهدهم، وإلى تغير الظروف الحياتية إذ
أخذ الناس في العصر المملوكي بالابتعاد عن التقشف، وأخذوا يميلون إلى البهجة والإسراف في
الزينة، ظهر ذلك في المباني الغارقة بالزينة في الداخل والخارج، وتميزت العمارة بالقوة والمتانة، ورغم كثرة
المباني لا نرى أبنية ضخمة شيدت وفق التخطيط التقليدي للمسجد الأموي، سوى ثلاثة كمسجد
تنكز ويلبغا، فأكثر المباني من مساجد ومدارس وترب تتميز بصغر الحجم.
والصحن السماوي قد ألغي أو غطي بسقف، وبشكل عام المباني المملوكية تتميز بباب مفتوح
ضمن إيوان، يليه دهليز يفضي إلى صحن صغير، وقد تكون الأبنية مرتفعة عن مستوى الأرض ويصعد
إليها بدرج، ولذلك سميت بالمعلقة والهدف لإحداث مساحة للدكاكين.

أما من حيث الزخارف والزينة فحدث بلا حرج فقد جاءت متنوعة بالأشكال والألوان، وظهرت
الطاقات العلوية والأقواس المفصصة تظهر كمجموعة كتب مرصوفة.

وظهرت القباب كشكل من أشكال التسقيف لا يخلو منه أي بناء، وكثير استخدام المآذن المتعددة
الأشكال كالمربع والمضلع، وظهر التلوين في حجارة البناء الأسود والأبيض والأصفر والأحمر

السماقي، واستعمل الخشب المدهون بالأصبغة والرسوم، ولقد ظهرت الآثار المملوكية بوضوح كبير في مدينتي دمشق وحلب.

إخوتي... بعد أن تعرفنا على أهم ميزات الفن المعماري للعهد المملوكي نترك للقارئ فرصة التحول في مسجد سنجق دار الكائن في محله المعروفة والمتاخم لساحة المرجة، ثم لا بد لنا من قراءة تاريخية وأنت تدخل وتشاهد أيها السائح المسلم لمسجدنا هذا:

جاء حكم المماليك بعد أن دب الضعف في الدولة الأيوبية وطمع الفرنج والمغول فيها، لكن المماليك وقفوا في وجههم واستمر حكمهم عدة قرون بين 658 و922 للهجرة.

فازدهرت الحركة العمرانية والفنون المعمارية، يشهد بذلك هذه الآثار، وكانت ولاية دمشق في العصر المملوكي من أكبر الولايات وأهمها، ويطلق عليها (نيابة الشام) وكان والي دمشق من أكبر الولاة، يجري اختياره من كبار رجال الدولة، وتولى دمشق اثنان وستون نائباً، لا تطول مدة حكمهم على سنة أو سنتين باستثناء نفر قليل منهم.

وتقول المصادر: أن في موضع هذا المسجد كان هناك مسجد قديم وصغير يسمى الحشر، وعندما تولى الحكم أرغون شاه نائب السلطنة في دمشق هدم البناء القديم وبني مكانه هذا المسجد في عام 750 وقُتل قبل اكتمال البناء ودفن فيه في عام 751 للهجرة.

وتأتي أهمية المسجد أثرياً وتاريخياً، لأنه كان مركزاً لانطلاق محمل الحج الشامي إلى الديار المقدسة، حيث أن القافلة تنطلق من مسجد أبي الدرداء في القلعة أولاً، يتقدمها السنجق الشريف ويؤتى به إلى جامع السنجق دار حيث يصلي وجهاء القوم في 23 من ربيع الأول صلاة العصر جماعة بإمامة أمير الحج تأسياً بنائب السلطنة الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري حتى انقضاء صلاة المغرب، يأخذون من الجامع راية الحج الشامي والصرة السلطانية التي تم تجهيزها من الزيوت والشموع والمياه العطرية كماء الورد وماء الزهر المزواي، الموضوع داخل محمل الحج والتي تُرسل إلى الحرمين الشريفين لغسل الكعبة المشرفة والحجرة النبوية بها.

ثم يُسار بالسنجق والمحمل إلى (السراي العسكرية المشيرية) مكان قصر العدل الحالي، ويتم وضعهما في القاعة وتتلى قصة المولد النبوي ثم يبدأ المسير ثاني يوم مع إطلاق المدافع ابتهاجاً بهذه المناسبة، والمحمل هو هودج في الأصل تركبه النساء أيام الأفراح والحروب عند العرب، وأمام الهودج راية الحج السنجق وهو لواء أمير الحج الشامي.

وكلمة السنجق دار تركية الأصل وتعني: (حامل الراية) وهي مكونة من لفظين: (سنجق) ومعناه الرمح، وفي لغتهم: مصدر طعن، فُعِّرَ به عن الرمح الذي يطعن به.

والثاني: (دار) معناه (ممسك السنجق) والمراد هنا العلم، وهي الراية، أي (حامل الراية). ونحن على أرض دمشق الحبيبة، ومن أمام هذا المسجد الذي يعود بالذاكرة إلى الوراثة ويُحْيِلُ إلينا كيف كانت دمشق القديمة محدودة المساحة داخل أسوارها القديمة، وعندما بدأ النشاط الاقتصادي والسكاني يزداد، ظهرت الأحياء خارج الأسوار القديمة، وتوزع الأعداد الكبيرة للمساجد يعطينا فكرة عن هذا التوسع والمد العمراني المتصل بالأسوار القديمة ومسجد السنجقدار يشهد لنا بذلك، ويدعوك أيها القارئ والناظر بتأمل للعمل والاجتهاد لرسم وحفر معالم اسمك بما يسر ويجب رسول الله، ولنكون دعاة فخر واعتزاز لنبينا المصطفى صلوات الله عليه.

فتاريخ هذا المسجد وغيره من مساجد دمشق، يحدثنا بالفخر والامتنان لمن عاش فوق أرضها وقام بإعمارها أحسن عمارة.. أما الحب والرحمة والإنسانية، فقد كان عنوانك يا دمشق، لذلك جاءت ألقابها متنوعة: تارة (مدينة العلم والعلماء) وتارة (مدينة المدارس) أو (مدينة المساجد)، وألقاب كثيرة أخرى....

هذا وقد كان ولا زال هذا المسجد الجامع داراً وملتقى لأهل وطلبة العلم الديني، ولا ننسى لسنوات ليست بعيدة، عندما وقف على التدريس في هذا المسجد حبيبنا الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، رحمه الله. لسنوات عدة، فعندما تمر من أمام المسجد ترى الازدحام الشديد في داخله، قد أجبر من لم يجد مكاناً له في الداخل أن يجلس في الطريق وعلى الأرض مسروراً بسماع الدرس من أمير علماء هذا العصر، وإذا مر بنا سائح أجنبي تساءل ما الخبر؟

أجبناه هذه هي دمشق ولما العجب، فيها خيرة خلقه، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله ابن حوالة: خر لي يا رسول الله، فقال: ﴿عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده﴾.

ما أجملك يا دمشق وما أروعك!

حفظك الله وحماك وسائر مدن المسلمين..... آمين.

أما عن وصف المسجد فهو كالتالي:

له واجهة مملوكية مبنية بالحجارة الأبلقية التي ما زالت محافظة على أصالتها وجمالها مع بوابة الجامع المتقنة البناء، فهي مرتفعة ومعقودة بالمقرنصات، بها نوازل حجرية معجونة ومحفورة بعناية، وما يزال الباب يحمل ملامح الزينة المملوكية القديمة كما في معظم المساجد المملوكية.

جُدِّد المسجد مرات عديدة ولكن بقي على الطراز المملوكي على الرغم من بعض التغييرات، أما صحنه فصغير ومفروش بالحجارة السوداء والبيضاء والموزاييك.

أما قبة الجامع فهي قائمة على ثلاث قناطر ضخمة تقوم على أعمدة عالية، المنبر والمحراب حديثان.

وإلى يمين الداخل إلى المسجد قبة عالية فيها أربعة قبور:

الأول القبلي: قبر العباس بن مرداس الصحابي، والقبر التالي: **لخفاف بن ندبه** وله مع العباس أخبار، والثالث: **روق بن دثار**، أما القبر الرابع: **لإحدى النساء الصالحات**.



ضريح : سيدنا العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمى في جامع السنجدار بدمشق / عماد الأرمشي

ضريح : سيدنا روق بن دثار في جامع السنجدار بدمشق / عماد الأرمشي



ضريح : إحدى النساء الصالحات / عماد الأرمشي

ضريح : سيدنا خفاف بن ندبة في جامع السنجدار بدمشق / عماد الأرمشي

وتعد غرفة الأضرحة هذه من أقدم التراب الموجودة في دمشق، ولقد ذكرت بعض المراجع أن سبب التسمية بالسنجدار لوجود ضريح الصحابي: العباس بن مرداس حامل لواء الرسول صلى الله عليه

وسلم يوم فتح مكة، حيث قال ابن عساكر في تاريخ دمشق: بأن نبي الله جعل ثلاث رايات مع بنو سليم، فواحدة مع العباس والثانية مع خفاف بن ندبة والثالثة مع الحجاج بن علاط. ومن هنا جاءت تسمية المسجد بحامل راية الرسول، أو بالسنجقدار، ولنا وقفة إنشاء الله أمام ترجمة هؤلاء الصحابة الكرام نتعرف عليهم وندعو الله عز وجل أن يرزقنا حبه وحسن إتباع حبيبه المصطفى صلوات الله عليه، كي نخطى برضاهما معاً لقوله تعالى ((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله))...

فلندعُ معاً أن يرزقنا الله عز وجل التوفيق وحسن المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم. و أترك للوصف التصويري المجال في التعبير عن روعة هذا المسجد القديم الجديد، القديم في أرضه والجديد بزواره جعلنا الله وإياكم ممن ينظرون ويتفكرون للعبرة والعظة. اللهم آمين.

المصادر والمراجع:

تاريخ دمشق / ابن عساكر

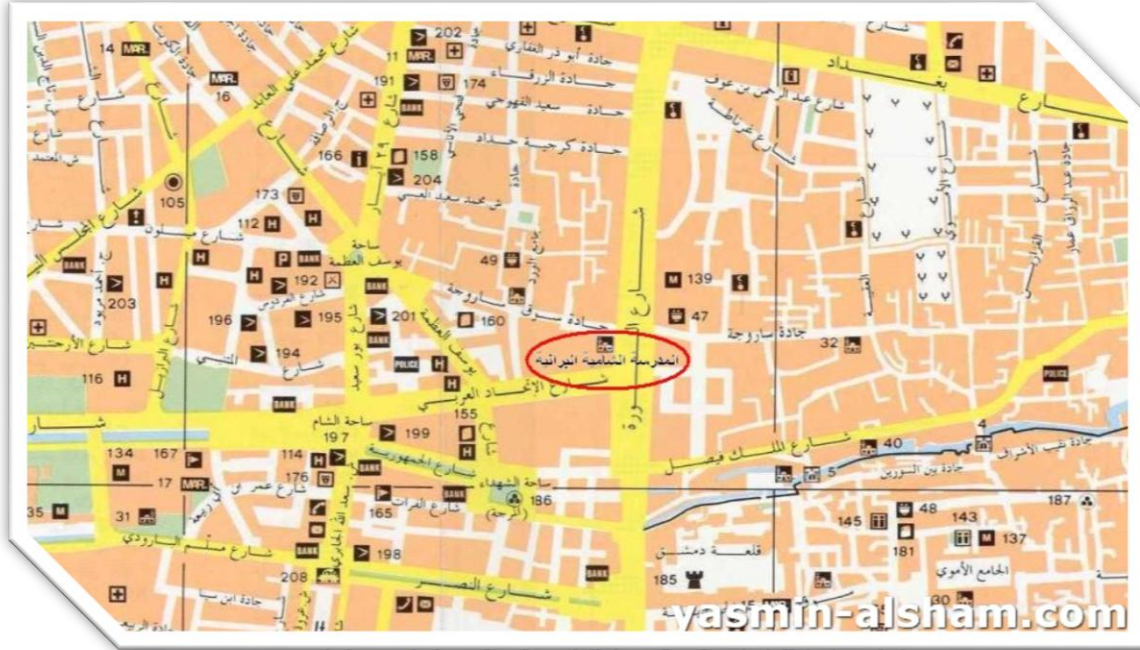
العمارة العربية الإسلامية / عبد القادر الريحاوي

دمشق تراثها ومعالمها / عبد القادر الريحاوي



مسجد الشامية / المدرسة الشامية البرانية

582هـ - 1187م / 587هـ - 1191م



عاصرت مدينة دمشق العريقة حضارات عدة ذكرها المؤرخون والجغرافيون القدامى في مؤلفاتهم فهي أقدم عاصمة في العالم ومنها انطلق جيش صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس، وعلى أرضه عاش وترعرع هذا القائد الكبير في رعاية نور الدين الزنكي فعشق أمرين اثنين:

- حب الله ورسوله عن طريق نشر العلم والدين بالرحمة.
- حب الجهاد لمواجهة خطر التوسع الصليبي.

لقد سجلت مدينة دمشق في تاريخها روعة نفوسهم وأرواحهم عندما جمعوا بين عمارة الأرض بالخير والسلام وخلافة الله عز وجل بما يجب ويرضى فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

فبينما تسير أيها القارئ المتأمل في عظمة الله بين أزقة وأحياء دمشق القديمة تشعر وكأنك تدخل تاريخ الحضارة لذلك كثرت ألقابها على لسان واصفيها:

"مدينة العلم والعلماء"، "مدينة المساجد"، "مدينة المدارس"، "مدينة المتاحف" وغيرها من الألقاب

التي تورث ساكنيها العزة والفخر.

ومن خلال منبرنا هذا ومن زاوية (معالم وأعيان) ندعوكم لقراءة عميقة يُراد بها حسن العبرة والعظة لما بين السطور وفوقها.

"خاتون ست الشام" أميرة من أميرات بني أيوب تنادينا للنظر والتأمل في سيرتها العطرة، حيث كانت تملك المال والجاه والسلطة وكان الجميع يرجو خدمتها ليس لأنها أميرة في اللقب فقط بل كانت أميرة في الأخلاق الفاضلة والدين الصحيح الرشيد الذي أرشدها لأعمال كثيرة من البر والخير لأهل وسكان دمشق مسطرة حديث النبي صلى الله عليه وسلم تدعونا لتطبيقه والتعمق في قرائته: ﴿الخلق كلهم عيال الله وأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله﴾

ونجد في سيرتها تفسير قوله تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ فيها معاً نحمل ورقة وقلماً نحاول أن نتلمس بأرواحنا وقلوبنا قوة وعظمة حب هذه الأميرة لله ورسوله عسى أن يشدنا ويرشدنا هذا الحب للعمل الصحيح الرشيد على هذه الأرض. امتازت العمارة الإسلامية في العهد الأيوبي بكثرتها وتنوعها والتي تعتبر من أرقى ما وصل إليه أحد في فن العمارة.

فقد أسس ملوك وأمراء بني أيوب وزوجاتهم وبناتهم وأخواتهم من الخواتين - جمع خاتون وتعني الأميرة - وغيرهم من العلماء المدارس والجامعات والمساجد والقلاع والأسوار والخانات والحوانيت وظهر في العهد الأيوبي المدارس الطبية والصيدلانية في دمشق وحلب.

ومن خصائص العمارة في العهد الأيوبي:

التقشف والقوة والإتقان في أسس البناء.

ظهور الأروقة والقباب المدببة والمفصصة المستندة على الجدران أو الأعمدة والذي عُرف باسم المثلث الكردي.

ضخامة المنشآت ونشاهد بعض الكتابات على الواجهات الخارجية وبعض الأحجار الملونة.



الاستغناء عن مظاهر الزخرفة والإسراف بسبب الحروب الصليبية.



ظهر في العهد الأيوبي دور كبير للمرأة حيث كانت جلسات النساء هي جلسات علمية ثقافية وصفات المرأة الأيوبية من العلم والتربية الرفيعة والحرية المسؤولة أهلتها لتكون سيدة الشرق في القرنين السادس والسابع للهجرة.

ولعل أبرزهن هي صاحبة هذه المدرسة الشامية البرانية والتي عُرفت فيما بعد بجامع الشامية، إنها ست الشام الكبرى الخاتون فاطمة بنت نجم الدين أيوب.

وشقيقة الملك نور الدولة شاهنشاه بن الأمير نجم الدين أيوب صاحب بعلبك...

وشقيقة المعظم شمس الدولة تورانشاه بن الأمير نجم الدين أيوب صاحب الإسكندرية...

وشقيقة السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن الأمير نجم الدين أيوب محرر القدس...

وشقيقة الملك العادل سيف الدين بن الأمير نجم الدين أيوب...

وشقيقة ظهر الدين سيف الإسلام طفتكين بن الأمير نجم الدين أيوب...

وشقيقة ربيعة خاتون بنت الأمير نجم الدين أيوب..

وهي زوجة ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه.

أطلق عليها الناس لقب "ست الشام" لكثرة برها وصدقاتها وإحسانها للفقراء والمحتاجين.

حيث تجمع في دارها -الكائنة عند اليممرستان النوري- كل سنة ألوفاً وألوفاً من الذهب والأدوية

والعقاقير وغيرها لتوزعها على الناس، فكان بيتها مقصداً للجميع.

رحمها الله , لم يشغلها المال أو المنصب عن أعمال البر والخير , وبلغ من حبها للعلم أنها صرفت كل همها لتربية وتعليم ولدها الوحيد حسام الدين علوم الدين والفقهاء الشافعي فكان من أبرز العلماء واعتمد على علمه خاله السلطان صلاح الدين.

و أبرز ما قامت به هو إنشاء مدرستين في دمشق المدرسة الشامية الجوانية (داخل سور وقلعة دمشق) والمدرسة الشامية البرانية (خارج السور).

فأما المدرسة الشامية الجوانية فعندما توفيت أوصت بدارها المجاورة للبيمارستان النوري لتكون مدرسة سميت بعد وفاتها رحمها الله بالمدرسة الشامية الجوانية.

أما المدرسة الشامية البرانية فقد دفنت فيها رحمها الله إلى جانب ابنتها حسام الدين وبعد 32 عاماً من وفاته لذلك يسميها البعض المدرسة الحسامية نسبة إليه , وشيخها سكان دمشق في جنازة مهيبة حضرها أكثر من 450 ألف مشيع.



وكثيراً ما يخلط الناس بينها وبين حفيدتها ابنة حسام الدين ولقبها "زمردة خاتون" , والتي كانت في رعاية جدتها بعد وفاة والدها.

موقع المدرسة الشامية البرانية:

تقع خارج أسوار دمشق القديمة في مكان كان معروفاً بالعوونية أو العينية وتسمى اليوم بسوق ساروجة.

يحدّها من الغرب التربة العلائية والتربة النجمية ومن الشرق شارع الثورة ومن الشمال جادة سوق ساروجة, ومن الجنوب حمام القرماني.

بوشر في بنائها عام 582هـ/ 1187م وفرغ من بنائها عام 587هـ/ 1191م.

وحظيت هذه المدرسة بشهرة كبيرة في بلاد الشام فهي من أكبر مدارس الفقه أوقفتها على العلماء المتفقيين من أصحاب الإمام الشافعي.

وكانت تشهد إقامة حفلات رسمية يحضرها العلماء والأمرء, وتعد من أكثر المدارس أوقافاً ومن أوقافها: الوقف السلطاني وهو قدر 300 فدان...

وحتى تضمن الخاتون ست الشام استمرار ما أوقفته على المدرسة البرانية دون أن يتعدى عليه أحد أشهدت قاضي القضاة زكي الدين وأربعين عدلاً من أعيان دمشق على ذلك, وهكذا استمرت المدرسة حتى العصر المملوكي كقبة المدارس في دمشق.

أول من درّس فيها تقي الدين بن الصلاح ثم شمس الدين الأعرج ثم شمس الدين المقدسي وغيرهم. وكان شرطها أن لا يجمع المدرس بينها وبين غيرها من المدارس.

وصف المدرسة:

للمدرسة صحن واسع مستطيل الشكل تتوسطه بركة حجرية ويتقدم حرمها رواق له أقواس ترتكز على دعائم حجرية ويرتفع في الزاوية الشرقية مئذنة حجرية أيوبية ضخمة خالية من العناصر التزيينية, وتعلو المئذنة شرفة خشبية مربعة أخذت شكل الجذع, وتغطيها مظلة خشبية أخذت شكل الشرفة متوجة بذروة بصلية الشكل ورمح وأربع تفاحات وهلال معلق.



يستعمل بنائها حالياً كمسجد يعرف باسم "جامع الشامية", وتجد على اللوحة الجدارية التاريخية الموجودة عند باب المدرسة:

(المدرسة الشامية: أنشأها ست الشام فاطمة خاتون بنت أيوب أخت صلاح الدين سنة 582هـ ودفنت فيها سنة 616هـ وقبرها هو الشمالي من القبور الثلاثة)

وفي غرفة الأضرحة الثلاثة التي تتضمن في القبر الأول رفات ست الشام وابنها حسام الدين الذي استشهد في معركة حطين, القبر الثاني رفات زوجها وابن عمها ناصر الدين شيركوه, القبر الثالث لأخيها الأكبر شمس الدولة تورانشاه الذي توفي في الإسكندرية ودفن في قصره وبعد سنتين نقلته ست الشام ودفنته في تربتها.

هذه حكاية ست الشام الكبرى صاحبة بناء جامع الشامية أو المدرسة الشامية رحمها الله, قرأت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له﴾

قرأته وحفظته وعملت به, جاهدت نفسها أمام زينة الحياة الدنيا فوجدت السعادة في هذا الجهاد وعلمته لأحفادها الذين تابعوا على خطا منهج جدتهم الفاضلة التي لم يشغلها المال والمنصب.



اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا واجعل الجنة دارنا وأعنا على
ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان
إلى يوم الدين.



مسجد الشهداء

إخوتي الكرام:

في دمشق الحبيبة مساجد شواهد على عظمة تاريخ هذه المدينة، فكل مسجد فيها حكاية جميلة تحكي لنا كيف استحقت مدينة دمشق اسم (مدينة المساجد).
وها هو جامع الشهداء الذي قدم لنا حكاية شهداء الفتح الإسلامي أيام الخليفة عمر بن الخطاب الأخوة الثلاثة لأم صحابية وقد أتينا على سيرتهم.



فهي مع أيها السائح المسلم نقف معاً على معالم هذا المسجد نبدأها بتحية المسجد ثم نتأمل ذاك المعلم الأثري القديم، بنية يملؤها الشغف للمعرفة لتغيير أحوالنا للأفضل بإذن الله.

بداية لا بد لنا من تذكرة لمن يقرأ معنا أننا قد ذكرنا فيما مضى بأن حي الصالحية في سفح قاسيون شكل أول حي خارج أسوار دمشق القديمة وبهمة بنو قدامة رحمهم الله وجزاهم الله خيراً، أخذت الأحياء تتشكل وتكثر ما بين دمشق القديمة وهذا السفح على حساب الأشجار الخضراء نتيجة الانتشار السكاني والعمراني حيث ازداد تألق دمشق مع الأيام لمن عرف قدرها ومكانتها من أحاديث

المصطفى صلى الله عليه وسلم فأحب أن يكون له نصيب من شرف أحاديث رسول الله في الشام ودمشق خاصة.



www.naseemalsham.com

وتخبرنا المراجع أن البناء العمراني المخطط في هذه المنطقة قد بدأ في عام 1921م حيث سكنها العائلات الفرنسية والإيطالية الثرية، وذلك بين أحياء سكنية صغيرة موجودة من قبل فيها أضرحة لشهداء وعلماء كبار وبنيت المساجد فيما بعد إلى جانب تلك الأضرحة لتبلي حاجة كل حي، ومنهم مسجد السنجق دار ومسجد الشهداء القائم في وسط سوق الصالحية الذي نقف الآن في داخله نتأمله بقلوب محبة لله ورسوله، وهذا ما يفسر الشعور بتلك النسائم الروحية ونحن نمشي بين الحارات الدمشقية، وقد تكلم ووصفها من مشى فوق أرضها، فهيا معنا نسأل الله الفائدة والمتعة.

أين يقع جامع الشهداء؟

يقع خارج سور دمشق في وسط الطريق المؤدي لحي الصالحية، وتقع قبور الشهداء في جهته الجنوبية الشرقية، بحيث ينزل إلى الأضرحة بدرج فنجد القبور الثلاثة مبنية من الحجر الرخامي كتب عليهم أسماء الشهداء: (مسعد وجابر بن مسعود وحرملة بن وائل) تطل القبور على الصالحية بثلاث نوافذ قوسية.



وكانت هذه المنطقة المتواجد فيها الجامع ضمن قرية صغيرة وقديمة منفصلة عن دمشق وتسمى أرزة كان قد نزلها المسلمون الأوائل منذ الفتح الإسلامي، ثم اضمحل أمرها في القرن العاشر للهجرة.



ولا تتوفر معلومات عن تاريخ بناء هذا المسجد القديم ولا من بناه فقط تواتر اسم مئذنته باسم مئذنة عبد الحق ولا يعرف من هو عبد الحق، وذكر (ابن طولون) في القلائد الجوهريّة أن الذي بناه الشيخ محمد بن قديدار صاحب الشيخ أبو بكر الموصلّي في العهد المملوكي 774 و797هـ.



وللدخول إلى المسجد يصعد إليه
بثلاث درجات مرتفعات لذا سمي **بالمسجد
المعلق** أي (المرتفع عن الأرض) عرف هذا
النوع في العصر المملوكي.

ولحرم المسجد سقف خشبي جميل
مسنم، تم تجديد مؤخرًا وتجديد المحراب
بالرخام المزركش.

أما المنبر: عبارة عن قاعدة رخامية فقط
عليها منصة خشبية للخطابة ويمكن
مشاهدة القبور الواقعة في جهته الجنوبية
الشرقية، أما من الطريق من خلال إحدى
النوافذ القوسية الثلاثة.

ولزيارة القبور يمكن النزول إليها بدرجات حيث القبور مستطيلة الشكل ومبنية من الرخام، مع
الأيام تحول هذا الطريق إلى أحد أسواق دمشق المشهورة والذي (عرف بسوق الصالحية).

تغير نوعاً ما عن نمودجه الأصلي الذي بني عليه ولكن حافظ على مئذنته التي بنيت على الطراز
الشامي بتأثير عثماني، وللمئذنة جذع مئمن قصير الارتفاع، والشرفة مئمنة خشبية تستند على مجموعة
كثيفة من الأفاريز الخشبية يحيطها درابزين من الشبك المعدني وتغطيها مظلة تحمل جوسقا بسيطاً وفوقه
قلنسوة مخروطية على شاكلته عثمانية الطراز.

وندد لك أيها السائح المسلم التجول بين زوايا المسجد وبين جوانحك نبتة كريمة قد أخذت تنمو
منذ أن وضعت قدميك فوق أرض دمشق تبحث عن المعلومة بنية الفائدة قبل المتعة وتضييع الوقت.



www.naseemalsham.com

ثم قف خارج المسجد متأملاً وداعياً لمدينة دمشق (مدينة المساجد) ومدينة (الصحابه الكرام) ومدينة (العلم والعلماء) ومدينة (الصلحين)..... أن يحفظها وسائر بلاد المسلمين أجمعين، اللهم آمين، يا رب العالمين اللهم من أراد بها شراً أو مكرًا فخذة أخذ عزيز مقتدر واجعل كيده في نحره وأعدنا اللهم منه وممن كان على شاكلته.

المصادر والمراجع:

القلائد الجوهريّة | لابن طولون
مآذن دمشق تاريخ وطرز | الدكتور قتيبه الشهابي. دمشق وتاريخها

مسجد العريشة

داخل أسوار دمشق القديمة

أول حارة الزيتون [579هـ - 1183م]



إخوتي القراء:

مدينة دمشق تزخر بمعالم دينية كثيرة ومتنوعة، لتكون محطّ أنظار سياح العالم قاطبين.. ومن داخل أسوار دمشق القديمة، نمضي في ساحة باب شرقي في بداية دخلة حارة الزيتون، هناك نجد مسجداً من المساجد الدمشقية الصغيرة، والمعروف بـ: "مسجد العريشة"

موقعه: باب شرقي، حارة

الزيتون.

يقول ابن عبد الهادي في

كتابه: "ثمار المقاصد في ذكر المساجد": هو مسجد صغير المساحة، فيه بركة ومحراب عادي ومنازة من الخشب"

وتاريخ البناء مثبت في اللوحة الرخامية فوق باب الجامع، عام 579هـجري، أي في عهد السلطان

صلاح الدين الأيوبي.



وللجامع واجهة عريضة من الحجارة الأبلقية الجميلة المجددة، بينما البوابة من الحجارة البازلتية القديمة... وهي من بقايا البناء القديم.

ونرى مئذنة الجامع حديثة البناء، على الزاوية الشمالية الغربية للمسجد، قاعدتها مربعة عريضة أبلقيه الحجارة، وهي ذات أضلاع مُثمّنة

الشكل يتخلل أضلاعها الأربعة نوافذ طويلة وصولاً إلى الشرفة المثمّنة، فشكل وتناسق المئذنة الجميل يحمل الطابع المملوكي.

نتأمل... وتلمس مشاعر الأنس بالله، فهذه هي مساجد دمشق قد مزجت بين الروح والعقل في بنائها، لندعو المولى:

أن يحفظك يا دمشق من كيد الكائدين ومكر الماكرين، وأن يتم نعمته علينا ويجعلنا من خيرة الخلق الذين بشرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم من ساكنيها.

المصادر والمراجع:

. ثمار المقاصد في ذكر المساجد / لابن عبد الهادي



مسجد العفيف في حي الصالحية بدمشق

إخوتي قراء زاوية (معالم وأعيان):

كلنا يعلم بأن المساجد هي بيوت الله وأحب البلاد إليه، فقد أضافها الله عز وجل إلى نفسه إضافة تعظيم وتشريف، فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿أحب البلاد إلى الله مساجدها﴾.

هذه الأهمية للمساجد دفعت المسلمين عبر التاريخ للعناية بها من حيث عمارتها وصيانتها، ومن ثم توظيفها في أرقى وأفضل الوظائف لتؤدي رسالة الإسلام العظيمة وهي بناء وعمارة وخلافة الله على الأرض بما يحب ويرضى، فهي مكان للعبادة فيها يُرفع اسم الله بالتعظيم والتسبيح، وفيها يلتقي العلم والدين، ليصبح هذا المسجد فيما بعد مهبطاً لأفئدة المسلمين والناس أجمع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَجْشِ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

وها هي مدينة دمشق الحبيبة عندما حملت عنوان (مدينة المساجد) لكثرة عددها وانتشارها بين أحيائها وحرارتها أصبحت مهبط أفئدة الناس أجمع.....

لم لا؟؟ فقد شاع في كل عصر وزمان أن دمشق ستكون خير مدن الإسلام، فسكانها هم أصفياء الله وخيرة خلقه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿الشام صفوة الله من بلاده يسوق إليها صفوة عباده﴾.. حفظها الله وسائر بلاد المسلمين من شر وكيد الكائدين.

وكثيرة هي الكتب والمؤلفات التاريخية التي تتحدث عن روعة وجمال التراث المعماري لمساجد بنيت فوق أرض دمشق...

وأنتم مدعوون معنا لسياحة في أرضها يُراد منها التغيير الإيجابي في أفكارنا ومشاعرنا أولاً ومن ثم في سلوكنا كي نرقى ونسمو معاً لبناء الخير والصلاح في هذا البلد الكريم... فهل نستجيب لنداء ضمير التاريخ الإسلامي لنا؟





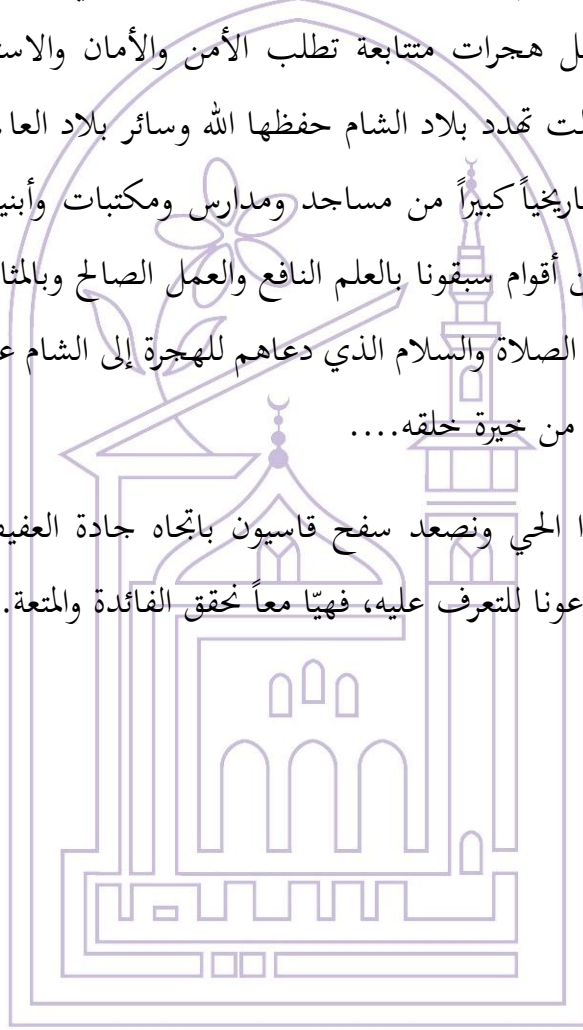
مع علمنا بأن الله عز وجل قد قال في كتابه الكريم: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ماذا عملنا؟ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ وبماذا نتنافس؟

إخوتي:

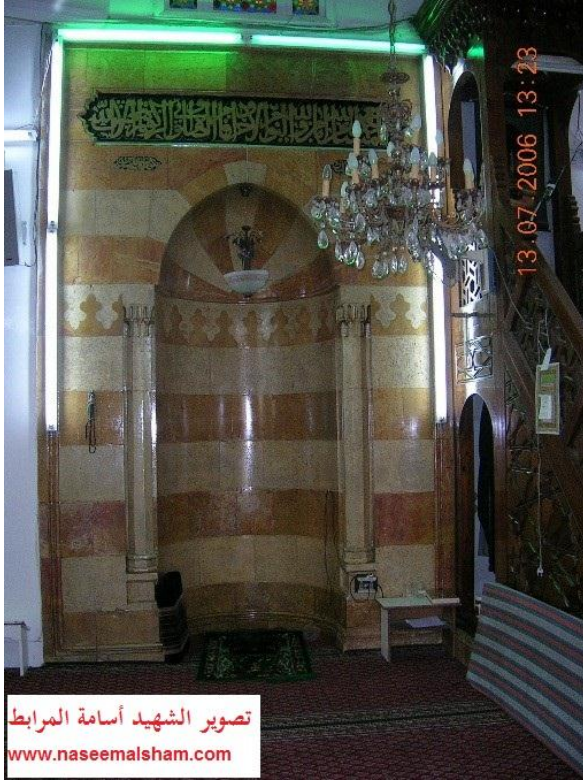
عندما نمشي خارج أسوار دمشق القديمة وعلى بعد كيلو مترين من شمالها باتجاه سفح قاسيون يقع حي الصالحية الذي عرف باسم (دمشق الجديدة)، تشكل هذا الحي خلال فترات متتالية: الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وبفعل هجرات متتابة تطلب الأمن والأمان والاستقرار في دمشق هرباً من حروب صليبية كانت ولا زالت تهدد بلاد الشام حفظها الله وسائر بلاد العالم الإسلامي. يحمل هذا الحي إرثاً تاريخياً كبيراً من مساجد ومدارس ومكتبات وأبنية تاريخية تحكي حجارته قصص وحكايات رائعة عن أقوام سبقونا بالعلم النافع والعمل الصالح وبالمثابرة المستمرة لإحياء أسرار دعوة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام الذي دعاهم للهجرة إلى الشام عند اشتداد الحن والخطب، فهي أرض مباركة وسكانها من خيرة خلقه....

وعندما نمشي في هذا الحي ونصعد سفح قاسيون باتجاه جادة العفيف نرى على رأس الجادة جامعاً يدعى بالعفيف، يدعونا للتعرف عليه، فهيّا معاً نحقق الفائدة والمتعة....

أين يقع وما هو تاريخ بنائه؟



يقع المسجد خارج أسوار دمشق القديمة أي في (دمشق الجديدة) وفي جادة عُرفت باسم جادة العفيف.



تصوير الشهيد أسامة المرابط
www.naseemalsham.com

تعد جادة العفيف من الجادات المشهورة في مدينة دمشق فهي من الأحياء المحدثّة حيث كانت فيما مضى هذه الأراضي عبارة عن بساتين وأشجار نخيل وأرز، ومع التوسع العمراني الذي شهدته المدينة في أواخر العهد العثماني ظهرت أحياء جديدة كحي الشركسية، وحي المهاجرين، وحي العفيف الذي يقع بينهما، ويتفرع عنه حارات وشوارع عدة منها حارة المقرئ الجامع المتقن الشيخ (محمد سكر رحمه الله) حيث يقع منزله خلف

المسجد. لذا تمهل أيها السائح وسوف نستشعر وإياك بسكينة نسيمات روحانية إيمانية عالية تهبط في أفئدتنا وتحثنا على زيارة ذلك الحي. فلنقرأ الفاتحة الشريفة لروحه الطاهرة سائلين المولى عز وجل أن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه... اللهم آمين.

نبدأ الزيارة بركعتي تحية المسجد في جامع العفيف، ثم نتأمل ذلك المعلم الأثري ونسأله ماذا يخبرنا لنا من كنوز تاريخية قد عاصرها وشهدها؟

يخبرنا الدكتور قتيبة الشهابي في كتابه (مآذن دمشق) بأن المسجد قد ورد ذكره في كتاب (خطط الشام) لمحمد أحمد دهمان فحدد تاريخ بنائه ما بين عام 553 و 1153 للهجرة الموافق 1740/1159 للميلادي مما يدل أنه يعود ربما للحقبة الأيوبية ومن المؤكد للحقبة المملوكية.

وتخبرنا المصادر عن حمام العفيف القديم واللوحه التي كانت مثبتة على بابه (من طلب العافية من رب لطيف فليقصد الله ثم حمام العفيف) التي تدلنا على تاريخ جادة العفيف، فالحمام يعود للقرن



السابع للهجرة/الثالث عشر للميلادي، وكان يقع جنوب جامع العفيف غربي الصالحية، هذا يؤكد لنا أن تاريخ بناء مسجد العفيف قديم.

وإذا قرأنا اللوحة الرخامية المثبتة فوق الباب نجد التالي (جامع العفيف أنشأته دائرة الأوقاف الإسلامية بدمشق عام 1396 للهجرة الموافق 1950 للميلادي).

مما يدل إلى أن المسجد القديم هدم وأنشئ الحديث فوقه.

هذا من حيث البناء، أما عن سبب التسمية فقد اختلفت الأقوال في ذلك:

فمنهم من قال نسبة لمنطقة العفيف التي كان فيها حمام العفيف القديم فسمي الجامع بالعفيف. أو نسبة للشيخ (محمد العفيفي) والذي سُميت المنطقة باسمه العفيف. أو نسبة إلى عامل المسجد (العفيف بن أبي الفوارس) الذي ذكره أبو شامة في ذيله بأن تاريخ وفاته سنة 663 للهجرة، وبأنه كان شاباً حسناً، تولى عمالة الجامع ومخزن الأيتام جمعاً له لحذقه بهذه المهنة، ودفن بالتربة التي أنشأها والده جوار الخانقاه الشيلية بسفح قاسيون. فالخلاف في اسم الشخص الذي سمي الجامع باسمه. هل إلى الشيخ محمد العفيفي؟ أم إلى عامل المسجد العفيف ابن أبي الفوارس؟ أم إلى المنطقة نفسها والتي وجد فيها حمام قديم عرف بالعفيف؟



علماً أن كتب التراجم مليئة بأسماء لعلماء في الحديث والتصوف أمثال: عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني وغيره من العلماء الذين حملوا لقب عفيف الدين قبل أسمائهم. وما يهمنا أن نقف على آثار وسيرة من مضى لاستحضار عبرة وعظة في قلوب قد خفتت فيها العزيمة والإرادة للعمل الصالح لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ...﴾. ومن هنا تأتي أهمية السياحة وفوائدها الروحية....

أما عن الخلافات في سبب التسمية، فيكفي أن معنى العفيف لغوياً: كف عن الحرام، فسيدنا يوسف عليه السلام قد سمي بالعفيف ابن يعقوب كناية عن العفة والطهارة، وهذا من أسرار جمال أحياء مدينة دمشق التي تحمل أسماء بليغة ففي كل حجر من حجارتها المبنية والمرصوصة حكاية تنبئ وتبشر بأنها هي سيدة المدن والعواصم.... لا يرى هذا الجمال والجلال إلا من عرف قدرها وعمل لعمارها بما يحب ويرضى الله ورسوله.... وهذه دعوة لأحياء هم يعيشون ويحيون فوقها، ولكن تنقصهم همة وإرادة العمل! فهيا أيها السائح المسلم نعمر ونعمر بالخير والصلاح والفلاح... إخواني:

نأتي الآن إلى وصف الجامع الذي يتألف من طابقين، وتبلغ مساحته من 250 إلى 300 متر، له بابان أمامي وخلفي، ويوجد في منتصفه منبر خشبي وتعلوه مئذنة واحدة.



وأتركك أيها السائح المسلم متأملاً الصور والمشاهد، فهي خير عبرة يعتبر بها كل واحد منا بطريقته، شرط استحضر النية في التغيير الإيجابي للعمل الصالح والنافع لنفسك ولغيرك ولو بدعاء في ظهر الغيب... لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾.

المراجع:

الحوليات الأثرية العربية السورية لمديرية المتاحف والآثار.

مآذن دمشق للدكتور قتيبة الشهابي.





مسجد المراز

مسجد العمري قديماً

في حي الشاغور (دمشق القديمة)

إخوتي القراء:

في مدينة دمشق معالم أثرية بحكايات تاريخية مميزة، شُيّدت معظمها خلال عصور مختلفة، وما تزال معظمها قائمة حتى الآن تستنطق منا العبر والعظات.. كما نالت دمشق فخر مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: ﴿ستكون دمشق أكثر المدن أبدالاً وزهاداً، وأكثرها مساجداً، وهي لأهلها معقل..﴾.

حيث توافد إلى دمشق أقوام وأقوام طامحين أن يناههم مديح المصطفى، فأصبحت المدينة مقصداً للزوار والسياح القادمين من شتى أنحاء العالم، وسكنها أناس رفيعو المنزلة وواسعو العلم مجتهدون بالعمل الصالح متنافسين آملين أن ينالوا شرف سكنى دمشق، وشرف مديح المصطفى.

ونحن، من خلال زاويتنا السياحية هذه، سنتجول بين أزقة وحاراتٍ قديمة قديم دمشق، فالفائدة والمتعة تنتظرنا...

يقول ابن عساكر في كتابه الشهير "تاريخ دمشق":

... هذه مساجد البلد المحصاة بالتعريف والعدد يبلغها 242 مسجداً، فأما ما عداها من المساجد التي في أرباضه فظاهرة، مما ليس في قرية مسكونة أو معمورة من ظواهره التي منها من ناحية القبلة: مسجد معلق على المراز له وقف وإمام.

ففي حي الشاغور البراني خارج السور القديم، تقع محلة المراز، وحارة المراز: هي الحارة التي ينتهي إليها امتداد حي الشاغور من جهة الجنوب، وأصل التسمية تعود إلى تفرعات المياه، حيث يطلق على الواحد منها اسم "المراز".. في هذه الحارة نرى مسجداً يعد من المساجد الأيوبية والمملوكية القديمة بدمشق يسمى:

"جامع المراز"





ذكرنا أن ابن عساكر في كتابه (تاريخ دمشق) قال: مسجد المزار هو مسجد كبير، له وقف وإمام، ثم حدد النعمي مكانه في الشاغور قائلاً: جامع المزار بالشاغور موضحاً أن الأسدي قال في ذيله: سنة 833هـ،

أن الشيخ تقي الدين أبوبكر بن أحمد بن جعفر الزيني الجوخعي، هوباني جامع المزار بالشاغور، بعد أن كان مسجداً صغيراً.. وكان هذا الشيخ رجلاً محسناً، دُفن في الباب الصغير.

فالمسجد يقع خارج أسوار دمشق في محلة المزار نفسها بحي الشاغور البراني وكان معلقاً، جنوبي دمشق في العصر الأيوبي بين حارتي إبراهيم الباعوني ويوسف بيضون، ثم نُقض في العهد المملوكي وشيّد مكانه الجامع الحالي، وقد خربه تيمور لنگ وأعيد بنائه، وجرّد عدة مرّات.





ومنارة الجامع قاعدتها قديمة مربعة أيوبية الطراز، أعلاها حديث مملوكية البناء، أي أن المئذنة مُشيّدة بالعهد المملوكي، أما جذعها فأيوبي مربع الشكل... تأمل وتفكر أيها السائح، فالمشاهدات والصور تتبدل وتتطور، لكن مرادنا هو التطور للأفضل وإعمار الأرض بما يجب الله ورسوله.

ها قد انتهت جولتنا السياحية، وأرواحنا تستقرئ منها أمرين اثنين: الدعاء لمن سبقنا وساهم في إعمار أرض دمشق، مادياً ومعنوياً. فنحن نرى بالعين الآثار المادية، ونلمس بأرواحنا صدق معنويات هؤلاء الأقسام في إحياء وإثبات أحاديث النبي الكريم في أرض الشام ودمشق. والأمر الثاني، أن ندعو الله عز وجل حسن التدبر والتفكير، للعمل على نَحج مَنْ طلبوا بصدق القرب والرضى من الله ورسوله، قبل فوات الأوان.

نختم بوصف الشاعر (علي السروجي) للمجتمع الدمشقي كيف ازدهر وتلألأ بالعلم والدين:

في كل قصرٍ بها للعلم مدرسةٌ وجامعٌ جامعٌ للدين معمور
كأن حيطانه زهرُ الربيع يملهُ الطرفُ فهو للدهر منظور
يُتلى القرآنُ به في كل ناحيةٍ والعلمُ يُذكر فيه والتفاسيرُ

المصادر والمراجع:

- . تاريخ دمشق / لابن عساكر
- . المدارس في تاريخ المدارس / النعيمي
- . العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي

مسجد المعلق

من المساجد المملوكية القديمة في محلة العمارة البرانية
خارج أسوار دمشق القديمة

إخوتي القراء:



دمشق، المدينة الجميلة المقدسة التي استهوت الناس للعيش في خيراتها، فقد ورد في الحديث الشريف بما معناه أن الشام صفوة الله من بلاده، وإليها يجتبي خيرته من عباده، وأنه ستكون دمشق في آخر الزمان أكثر المدائن أهلاً وُهداداً وأبدالاً، وأكثرها مساجداً..

هيا معاً خارج الأسوار القديمة لدمشق، باتجاه شارع الملك فيصل بمحلة المناخلية، نمضي ونسأل المولى حُسن التدبر والاعتبار... بالوقوف أمام جامع تميز بموقعه وسط السوق مُذكراً بالعباد بالصلاة

فقد عرفت دمشق في العهد المملوكي الذي استمر ثلاثة قرون، 658 / 923 هجري، أحداثاً هامة ومتغيرات كثيرة، تألقت فيها عظمة دمشق.. حيث تضافر موقعها الهام مع تاريخها الرائع، ليجعل منها أسطورة الزمان.. فجدبت إليها الإنسان ليسكن أرضها ويترك آثاراً تدل على تألقه.



جامع المعلق:

من الأبنية التاريخية الدينية الهامة في دمشق، يصعد إليه بحجر وشبائيكه على نهر بردى، يعد كنوذج للأبواب المملوكية، محمول على قناطر حجرية، حماماته خارجية ملحقة به.

يقع في محلة العمارة البرانية، في شارع الملك فيصل، خارج السور ما بين باب الفرج والفراديس، وله ثلاثة أسماء:

. المعلق، لأنه مرتفع عن الأرض قليلاً، يُصعد إليه بدرج.. يقع على نهر بردى، كالمعزول بعيداً عن فعاليات المدينة.

. ويسمى بالجديد، لكثرة ترميمه.. وأقدم شيء فيه واجهته والمئذنة.

. ويسمى بجامع برديك، نسبة لبانيه الأمير سيف الدين بردابك سنة 862 هجري.

ويعتبر من المساجد المملوكية الأصيلة البناء، بمعنى أنه لم يُبنى فوق أنقاض مسجد أقدم منه..

والشيء الهام الذي حدث في عصر المماليك، بالرغم من الاضطراب السياسي، الإعمار في مناطق جديدة خارج السور، لتتسع المدينة اتساعاً يدل على ازدياد عدد السكان والوافدين، والازدهار الاقتصادي الذي حققه عصر المماليك، إذا فهو يمثل حالة توسع عمراني مستقل لدمشق، حفظها المولى عز وجل.

ومع التأمل نلتمس كم أن الإنسان بحاجة لرحلة سياحية يغلب فيها الصمت مع الدعاء، كي يستلهم العبر والعظات، فالأرض للإنسان كالمهد والبيت ومن ثم اللحد.. فلتختر لنفسك أيها الإنسان منهجاً يليق بك يوم العرض..

"وبعد فأني مزايك يا دمشق أذكر، وفيك الدين وأنت الدنيا، وعندك الجمال وعندك الجلال، وأنت ديار الوجد، جمعت عظمة الماضي وروعة الحاضر".....

المراجع:

العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي



مسجد خالد بن الوليد بدمشق

المسجد المنسيّ

المعروف اليوم باسم مسجد الشيخ رسلان

((دمشق المدينة العامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبي الهول، وبقيت مدينة عامرة بعدما مات أترابها واندثرت منهن الآثار، وفيها تراكم تراث الأعصار، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها في سالف الدهر، ففي نفوسهم من السجايا مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي طبقات بعضها فوق بعض، فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء، وهم ورثتها وحاملو رايته، وهي فيهم طبع وسجية، ولقد تكون في غيرهم تطبعا وتكلفا، فأبي مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة، وجلال الشيخوخة، كالذي جمع لدمشق))
الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

إخوتي القراء:

إن دمشق من أقدم مدن العالم، بها نشأت حضارات دول شتى، فلم يبق مما مضى سوى آثار متوزعة هنا وهناك، لتدل الأحفاد على مآثر الأجداد، أجدادهم من خيرة الخلق ولو استعرضنا ما فيها لجاز لنا أن نعد دمشق القديمة متحفاً إنسانياً حضارياً كاملاً في الهواء الطلق!
ولا يزال ابن عساكر ينتظر منا أن نفض التراب عن كتابه العملاق: (تاريخ دمشق)، بمجلداته الكثيرة عن هذه المدينة المباركة، التي شرفها النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء لها ولأهلها، فلمع صيتها كاللؤلؤة بين مدن العالم... حيث قال في باب: ذكر معرفة مساجد البلد وحصنها بذكر التعريف لها والعدد:

عن واثلة بن الأسقع قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ستكون دمشق في آخر الزمان أكثر المدائن أهلاً وأكثره أبدالاً وأكثره مساجداً وأكثره زهاداً وأكثره مالا ورجالا، وأقله كفاراً وهي معقل لأهلها﴾.

ثم يبدأ بتعداد المساجد المحصورة داخل السور القديم، اثنان وأربعون، أما خارج السور فالعدد أكثر... ويقول معدداً: (ومسجد في مقبرة باب توما عند نهر المجدول وبقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد لأنه صلى فيه وقت الحصار، وهو أول مسجد صلي فيه بدمشق).

ويكمل القول: (وكثرتها تدل على اهتمام أهلها بالدين وكثرة المصلين فيها والمتعبدين).
والصفوانية يعرفها الحموي/ في معجم البلدان قائلاً: (من نواحي دمشق خارج باب توما من إقليم
خولان.

وخولان: قرية كانت بقرب دمشق خربت، بها قبر أبا مسلم الخولاني وبها آثار باقية).

www.naseemalsham.com



فسيدينا خالد بن الوليد نزل هذه البقعة من أرض دمشق الزاوية الشمالية الشرقية من سورها القديم خارج السور، وفي هذا المكان بالذات اتخذ مسجداً يصلي فيه مع جنده فروضهم أثناء حصارهم للروم في دمشق... إذاً فهذه أول بقعة شهدت صلاة جماعة للصحابة الكرام بدمشق، أمثال القعقاع وأبوعبيدة الجراح وغيرهم، ولا شك أن المصلي بسيط جداً: مجرد قطعة أرض مستطيلة الشكل لا سقف لها مفروشة بالحصب، ولم يستحدث المسلمون فيه أي شيء جديد سوى باب وجدرانها الأربعة فقط، فلا وجود لمحراب أو مئذنة، ومع الأيام والسنين طوي مصلى خالد وأصبح منسياً.....

www.naseemalsham.com



لكن يظل في دمشق من يُجَلِّ ويُقدَّر هذه الأرض المباركة التي روى عنها سيد الكون الكثير من الأحاديث الشريفة، ففي منتصف القرن الخامس للهجرة في عهد الأتابكة بدأ يشيع أمر بناء المساجد بكثرة ولا بد أن نفرق بين المسجد والجامع فالمسجد لا تقام فيه صلاة الجمعة فقط لصلاة الجماعة، وقد ذكر ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق وهو يذكر المساجد: (مسجد في مقبرة باب توما، عند نهر المجدول يُعرف بمسجد خالد بن الوليد، لأنه صلى فيه وقت الحصار، وهو أول مسجد صُلِّي فيه بدمشق).

وفي عهد نور الدين زنكي 549 هجري، ظهرت شخصية الشيخ أرسلان الدمشقي، حيث قام ببناء زاوية له لصيقة بالمسجد، وتضم الزاوية مسجداً وتربة، فكان المسجد عامراً بالصلاة فيه.... وفي العهد الأيوبي 569 هجري، تم ترميم المسجد، والكتابات المذكورة فوق بابه ترشدنا إلى أن أحد تلامذة الشيخ أرسلان، واسمه: أبو البركات بن أبي علي زمن صلاح الدين، رَمَّه... ونقش الكتابة واضح ومقروء: بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم إن الدين عند الله الإسلام، هذا مسجد خالد بن الوليد صاحب رسول الله صلى الله عليه ورضي الله عنه وعن جميع الصحابة.



وبقي مع الكتابة محراب حجري صغير مجوف داخل الجدار الجنوبي القبلي للمسجد، وهو من الطراز النوري الأيوبي.

والأمر الوحيد الذي ذُكر في الحوليات الأثرية أن هذا المسجد قد تحول في القرن الحادي عشر للهجرة إلى مدرسة لتدريس الفقه وسميت (بالمدرسة الخالدية)...

واليوم هذا المكان هو مسجد يحمل اسم الشيخ رسلان، مكون من ثلاث طوابق، وبجواره ضريح الشيخ والشيخ صالح فرفور، والعارف بالله الشيخ أحمد حارون، وبينهما قبب أثرية... وإلى جنوب المسجد والأضرحة توجد مقبرة كبيرة سُمّيت باسم مقبرة الشيخ رسلان.

وتم تجديد التربة بجعل جدرانها في أعلاها بالمداميك الحجرية ذات اللونين المتناوبين.



هذه هي دمشق الحبيبة مساجدها شواهد على عظمة تاريخها، فيها معاً نتأمل أيضاً ماذا قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: (أن خالد بن الوليد نزل في دير يدعى (صليبا) على بعد ميل من الباب الشرقي مقابل باب الفراديس، وقد أعان أهل هذا الدير خالداً للنفوذ إلى المدينة عبر الباب الشرقي، وعُرف باسم (دير خالد)....

وكان ينزل في دير آخر خارج باب توما، قبالة الزاوية الشمالية الشرقية من سور دمشق، والذي يُعرف بدير (سمعان)، وهو دير مهجور خرب اتخذه خالد بن الوليد مصلياً له أثناء حصاره لدمشق، حيث ضرب خيمة وجعلها مسجداً يصلي به مع جنوده....).

هنا تكمن أسرار جمال هذا الدين العظيم، الذي يرسخ الأخلاق الحميدة والحرص على مرضاة وطاعة الله عز وجل، المتمثلين بصحابة النبي الكريم.... أناسٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكان تطبيقهم للإسلام تاجاً يتزينون به.

اللهم اجعلنا لهم خير خلف...

المصادر والمراجع:

تاريخ دمشق/ لابن عساكر - معجم البلدان/ للحموي - الحوليات الأثرية للجمهورية السورية

مسجد النحاسين

بداية مقبرة الدحداح [862هـ - 1457م]

إخوتي القراء:

تفخر مدينة دمشق لدعوتكم في جولة سياحية بين أرجائها، مرتدية حلة من أبيض الحبل، بما وصفها سيد الخلق بأنها ستكون أكثر المدن مساجداً وأكثرها أبدالاً، صلى الله عليه وسلم ... فهياً معاً نمضي باتجاه مقبرة الدحداح الكائنة في شارع بغداد، و من على يمين الشارع نتسلل باتجاه محلة مشهورة بنسائمه الإيمانية .. (العقيبة)، التي تضم مسجد (التوبة) الذائع الصيت، هناك نمضي ولساننا يدعو لمن سبقونا ونحن بهم لاحقون، أن يلهمنا المولى حسن التدبر والتأمل. كان خانقاه بمعنى زاوية أو رباط، ليصبح فيما بعد مسجداً.

باسم جامع النحاسين:

الخانقاه: كلمة فارسية تعرف بالمكان الذي ينقطع فيه المتصوف للعبادة، إذ تجمع بين وظيفتي المسجد و المدرسة من حيث التخطيط العمراني، مضافاً إليها غرف للخلوة، و التي عرفت باسم (الخلاوي).

وعرفت في العهد العثماني باسم: التكية، والرباط والزوايا والخانقاه والتكايا تشترك في وظيفة (الخلوات) بمعنى التفرغ للعبادة والتقرب إلى الله لوقت طويل، و إن العبادة الروحية وصقل الروح باستمرار يعد جوهر الإسلام.

يقول النعيمي: مسجد النحاسين غربي الذهبية، وشمالي حمام شجاع، بطريق مقبرة الفراديس. فاسم

الجامع القديم (الخانقاه النحاسية)، بالعمارة البرانية.

أنشأ الزاوية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن إسماعيل ابن النحاس الدمشقي، في عام 862هجري، ثم ترك أموالها و أولاده و ذهب إلى جدة الحجاز إلى أن مات و دفن هناك، وإليه نسبتها.



أما في وصف الجامع فنرى له واجهة حجرية عالية جميلة، من حجر أصفر و أسود فيها باب بديع مزخرف.

وإلى يمين الباب قبة متهدمة من حجر تحتها ثلاثة قبور، و إلى اليسار المصلى القائم على قوسين من الحجر تحتها محراب حجري جميل، وفي الصحن بركة مستطيلة ورواق من جهة القبلة وغرف للمجاورين إلى الشرق.

بعد التأمل في أسطر التاريخ... نرى مدى أهمية العبادة الروحية الذاتية، والتي هي جوهر الإسلام.

وماذا بعد أيها الساكن دمشق؟
دمشق تنتظر منك حسن التأمل والتدبر أثناء السير فوق أرضها التي بوركنت على لسان سيد الخلق
فهل سنستجيب و نناجي المولى بصدق لأن نكون من خيرة العباد؟

المصادر والمراجع:

- ثمار المقاصد في ذكر المساجد / لابن عبد الهادي
- الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي
- العمارة الإسلامية





مسجد الورد برسبائي قديماً

برسبائي قديماً

"هذي دمشق أيها الأخ السائح، قد لاحت لك أرباضها، ودنت رياضها، أفما تراها وأنت قادم عليها من نحو القبلة، مع الصباح الأغر كيف نامت من غوطتها على فراش من السندس صنعته يد الله.

وقد توسدت ركبتني قاسيون فكان رأسها في الصالحية، وقدمها في القدم، وقلبها في الأموي قلب الله الأطهر.

فإذا أردت أن تعرفها وتصل إليها، فاخرج من نزلة أمية، وخذ إلى يمينك، إلى جادة القنادق، حتى تبلغ سوق صاروجا الذي كان حي الباشاوات من الأتراك والمجددين، فصار الآن حي التجار المحافظين، وزر في طريقك جامع الورد ثم أمشي إلى العقيبة، وعرج على منازل علماء الأمس، فقد كانت هذه المنازل مدارس، وكانت جامعات، وكانت منائر هدى للناس، وكانت هي دعائم نهضتها ثم اخل الجامع الأموي، وامكث في وسائله الماضي واستنطقه، وطر بروحك في سمائه، واسم بها إلى عليائه، ثم عد إلي احديثك إن شاء الله حديثه، وإن حديثه لطويل"

كلمات للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله
من كتاب دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها

إخوتي:

بعد أن قرأنا تلك السطور الرائعة في وصف جميل لمدينة دمشق العريقة، وبما تحمل من تراكم حضاري كبير.

أدعوكم كي نعبر معاً بوابة التاريخ الإسلامي، ونقف أمام جامع الورد الكبير، الكائن في وسط حي قدس ومشهور، يدعى حي ساروجة، أو بحي سوق ساروجة.

لقد ذكرت المصادر أن حي ساروجة، من أوائل الأحياء القديمة في دمشق، والتي بنيت خارج سورها القديم إلى شمالها الغربي، كحي الصالحية، العقيبة، البحصة، الميدان...



وقبل الحديث أو زيارة جامع الورد الكبير، لا بد من لمحة عن حي سوق ساروجة، هذا الحي بدت ملاحظتها في الظهور بعهد المماليك، ودام حكمهم لسوريا عدة قرون 658هـ، 1259م إلى 922هـ، 1516م.

تقول المصادر إن الحركة العمرانية قد شهدت ازدهار ونشاط كبير في عهدهم، خاصة في الفترة الأولى من حكمهم والتي سبقت كارثة تيمورلنك 1-14م. فقد عُرفت الدولة المملوكية في دمشق من خلال سلاطين عظام نعمت البلاد في أيامهم بالقوة والأمن والاستقرار.

من هؤلاء السلاطين الأمير تنكز أو سيف تنكز في القرن الرابع عشر ميلادي، وكان لهذا الأمير قائد اسمه: صارم الدين ساروجة والمتوفي عام 743هـ، 1342م. إليه ينسب هذا الحي، حي سوق ساروجة.

في عصر المماليك كان التنافس فيما بينهم في المجال العمراني، فانتشرت وازداد عدد المباني العمرانية، من مدارس ومساجد وقصور..، كان قد وضعت البذور الأولى لهذه النهضة العمرانية على يد نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي رحمهما الله.

وحي سوق ساروجة شهد نوع من أنواع التنافس العمراني، وعندما تتحول في هذا الحي العريق تجده يضم عدة حارات.

وحي الورد هو من ضمن تلك الحارات التي تشكل سوق ساروجة، وفي وسط هذا الحي: **جامع الورد الكبير** والذي كان يُعرف باسم برسباي الناصري، والذي كان من المماليك، يعمل كنائب لمدينة طرابلس وحلب.

وتقول المصادر أن هذا الأمير برسباي كان في عهد الأمير تنكز، قد بنى هذا الجامع فوق أنقاض جامع صغير مملوكي يعود تاريخه، 784هـ، 382م.

دفن هذا الأمير في تربة فيه، في عام 850هـ بعد وصية له.

والآن معاً إلى جامع الورد الكبير.

لماذا سمي بجامع الورد؟

الجامع موجود في وسط حي الورد، وهناك حمام الورد، ذلك لوجود "حكر الورد" ذو الرائحة الجميلة التي كانت تسقى من عين صافية فياضة عذبه باردة، "عين الكرش" الموجودة في سوق ساروجة، تبعد هذه العين عن الجامع شمالاً حوالي 200م.

هذه العين هي عبارة عن بحرات متتابعة تغمر المنطقة بأكملها، قبل انتشار العوران وتزايد السكان، حيث كانت تُعرف هذه المنطقة كملاذ صيفي لأهل دمشق، حيث يقضون الأوقات بجانب هذه العين والتي هي عبارة عن بحرات صغيرة.

وكلنا يعرف الوردة الدمشقية المشهورة برائحتها الذكية، ولونها البديع، وقد عرفت الوردة الدمشقية منذ أقدم العصور وكانت تزرع في كل بيوت دمشق لأنها تمتاز بجمالها ورائحتها الزكية وفوائدها الطبية والاقتصادية وهي تزهر مرتان في السنة، ولقد ذكر البدر في كتابه من محاسن الشام، وهو يتحدث عن الوردة الدمشقية قائلاً: "ونقلت من (الفردوس) للإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه مسنده، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إن الله خلق الورد من بهائه، وجعل له ريح أنبيائه، فمن أراد أن ينظر إلى بهاء الله، فلينظر إلى الورد الأحمر ويشمه، فيشم رائحة أنبيائه﴾. رحمه الله".

إخواني:

إذا نظرنا إلى الجامع نجده كنموذج بسيط بالنسبة للمساجد المملوكية، ولم يبق من ذلك العصر المملوكي إلا مئذنته المربعة.

هذا وإن ما يميز العمارة المملوكية الأمور التالية:

من حيث الهندسة والتخطيط، أكثرها تعتبر صغيرة الحجم، باستثناء مسجد يلغا وتنكر. ومعظم المساجد المملوكية الصحن السماوي قد أُلغي أو غُطي بسقف. من حيث العناصر المعمارية، أبوابها مفتوحة على إيوان مرتفع، ويسود في بنائها التناوب بين الأبيض والأسود وأحياناً الأصفر، من الحجر جيد النحت.

وظهرت الشباييك على الشارع، كواجهات للمسجد في القسم السفلي منه، وكطاقات صغيرة في القسم العلوي للمسجد.

والشباييك مستطيلة، أما الطاقات دائرية الشكل.

أما الأقواس في قناطر الأروقة وفي الأبواب، فهي من النوع الشائع في العمارة الإسلامية.

الزخارف: هو أكثر ما يميز العمائر المملوكية عن الأيوبية والزنكية، التي مثلت الطابع البسيط ولكن القوي والمتين.

وجامع الورد الكبير: الناظر إلى مئذنته، يجدها تطل على الشارع، مربعة الشكل، فن الحجارة النحتية.

يخترق جدران المئذنة نوافذ ذات طاسات ثلاثية الفصوص، وللمئذنة شرفة بارزة مصنوعة من الخشب، مطلية بالكلسة البيضاء وعليها زخارف حمراء قوامها.

وإذا دخلنا من باب المسجد نجد صحن مفروش بالحجارة السوداء والبيضاء، فيه بركة ماء مستطيلة فوقها شمسية خشبية، يحيط بالصحن من الجهات الثلاثة أروقة: الرواق الشمالي، خمس قناطر حجرية.

الرواقان الشرقي والغربي، ثلاث قناطر. وفي القبلة محراب حجري حسن الصنع، وسقفها من الخشب والخور المثقن. هذا المسجد الجميل، الشامخ بمئذنته المربعة الشكل، والتي يظن الناظر إليها أنها تعود للأيوبي، فقد اشتهروا بالمآذن المربعة، والعصر المملوكي بالمآذن المثمنة.

أقول: هذا المسجد تجده أيها السائح المسلم، يجمع بين الطريق المؤدي من بوابة طريق الصالحية وحتى المدرسة الشامية البرانية لست الشام، والموجودة بحي سوق ساروجا. هذا الحي كان للباشاوات من الأتراك والمجددين، فصار حي للتجار والمحافظين. ولذلك نجد أن معظم قاطني هذا الحي، يحملون كنية تركية، ليسوا أتراك، إنما لأنهم يقطنون في هذا الحي الذي كان يُعرف بحي الباشاوات، استنابول الصغرى.

وهذا المسجد بُنِيَ على غرار المساجد المملوكية بالشام، من المداميك الأبلقية السوداء والبيضاء، ويقع في مساحة كبيرة من حارة الورد.

وكذلك مدخل الجامع من الأبلق والمدكك، وعلى يمين باب الجامع، يقع سبيل ماء للجامع، فريد النموذج بطراز بنائه، عليه زخارف جميلة، بناؤه أبلق التركيب في تناوب للحجارة بين الأبيض والأسود، ويتألف من ثلاث فتحات على شكل أقواس، وعلى القوس الأوسط منقوش كتابة أبيات من الشعر مؤرخه 1258هـ.

فاز من أنشأ سييلا للنجاة أضحى وسيلا

من إله العرش حقاً قد منح خيراً جزيلاً

أرختها حتى هدى عيناً تنني سلسيلاً

هذا التاريخ للسلسيل يعود للفترة العثمانية، بينما هذا الجامع للعهد المملوكي، ارتفاعه 3م وعرضه

5م بعمق 50سم.

فائدة: لا يزال هذا الجامع جامع الورد الكبير منذ بنائه تُقام فيه الشعائر الدينية، وقد كان يقوم

على خدمته علماء من آل عابدين من سلالة صاحب الحاشية، الحاجب الكبير. وهو من مالكي أراضي حارة الورد. ولا ننسى الشيخ الطيب أبو اليسر عابدين رحمه الله كان إمام وخطيب هذا الجامع من سلالة صاحب الحاشية، رحمه الله ورضي عنه وجعلنا جميعاً خير خلف لخير سلف اللهم آمين.

وبعد يا إخواني:

لقد انتهت جولتنا في جامع الورد الكبير.

ويحضرني سؤال لكم، ما هي الفائدة التي خرجتم بها من هذه الجولة؟

نرجو أن تفيّدونا.

و لا يغيب عن بالنا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ

الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَمِمَّا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿من بنى لله مسجداً بنى الله له كهيئته في الجنة﴾.

بهذه المعاني الرفيعة السامية، رجاء الأجر والثواب، أقيمت بيوت الله عزوجل على أرض دمشق

فكانت مهبط الملائكة ورحمة الله على العباد، فهذه البيوت هي ملتقى العباد المؤمنين.

هذه دمشق يا إخواني، حفظها الله ومدن الإسلام جميعاً، وأختتم هذا البحث بكلمات للشيخ علي

الطنطاوي رحمه الله فلتستمع:

"هذي دمشق كانت لب العربية، وبقيت لب العربية، وستطلع على العصور القوادم وهي للعربية

لب وقلب وفؤاد، لها لين الماء الذي يضحك به بردى، وشدة الصخر الذي يشمخ به قاسيون، وصراحة

السهل الذي تزدهي به المزة، وكرم الأرض التي تعطي في الغوطة أكلها أربع مرات في العام. لها لين

بردى، ولكن بردى إذا ضويق بالسدود، علا وفاض واجتاح البلاد والعباد، ودمر كل شيء يقف في

طريقه، ويقطعه عن مراده، فقل للغافلين: لا يغركم من بردى لينه وابتسامه، فإنه سرعان ما يعبس ويثور

فاتقوا غضبه الحليم".

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله

المصادر والمراجع:

دمشق / للريحاوي

العمارة الإسلامية / للريحاوي

محاسن الشام / للبديري

دمشق / الطنطاوي

المدارس في تاريخ المدارس / للنعمي



مسجد منجك

في محلة "ميدان حصي" بدمشق

إخوتي ساكني وسائحي دمشق الشام:

أخذت مدينة دمشق في عهدها الجديد بتأسيس أقوى وأرقى حضارة، عمادها الحضارة الإنسانية المثلى في جانبيها، المادي والمعنوي...

ففي العهد الأموي، كانت قد نعمت دمشق بمركز عالمي وازدهار اقتصادي، وراح الأمن والأمان يستتب، ما أدى إلى اتساع المدينة وإنشاء أحياء سكنية خارج الأسوار وعلى الأطراف والضواحي، وامتد البناء على ضفاف بردى وسفوح قاسيون...

وفي بدايات القرن الخامس وأوائل السادس للهجرة، نرى مدينة دمشق 923/648هـ. عبارة عن مدينتين: الأولى قديمة تحمل إرثاً تاريخياً قديماً يحكي لنا بدايات نشوء دمشق، والثانية جديدة جاءت لتحل مشكلة تزايد السكان وتطور سبل الحياة بطرق حديثة متجددة كالأبنية والحارات والأسواق... واتصلت الأحياء القديمة ببقية الأحياء الجديدة لتصبح مدينة واحدة، حيث قال مؤرخ الشام "ابن عساكر": (وقلّ موضع حضر إلا وُجد فيه أثر العمارة من سائر أطراف البلدة)، وذكر منها في الجنوب (الشاغور)، والمنية في (الميدان).. وكان هناك ميدانان عامان، أحدهما في الجنوب وهو ميدان الحصى، والآخر في الغرب ويُعرف بالمرج الأخضر، حيث مدينة المعرض الدولي، وكانت تقام فيهما حفلات لسباق الخيل والفروسية، وكانت هذه الرياض الفسيحة الغناء تحيط بدمشق وتفيض حيوية ونشاطاً منذ عهد عبد الملك بن مروان الأموي، ثم مرت بها السنون والأيام وتعرضت لانتكاسات عدة، لكن دمشق ستبقى دمشق رغم كيد الكائدين ومكر الحاسدين..

ومنذ عهد السلاجقة والأيوبيين في أواخر القرن الخامس للهجرة، بدأ نوع من الانتعاش العمراني الإنساني يظهر جلياً بعد أن حدد الدمشقيون، ومن لاذ إلى دمشق هرباً من بطش الصليبيين، أن الحضارة تبدأ بشغل الإنسان وبخثه عن فائدة ما عمّر بعد فناءه ووقوف أمام الواحد الديان، فلا ينفعه إلا صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح... فأخذت تدبّ الحياة في الأرياض والضواحي، وتأسس "حي الصالحية"، ثم تتالت الأحياء التي تحيط بدمشق... ولأول مرة بعد مضي خمس قرون على بناء الجامع الأموي، أخذت تزداد المساجد والجموع التي تُقام فيها صلاة الجمعة والتي لم تكن تقام إلا في

الأموي، فكان جامع الحنابلة والجراح بالشاغور، والتوبة في العقيبة، وجامع المصلى في الميدان... ثم بلغت دمشق أوجها في عصر "المماليك"، وإن جامع منجك شاهد على حضارة دمشق المملوكية العريقة، يدعوكم للوقوف عنده والاستماع لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿من بنى بيتاً ليعبد الله فيه من حلال، بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة من در وياقوت﴾.

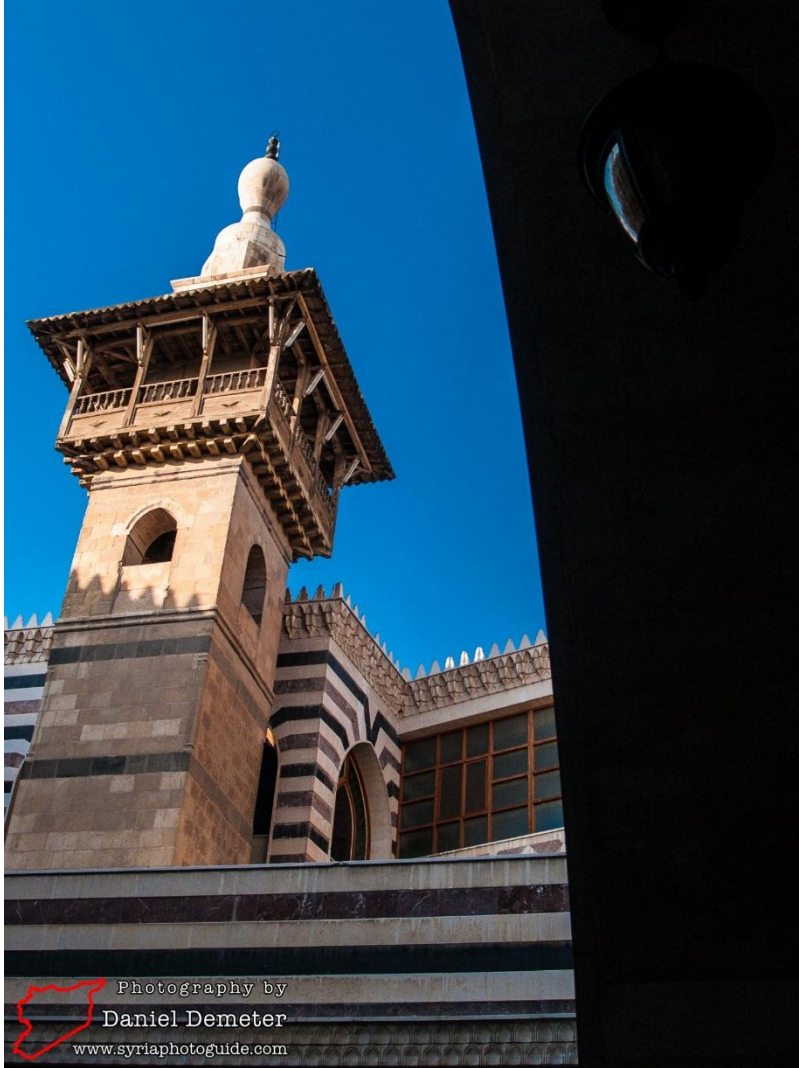


كان هذا الحديث الشريف هو عنوان حي الميدان، وميدان بالفتح ثم بالسكون، من أحد الأحياء القديمة العريقة بدمشق، يقع خارج أسوارها شامخاً يحمل إرثاً حضارياً إنسانياً عظيماً، فقد واكب عصوراً تاريخية عدة مرت بها دمشق، ويذكره المؤرخون كأكبر ضاحية من ضواحي دمشق، حيث كان الوليد بن عبد الملك الأموي يعقد فيه ميداناً لسباق الخيل، ولا يزال المضمار يمثل حي الميدان الواقع في الجهة الجنوبية الغربية لسور دمشق.. وقد سُمِّي بالميدان لمساحته الواسعة، ويتألف من: ميدان تحتاني (حصى) محاذٍ لجامع باب مصلى، واسمه جاء نسبة لتربته المفروشة بالحصى، وفوقاني نواته قرية القبيبات _ جمع تصغير قبة _ وهي حاضرة من حواضير دمشق جهة القبلة، والميدان الوسطاني.. ولم تشهد هذه المنطقة العمران الفعلي حتى عهد الدولة المملوكية 923/648هـ.. ففي العهد المملوكي بدأت الضواحي السكنية خارج السور، ومن الآثار التي مازالت ماثلة أمامنا منذ ذاك العهد هو جامع منجك ..



"جامع منجك":

يقع في محلة ميدان الحصى عند جسر الفجل متوسطاً سوق (الجزماتية)، أحد أشهر أسواق حي الميدان، بناه الأمير "ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سيف الدين منجك الكبير" في حدود 815 للهجرة، و"منجك الكبير" هو نائب دمشق وصاحب المدرسة المنجكية وحمّام منجك، وقد طرأ على هذا الجامع تعديل وتحديد، أهم ما بقي منه واجهته ومئذنته...



حيث كان المسجد صغيراً ومتواضعاً، ذات جذع أيوبي مربع بسيط ضخم في محيطه، فقام الأمير ناصر الدين بن منجك بهدم القديم أيام حكم السلطان الملك الأشرف سيف الدين برسباي، وبنى مكانه مسجداً أكبر منه والمعروف باسم (جامع منجك) جانب تربته التي دُفن بها لاحقاً، ليصبح المسجد بمئذنة طويلة شاهقة الارتفاع، في جذعها السفلي خطوط من الأبلق، يتخلل الجذع نوافذ

مفتوحة على شكل قوس، وتعلو الجذع شرفة خشبية بارزة، وقد أخبرنا الشيخ بدران في "منادمة الأطلال" أن حجارة بناء الجامع حُملت من أرض العمارة شمال سور دمشق...

ويقول ابن طولون في القلائد الجوهريّة: مات في سنة 844 هـ الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك، أحد أمراء دمشق، صُلي عليه في تنكز، ثم حُمل إلى تربته التي أنشأها بجسر الفجل بميدان



الحصى فُدفن بها، وكان ذا عقل تام ودين، عمّر جامعاً لصيق تربته وأخيراً بمنطقة مسجد القصب خارج

سور



دمشق، وأجرى على الفقراء والأرامل صدقات كثيرة..

إخوتي سائي دمشق العظيمة:

كان الشعراء إذا ما مروا بالأطلال وقفوا واستوقفوا، وبكوا واستبكوا، واستنطقوا الآثار... وإن في دمشق عبر وعظات جمّة تنادي علينا، ونرى في كل حيّ جامعاً حافلاً بالعلماء، عامراً بالدروس، فالمساجد هي مراكز مجالس ودّ وصفاء، فكأنه دار لأسرة واحدة... ومن خلال المسير نتلمس روعة من سبقونا، وكأنهم يبعثون إلينا بأعمالهم وآثارهم نداءهم الإيمانية، ويرجون الله لنا التوفيق في مسيرنا من بعدهم والهداية في اتباع منهج من رسّخ معالم خلافة المولى على الأرض بالحكمة والموعظة الحسنة... وفقنا الله وإياكم لحسن الاتباع والعمل...

المصادر: الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي

القلائد الجوهريّة / لابن طولون

شذرات الذهب / لابن العماد

مسجد مئذنة الشحم

من العصر المملوكي [770هـ-1368م]

إخوتي القراء:

تتمتاز دمشق بتنوع معماري جميل، وبأشكال تراثية مختلفة تدلنا على تنوع حضارتها... حيث نرى توزع الجوامع والمساجد بين حاراتها وأحيائها بأعداد كبيرة، تدفعنا للتساؤل عن سر ذلك؟ وجواب هذا السؤال نجده في أحاديث المصطفى عندما أخبرنا قائلاً: ستكون دمشق أكثر المدن مساجداً... صلى الله عليه وسلم، فجمال وجمال هذه المدينة قد انعكست فيه هذه الأحاديث الشريفة، حيث وُجد ذاك الإنسان الفعال المؤثر في الأرض بالخير على مر التاريخ، ليرسخ معاني الرقيّ المحمديّ الرائع الذي قال: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فوق أرض عريقة ستشهد نزول سيدنا عيسى عليه السلام.

وفي نهاية القرن السابع للهجرة ومطلع الثامن، قامت دولة المماليك، لتصبح دمشق مركزاً كبيراً من مراكز الحياة الفكرية والدينية، وعمل حكامها وبعض المياسير من أهلها على تعميرها أحسن عمارة، مقتدين بذلك منذ عهد نور الدين زنكي السلجوقي وحتى عهد صلاح الدين الأيوبي من بعده... رحمهم الله وجزاهم المولى خير جزاء لما بذلوا

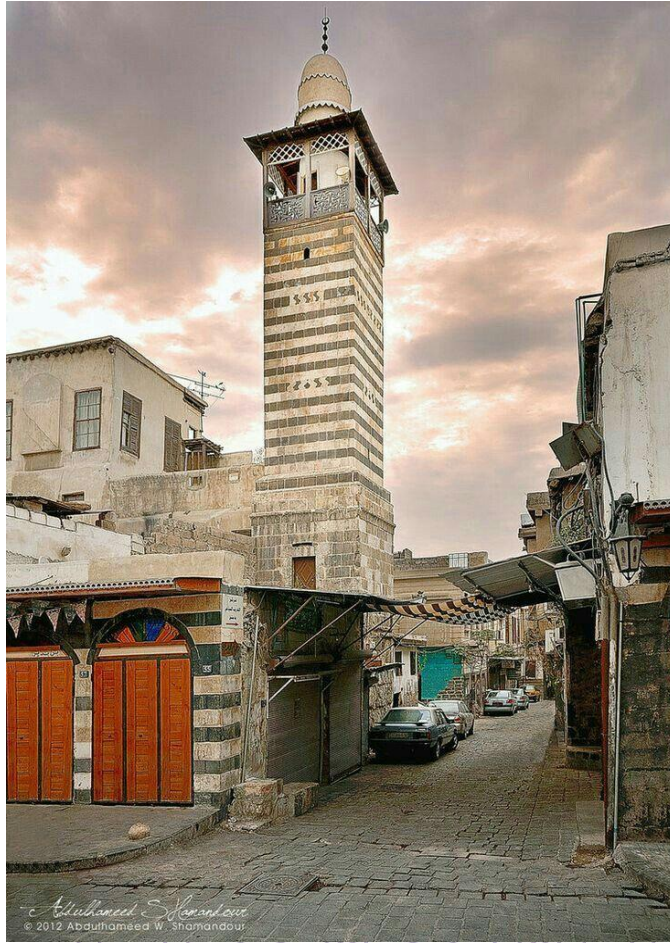
تعالوا بنا نمضي معاً، على الطريق المستقيم، بين باب الجابية وباب شرقي، المعروف بسوق (مدحت باشا)، حيث نشاهد توزع الأسواق الفرعية والخانات والمساجد من على جانبي هذا السوق الطويل، وعند محلة مشهورة باسم: (مئذنة الشحم)، نتوقف كسائحين متميزين، نستنطق العبرة والفائدة من التأمل العميق لنسائم العرافة والتاريخ الحضاري الذي تركه ذاك الإنسان فوق أرض دمشق العريقة



وكمشاهدة أولية لهذه المحلة، نلمح في النهاية الشرقية لسوق مدحت باشا مسجداً مملوكي الوصف
اشتهر باسم "مئذنة الشحم"، التي لم يبقَ منها سوى قسمها السفلي المنقوش عليها والمثبت فيه تاريخ
البناء: 770 هجري / 1368 ميلادي، أي في أواخر العصر المملوكي.

المئذنة ذات جذع مربع مشيد بالمداميك الحجرية ذات اللونين المتناوبين (بلقاء)، ويرتفع في رأس
المئذنة جوسق اسطواني ..

وقد ذكر ابن عبد الهادي في كتابه "ثمار المقاصد"، أن مسجد مأذنة الشحم في سوق مدحت
باشا، والذي يسمى أيضاً بمسجد السوق، هو مسجد صغير، فيه محراب لطيف ومنارة حجرية مربعة،
يُصعد إليها بسلم حجري من الشارع كُتب على حجرة بقاعدتها "الحمد لله.. عمل علي الكسار سنة
770 هجري".



ومؤرخ هذا العصر، الدكتور عبد القادر الريحاوي، في كتابه " العمارة العربية الإسلامية"، ذكر في قسم الجوامع والمساجد المملوكية قائلاً: مئذنة الشحم تقع في المحلة المشهورة بهذا الاسم على الطريق المستقيم (بين باب الجابية وباب شرقي).. بُنيت في عام 770 هجري / 1368 ميلادي، كما هو مثبت في الكتابة المنقوشة عليها، ولم يبقَ من المئذنة المملوكية سوى قسمها السفلي.

خلال جولاتنا السياحية المتأمللة لدمشق الرائعة نلمس تنوع الحضارات بحسب كل عصر وبم امتاز وما الخصائص التي طغت عليه ؟ وهذا المسجد أيضاً قد امتلك ميزاته الفنية المعمارية الخاصة به: كالتناوب باللونين، وارتفاع المئذنة بجوسق..

وإذا تساءلتم عن مميزات ذلك العصر (المملوكي) أجنباكم بأنه عصر ازدهار ونشاط فكري عمري ثقافي بامتياز، بالرغم من الاضطرابات والفوضى السياسية التي شهدتها البلاد تلك الفترة، ف الوعي



الفكري كان هو الغالب على المجتمع الدمشقي، ولذلك شهد ذلك العصر نشاطاً هائلاً ورقياً بالعلم والدين، واعتُبر من العصور الزاهية المشرقة في التاريخ: بفضل العلماء الصالحين المصلحين... والوعي الفكري الكبير بين عامة الناس.

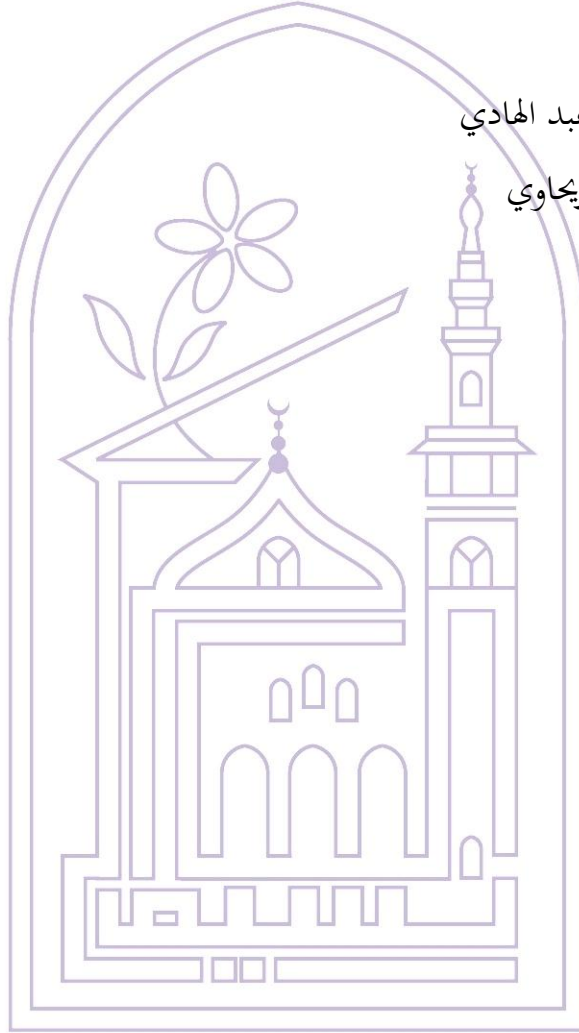
هذا هو عنوان الشام دمشق، فهلا تداركنا الأمر وسألنا المولى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون

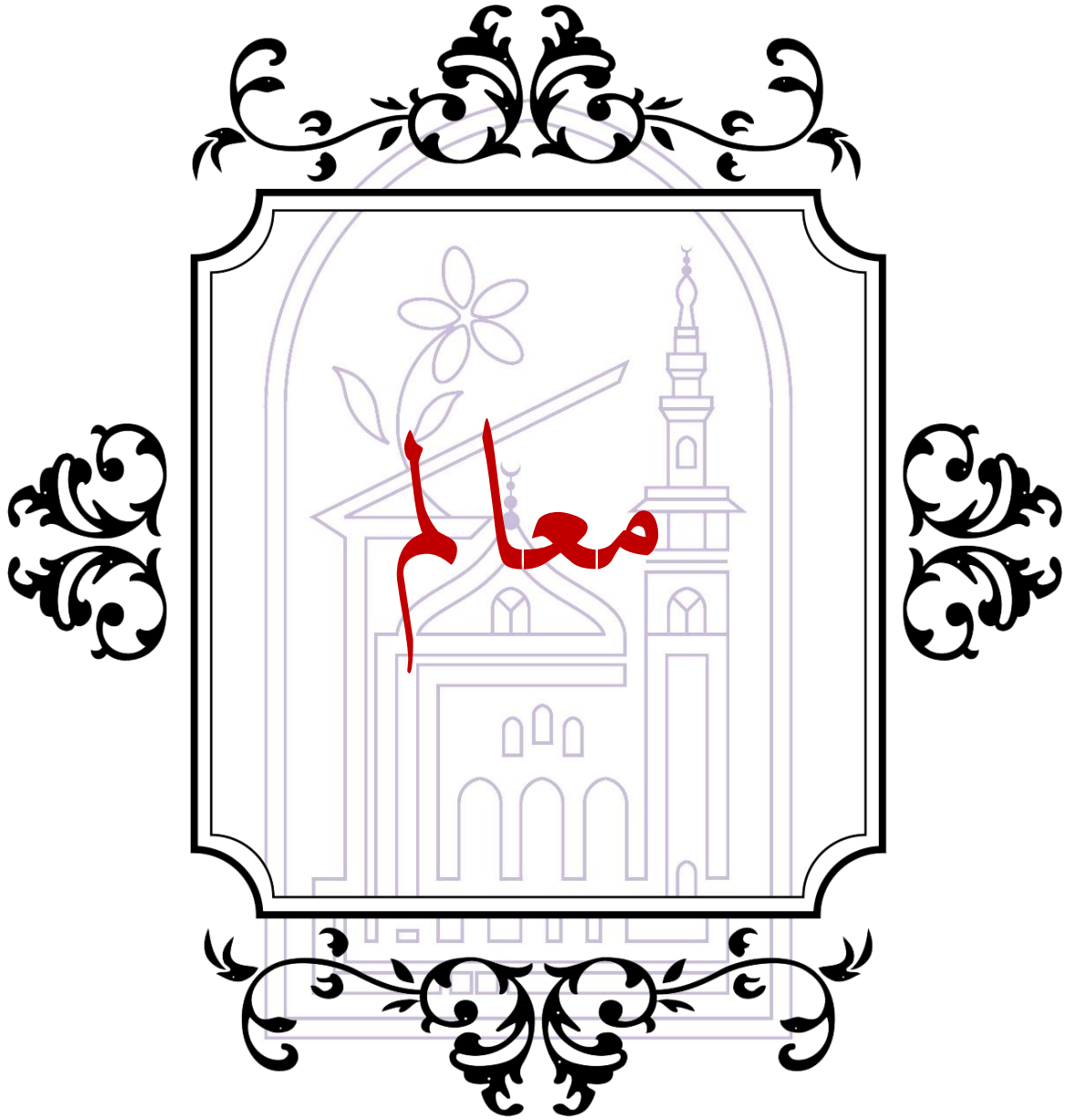
أحسنه ؟

المصادر والمراجع:

. ثمار المقاصد / لابن عبد الهادي

. العمارة الإسلامية/ للريحاي





أسواق مدينة دمشق القديمة

إخوتي القراء:

قال الرحالة ابن جبير عندما وصل دمشق:

(أسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً، لا سيما قيسارياتها، فهي مرتفعة كالفنادق، ولها سوق يُعرف بالسوق الكبير، يصل من باب الجابية إلى باب شرقي، وفيه بيت صغير جداً قد اتخذ مصلى، وفي قبلته حجر يقال إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع)

فهيما معنا نتعرف كيف ظهرت أسواق دمشق...

مدينة دمشق كأقدم عاصمة في العالم، وأقدم مدينة مأهولة بالسكان، كانت عاصمة الآراميين، ثم أصبحت فيما بعد قلب الامبراطورية الرومانية، ومركزاً تجارياً هاماً للرومان، لتسويق وتوزيع المنتجات بين أوروبا والشرق.

حيث قام الرومان بتحديد بناء مدينة دمشق على حطام البناء القديم، وزاد من شهرتها عندما أصبحت مركزاً للديانة المسيحية في العصر البيزنطي عام 39م.

وازدادت أهميتها بعد الفتح الإسلامي، وبدأت الأسواق الدمشقية القديمة في الظهور كظاهرة فريدة الصنع والجمال، وفي زيادة من عددها مع تعدد تخصصاتها، خلال العصر المملوكي والأيوبي والعصر العثماني، حيث أخذت في لفت أنظار السائح العربي والأجنبي على حد سواء.

فأسواق دمشق القديمة، قائمة على أرض قديمة العهد، تفوح منها عبق هذا القدم، ومزينة ببضائع مختلفة الألوان والأغراض تحمل الزائر وتطوف به لكل زمان بنفس المكان، تماماً مثل الحكاية الجميلة. بدأت هذه الأسواق الظهور في العصر الروماني، مكشوفة السقف مزودة بأروقة جانبية، مثلها الشارع المستقيم، الذي كان يمتد من باب الجابية إلى باب شرقي على طول 1600 متر، بناه القائد الروماني بومبي عام 64 ق.م، وُسِّي بشارع الأعمدة لبناء الأعمدة الضخمة على جانبية، حيث عُثِر على بعضها أثناء مشروع ترميم السوق عام 2008م.

وكان الذي يقف في باب الجابية يرى الباب الشرقي، أخذت ملامح هذه السوق تتغير، بعد الازدهار الاقتصادي وزيادة الطلب لأسواق جديدة، ولا ننسى أن في سوق الشارع المستقيم تتوزع

الكنائس الجميلة والعريقة وأشهرها (حنانيا)، وعلى طرفي الشارع المحلات التجارية المتنوعة البضائع، وهذا السوق داخل السور القديم، قبل المضي في جمال أسواق دمشق، نذكر بعض أقوال العلماء في محاولة لتعريف الحضارة حيث قال: "الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر".

إذا الحضارة هي محاولات إنسانية للوصول إلى حياة أفضل فهي حصيلة جهود أمم، فالأسواق بدأت غير مسقوفة، وبتصميم يميز الرومان، ثم تتالت عليها بعض التغيرات بعد مجيء الفتح الإسلامي، وبقدوم الوالي العثماني مدحت باشا 1878 أصبح للسوق الطويل (الشارع المستقيم)، ملامح جديدة، أخذ بتوسيع السوق القديم بإضافة محلات تجارية جديدة وعلى مساحات واسعة وفرعية من السوق الطويل، لدرجة أن الباب الشرقي لم يعد يُرى من باب الجابية.

فأصبح هذا السوق يسمى سوق مدحت باشا، وأحد المصادر قالت: أن الأسواق القديمة يبلغ عددها خمسين سوق، لم يبقى منها إلا بحدود العشرين سوق. وأخذت تُنسب الأسواق إما إلى الحرفة القائمة فيها، أو إلى اسم بانيها، ومعظم الأسواق القديمة داخل السور القديم وحول الجامع الأموي.

فقط سوق السنانية الذي ينسب إلى الوالي العثماني سنان باشا، وسوق الدرويشية نسبة إلى الوالي العثماني درويش باشا 982هـ - 1574م، هذان السوقان يقعان خارج أسوار المدينة من جهة الغرب. هذا وسوف نقوم بزيارةٍ لأهم أسواقنا القديمة، التي ما زالت محط أنظار السائح الأجنبي والعربي، للشكل الجمالي التي اكتسبتها عبر العصور، فهي على أرض قديمة، يفوح منها عبق هذا القدم، ومزينة ببضائع مختلفة الألوان والأغراض، تحملنا وتطوف بنا لكل زمان، تماماً كالأساطير والحكايا الجميلة.

سوق مدحت باشا:

نعود لسوق مدحت باشا الذي سمي بالسوق الطويل، ثم بسوق حقمق نسبة إلى الأمير سيف الدين حقمق 822هـ / 1419م، ونائب السلطنة في دمشق، ثم أخذت معالم السوق بالتغيير في عهد الوالي مدحت باشا الذي أنشأه عام 1878م.

يمتد فوق سوق الشارع الطويل (المستقيم) مع أسواق فرعية تحيط به، وسوق مدحت باشا موازي لسوق الحميدية. وفي نهاية هذا السوق باتجاه الباب الشرقي توجد عديد من الكنائس الجميلة العريقة، وأهمها كنيسة (حنانيا) التي تعود إلى العهد البيزنطي.

أما ماذا يبيع هذا السوق؟

يضم سوق مدحت باشا محلات تجارية كثيرة مختلفة البضائع ومتعددة الألوان، فهناك محلات للمناشف، الحرامات، بياضات، حبوب، بذور، بهارات، قهوة، نحاسيات، مشروبات. هذا السوق أصبح مع العصور ثاني أهم أسواق دمشق القديمة بعد سوق الحميدية.

سوق الحميدية:

نأتي الآن إلى سوق الحميدية، والذي لا تكتمل رحلة الزائر لدمشق إلا بزيارة هذا السوق. تعود نشأته إلى العهد العثماني، في عهد السلطان عبد الحميد عام 1863م، والذي وقد نُسب إلى اسمه، يتميز هذا السوق بسقفه من الخشب (سابقاً) ثم من الحجارة تفادياً للحريق. يمتد سوق الحميدية من باب السعادة القديم عند جنوبي القلعة حتى الجامع الأموي، ويمتد من فوق خندق القلعة.

بداية سوق الحميدية من نهاية شارع النصر مع شارع الثورة (وهو عند باب النصر سابقاً)، وينتهي عند بوابة معبد جوبتير الدمشقي الإغريقي أشهر المعابد القديمة الإغريقية (القريبة من باب البريد)، حيث نجد أعمدته الرخامية المرتفعة المزينة بكؤوس مزخرفة من الرخام، وأمامه ساحة يعتقد أن تحتها ساحة المعبد الإغريقي، ومن الساحة نجد أنفسنا أمام البوابة الرئيسية للجامع الأموي.

قبل أن ندخل سوق الحميدية يجب أن نشير إلى بعض الأوابد الأثرية التاريخية، التي تحيط بهذا السوق، حيث تتوضع قلعة دمشق الشهيرة، التي هي من أهم الآثار العسكرية الأيوبية 599هـ، 1202م بناها الملك العادل الأيوبي تتألف من اثني عشر برج، ولها بابان في الجهة الشرقية تفتح على المدينة، والثاني وفي الجهة الشمالية من جهة بردى، محاطة القلعة بخندق مياه، كان في داخلها قصور وحمامات ومساجد، ومقر للسلطين.

والتي يقف أمامها تمثال البطل القائد صلاح الدين الأيوبي، وضريحه الذي يقع بين السوق وحي العمارة التاريخي وهو بجوار الأموي من بابه الشمالي، عند المدرسة العزيزية التي بناها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي 1195/592، وقد تهدمت المدرسة وبقيت التربة.

يتخلل هذا الشارع المكتبة الظاهرية التي بناها الظاهر بيبرس أيام حكمه لدمشق، وهو أشهر سلطين المماليك، دُفن في المدرسة التي بناها 1279/678، ودفن معه ابنه الملك السعيد. ومقابلها المدرسة العادلية الكبرى والتي دفن بها الملك العادل، هذا مع وجود مبان ومساجد قديمة أخرى.

عودة لسوق الحميدية الذي بُني على مرحلتين:

الأولى في عام 1780 عهد السلطان عبد الحميد الأول، بطول 600 متر وعرض 15 متر، مسقوف بالخشب، الذي استُبدل الخشب بالحديد والتويتاء لحمايته من الحريق في عهد الوالي حسن ناظم باشا، وعلى حوامل نصف دائرية معدنية، وعلى جانبيه المحلات التجارية، سُمي السوق بالسوق الجديدة، وكان يسمى بسوق الأروام في العهد اليوناني.

أما المرحلة الثانية في عام 1884م عهد السلطان عبد الحميد الثاني، حيث قام بتوسيع السوق الجديدة، وسمي بسوق الحميدية نسبة إلى السلطانين، والذي أصبح في القرن التاسع عشر ميلادي من أهم المراكز التجارية في دمشق.

ولا ننسى في هذا السوق وجود اليمارستان النوري الذي أصبح متحف الطب والعلوم عند العرب. ومن جهة الجنوب مسجد السيدة رقية، وقيل هي بنت الحسن الصغرى والتي توفيت وهي صغيرة من شدة الحزن.

وحول سوق الحميدية يوجد أقدم المباني الأثرية: بيت جدي، بيت نظام الدين، قصر نعبان، مكتب عنبر، مقهى النوفرة.

وسوق الحميدية نجده دائماً في حالة نشاط مستمر، فسقفه الجميل قد أعطى للزائر فرصة التسوق عبقة وراحة، حيث يحميه من شمس الصيف، ومطر الشتاء، مما يتسنى للزوار التسوق دون ملل وتعب، خاصة وأن محلاته التجارية تتنوع فيها البضائع المختلفة الأغراض البديعة الألوان.

مصنوعات نحاسية - أقمشة بأنواعها - صناعات تراثية - ملابس جاهزة - أدوات للزينة - أحذية مفروشات - سجاد - سجاد - تحف - هدايا وغيرها.

و يمتد سوق الحميدية إلى سوق المسكية أمام الأموي وعند أعمدة جوبتير وهو سوق القرطاسية والكتب.

واشتهرت الحميدية بوجود محلات تبيع البوظة العربية (الآيس كريم المصنوعة بالدق)، أشهرها محل (بكداش) الذي زاره شخصيات كبيرة ورسمية طلباً بالاستمتاع بمذاق هذه البوظة، وهو معروف منذ 125 سنة.

أما الأسواق المتفرغة عن الحميدية والمسماة كلاً بحسب تخصصها.

سوق البزورية:

يصل ما بين سوق مدحت باشا وقصر العظم، وهو مشهور بجوانيته الصغيرة، يُباع فيه كل ما يتعلق بالأغذية والحبوب، والبهارات، الفواكه المجففة، العطورات، واللوز والفسق والفواكه المجففة والأعشاب الطبية، وحلويات الأعراس، والمناسبات كالسكاكر والشوكولا والملبس. وكان يسمى بسوق العطارين، هذا السوق مغطى جميعه بساتر معدني، وفي بداية هذا السوق يوجد أشهر قصر دمشقي وهو قصر العظم.

سوق الصاغة: 643هـ / 1245م بين البزورية والحميدية يُعرض فيه المصوغات اليدوية.

سوق الحريقة: خلف الحميدية ومخصص لبيع الأقمشة

سوق القباقيب: المجاور لسوق البزورية وهو سوق صغير، اشتهر بالقباقيب، التي تحدث صوتاً مميز على الأرض، واستغل التجار كثرة الأجانب قاموا بصناعة مميزة وهي مجسمات الكراسي القش، أو قطع تزيينية كمزهريات الرمل.

سوق الحرير: ويسمى بسوق النسوان أو سوق (تفضلي يا ست) لكثرة ما ينادي الباعة على المتفرجات، وهو من الأسواق المميزة والمتفرعة عن الحميدية والتي تقع بين مدحت باشا والحميدية، أنشأه درويش باشا عام 1574م، ويقع مدخله في آخر سوق الحميدية، بالقرب من الجامع الأموي، وعنده باب الحرير أو الحديد، ويؤدي سوق الحرير إلى سوق الخياطين.

سوق الجمرك: يباع فيه الأقمشة الحريرية، الأغباني، وإلى جانبه سوق الصوف يختص ببيع الصوف بأنواعه.

سوق الخياطين: أنشأه الوالي العثماني شمس الدين باشا 1553م الذي يتميز بوجود أقدم مدرسة للحديث بناها نور الدين زنكي دار الحديث النورية، ووجود مقام الشهيد نور الدين زنكي -ومقام ابن ابي العيد وبجانبه الشيخ صالح عبد القادر الكيلاني. وفي هذا السوق يُباع لوازم الخياطة والحياكة. وإذا عدنا إلى سوق المسكية حيث يقع خلفه سوق البريد الذي يضم مطاعم ومحلات لبيع المأكولات الشعبية، إضافة إلى الكتب والقرطاسية.

وإذا تابعتنا المسير إلى الشمال نصل إلى سوق النحاسين، وسوق المناخلية وسوق السروجية المخصص للسروج.

أما سوق العسرونية الشهير والمخصص لبيع مستلزمات البيوت والمطابخ المنزلية، يتخلل هذا السوق المدرسة العادلية الصغرى التي أنشأتها زهرة خانون ابنة السلطان العادل الأيوبي، ودار الحديث الأشرفية التي بناها ابن الملك العادل موسى الأشرف، وعلى امتدادها دار الحديث النورية التي بناه نور الدين زنكي، وكلمة العسرونية جاءت من وجود المدرسة العسرونية التي بناها الإمام شرف الدين عبد الله بن محمد بن أبي عسرون في العهد الأيوبي، حيث يوجد مقامه في إحدى هذه المكتبات حالياً. وسوق الجابية - وسوق باب سريجة والمغطى بساتر معدين، مخصص لبيع الخضار والفواكه، والمنتجات الغذائية والأسماك الطازجة.

وسوق مردم بك المغطى أيضاً، مخصص لبيع الألعاب، والأدوات الرياضية والشرقيات. ويتخلل هذه الأسواق حوانيت للحلاقين، حيث كانوا يدعون المارة للحلاقة، وهناك أسواق تقع في الساحات العامة والمكشوفة كسوق الجمال في حي الميدان، وسوق الغنم والبقر، بالقرب من قلعة دمشق، سوق الخيل زمن الأمير تنكز.

أما الأسواق الحديثة:

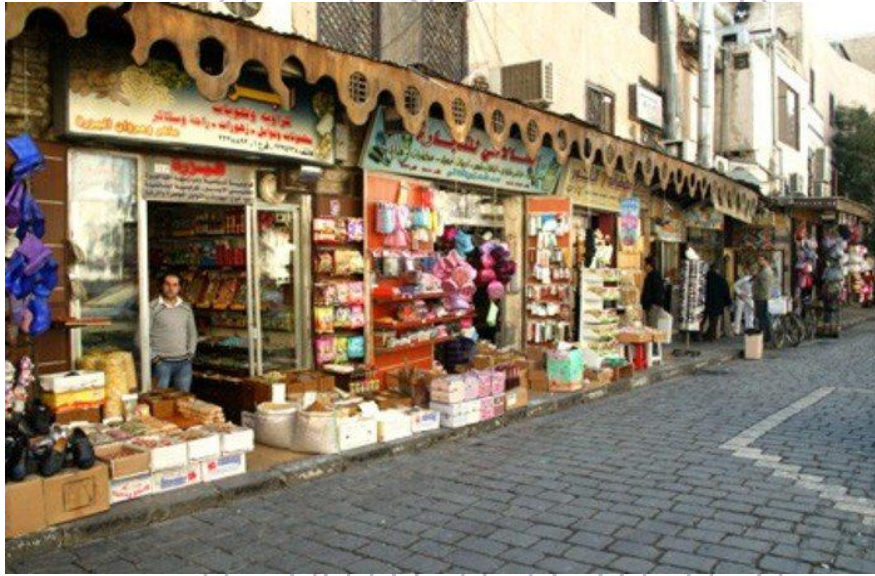
سوق الصالحية الموازي لسوق الحمراء، سوق الجمعة، سوق المزة، سوق حبوبي... جميعها جاءت على شكل جديد. وبعد هذه الجولة الجميلة، نقول:

هذه هي أسواق دمشق القديمة التي كان لها نكهة خاصة تميزها عن بقية الأسواق، تجعل المتسوق يُخلق في عالم جميل، لما تكسوه من ألوان زاهية وروائح ندية، والمقامات الشريفة الموزعة بين حاراتها تُبارك للبائع والمشتري، وتذكرهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿رحم الله امرئ سمحاً إذا باع وسمحاً إذا اشترى﴾.

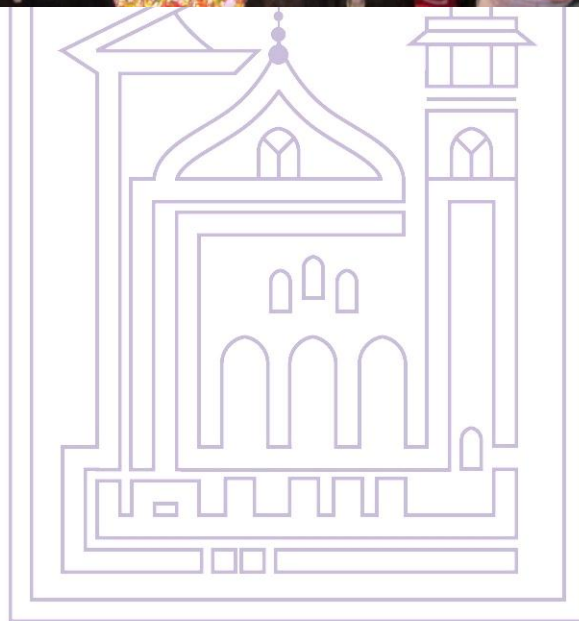
المصادر والمراجع:

رحلة ابن جبير / لابن جبير
دمشق / لعبد القادر الريحاوي

العمارة الإسلامية / لعبد القادر الريحاوي

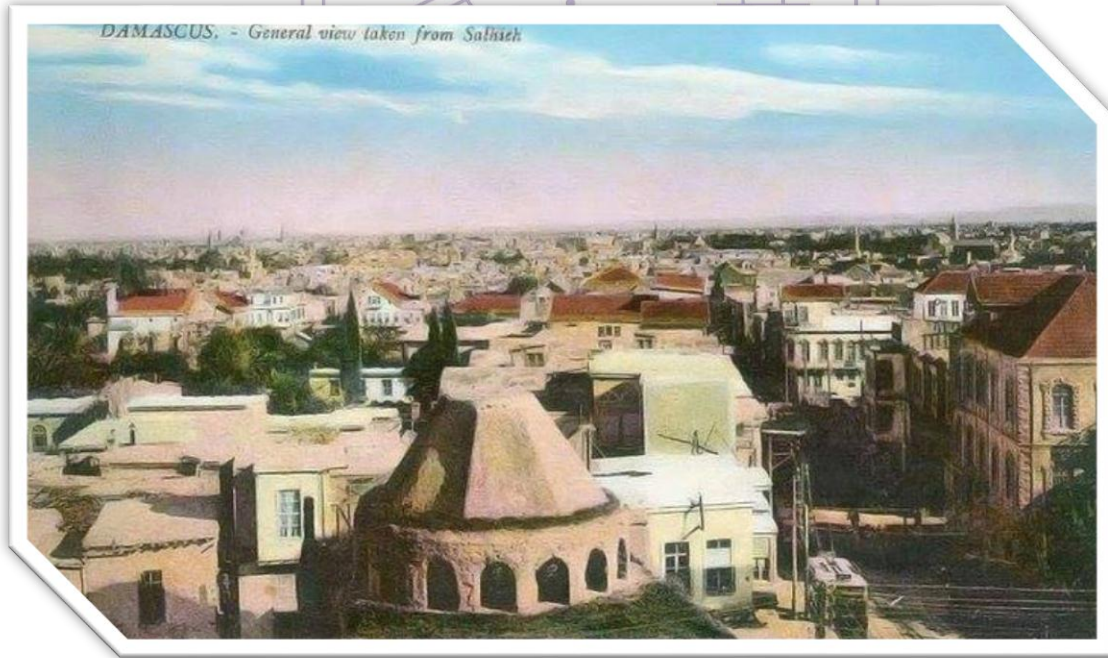






بنو قدامة وحي الصالحية [459هـ - 1154هـ]

"هذه قصة لاجئين من فلسطين، ملؤوا الشام علماً، نشأ منهم أفاذا، ما أظن أن أسرة في الشرق والغرب أخرجت أكثر منهم: ابن قدامة الكبير، أبو عمر، والموفق، والضياء، والحافظ عبد الغني، وهم في الفقه والحديث كأسرة قتيبة والمهلب في القيادة، وجرير في الشعر، وقد دخل عبد الغني صاحب العمدة مصر، ونشر المذهب الحنبلي فيها.. والمختارة للضياء التي تعد من أصح الكتب المؤلفة في زوائد الصحيحين، وكتاب المغني للموفق أعظم كتاب في فقه الحنابلة، وكان من نسائهم نابغات لا يدركهن العد، مضوا ولكنهم خلفوا آثاراً لا تفتى، ومن آثارهم حي الصالحية، وبعد، فهل يليق بأهل دمشق وهي دار الوفاء، وبأهل الصالحية خاصة، أن ينسوا هؤلاء العباقرة الأعلام، فلا يذكرهم ذاكر، ولا يعرف سيرتهم أحد، ولم يسم بأسمائهم مدرسة في الصالحية ولا شارع". . الشيخ علي الطمطاوي



مدينة دمشق العريقة أقدم عاصمة في العالم والتي منها نشأت حضارات شتى ودار بها ما دار من أحداثٍ ومتغيراتٍ ومرت العصورُ وتعاقبت الأجيالُ وكلُّ قد ترك بصمةً له على أرضها وتركوا خلفهم الآثار التي لو استعرضناها لوجدنا قدراً كبيراً من التنوع المدهش الذي يدفعنا لوصف مدينة دمشق بالمتحف الشامل لجميع الحضارات.

وعندما نقرأ تاريخ دمشق في القرن الخامس الهجري سنجد تشابهاً في الظروف والصعوبات التي مرت بعصرنا الحالي، فالصليبيون احتلوا القدس الشريف والعديد من المدن الفلسطينية مستغلين ضعف العالم الإسلامي وانقسامه لدويلات وإمارات صغيرة...

وبعد سيطرة الصليبيون على القدس وبطشهم بسكانها وسرقة خيراتها اضطُر أهلها للهجرة لمدينة دمشق التي كانت وما زالت ملاذاً للاجئين من الظلم، وقد كانت دمشق ترتبط مع مدن فلسطين ك نابلس وغيرها بارتباطاتٍ علميةٍ وفكريةٍ واقتصاديةٍ فوجد فيها كبار المهاجرين من أعلام وأعيان إغراءً ليسيروا في تاريخ دمشق سطوراً تجسد المعنى الحقيقي لخلافة الله في أرضه بما يجب ويرضى.

ومن أوائل المهاجرين أسرة بنو قدامة الذين وجدوا في شخصية نور الدين الزنكي مطلبهم ومبتغاهم، فقد كان نور الدين ذائع الصيت كوالده عماد الدين الزنكي في محاربه للصليبيين وقد شارك بنو قدامة مع نور الدين في حروبه ضد الصليبيين وأكملوا من بعده مع القائد صلاح الدين الأيوبي.

شكل آل قدامة الجماعيليون النواة الأساسية لحي الصالحية فالشيخ الكبير أحمد بن قدامة خطيب بلدة جماعيل عندما قدم دمشق نزل بباب شرقي أولاً ثم أخذ يبحث لعائلته عن مكان آخر حتى لا يزعج أهل دمشق ممن نزل عندهم وقال: "هل هاجرت لأنافس الناس على دنياهم ما بقيت لأسكن ههنا" وأخذ يردد حديث رسول الله: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَىٰ فَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

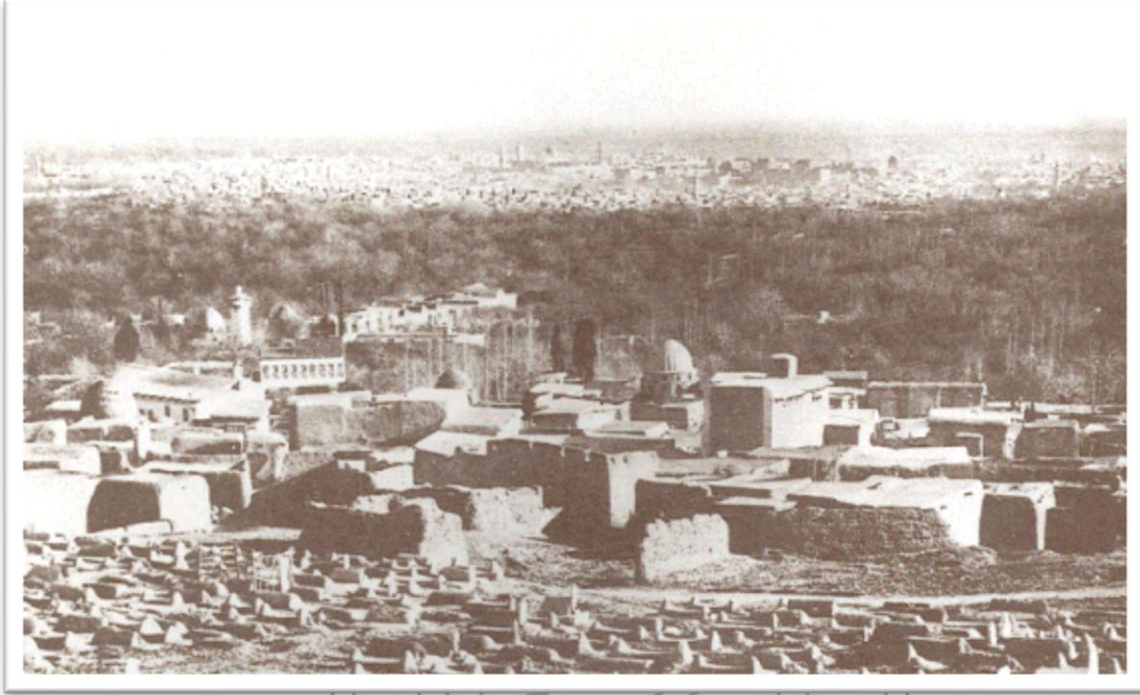
وكان الشيخ على عادة أهل دمشق يزور قاسيون ففيه عدة مغاور وآثار للأنبياء كمغارة الدم ومقبرة لأربعين من الأولياء الصالحين، وكانت مدينة دمشق محصورة داخل السور فقط وسفح قاسيون مقفراً خالياً إلا من بقايا ديرٍ لناسكٍ عابدٍ توفي من آلاف السنين، ثم إن الشيخ توضعاً من نهرٍ يمر في سفح الجبل وجعل على ضفته حجراً في جهة القبلة وصلى ثم قال: "ما هذا إلا موضع مبارك".



وهنا لنا وقفة تربوية، تعلمنا ضرورة أن نتوضأ ونصلي صلاة الاستخارة بين يدي الله عز وجل في شؤون حياتنا.

و إنَّ نية الشيخ الصادقة مع الله عز وجل قد وفقته، ليبنى فوق سفح قاسيون المقفر بيتاً بجانبه مسجد ومدرسة، وكان لا يملك المال ليستأجر عمالاً بل قام مع أبناءه ليعمروا الأرض بالخير والحبِّ والرحمة.

و من ثم تخبرنا المصادر أنَّ هذا الحيّ -حيّ الصالحية كما سمي فيما بعد- بعد ما يقارب المئة عام أصبح يحوي ثلاثئة مدرسة فنشأ كنموذج عنوانه النهضة العلمية والفكرية، وذاك كله في صحيفة هذا الشيخ الكبير، رحمه الله.



وظهر للمرأة في عصرهم دور كبير فنجد الألقاب التي ظهرت في تلك الفترة ك: ست الناس وست الفقهاء وست العلماء وست العرب وست الكل...
 لقد رسخوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له﴾.
 لقد ترك الشيخ أحمد بن قدامة أبناء وأحفاد من العلماء والقضاة والخطباء الذين يحملون في قلوبهم أسرار المحبة الإلهية والمحمدية وهي العلم والتطبيق.
 بعد وفاة الشيخ أحمد 558هـ ودفنه في سفح قاسيون أخذ أبناءه وأحفاده يسطرون عناوين رائعة لمسيرتهم وما زالت كتب التاريخ تذكرهم وتدعو لهم وتتسائل أي عن السر الذي حملوه.

■ أبناء وبنات الشيخ أحمد

الابن الأول: أبو عمر محمد بن أحمد

والذي عُرف بالمقريء والمحدث والفقهاء، وُلد في جماعيل 528هـ، وقد بنى المدرسة العمرية المعروفة بـ"الشيخة" أو أول جامعة إسلامية على الأرض.

وكان له من الأولاد والبنات عبد الله الإمام وعبد الرحمن قاضي القضاة وأمنة المقرئة.

الابن الثاني: أبو محمد عبد الله بن أحمد الموفق

وهو العلامة المجتهد صاحب كتاب المغني، وُلد في جماعيل 541هـ، وكان عالم وفقه أهل الشام بزمانه وله مؤلفات عديدة كـ "عمدة الفقه" و"المقنع" و"الكافي".

وأبنائه مجد الدين عيسى خطيب وإمام الجامع المظفري، و محمد ويحيى وصفية وفاطمة.

الابنة الثالثة: أم أحمد رقية بنت أحمد

كان لقبها العاملة الدينية، تزوجت من الإمام عبد الواحد بن أحمد، و لها من الأبناء:

الضياء محدث بلاد الشام في زمانه والشيخة آسية والشيخة زينب.

الابنة الرابعة: أم محمد رابعة بنت أحمد المحدث

حافضة كتاب الله ومحدثته بجديت نبيه، تزوجت الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي وأنجبت المحدث

عبد الله والمحدث عبد الرحمن والداعية فاطمة.

* رحمهم الله تعالى لقد نالت هذه الأسرة الكريمة عناية من الله عزَّ وجلَّ، والأسرة نواة المجتمع إذا

صلحت صلح المجتمع بأسره وهؤلاء الصالحين الذين لُقِّبوا بـ "المقادسة" كانوا نتاج نية صادقة مع الله

عزَّ وجلَّ. يذكروننا بحديث المصطفى الذي قال: ﴿تناكحوا تكاثروا فإنني مباحٍ بكم الأمم﴾.

اللهم اجزهم عنا كل الخير فقد أحيوا قلوبنا بطيب ذكراهم وأعمالهم.

المصادر:

سير الأعلام للذهبي

البداية والنهاية لابن كثير

البيمارستان القيمري [646هـ]

في حي الصالحية

إخوتي القراء:

تحتضن دمشق معالم تاريخية قديمة قيمة، ما يجعل منها الوجهة المثالية للقيام برحلات سياحية ممتعة هادفة، تحت عنوان قوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ...))، فالسياحة تكون بالسير والسير بالنظر والتأمل فنحصل على عبرة وموعظة فقط عندما ننظر بعقل وقلب واع، حيث نرى تقلب الدنيا بأقوام ملكوها قبلنا وتصرفوا فيها ليمثلوا قول الشاعر: تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار. هيا معاً نبحت ونكتشف في سير من سكن هذه الأرض المباركة وترك من ورائه معالم ترشد الضالّ والضائع ملتمسين العبرة والعظة التي فُقدت فغفلنا عن مقصد مولانا عز وجل...

هذه دعوة لرحلة في "حي الصالحية"، في الجهة الغربية من جبل قاسيون، فالصالحية من الصلاح وقاسيون من قسوة الحجارة، والمعالم الأثرية كثيرة ومتنوعة فيها كالمساجد والمدارس والقباب التي شيدها الخلفاء والسلاطين والأمراء.. ومن هذه العمائر (البيمارستانات) التي ظهرت في دمشق، وكان بيمارستان النوري أول بيمارستان وأول نموذج في دمشق، ثم جاء أمير من أمراء القيامة وبنى بيمارستاناً يضاهي النوري، جعله في وسط الصالحية التي بدت في تلك الفترة وكأنها تنافس مدينة دمشق القديمة..

البيمارستان القيمري:

البيمارستان: كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو مصاب وعليل، وكلمة (ستان) بمعنى مكان أو دار، فهي إذاً دار المرضى، ثم اختصرت فصارت (مارستان)، وتعني المستشفى، بناه سيف الدين القيمري عام 646 هجري، 1256.. فمن هو الأمير سيف الدين القيمري؟

قال ابن العماد في شذرات الذهب: أن سيف الدين القيمري هو ابن أخت صاحب قيصر، وقِيمُر بفتح القاف وضم الميم، قلعة في الجبال بين الموصل وخراب، نُسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل، وخراب بكسر أوله وضم آخره، بلدة عامرة مشهورة، وهي قسبة أرمنية الوسطى، وفيها بحيرة لا نظير لها.

وسيف الدين القيمري هو من أكراد العراق ثم الشام الذين كان لهم إسهامات سياسية وثقافية واقتصادية مشرفة في دمشق، واسمه: أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري الكردي أكبر أمراء القيامرة، كان ذا مال كثير وثروة، أمير شجاع وبطل مجاهد وُصف ببسالته ضد الفرنجة واشترك في معركة دمياط الشهيرة 648 / 1250 وأسر فيها ملك الصليبين الفرنسي.



تروي المصادر أن هذا البيمارستان قد ضاهى البيمارستان النوري، ويدل بناء هذا المشفى الكبير في حي الصالحية على درجة التطور العمراني للمنطقة والاستقلالية التي وصلت إليها منذ تأسيس هذا الحي في أواسط القرن الخامس للهجرة والحادي عشر الميلادي، فقد أسهب المؤرخون في وصفه والإشادة بمحاسنه.

وقد شيد أمراء القيمرية منشآت كثيرة في دمشق وحلب، لا ننسى حي القيمرية في دمشق، الذي يعد من أعرق الأحياء الدمشقية...



وذكر المؤرخون أن لبناء الـبـيـمارـسـتان الـقـيـمـري قصة ذات عبرة ترويها الـكـتـب وهي: أن الأمير سيف الدين تزوج من ابنة الأمير عز الدين على صداق كبير، وعندما توفيت من غير ولد أخذ صداقها ومصاغها، وصرفه جميعه في بناء الـبـيـمارـسـتان وأوقفه ليكون صدقة

جارية تخلفها على الأرض، لقول المصطفى: ﴿إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له﴾.



بُني هذا الـبـيـمارـسـتان وسط حي الصالحية خاصاً بها، لأنها كانت أشبه بمدينة مستقلة عن دمشق القديمة، حيث أُريدَ أن يُنفع الناس به، ﴿الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم إلى عياله﴾. وتوفي الأمير سيف الدين في نابلس 54 / 6 1256 وهو يقاتل الصليبيين.. ثم نُقل وُدُفن بتربته تجاه شمال الـبـيـمارـسـتان الـقـيـمـري الذي بناه.

نتجول معا الآن بين أرجاء هذا المعلم سائلين المولى عز وجل السداد والتوفيق في عبرة وعظة أثناء رحلتنا هذه ولنقرأ فاتحة الكتاب على أرواح من سبقونا وأرواحنا سائلين المولى عز وجل أفضل الأعمال مع حسن الختام...

للبناء باب متقن البناء لا يزال محافظا غلى وضعه، ومخطط البناء متأثر جدا بمخطط بناء البيمارستان النوري الذي بناه نور الدين زنكي 548 هجري/ 1154 ميلادي في دمشق القديمة. والمخطط بشكل عام مربع الشكل له أربعة أروين مركزية، على كل منها مداخل إلى غرف أخرى. ومدخل البيمارستان مبني بطريقة الأبلق، أي تناوب المداميك الملونة، وله قوس مزخرف، ويتوّج البوابة مقرنص فحم، مع ثلاثة أسطر من زخارف كتابية، وبين الكتابة زخارف نباتية متشابكة على درجة عالية من الإتقان، والتي تمثل بداية الانتقال من التقشف الأيوبي إلى طراز الفن المملوكي في الزخرفة، وهذه الزخرفة النباتية..

ويوجد عدد من القاعات بحسب الاختصاصات لمعالجة أمراض متنوعة: قاعة لتجبير العظام، وأخرى للجراحة، وقاعة للأمراض النفسية، وقاعة للأمراض الباطنية وغيرها... مع مرافقها من نوافذ في جميع الغرف مطلة على دمشق وحدائق الصالحة من حولها، والتي وُضعت لتعجيل الشفاء أثناء الاستطباب للمرضى، تدلنا على روعة هذا الإنسان، فقد شُيد هذا البناء لهدف أساسي هو معالجة

الفقراء وتخريج الأطباء، فانظروا كيف كان الذين من قبلنا؟
و لسان حالنا يدعو لهم.... اللهم اجزهم عنا خيرا....



المصادر والمراجع:

القلائد الجوهريّة / لابن طولون

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد

البداية والنهاية / لابن كثير

معجم البلدان / ياقوت الحموي

العمارة الإسلامية / للريحاوي

البيوت الدمشقية الشامية (1)

نسائهما تجمع بين الشاميين...

إخوتي القراء:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿الشام صفوة الله من أرضه، وفيها صفوته من خلقه فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخل إليها من غيرها فبرحمته﴾، وقال: ﴿الخير عشرة أعشار: تسعة بالشام وواحد في سائر البلدان، والشر عشرة أعشار: واحد بالشام وتسعة أعشار في سائر البلدان، وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم﴾.

إن المتأمل بكلام النبوة يجد السبب في تزامم الخلق والعباد على سكنى الشام ودمشق، أم الشام، حيث نجد على مر العصور من يتوافد إليها من كل صوب ومكان ليستقر فيها طمعا في نيل شرف حديث المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فتعال أيها القارئ وأنصت واستمع أيها القارئ لمدح العلماء دمشق أم الشام، فها هو المحدث والمؤرخ ابن عساكر قد ترك كتابه الشهير (تاريخ دمشق)، وقد خصص فيه باباً اسمه:

- [باب ما ورد عن الحكماء والعلماء] في مدح دمشق بطيب الهواء وعذوبة الماء
فأنشد أبو محمد الصوري في دمشق قائلاً:

بلد ساكنوه قد جعلوا الجنة قبل الحساب دارمقام
ألبستها الأيام رونق حسن ليس يغني ولا مع الأيام
ظاهر طاهر الجمال كما الباطن خلقا هما معا في تمام
لم تفضل بطيها جنة الخلد علمها بل فضلت بالدوام

وأنشد أبو المطاع قائلاً:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
وما ذقت طعم الماء إلا استخفني
فلي بجنوب الغوطتين شجون
إلى برد ماء النيريين حنين
إني حننت حنين مكتئب
مترادف الأحزان والكرب

وأنشد أبو المظفر العراقي قائلاً:

فقلت أجل إنها جنة
وما ذمها قط إلا غبي

وبالمزة الجنة المستلذ بها
وأنهار جلق تجري إلى
كمثل أهلها ليس مثل ولهم
إذا وصف المرء ما فيهم
العيش والشرف المعجب
مساكنها عذبة المشرب
لدى القسط فأطرب لهم وأعجب
من الدين والخير لم يكذب

وقال أحدهم:

أمر بدير مران فأحيها
ونعم الدار داريا ففيها
صفت دنيا دمشق لمصطفىها
وأجعل بيت لهوي ببيت لها
صفا لي العيش حتى صار أريا
فلست أريد غير دمشق دنيا



واختتم الباب بقصيدة كبيرة للأمير أبو الفضل إسماعيل ابن الأمير، الذي قال:
عوضته عن موطني فوجدته
ومها وقوف لا يزال مغلها
وأئمة تلقي الدروس وسادة
أحلى وأعذب في الفؤاد وأجملا
يَسْتَنْقِدُ الأَسْرَى وَيُغْنِي العِيْلَا
تَشْفِي النفوس وداؤها قد أعضلا

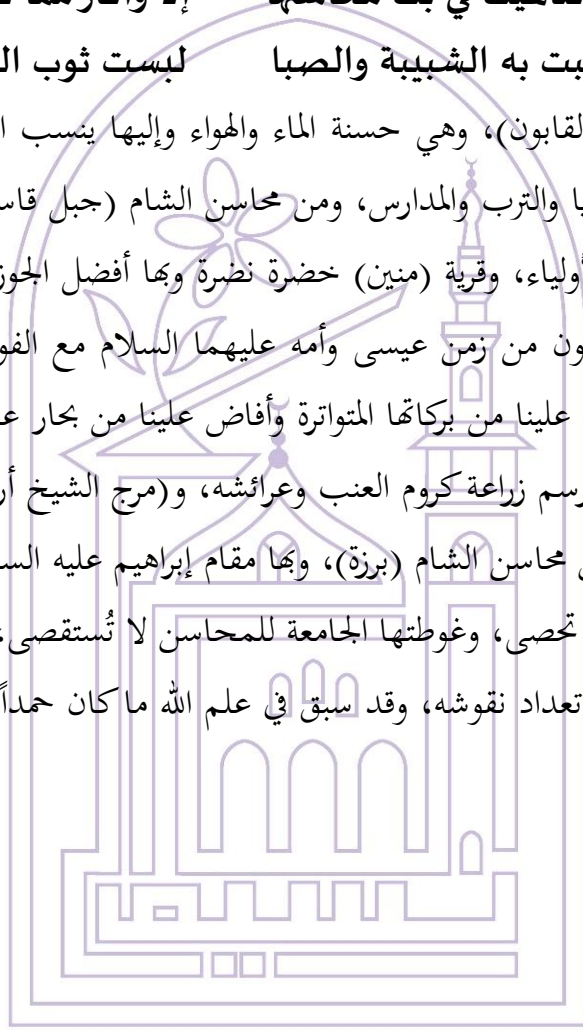


وقبور قوم من دعا في مطلب
من صالحين وتابعين وزمرة
مُتَعَسِّرٌ أضحى بها متسهلاً
شهداء شاهدت النبي مرسلًا

وكتب البدرى الدمشقي _ من علماء القرن التاسع للهجرة_ (رحمه الله) كتاب (نزهة الأنام في محاسن الشام):

وما تناهيت في بث محاسنها
بلد صحبت به الشبيبة والصبأ
إلا وأكثر مما قلت ما أَدَع
لبست ثوب العز وهو جديد

ومن محاسن الشام: (القابون)، وهي حسنة الماء والهواء وإليها ينسب الخيار، ومن محاسن الشام (الصالحية) مشحونة بالزوايا والترب والمدارس، ومن محاسن الشام (جبل قاسيون) وهو جبل مبارك به آثار الأنبياء والصحابة والأولياء، وقرية (منين) حضرة نضرة وبها أفضل الجوز، وقرية (كفرسوسة) وبها معصرة زيت وأشجار الزيتون من زمن عيسى وأمه عليهما السلام مع الفواكه الكثيرة، ومن محاسن الشام قرية (داريا) أعاد الله علينا من بركاتها المتواترة وأفاض علينا من بحار علوم علمائها الزاخرة، ومن محاسن الشام قرية (يلدا) برسم زراعة كروم العنب وعرائشه، و(مرج الشيخ أرسلان) و(الضمير) وإليها يُنسب أفضل البطيخ، ومن محاسن الشام (برزة)، وبها مقام إبراهيم عليه السلام...
ومحاسن الشام فإنها لا تحصى، وغطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى، ومن ذلك ما يُصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه، وقد سبق في علم الله ما كان حمداً وشكراً على حب الوطن فإنه من الإيمان)).





وكتب الشيخ علي الطنطاوي (رحمه الله) يصف دمشق قائلاً: ((دمشق التي يحضنها الجبل الأشم الرباض بين الصخر والشجر المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقريّة الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق.

دمشق التي تحرسها الربوة وهي خاشعة في محرابها، دمشق التي تعانقها الغوطة، الأم الرؤوم الساهرة الواسعة التي تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قد نُثرت فيها القرى التي تنيف على عشرين قرية أكبرها (دوما) ذات الكروم، (وداريا) التي تفاخر بعينها، (وحرستا) بلد الزيتون، (ومسرابا) حديقة الورود، وكفر سوسه، وكفر بطنا، والأشرفية، وصحنايا... ووراء الغوطة إلى الشمال سهول (المزة)، أصحّ المنازل، وأبعدها عن العلل، وسهل (القابون) عن الشمال، وسهول تمتد حتى تغيب الجبال.... ولجنا حمى الغوطة، هذه بساتينها التي تتصل ساعات على الماشي وما ينفك يمشي في ظلال شجرة مثمرة، أو نبتة مزهرة، ولو اجتمع على مائدة واحدة ما تخرج من الثمار من أنواع المشمش والعنب والتفاح والكمثرى والنوخ لاجتمع أكثر من ثلاثمئة صحن، ما في صحن منها مثل الآخر، وبردى الذي علم أبناءه الروع بالخضرة والظلال فصارت النزهة عندهم من مقومات الحياة، لا تحيا أسرة من دونه...)).

((والدمشقيون أكرم الناس، وأشدهم عطفاً على الغريب وحباً له، ومدينتهم من أنظف المدن لتدفق مائها وكثرة أنهارها، ووصولها إلى الأحياء كلها ودخولها البرك في الدور، حتى لا يخلو حي من نهر، فنهر(يزيد) يسقي الصالحية، و(تورا) يسقي العقيبة وسوق صاروجا، و(باناس) يسقي القيمرية، و(قنوات) يسقي القنوات، والشاميون مولعون بالنظافة والطهارة، نظافة تطمئن إليها نفس الموسوس))!



إخوتي القراء:

دمشق، أم الشام، مهد الحضارات الإنسانية وملتقى الديانات السماوية، فيها رجال عشقوا وعرفوا كيف هو حب الأوطان، فمن لم يفقه ذلك فليقرأ تاريخ دمشق لابن عساكر وللبدري والطنطاوي وغيرهم كثير (رحمهم الله)...الذين أرتحوا لمدينة (العلم والعلماء)، التي إليها يشدّ الرحال بما زحرت من حلقات علم، وبما أنجبت من علماء هم فرسانها يحمونها ويدودون عنها كل مكر وسوء.

بنوا فيها أول مدرسة اختلفت بأحاديث المصطفى ليتخرج منها خيرة الرجال، كالنووي وابن كثير وابن الأثير والذهبي والسبكي وغيرهم... الذين يبعثون لنا بدعوة للوقوف عند تاريخ هذه المدينة العظيمة بتدبر وتأمل.

لقد اجتمع في دمشق الموقع الجغرافي المميز، والمكانة الدينية والتاريخية الهامة التي جذبت إليها الناس من كل صوب ومكان، فقد يسرّ المولى لهم فيها الماء الغزير للاغتسال، فيزيد من صفاء قلوبهم ونقاء



سريرتهم فيزدادوا في حب الخير لجميع العباد، ونمت الأحياء والمساكن والدور فأصبحت دمشق نقطة يلتقي عندها أصفياء الله يجتبيهم إليها.

و عرفت هذه المدينة عبر العصور عدداً كبيراً من الأوابد والمباني الهامة، التي تبرز أهمية حضارتها، خاصة من النواحي العمرانية والمعمارية، من بين هذه الأوابد والمباني: البيت الدمشقي القديم، الذي يعدّ ثروة هامة لما يحتويه من عناصر معمارية نشأت وتطورت على مدى آلاف السنين، فهو نتاج تفاعل الإنسان الدمشقي مع دينه وبيئته ومحيطه، حيث استخدم مواد البناء المحلية المتوفرة لديه من طين وحجر وخشب، ليبدع مكان سكناه وإقامته، بما يتناسب مع ظروف حياته الاجتماعية والدينية، فأضاف لمسات فنية تزيد الدار جمالاً وروعة، فهي تشبه الفردوس لما تحتويه من قاعات جميلة وفسحات أجمل، تزينها عرائش الياسمين والورد وأغراس الليمون والكباد.

والوصف لا يغني عن جولة نقوم بها معاً في نماذج من بعض البيوت، ولنستحضر نية فهم دقائق الأسرار في عظمة جمال هذه البيوت...



البيوت الدمشقية الشامية (2)

نسائهما تجمع بين الشاميين...

يعتبر البيت الشامي مأثرة من مآثر فن العمارة الإسلامية، فمواصفاته فريدة مميزة قد اكتسبها خلال قرون من الازدهار والتألق الحضاري.

هذه الثروة من البيوت الدمشقية تحتاج منا إلى وقفة تأملية، كيف نشأت ولماذا فاقت شهرتها البلاد؟

ندعوكم لجولة سياحية فيها كثير من التأمل لأخذ العبرة والعظة، فالمسلم الفعال هو الذي لا يفوت معلومة من دون تدبر وتفقه، فذلك من الخير الكثير له ولمن حوله...

بعد أن تجولنا في حارات وأزقة دمشق الرائعة، لامست شغاف قلوبنا نسائم إيمانية رائعة انبعثت من البيوت الشامية الدمشقية التي أسست على طهارة أرض ونفوس، ودلت على روعة ذلك الدمشقي الذي سكنها وعمرها بأحسن عمارة يحبها الله ورسوله... فهلاً لبئتم دعوتنا بوقفة تأمل يريدنا منا نبينا العدنان...؟

البيت الدمشقي الشامي، بشكل عام، مغلق من الخارج ومفتوح من الداخل بفسحة سماوية تتوسطها بركة ماء بزرع من مختلف الورود والأشجار، ويتألف هذا البيت من قسمين: البراني للضيوف، والجواني مستور لأهل البيت... وسيكون لنا جولة بين بيوت هي أمثلة لبيوت عدة لا نعرفها ولكنها معروفة عند الملائكة بالطهارة ونظافة البنيان والنفوس، فهذه العلاقة المقدسة هي علامة بيوت أهل الشام....

ومن أشهر البيوت الشامية المسجلة لدى مديرية الآثار والمتاحف: بيت السقا أميني، وبيت الحلواني، بيت السباعي، بيت نظام، بيت جبري، بيت العظم...

هيا يا إخوتي نستذكر ما غاب عن أذهاننا فغفلنا عن قيمة الأرض التي أكرمنا الله بسكنائها، دمشق أم الشام... ولنتحول معاً بين أرجاء بيت شامي قديم كبير، يدعى (قصر العظم) نسبة لصاحبه

خالد العظم، ويعود إلى قبل مئتي سنة، نقف عند بعض النسمات التي قد فاحت منه لتدل على جمال
أرواح الشاميين، مبتغين الفائدة والمتعة معاً...



أولاً. قصر العظم: مكانه بين الجامع الأموي وسوق البزورية، بُني سنة 1163/1749، وهو اليوم متحف للتقاليد الشعبية، فقد قامت مديرية الآثار بتسجيل عدد من هذه البيوت في عداد المباني الأثرية لحفظها من الهدم والخراب. ثم باشرت المديرية بأعمال الترميم ليكون هذا البيت نموذجاً للبيت الدمشقي العريق. وتأتي شهرته من غناه بأنواع الزخرفة العربية والحوّ الشرقي الأصيل المتجلي فيه، ممثلاً حصيلة ما أبدعته الحضارات التي عرفتها مدينة دمشق... وإذا وقف السائح من باحة القصر عند الباب تملكته الحيرة أين يقلّب نظريه بين الواجهات والجدران المزخرفة من الأعلى إلى الأسفل بمداميك ملونة بالتناوب، وبأشرطة منقوشة، وأحجار مرصعة.



وينعكس الهدوء والسكينة على النفوس الزائرة التي تبتغي
الفائدة من جمالٍ وجلالٍ وذكرٍ للرحمن محفور على الجدران،
فقد كُتِبَ عليها بأيدي قد كانت لله عاشقة وللعباد داعية
أن هلمّوا كي نرتشف من رحيق الإيمان....



وصف البيت:

يتألف البيت من ثلاثة أقسام وهي:

*القسم الخارجي: وهو قسم حديث كان داراً قديمة تطل على الجادة الرئيسية، اشتراها (خالد العظم) ليعمّرها فتصبح مدخلاً لداره، وتكون القسم البرزاني للدار.

*الباحة: وهي واسعة جداً، تضم عدداً من الأحواض المزروعة بأغراس الشمشير والورود وعرائس الياسمين، وأشجار النخيل والمنوليا والليمون والكباد، رُصفت أرضيتها بخيوط من الحجر البركاني الأسود، متداخلة مع خيوط من الحجر المزي الأزهر، فيها بجزرتان، والجدران مكسوّة بمداميك من الحجر الأسود بالتناوب مع الأزهر، يعلوها إطار من التزيينات الهندسية.

*الإيوان: يقع في الناحية الجنوبية من الباحة بين قاعتين أثريتين، قاعة جنوبية غربية وقاعة جنوبية شرقية، سقفها مرتفع يعادل طابقين، وزخارف القاعة كُتبت عليها بخط جميل أبياتٌ من قصيدة البردة للبوصيري:



مزجت أمن تذكر جيران بذي سلم
دمعا جرى من مقلة بدم
والنفس كالطفل إن تململه شب على
حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم
فاصرف هواها وحازر أن توليه إن
الهوى ما تولى يصم أو يصم
القاعة الشرقية: فوق القبو، ولها سقف
مؤلف من ثلاثة أقسام: الخشب المحفور
المزخرف وفي الوسط المرايا ثم النوافذ الخشبية
المزخرفة.

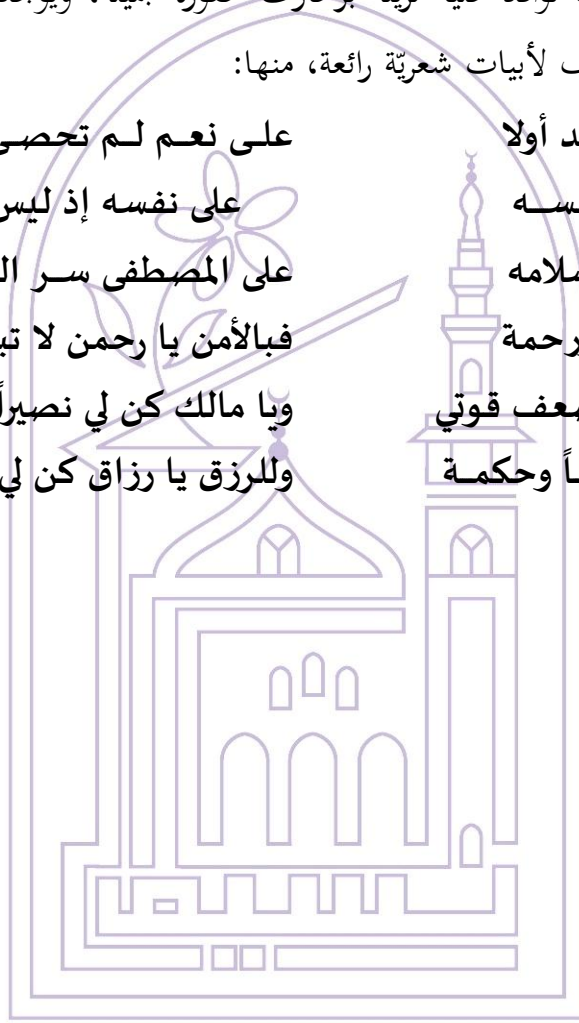


القاعة الشمالية الشرقية: حديقة الطراز، وقاعة شمالية غربية: في أعالي جدرانها كُتِبَ عليها من قصيدة البردة:

ومن يكن رسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها نجم
فالله حافظه من كل منتقم

ولهذه القاعات الثلاث نوافذ عليا مزينة بزخارف محفورة جميلة، ويوجد غرفة صغيرة من الناحية الشمالية، تجدها عليها زخارف لأبيات شعرية رائعة، منها:

بدأت ببسم الله والحمد أولاً	على نعم لم تحصي فيما تنزلا
فمنها ثناء للإله بنفسه	على نفسه إذ ليس يحصيه من تلا
ومنها صلاة الله ثم سلامه	على المصطفى سر الوجود المكمل
فنسألك اللهم أمنا ورحمة	فبالأمن يا رحمن لا تبقي مؤجلا
وكن يا رحيماً راحماً ضعفت قوتي	ويا مالك كن لي نصيراً وموثلاً
وهب لي يا وهّاب علماً وحكمة	وللرزق يا رزاق كن لي منهل





أخي القارئ:

إن الداخل لقصر العظم لا يملّ من التجول فيه والاستمتاع بتأمل محاسنه، فهو يعدّ مفخرة للشاميين
الدمشقيين الذين حفظوا عهد الله ورسوله، وجعلوا أرضهم المباركة تستنطق الغريب عن دمشق بقوله:
ما أروع نفوسكم أيها الشاميون، لا بل ما أجمل أرواحكم التي تنادي علينا للتمتع بهذا الجمال والجلال
المتجلّي في هذا المكان... طبتم وطابت مسيرتكم في ترسيخ معالم إسلامنا الجميل.
ولم تنتهي جولتنا بعد ما بين البيوت الشامية الدمشقية فانتظرونا.....



ملاحظة: الصور من أرشيف مكتب عنبر وجزى الله القائمين عليه خير الجزاء.

البيوت الدمشقية الشامية (3)

نسائهما تجمع بين الشاميين...

بلاد الشام لها من الفضائل ما مُلئت بها كتب "فضائل المدن"، ومدينة دمشق من أكثر المدن شهرة في مدن الشام، برجالتها وغطوتها ومساجدها ومدارسها وبيوتها التي تربى فيها خيرة العلماء والقادة الشجعان والأدباء.... ولا زالت تتتابع فيها قوافل الأختيار...

وقد أنعم الله عليها، بالإضافة إلى أنها رابع مدينة مقدسة، بأن حباها عز وجل بجمال المنظر وعضوبة الماء ولطف الهواء ورقة السكان في حسن معاشرتهم التي قد وُصفت منذ عهد من الزمان، والذين نالوا شرف وصف المصطفى لهم: ((...الذين يألفون ويؤلفون...)).

فهي معاً في رحاب قدسية طاهرة تُحيي النفوس التي فترت وتكاسلت بعد غفلة قد داهمتنا على حين غرة، نستلهم العبرة والعظة من أسباب شهرة البيوت الشامية التي تحاكي الكينونة الإنسانية الطاهرة السليمة النوايا...

إخوتي القراء:

مدينة دمشق تمتلك مجموعة من المباني التاريخية التي تشاهد موزعةً داخل أو خارج أسوارها في مناطق التوسع التي نشأت كضواح خارج المدينة القديمة ثم ألحقت بالمدينة، فتجد أيها الشاميّ الدمشقيّ قد لاح في سماء الشام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾... أتقاكم.... أتقاكم!

كنا قد تجولنا معاً بالأمس في قصر العظم، والذي يعد نموذجاً رائعاً للبيت الشامي المميز بثلاث أجنحة رئيسية (للرجال والنساء والخدم)، والذي يعكس لنا ثقافة دينية اجتماعية رائعة....

والآن سنأخذكم في جولة سياحية ممتعة في بيتين يعود تاريخهما إلى حوالي مئتي سنة: (بيت السباعي وبيت نظام)، وفي الشام بيوت أخرى عُرفت فيما بعد باسم "البيت العربي"، قد وصفها العمريّ في "مسالك الإبصار": "وبها الديار الجليلة المذهبة السقوف، المفروشة بالرخام.... ذات البرك والماء الجاري، يجري الماء في الدار الواحدة في أماكن منها".

والشيخ **علي الطنطاوي** - رحمه الله - يدعونا لتذوق جمال وجلال هذه البيوت، فقال: (.... فامش إليها وادخل دورها، وجالس أهلها، تقرأ تاريخ المجد في صفحات من دور ووجوه وعادات، وترى بقايا الحضارات من لدن نوح قد استقرت فيها، ففي كل بقعة منها تاريخ، وكل حجر منها يتلو من سور الجلال آيات، فإذا أردت أن تعرفها وتصل إليها، فاحرج من نزل بني أمية وعرج على منازل علماء الأمس، فقد كانت هذه المنازل مدارس وكانت جامعات، وكانت منابر هدى للناس، وكانت هي دعائم نهضتنا، ثم ولج تلك الدور وشاهد تلك القاعات وهذه الزخارف والنقوش والبرك والنوافير، ففيه أخذ الأندلسيون هندسية هاتيك القصور، وقف خاشعاً متذكراً معتبراً، فهذه المنازل بالأمس كانت جامعات لعلماء الهدى والعلم)).

أيها السائح دمشقي الشامي، فلتبينا، وقف معنا في محراب "العبرة والعظة" من قوله تعالى: ﴿...لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾....

سائحي وأهالي الشام الكرام: تحدثنا في المرة السابقة عن ضرورة تذوق جمال البيوت الشامية الذي يعكس لنا اهتمامهم منذ الأزل ببيوت تُؤسس على تقوى من الله، تبدأ بالطهارة والنظافة المعنوية، فالماء والصابون والروائح الطيبة التي تفوح من جدران الدار منادية على المارة ليتمتعوا ويسبحوا الخالق ويوحّدوه ويمجّدوه...



وفي أرض الدار يجتمع الجدّ والأب والأبناء والأحفاد، تحت سقف واحد، يتعلمون كيف يكون إعمار الإنسان؟ ولن يكون إلا بما يرتضيه لنا رب الأكوان... فليست العبرة بألوان مزركشة، وإنما بأرواح

ونفوس طاهرة رضيّة... فعندما نرى الأرواح قد سكنت وهدأت لا بل وطربت ووقفت عند رؤية الجمال والجلال في منظرٍ هو في الأصل منسدلٌ من جمال وجلال خالق الخلق رب العباد، فتلك هي الأرواح الطاهرة!

فمتى ندرك ونحن نتمتع ونمرح في سكون وانتعاش داخل جدران مزركشة ومزينة أن الأرض وما فيها يرثها رب الأكوان؟؟

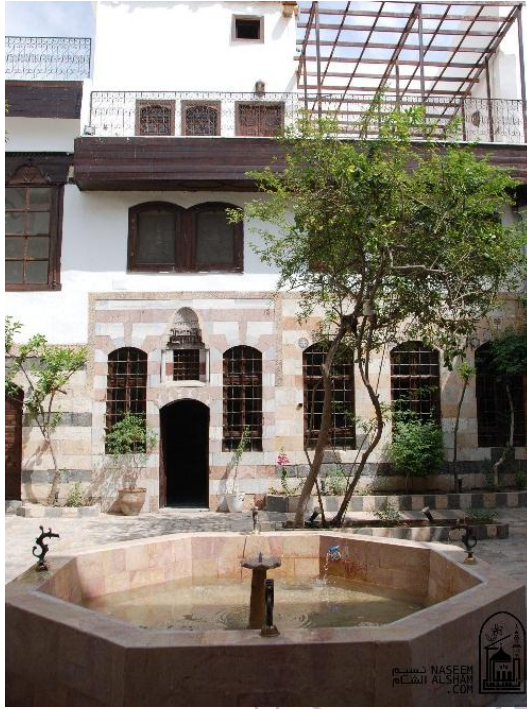
وإن السائح المعبر المتأمل تجذبه نسمات حضارية منبثة من هذه البيوت بفضول محمود، ليعرف ما وراء الأبواب المغلقة؟

ومديرية الآثار والمتاحف قد فتحت المجال، مشكورة، للسائح ليعرف، ففتحت بيت العظم... وجعلته متحفاً للتقاليد الشعبية ليرى فيه النموذج الدمشقي الرائع... وهناك بعض البيوت المسجلة في مديرية الآثار تعدّ أيضاً نموذجاً للبيت الدمشقي: بيت السباعي الكائن في محلة الدقاين ويعود ل عام 1187هجري، وبيت نظام...

بيت السباعي:



نموذج رائع للبيت العربي في البناء والنمط الزخرفي، يعود للقرن الثامن عشر، مساحته 1500 متر مربع، ويضم قاعتين رئيسيتين مع غرف من الخشب المدهون الملون...



وتضم زحارف نباتية رائعة من الزهور والورد الدمشقي، وفي وسط الفسحة العديد من الأشجار أهمها شجر النارج التي يفوح عطرها برائحة مميزة، إضافة إلى شجر الليمون والكتّاد والياسمين والورد الجوري، وهي أنواع تختص بها دمشق، فليست الصدفة أنها سُمّيت "مدينة الفيحاء" أو "الياسمين".





بيت نظام:



يعود إلى عام 1217 هجري، تبلغ مساحته 2500 متر مربع، ويضم ثلاث باحات، أجملها (الباحة الوسطى) التي تضم قاعتين من أجمل قاعات دمشق، وهي مزيج رائع من الفنون الزخرفية على الخشب والرخام والحجر،



أما القاعة الثانية فهي (قاعة العنب)، وتضم خزائن وكتيبات خشبية مدهونة بلون الذهب، وزخارفها على شكل عناقيد العنب وأوراقه! تشكل هذه الدار متحفاً للفنون المعمارية الدمشقية بزخارفها الرائعة النافرة والغائرة، والتعشيق على الخشب المحفور، إضافة إلى زخارف عجمية... أما



أرضيات الدار فهي من الحجر المتناوب، وبجراتها من أحجار دمشق وقاسيون، وأزهارها وأشجارها انعكاس للغوطة الغناء.

إخوتي الكرام القاطنين دمشق والشام:

لقد كانت ولا زالت أرضكم مباركة مقدّسة عند الله ورسوله، ولذلك فهي مقصد آلاف الناس من مختلف البلدان، لمشاهدة حارات وبيوت شامية، عنوانها أخلاق محمدية راقية ونفوس صافية... فاشكروا ولا تكفروا بنعمة أنعمها علينا المولى، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ماذا حصل كي ننسى الهدف والغاية التي خلقنا لأجلها ربنا العزيز الجبار؟

إنه نفق الغفلة والبُعد عن الله، والتعلّق بالدنيا من قشورها، ونسيان فضل الله وشكره وحمده.... نرجو من الله أن نحقق وإياكم من خلال هذه الزاوية تلمّس المعاني الحقيقية لعمارة الأرض، والتي تبدأ بعمارة النفس بالخير والسلام...

اقرأ بتبصّر وتأمّل، تجد روحك قد ناشدت المولى مغفرةً من طول البعد عن قصده... استدرك ولا تشارك أحداً بالندم أو الحسرة والآهات... واستمع للمؤرّخ البدرى الدمشقي المصريّ، مؤرّخ القرن التاسع للهجرة، حيث قال في "محاسن الشام": (... سبحانه أوجد بها أجناساً ذات أنواع تُسقى بماء واحد، وقدّس أرضها إذ هي مرتعٌ لأصفياؤها، وحبّابها لسكنى الأنبياء، واختارها موطناً لعباده الأولياء.....

وليس بتزويق اللسان وصوغه ولكنه ما خالط اللحم والدماء....

غير إني رميت منها بعد الوصل بقطيعة صدها، كأني أذبتني حالة القرب فأدبتني بهجرها وبعدها

عشنا زمانا وليس الوصل يقنعنا واليوم أدنى خيال منك يرضينا

أخي السائح المعتر المتعظ: فلتمتع الروح بالحمد والشكر، والعقل بالمعرفة التاريخية، والجسد بالحركة

التي يحتاجها الجسم من كل وقت وحين، كي تتألف قواك وتتوازن، وانظر في قوله تعالى: ﴿...﴾

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٠٠﴾

البيوت الدمشقية الشامية (4)

نسائهما تجمع بين الشاميين...

"وأرى دمشق كأنها طائر حط ليستريح، جسده وسط السور وجناحاه ممتدان إلى ميدان الحصى، وحي المهاجرين، أو كأنها عروس أتعبتها حفلة الزفاف فنامت: رأسها على ركبتي قاسيون وقدمها في قرية القدم وقلبها حيال قلب البلد الذي يهفو إليه كل مسلم، وهو الجامع الأموي.. والقرى في الغوطة متوارية من الحياء وسط الأشجار، تتستر بها حتى لا ترى تخشى أن تلمحها عيون الرجال... فدمشق هي الحياة الحب والحب حياتي".

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

ويقول البدرى "رحمه الله" في كتابه (زهة الأنام في محاسن الشام):
(أي والله...)

وما قلت أيه بعدها لمحدث	من الناس إقال قلبي أها
أستغفر الله هي مسقط رأسي ومجمع	أهلي وناسي وملعب خلاني وإخواني
سقا الله شاما كان فيها اجتماعنا	بأحبابنا الناءين مغدوقا سكبا
منازل أحبابي ومربع جيرتي	وأوطان إخواني ومن كان لي تريا
لعمري لئن شط المزار أصبحت	منازلهم شرقا ومنازلنا غربا
فإني على بعد الديار وقربها	أسرلهم حبا وأبدي لهم حبا
عسى ما مضى من شملنا أن نعيده	ونصبح في أفق ونمسي به شهبأ

فأجبتك أيها السائل إذ هيجت عندي من الدموع بحور الاشتياق، وواسيتك أيها العاشق إذ أتيتك
بحبر المعشوق، ولعل الخبر يكون وصله في التلاق، وقد فصلته لك في هذه الأوراق).

فلتمش أيها السائح فوق أرض دمشق مشية خاشع متواضع لله، شاكرًا له أن اجتباك فأقامك
فيها، تسعى لإعمارها بما يجب ويرضى، فنصيحة النبي الكريم للصحابة في قوله: ﴿عليكم بالشام فإنها
خيرة بلاده من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده﴾، لدليل على أهمية أرض الشام، ومن المؤكد أنه
يُسكنها خيرة القائمين بما يجب الله ورسوله.

ويا أسفي! إذ ضيع أهل الشام عنواهم في الحب والصدق وفعل الخير.. أين هم الشاميون الذين نالوا شرف مديح نبينهم لهم؟ وأين هم من مساجدهم التي تركوها مهجورة تبكي الإعراض عنها لفراقٍ مبعثه الأهواء والأحقاد؟



(انظر إلى هؤلاء اليوم وأستحضر حالهم بشفقة، وأحاول أن اعتمر ذهني لأتخيل مشاعرهم وقد فرج الله سبحانه وتعالى عن البلاد والعباد فعادو إلى بلدهم - بعد أن تنكروا له - ليحتضنهم من جديد...)

ترى.. ما جوابهم لأبناء وطنهم الذين واجهوا الموت وشطف العيش نيابة عنهم؟ ترى ما جوابهم للشهداء الذين تركوهم وحيدون يبذلون دماءهم واكتفوا بتتبع أخبارهم من خلال الشاشات؟

ترى هل سيستسيغ أحدهم فاكهة الشام التي سقيت بدماء الشهداء بعد اليوم، أم ستغصُّ بها حلوقهم؟)

بقلم منتصر عبد الدائم/ إلى من يريدون قطف ثمار لم يزرعوها
أستغفر الله من ذنوب نعلمها وذنوب لا نعلمها... فقد كان الحب مصدر وسر حياة أهل الشام!
سلوا عنا الإنسانية، فنحن من كنا نعلم الناس القيم والمثل من منهج خير البرية.....

ولنمض معاً أيها الأخوة الكرام في رحلة رائعة، ندع فيها الروح والفؤاد يتلمس أروع النسمات.. ولنسأل المولى عن نية غفلنا عنها في كيفية إعمار الشام، ودع عنك رمي مسؤولياتك على عاتق غيرك...

لنطرق معاً باب المعرفة والمتعة متجهين لزيارة بيت "دمشقي شامي"، تغمرنا نسمات حب التعلم والمعرفة، ولساننا يلهج بالدعاء لمن نحب أو لا نحب... فأن تحب لغيرك ما تحب لنفسك هو "عنوان أهل الشام"، توارثوه من سلفهم الصالح المرسخ لمنهج النبوة المحمدي فوق هذه الأرض المباركة. ولنبدأ من أول تفاصيل هذا البيت، من ممر ندخل منه للبيت الدمشقي.. والذي يسمى "الغوطة"، ولا عجب إذ ترى الشامي المسلم يدخل برجله اليمنى مردداً قوله: "باسم الله" ثم "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ففي ذلك وصل واتصال واتباع لسيد البرية. ثم امش.. تصل إلى فسحة مفتوحة إلى السماء، تدفعك لذكر الله بقولك: "سبحان الله"، حيث تجد الأشجار والنباتات والزهور والورود الشامية، كقطعة من الغوطة، تنتظرك مستقبلة إياك لتردد "الحمد لله"، فبالحمد والشكر تزيد النعم، واحذر أن تشغل بالتمتع عن شكره تعالى فتنسى منعم هذه النعم القادر...



ثم تابع تجد ما يسمى "الليولن" وغرف الضيافة والاستقبال، وقد جعل الشاميون من مواعيد ضيافتهم مجلس ذكر لله ومدارسة لحديث رسول الله، أما مواعيد الغيبة والنميمة والسخرية التي نراها اليوم، فهي باب موصول بالشیطان يبعدك عن مقاصد الشريعة في إعمار الأرض والإنسان بالخير...



ثم امضِ تجد منشر الغسيل،
ويسمى "المشرفة"، فقد شاع
في دمشق استخدام الشرفات
المطلّة على الحارات من الأعلى
بنوافذ واسعة... أما عن وسيلة
التدفئة في البيت الشامي، فقد
كانت موقداً نحاسياً أو حديدياً
يُملأ فحمًا ويوقد خارج البيت إلى
أن يتطاير منه الغاز ليؤتى به إلى
الغرفة للتدفئة...



كما تجد الروائح العطرة الزكية التي تفوح من
شجر الياسمين والتوت والليمون والبرتقال، تدعو من
أدبر عن عبادة التأمل والتفكير أن يُقبل على المولى
بالإنابة والترديد: ما أحلى الرجوع إليه!

ويلاحظ اهتمام أهل دمشق بالزخرفة والزينة،



يسبقها زينة
في القلب بنية
طيبة وابتساماً
يؤجرون
عليها.. فقد
أفرزت هذه



البيوت قيماً أخلاقية حضارية مُستقاة من السنة المطهرة الشريفة، فهي مصدر جمال بني الإنسان.



فكن طيب النفس في نيتك مع الخلق مهما كان خلافك معهم.. واجعل من الدعاء بسريرة صافية لك ولهم عنواناً لحياتك، فلا يليق بأرض الشام التي أنت من أهلها إلا الصفاء والنقاء، وكن ممن قال فيهم المصطفى: ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾ قد ظلت هذه البيوت وحرارتها تعيش بسكينة واطمئنان، إلى أن تحول مع الأيام هذا الجوهر الثمين من العنوان إلى أمر ثانوي لا يؤبه له، ويصبح الأساس هو حب الذات والانتصار للنفس وهواها بأشكال وتدابير شتى، وليستبدل

الشاميون قيمهم الأخلاقية المحمدية بجلسات لإضاعة الوقت، حيث جعلوا من التلفاز مصدر شرعهم فعطلوا العقل والهمة ونسوا كتاب الله وأن أول ما نزل من كلام الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، وبدأ الخلل بين قيم ومبادئ أصيلة اشتهر بها أهل الشام، وبين أعراف وتقاليد بالية مبعثها هوى النفس، لا يردعها أو يخفف من حدة شرها إلا مراجعة مستمرة مع الخالق... وانشغل الشاميون بالمسلسلات وثقافة الانتقام ومكائد الكنة والحماة، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً... ﴾

هذا وإن من الألفاظ الإلهية أن جعل الله عز وجل أطفاه تتزايد في شهر مبارك ميزه المولى بروحانية رائعة لا يشعر بها إلا من قصد نسائمها الايمانية بالعمل الصالح والقول النافع، ألا وهو شهر



رمضان، فقد قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه﴾

فاحذر أيها الشامي من مكيدة المسلسلات التي تُحاك في هذا الشهر الفضيل، واجتهد بأن تكون حيث يريدك نبيك وربك جل جلاله... فدمشق والشام تتفرد عن بقية مدن العالم بعبادات وتقاليد ترغب في طلب الرضى من المولى بصنوف وأنواع من الوسائل الراقية، فمصدرها حب الخير لكل الناس.. لأن أحبهم إلى الله أنفعهم إلى عياله...

هذه المسلسلات تريد أن تُقصينا عن التعرض لنسمات روحانية إيمانية قادمة إلينا من فوق سبع سماوات، ترشدنا لما يرضي الله ورسوله، وتسلب منا مشاعر وأحاسيس محفزة نحن بحاجة لرسم أحداث حياتنا ولتشوش علينا فنعيش مشغولي البال...

ألا واسألوا أسلافنا الذين عايشوا أحداث دمشق في مطلع القرن العشرين، كيف أولوا المناسبات الدينية اهتماماً كبيراً، فهم يستقبلون العام الهجري بالتضرع والدعاء، ويُعدّون أكلة بياض - رز بالحليب مثلاً- في أول شهر محرم، وفي أشهر رجب وشعبان ورمضان تكثر الطاعات لله تعالى، كما تكثر حلقات الأذكار والأوراد وزيارة قبور الصالحين.. وفي ليلتي الإسراء والمعراج والنصف من شعبان يجري الاحتفال بقراءة مولد النبي صلى الله عليه وسلم في الكثير من المساجد والبيوت.. وقبل رمضان بأيام، كانوا يقومون بنزهات إلى الغوطة والربوة ويسموونها "تكريزة رمضان" لوداع أيامهم العادية والإعلان عن الدخول في شهر المنافسات الإيمانية، ويبدأ الشهر المبارك بإثبات رؤية الهلال وإضاءة قناديل المآذن، لتنعكس روحانية الشهر فيقبل الناس على الطاعات في المساجد والبيوت بحب واشتياق، مهللين مكبرين فرحين، فمنهم من يصلي التراويح بتلاوة جزء كامل من القرآن ومنهم من يصلي في كل ليلة بختمة كاملة.. ويبلغ الاحتفاء ذروته بإحياء ليلة القدر... ولا ننسى "المسحراتي"، فلكل حي مسحّر مزود بالطبلة والفانوس والسلة، ينقر ويوقظ مردداً عبارات يُدكر الناس بها بالله وبما عليهم حيال الفقراء..





لكن عندما شاعت المسلسلات في شهر التقوى والإيمان، شُغل الناس بتفاصيل سلبية فردية لا يخلو مجتمع منها، ولا حتى في عصر النبوة، بل يكون الأجر والثواب على قدر المشقة في مجاهدة النفس للوصول إلى ما يريد منا سيد الخلق.

وها هو الشهيد السعيد علامة العالم الإسلامي، الذي قدم روحه فداء نصيحته الصادقة المخلصة للشام وأهل الشام، يردد في آذاننا ناصحاً محذراً في إحدى خطبه: "هناك مكيدة تُحاك لهذه الأمة ولعباد الله الصالحين خلال أحد عشر شهراً من العام، يعكف أهل هذه المكيدة من شياطين الأنس والجن على حبكها من أجل أن تُصب في هذا الشهر الكريم، ألا فاحذروا على أنفسكم من هذه المكيدة... ليقطعوا عباد الله عز وجل من التعرض لواجبات وآداب هذا الشهر المبارك ومن ثم ليتعرضوا لسخط الله، إن مكيدة المسلسلات التي تُصاغ خلال العام من أجل صبها في هذا الشهر، من أجل جعلها حجاباً يحجب المسلم في هذا الشهر عن الله عز وجل، ليبيء بسخط من الله بدلاً من أن ينال الأجر العظيم.. ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً.. فلا تنسيكم المسلسلات ذكر الله والإقبال على رحمته، فتنحول إلى سخط من الله عز وجل.. قاطعوا هذه المسلسلات فإقبالكم عليها هو سر نجاحها.. مما يستنزل غضب الله وسخطه، لا تسرفوا على أنفسكم وتوبوا إلى الله بكثرة الالتجاء إليه.. فلا تكونوا من المطرودين من رحمته، إياكم، إياكم".

إخوتي القراء:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها﴾، فالمنطق السليم يصدق: ألا فلتعرضوا لنفحاته بالآداب المطلوبة في هذا الشهر، واجتهدوا باجتناّب كل وصف يباعدنا عن رضاه.

مرحباً بشهر الرحمة الغفران والعتق من النار، زينوا بيوتكم ومنازلكم بنية العود الحميد لله، مرددين: أهلاً رمضان، عيد القلوب السليمة والأرواح الطاهرة النقية..

فصيام الشهر استجابة للمولى تُكسب صاحبها صفة التقوى، والتقوى لا تأتي بمجرد الإمساك عن الطعام والشراب، وإنما بأمور أخرى تقتضي النية الخالصة وحفظ اللسان والقلب: ﴿كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر﴾
لنتمنّ فيما كتب شيخنا الطنطاوي . رحمه الله . الذي قدم الشام ودمشق مع والده من طنطا بمصر فعشقها وكتب ذكريات رائعة عنها، وها هو يقول:
(يا مَنْ في دمشق:

تنشّقوا عبير الخلود من دمشق، فما تلقون إن فارقتموها مثلها، مثل ميزاتها... وهذي المنارات وهذه القباب، والمسجد الذي تكسرت على جدرانها أمواج القرون وهو قائم وارتدت عنه العصور وهو شامخ، يروي لأبناء الأرض تاريخ الأرض مذ كان معبداً وثنياً إلى أن صار كنيسة وإلى أن غدا جامعاً إسلامياً، فترفقوا في سيركم على تراها، فإن تحت كل حجر تاريخ بطولة.. فالجنان في غوطتها، والأنهار في ربوتها، والسهل في مزّتها، والبساتين تحف بها.... فتأمل أيها الدمشقي وانظر كيف آل الأمر عندما بالغنا في الاهتمام بالمظهر أكثر من الجوهر).

متى يا زمان يعود بلدي دار السلام والجمال والجلال، يجذب إليه أهل البر والصدق والوفاء؟؟؟
هيا يا إخوتي نجدّد النية خالصة نقية، ونجعل رضى الله ورسوله فوق أي اعتبار...
فلنستشعر قدسية خطاب الله ورسوله في أهمية إصلاح البيوت والمجتمعات بإصلاح النفس ومجاهدة هواها، وليكن بابنا إلى الله تعالى هو رسول الله، ومفتاح الوصول لرسول الله كثرة الصلاة والسلام عليه...

هيا نجدّد العهد مع الله ما دام في الأنفاس بقية، لتندارك النعيم الذي ورثناه عن صفوة الشام الذين سطوروا أروع السير، وإن من أراد الجمال والجلال، فإن الأخلاق النبوية تكفيه خير سبيل..

ولنتعلم يا إخواني من العارف بالله، أبي يزيد البسطامي، الذي قدم دمشق عاشقاً لأحاديث المصطفى، إذ يقول: ﴿لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره﴾!

ها هو شهر الخير والبركات يهّل علينا ضيفاً، ينتظر منا الإقبال عليه بحب واشتياق وتعظيم، فلنستقبله بزينة التقى والتعظيم لله وما أنزل على نبيه، ولنتدارك الأيام فهي مستمرة بالمضي والفناء... ولنكثر من الاستغفار والتوبة بوعي وإخلاص، من قسوة قلب قد لامستنا فهوّنت علينا الذنوب والمعاصي وهجر شخصية النبي في بيوتنا...

وإن أول الخلاص، نبذ الجهل بمنهج نبينا العظيم، ذاك المنهج الذي جعل من الخلوّة مع حفظ اللسان سرّاً من أسرار نبوّته، ولننبذ تداول الشائعات والقيّل والقال وفاحش الكلام... ففي قول نبينا لمعاذ بن جبل حكمة منشودة لنا، حيث قال: ﴿..وهل يُكبّ الناس على وجوههم في النار إلا من حصاد ألسنتهم﴾.

فاجعل، أيها الشامي، يا مَنْ جمعت في قلبك حب الله ورسوله، اجعل من لسانك الحصن الذي يعرف أين يقف ومتى يسكت خشية الانزلاق في غيبة أو نعمة يزيناها له الشيطان بحجج وحجج.. فلنغتتم قبل أن تغتتمنا زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير وأبقى، ولتردّد في نفسك:

وكم بالشام من شرف وفضل ومرتقب لدى بر وبحر
بلاد بارك الرحمن فيها فقدسها على علم وخبر

إن السعي لنهضة حقيقية في الأرض تبدأ بك أنت أيها الإنسان، ومن داخل نفسك... ففي قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ دليل على أن الإنسان سيحاول اختلاق أعذار وأعذار... ولا خلاص إلا بالتخلص من تيهنا عن معرفة ذواتنا البشرية، فما نحن إلا ضيوف وعبيد على هذه الأرض، وبين أيدينا الأمور المادية التي قد سخرها الله لنا كما قد وجهنا على الخير ودلنا إليه.... فأحسن ولا تتبع الهوى فتضلّ وتشقى وتُشقى من حولك.

المصادر والمراجع:

. تاريخ دمشق / لابن عساكر



- . نزهة الأنام / للبدري
- . ذكريات / للطنطاوي
- . دمشق تراثها / للريحاوي
- . الحوليات الأثرية / لمديرية الآثار والمتاحف



تاريخ بناء مدينة دمشق

إخوتي القراء:

تعد مدينة (دمشق) من أكثر مدن العالم تميزاً، بما حباها الله عز وجل، من خاصية مُشرفة، تترجم منها الصورة السامية للحضارة العربية والإسلامية معاً. والسبيل الأمثل إلى تلمس هذه الصورة، هو معرفة تاريخ بناء مدينة (دمشق) أولاً، ثم أبوابها، أسواقها، أسوارها، منازلها، مساجدها،.....

أقوال في تسمية دمشق ونشأتها:

. قال ابن عساكر: في تاريخ مدينة دمشق. وابن منظور في محاسن الشام. إن أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران (وحران هي قرية بالجزيرة على طريق الموصل والشام والروم، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان) ودمشق ثم بابل. والرواية الثانية: لما هبط نوح من السفينة وأشرف من جبل حسمى رأى تل حران بين نهرين (جلاب وديسان) فأتى حران فخطها ثم أتى دمشق فخطها فكانت حران أول مدينة حُطت بعد الطوفان ثم دمشق.

. وقال الرازي: أن الله بعث لأصحاب الرس نبياً يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح فنزل بالأحقاف، وأهلك الله تعالى أصحاب الرس وانتسبوا ولد عاد في اليمن كله، وفشوا مع ذلك في الأرض حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بدمشق وهي مدينتها، وسماها جيرون وهي إرم ذات العماد، فبعث الله تعالى هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح نبياً إلى عاد يعني إلى أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه فأهلكهم الله تعالى.

. عن وهب بن منية قال: ودمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل وكان حبشياً وهبه له نمrod بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسم الغلام دمشق فسمها على اسمه، وذلك بعد الغرق. وكان إبراهيم عليه السلام جعله على كل شيء، وسكنها الروم بعد ذلك بزمان.

. وقالوا: كان في زمان مُعاوية بن أبي سفيان رجل صالح بدمشق من المعوزين وكان يقصده الخضر عليه السلام في أوقات يأتيه فيها فبلغ معاوية بن أبي سفيان ذلك. فجاء إليه وقال: بلغني أن الخضر ينقطع إليك، فأحب أن تجمع بيني وبينه عندك فقال له: نعم فجاءه الخضر على الرسم، فسأله الرجل ذلك، فأبى عليه وقال: ليس إلا ذلك سبيل. فعرف الرجل ذلك إلى معاوية فقال: قل له: قد قعدنا مع من هو خير منك وحدثناه وخاطبناه وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وكلف أسأله عن إبتداء بناء دمشق كيف كان فقال: نعم صرت إليها رأيت موضعها بجرماً مُستجمعاً فيه المياه ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها فرأيتها غيضة، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ثم صرت إليها فرأيتها بجرماً كعادتها الأولى، ثم غبت عنها خمسمائة عام وصرت إليها فرأيتها قد ابتداء فيها البناء ونفراً يسيراً فيها.

. وقيل أنه لما رجع ذو القرنين من المشرق وعمل السد بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج وسار يريد المغرب، فلما أن بلغ الشام وصعد على عقبة دُمر أبصر هذا الموضع الذي فيه اليوم مدينة دمشق. وكان هذا الوادي الذي يجري فيه نهر دمشق غيضة أرز. والأرزة التي وقعت في سنة ثلاثمائة وثلاث عشرة من بقايا تلك الغيضة. فلما نظر ذو القرنين إلى تلك الغيضة وكان هذا الماء الذي في هذه الأنهار اليوم مفترقاً مجتمعاً في واد واحد. فأخذ ذو القرنين يتفكر كيف يبني فيه مدينة. وكان له غلام يقال له دمشقيين، قال له ذو القرنين: ارجع إلى الموضع الذي فيه الأرز، فاقطع ذلك الشجر وابن على حافة الوادي مدينة وسمّها (دمشق) على اسمك، فهناك يصلح أن يكون مدينة، وهذا الموضع بحرهما ومنه ميرتها يعني (البثينة وهوران)، فرجع دمشقيين ورسم المدينة وبنائها وعمل لها حصناً. والمدينة التي كانت رسم دمشقيين هي المدينة الداخلة، وعمل لها ثلاثة أبواب: جيرون مع ثلاثة أبواب البريد مع باب الحديد الذي في سوق الأسالفة، مع باب الفراديس الداخلة. هذه كانت المدينة، إذا أغلقت هذه الأبواب فقد أغلقت المدينة. وخارج هذه الأبواب كان مرعى، فبناها دمشق وسكنها ومات فيها وكان قد بنى هذا الموضع الذي هو المسجد الجامع اليوم كنيسة يعبد الله تعالى فيها إلى أن مات، وقيل: أن الذي بنى الكنيسة اليونان، وقيل: بل وسعوها.

. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى زُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي دمشق

ذات قرار وذات رخاء من العيش وسعة ومعين كثيرة الماء،

. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَالْتَيْنِ﴾ قال: الجبل الذي عليه دمشق، ﴿وَالزَيْتُونِ﴾: الجبل الذي عليه بيت المقدس، ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾: شعب حسن، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: مكة، وقيل: ﴿إِرَمَ دَاتِ الْعِمَادِ﴾: دمشق.

. وفي الأخبار: أن إبراهيم عليه السلام، وُلد في غوطة دمشق في قرية يُقال لها برزه في جبل قاسيون، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن عيسى عليه السلام، ينزل عند المنارة البيضاء من شرقي دمشق. ويقال إن المواضع الشريفة بدمشق التي يستجاب فيها الدعاء مغارة الدم في جبل قاسيون.

. وقال أهل الثقة من أهل السر: إن آدم، عليه السلام، كان ينزل في موضع يعرف الآن بيت أنات وحواء في بيت لهيا وهابيل في مُقرى، وكان صاحب غنم، وقايل في قنينه، وكان صاحب زرع، وهذه المواضع حول دمشق، وكان في الموضع الذي يعرف الآن بباد الساعات عند الجامع صخره عظيمة يوضع عليها القُربان فما يقبل منه تنزل نازٌ تحرقه ومالا يقبل بقي على حاله، فكان هابيل قد جاء بكبش من غنمه وضعه على تلك الصخرة فنزلت النار فأحرقته، وجاء قايل بحنطة من غلته فوضعها على الصخرة فبقيت على حالها، فحسد قايل أخاه وقتله بحجر في قاسيون.

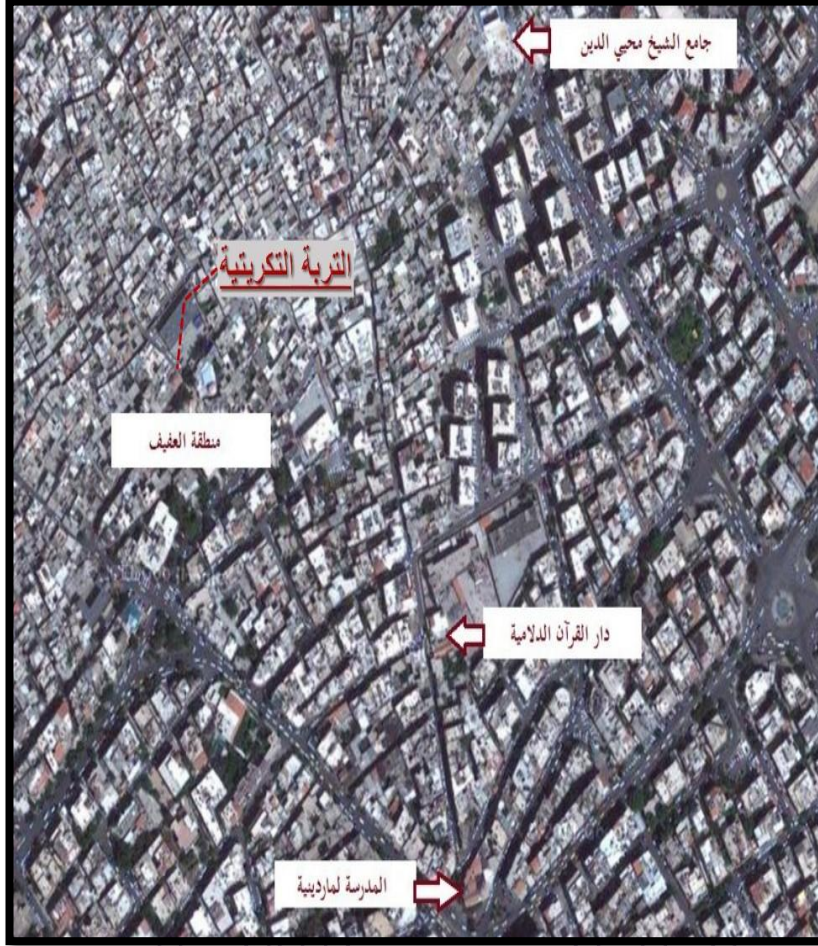
. هذا وما رواه الحموي في معجم البلدان، قائلاً: إن (دمشق) مشتقة من دم شق أي شرب الدم ويعني هنا دم هابيل، لأن الأرض شربت دم هابيل عندما قتله قايل.

ثم يُعطيها تفسيراً لغوياً عند بنائها من قبل دماشق الذي سماها باسمه "لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا".

المصادر:

تاريخ مدينة دمشق / لأبن عساكر
معجم البلدان / لأبي ياقوت الحموي
محاسن الشام / للبديري.

التربة التكريتية [698هـ]



إخوتي القراء:

استهوت مدينة دمشق الحبيبة الناس للعيش في خيرها وبركتها منذ أن نصح النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام قائلا: ﴿سُتَفْتَحَ عَلَيْكُمْ الشَّامُ، فَإِذَا خُيِّرْتُمُ الْمَنَازِلَ فِيهَا، فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةِ يَقَالُ لَهَا دِمَشْقُ﴾.

وبلغت أحاديثه الشريفة حد التواتر، مما دفع بعض الصحابة إلى حملها بمثابة الأمر، فهاجروا إلى دمشق وقاموا على نشر الإسلام وإنسانيته الرائعة بالحكمة والموعظة الحسنة، راجين الله عز وجل أن

يكونوا ممن بشر بهم عندما قال: ﴿إن الخير عشرة أعشار، تسعة بالشام وواحد بسائر البلدان﴾ ﴿إن الشام خيرة الله في أرضه، إليها يجتبي صفوته من عباده﴾....

تتالت العصور ودمشق مازالت تسطر هذا العنوان..

وها هو سفح قاسيون، الذي يشكل إرثاً حضارياً دمشقياً رائعاً، يدعونا لتوغل معاً في مساره التاريخي، ونشهد معه حقبة زمنية تميزت بالازدهار العمراني والاقتصادي بعد إرساء معالم الأمن والاستقرار فيها، وذلك بسبب صد التوسع الصليبي في عهد الدولة الزنكية والأيوبية، ليسرد علينا مالا نعرفه من قصصٍ وسيرٍ من كانوا قبلنا، كي نعيد ترتيب أوراقنا قبل فوات الأوان، فهيا معاً...

إخواني:

يحتضن جبل قاسيون في ترابه الكثير من الأمراء والعلماء الأجلاء والقادة الكبار، ممن ساهم في رسم معالم عنوان تاريخ مدينة دمشق العظيم..

وعندما تمشي أيها السائح الدمشقي، بين أزقة وحات قاسيون تلاحظ ترباً كثيرة موزعة هنا وهناك، والتراب جمع تربة بناها أناس ليُدفنوا فيها، ما هي إلا تذكرة وعظة لنا نحن أبناء اليوم: ﴿قلن سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾.



لنمضِ باتجاه جامع (محي الدين بن عربي)، وعلى امتداده في حي عُرف باسم (حي المدارس) ومقابل (بيمارستان القيمرية)، و(المدرسة الأشرفية) نلحظ تربة تدعى (التربة التكريتية) نسبة إلى وزير مدفون فيها...

هذه التربة نموذج لفن العمارة المملوكي الذي دام عدة قرون (1259/658-1516/922)، تاريخ بناء التربة يعود إلى 1298/698.. تتألف من مصلى وتربة مقببة، تميزت بزخارفها الحصية الأندلسية الكثيرة الموجودة في ردهة المصلى، وتتألف من بوابة رئيسية وواجهتها المزينة بالمقرنصات المعقودة الرائعة بها نوازل حجرية محفورة بعناية ذات ملامح مملوكية تعلوها قبة حجرية ضخمة في الداخل يوجد ضريح الوزير التكريتي، يدعونا للصلاة والدعاء في المصلى، نقف للدعاء قائلين: ((السلام عليكم أهل الديار، من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون))...



ولكن من هذا الوزير المنسوب إليه هذه التربة؟

يخبرنا الذهبي رحمه الله، في كتاب (العبر) و(شذرات الذهب):

اسمه: صاحب الكبير الصدر الوزير تقي الدين توبة بن علي بن مهاجر بن شجاع بن توبة
الربعي التكريتي، ولد سنة (620 هـ) يوم عرفة، وتنقل في الخدم إلى أن صار وزير المنصور قلاوون
بدمشق.

توفي: في سنة (698 هـ)، صُلِّي عليه في الجامع، وسوق الخيل، ثم دُفن بترتبه مقابل المدرسة
الأشرفية بالسفح، حضر جنازته قضاة وأعيان... رحمه الله.

إخواني بعد زيارتنا السياحية القصيرة هذه ومن فوق أرض دمشق الحبيبة لا بد لنا من وقفة إيمانية
فيها كثير من الإجلال والاحترام لأحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، والتي طافت في
نسائم نفوسنا وأرواحنا، ولأناس سبقونا بالحياة فوق هذه الأرض المباركة اجتهدوا على أنفسهم وقدموا
ورقة أعمالهم ومضوا.... ونحن اليوم نقف نفس المكان ولكن هل حققنا ما يرجوه منا المصطفى صلوات
الله عليه؟

أسئلة هامة جدا لا بد من إجابة صادقة مع نفوسنا أمام الله العزيز القهار.....

اللهم إنا نسألك بجاه نبيك الكريم الذي قال ﴿عليكم بالشام﴾ أن تمدنا بغوث ونجدة، يا الله يا الله
يا الله مُنِّ علينا واغفر لنا ذنوبنا، في عهدٍ منا بتوبة صادقة بإذن الله، أكرمنا بفرج قريب يا رب وأدرك
الشام وأهل الشام من نار الفتنة التي أشعلها الشيطان ولا زال يتفخ فيها.....
أخطأنا وقصرنا تب علينا يا الله، وارفح عنا هذا البلاء يا الله يا غياث المستغيثين ابجدنا ولا تكلنا
إلى نفوس أمارة بالسوء يا الله يا الله، اللهم آمين.

المصادر:

شذرات الذهب / للذهبي.

العبر في خبر من غبر / للذهبي.

البداية والنهاية / لابن كثير.

القلائد الجوهريّة / لابن طولون.



التربة العمادية أقدم تربة في صالحية دمشق

أخذت مدينة دمشق القديمة تضيق بسكانها في النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، فعندما دب الذعر في قلوب الهاربين من المدن والأرياف المحيطة بها من الخطر الصليبي، لجئوا إلى دمشق، فأخذت تزداد الكثافة السكانية... وظل الأمر كذلك إلى أن هيا الله عز وجل قدوم السلطان نور الدين الزنكي إليها في 549هـ، الذي أعاد للمدينة هيبتها بشجاعته الباسلة ومواجهته الفدّة للصليبيين الذين بدؤوا يهابونه، فعاد الأمن والاستقرار يعم البلاد، وانفرج المذعورون الهاربون من بطش الأعداء، ليؤسسوا خارج السور القديم أحياءً جديدة... فكان حي الصالحية أول وأقدم تلك الأحياء، الذي استمر بالتطور والتوسع حتى أصبح مدينة مستقلة، تنافس دمشق القديمة..

إخوتي سائحي مدينة دمشق:

تخبرنا المصادر التاريخية والأثرية بأن مباني الصالحية الأولى في سفح قاسيون كانت ثلاث، وهي كالتالي: مسجد الحنابلة، والمدرسة العمرية، ومن ثم التربة العمادية، والتي تعد نموذجاً للترب المبنية من بعدها.



كنا قد أتينا على تعريف المسجد والمدرسة من خلال زاوية (معالم وأعيان).. واليوم نأخذكم في جولة سياحية لزيارة التربة العمادية، فيها المعلومة التاريخية، والمتعة الروحية، لنزداد شوقاً وشغفاً ونبحث كيف نَعمر أرض بلادنا بما يجعلنا من الله ورسوله أقرب... هيا معاً يا إخوتي، فلنحضر ورقة وقلماً، وشغفاً بمعرفة جديدة من أرض دمشق العزيزة، حفظها الله وسائر البلدان من كل مكروه وشر.. اللهم آمين.

التربة العمادية:

هي أول تربة وقبة أسست في جبل قاسيون، ونُسبت للعمادي، أحد كبار أمراء السلطان نور الدين صاحب بعلبك وتدمر، توفي سنة 1169 / 565. تمثل التربة وثيقة مهمة لطراز معماري في مدينة دمشق.. وأجمعت المصادر أن تاريخ بنائها هو في أيام السلطان نور الدين، وتعد القبة الأولى من القباب الأيوبية التي عرفت في ذلك العصر. فلما مات العمادي، حزن الزنكي عليه وقال: (قُصَّ جناحي)، وأعطى أولاد العمادي بعلبك وتدمر.

موقعها:

تقع التربة شمالي التربة الجركسية، بسفح قاسيون في حي التغالبة. على باب التربة كُتِب: (العمادية) نسبة ثابتة إليه.. أما عناصرها المعمارية التي اشتملت عليها، فقد أصبحت فيما بعد نموذجاً لطراز خاص غلب على القباب الأيوبية، إلى أواخر العصر المملوكي.. أما الوصف المعماري للتربة فهو كالتالي:

تشرف التربة على جادة التغالبة بواجهتها الشرقية، فيها المدخل الذي يؤدي إلى باحة سماوية، تحيط بها عدة غرف حديثة، والتربة تقع في الطرف الشمالي من الباحة. واجهتها من الحجر المنحوت، وباب التربة الرئيسي يقع في الجدار الغربي.. لكنه مغلق حالياً، كما فُتحت نافذة على شكل باب للتربة يُخرج منها حالياً.

جدران التربة حجرية مكسوة بطبقة كلسية، وفي كل جدار من جدران التربة قوس عال ترتكز عليه قبة السقف، والقبة مبنية من الآجر، هدمت قبل سنوات طويلة، فبقي منها رقبته الحجرية المضلعة.



يوجد على محور المحراب ذلك الشعار الجصي (الرنك)، يشبه بتفاصيله نظيره الذي يوجد في الإيوان الغربي لبيمارستان نور الدين، ووجود نفس الشعار في التربة العمادية دليل على ولائه لنور الدين، الذي كان العماد أمير حجابته...

رحم الله العمادي والسلطان نور الدين الزنكي، اللذين حفظا عهد هذه البلاد وعمروها بالخير والعطاء، فكانوا خير خلف لخير سلف بسيرهم الحسنة.

المصادر والمراجع:

- القلائد الجوهريّة / لابن طولون.
- العمارة الإسلامية / عبد القادر الريحاوي.
- الحوليات الأثرية العربية السورية.





جبل قاسيون يحكي لنا...

إخوتي القراء:

إذا كان التاريخ سرداً للماضي الإنساني، وسجلاً لأحداثٍ صنعها أشخاصٌ وشعوب، فإن كتاب (تاريخ مدينة دمشق) لمحدث الشام ومؤرخها الشهير ابن عساكر (494-571هـ) يُعتبر كنزاً يلمع ويتلألأ بين كتب تاريخ المدن الإسلامية بما تميز به من أسلوبه الحديثي حيث يسرد الخبر بسندٍ ومترنٍ مع إشارته لدرجة الحديث فأصبح مصدراً للمحدثين والمؤرخين.



لقد أرخ ابن عساكر لأقدم وأعرق مدينة حضارياً وإنسانياً إليها تُشدّ الرحال بما زحرت وامتألت من مساجد وحلقات علم وفن وأدب، وبما أنجبت ولا زالت من علماء وأعلامٍ هم صفوة العباد الذين اجتباهم الله إليها، كيف لا وقد وصفها النبي الكريم بالأرض المباركة...؟
عندما نفتح كتابه ونبدأ بتمعن الفهرس نجد مرتباً بأبواب ذات عناوين رائعة تُثلج القلب وتُنعش الروح بنسمات جميلة عطرة:





(أبواب ما جاء من النصوص في فضل دمشق على الخصوص)

باب: بيان أنّ الشام أرضٌ مباركةٌ وأنّ أَلطافَ الله بأهلها متداركة.

باب: ما جاء عن سيد المرسلين في أن أهلَ دمشق لا يزالون على الحق ظاهرين.

باب: ما جاء عن سيد البشر عليه السلام إن الشامَ يبقى عامراً بعد خرابِ الأمصار.

باب: إعلامُ النبي صلى الله عليه وسلم أمته وإخباره أنّ بالشام من الخير تسعة أعشار.

باب: ما جاء عن كعب الأخبار أنّ أهلَ دمشق يعرفون في الجنة بالثيابِ الخضِر.

وفي باب فضل الشام ذكر ابن عساكر حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿الشامُ صفوةُ

الله من بلاده إليها يجتبي صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخلها من غيرها فبرحمته﴾

فإذا كانت الشام هي الصفوة فإن دمشق هي صفوة الصفوة من بين مدائن الشام لقول النبي

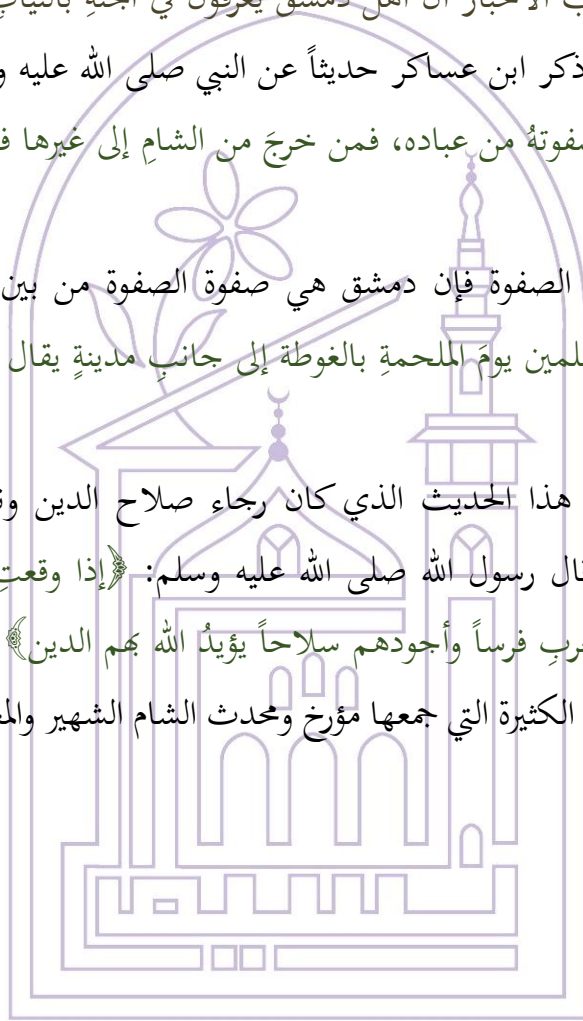
الحبيب: ﴿إنّ فسطاطَ المسلمين يومَ الملحمة بالغوطة إلى جانبِ مدينةٍ يقال لها دمشق من خيرِ مدائنِ الأرض﴾

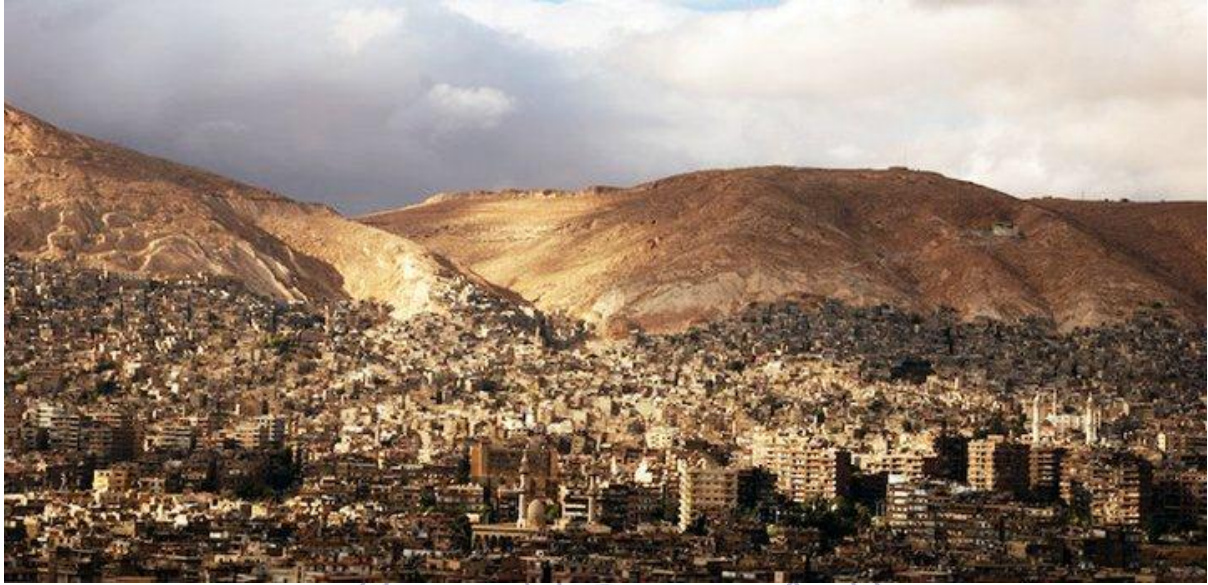
وتمعن أكثر وأكثر في هذا الحديث الذي كان رجاء صلاح الدين ونور الدين رحمهما الله في

حروبهما ضد الصليبيين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إذا وقعت الملاحمُ خرجَ بعثٌ من

دمشق من الموالي، أكرمُ العربِ فرساً وأجودهم سلاحاً يؤيدُ الله بهم الدين﴾

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي جمعها مؤرخ ومحدث الشام الشهير والمعروف بين العباد والبلاد..





ولسوف يعاتبنا ابن عساكر إن جافينا هذا الكتاب، ونحن في زمن يحتاج كل منا فيه التوثق من أي خير.. وللمعرفة لا بد من العودة إلى علماء أمتنا على الدين والبلاد، فأني تقصير نحن فيه...؟! عذراً يا ابن عساكر!

نجد ابن عساكر يدعونا لقراءة متبصرة وتمعنة لكتابه (تاريخ دمشق)، الذي لطالما استمتع واستفاد السلطان نور الدين وتلميذه صلاح الدين الأيوبي منه، فسمعا منه وهو يسلط الضوء على دمشق كتاريخ حضاري مميز في زمن عصفت وكثرت فيه الحروب الصليبية، فتصدوا لها بالعلم والمعرفة لقيمة هذا البلد عند سيد الكون.. وجلسا جلسة تلميذ لمعلمه يستمعان ويدعوان الله رجاءً أن يرزقهما حسن الإتيان لقدمتهما محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن باب: فضل المساجد المقصودة بالزيارة كالربوة ومقام إبراهيم وكهف جبريل والمغارة، نتعرف على جبل شامخ يحتضن دمشق في عزة وإباء كشاهد على قصة حضارة هذه المدينة الحبيبة بأبطالها العلماء الأفاضل الأجلاء الذين جعلوا من حب الله والرسول عنواناً لهم، والرحمة بالعباد منهاجهم.. فلنستمع إلى حكايته من خلال هذا الكتاب... ولننصت بقلوب وعيون مبصرة تبتغي العبرة والفائدة..

إخوتي الكرام:

يخبرنا ابن عساكر (رحمه الله) في كتابه في هذا الباب عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿اجتمع الكفار يتشاورون في أمري فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا ليتني بالغوطة بمدينة يقال لها دمشق، حتى آتي الموضع مستغاث الأنبياء حيث قتل ابن آدم أخاه.... فأتاه جبريل فقال: يا محمد إيت بعض جبال مكة فأو إلى بعض غاراتها فإنها معقلك من قومك﴾ وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله رجل عن دمشق فقال: ﴿لها جبل يقال له قاسيون فيه قتل ابن آدم أخاه.... فسأله رجل: صفه لنا يا رسول الله فقال: هو بالغوطة مدينة يقال لها دمشق، وهو جبل فيه وُلد أبي إبراهيم، فمن أتى هذا الموضع فلا يعجز في الدعاء.. احترس فيه يحيي في الغار الذي تحت دم ابن آدم المقتول، وفيه احترس إلياس من ملك قومه، وفيه صلى إبراهيم ولوط وموسى وعيسى وأيوب، فلا تعجزوا في الدعاء﴾.



وعن ابن عباس قال: "ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون. ومن الآثار بدمشق في برزة عند مسجد إبراهيم في الجبل عند الشق أنه موضع رؤيا إبراهيم الكوكب الذي ذكره الله تعالى: (فلما رأى كوكباً قال هذا ربي).. فمن قصده وصلّى فيه ركعتين ودعا الله لأجابه."

قال ابن عباس "موضع الدم في جبل قاسيون موضع شريف، ففيه اختبئ يحيى بن زكريا وأمه أربعين عاماً، وصلى فيه عيسى بن مريم والحواريون، فلو كنت سألت الله أن يغفر لعبده ابن عباس يوم يحشر البشر، فمن أتى ذلك الموضع فلا يقصر عن الصلاة والدعاء فيه فإنه موضع الحوائج." **وعن ابن عباس رضي الله عنه قال:** "من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل فيه: (وأويناها إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين) فليأت النيرب الأعلى بدمشق وليصعد الغار في جبل قاسيون فيصلّي فيه، فإنه بيت عيسى وأمه، وكان معقلهم من اليهود."

ما هو شعورك أيها القارئ الدمشقي؟

ألا تجد بأن هناك من يعيش في مدينة دمشق سنوات وسنوات ولا يعلم عن إرثها التاريخي الحضاري إلا القليل، مع أن سيدنا رسول الله قد أخبرنا وحدثنا عن الشام بشكل عام ودمشق بشكل خاص: أن بلاد الشام خير البلاد ودمشق خير المدن وأهلها من خيرة الأنام.... أفلا نحرص على أخذ دور يشرفنا أمام سيد الخلائق؟

وجميعنا يوقن بأن الله ونبيه حق حق، فأبي غفلة غيّبتنا عن إدراك هذه المعاني المقدسة التي رواها سيد الخلق؟

ينبغي علينا إعادة وإعادة القراءة بوعي واتصال محبين عاشقين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كي نتشرب أفئدتنا همة وعزيمة خفتت ولن نقول ماتت (والعياذ بالله)، وليجتهد كل منا من مكانه بحثاً عن دور يشرفه يوم لن ينفعه إلا العلم النافع أو الولد الصالح أو الصدقة الجارية....

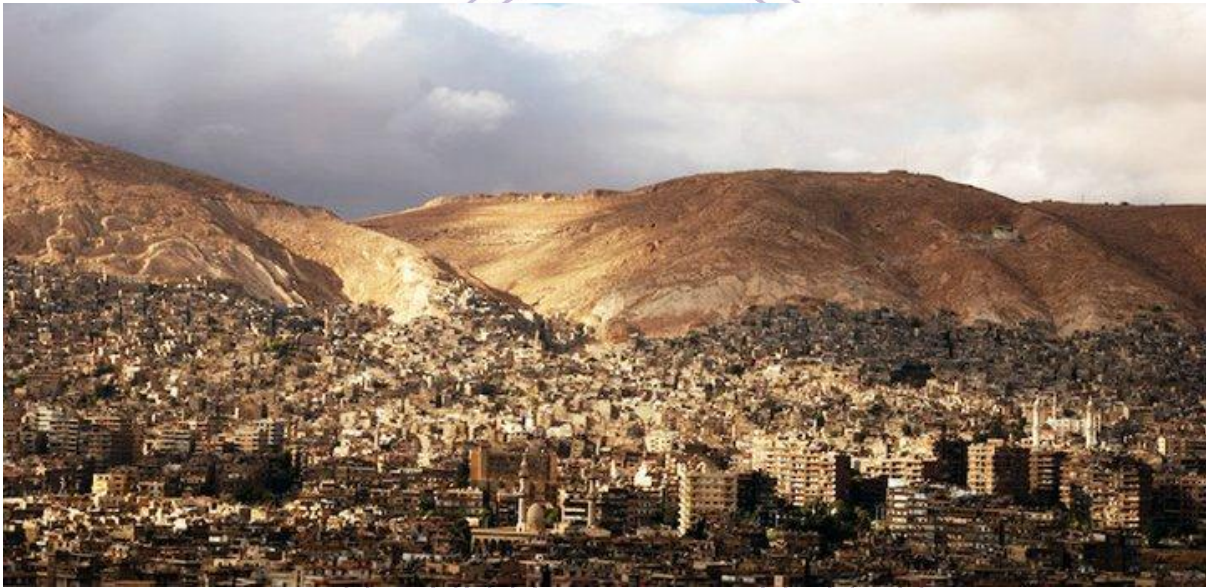
إخوتي القراء:

إن أي رحلة سياحية كي تكون ناجحة يجب أن تُحدّد بأدبيات وأهداف راقية لتحصل الفائدة مع المتعة..... **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾**

وعندما نسير في رحلتنا هذه بين أحياء دمشق متجهين نحو الشمال باتجاه جبل قاسيون، لن يأسرنا جماله فقط، وإنما ستطوف من حولنا نسيمات رائعة تجعلنا في سكينة وراحة عجيبة تدفعنا دفعاً للتساؤل عن السبب..؟

إنها نسيمات تحفيزية لشد الانتباه لأقوام كانوا فيما مضى فوق الأرض وعمروها، وهم اليوم تحت الأرض.. وتلك سنة الله في الكون، أقوام تحيا وتموت وتبعث يوم النشور ولا يبقى منهم إلا سير تُتلى

لتحصّل العبرة والعظة.. فهياّ لإحياء القلوب في رحلة قاسيون.... وبعد الأحاديث الشريفة، لنستمع للجغرافيين وأصحاب الرحلات الإسلامية منهم ياقوت الحموي في معجم البلدان /626 هـ. يقول: (قاسيون: بالفتح وسين مهملة والياء تحتها نقطتان مضمومة وآخره نون وهو: الجبل المشرف على مدينة دمشق، وفيه عدة مغاور وفيها آثار الأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، وهو جبل مقدس يروى فيه آثار، وللصالحين فيه أخبار، وبه مغارة تعرف بمغارة الدم، وهناك شبيه بالدم يزعمون أنه دم هابيل باق إلى الآن وهو يابس...).



فجبل قاسيون جغرافيا يمتاز بموقعه المميز والهام الحاضن والمشرف على مدينة دمشق ويعزز أهميته مروري نهر ي زيد وثورا، ويتصل من جهة الغرب بسلسلة جبال لبنان، وقد عملت مياه بردى مع الفيحة على فصله عن جبل المزه المتصل بجبال الشيخ وهوران، وعملت مياه منين على فصله من جهة الشرق عن سلسلة جبال القلمون، وجبهة قاسيون الشرقية سفحان يفصل بينهما نهر ي زيد، فما كان على ضفته الشمالية فهو السفح الأعلى، وهو سفح كبير واسع خال من الماء، لا يوجد فيه من البتاء إلا محلة دير مران، وبعض الدور الدينية المتفرقة، ومغارة الدم، ومغارة الجوع، وكهف جبريل. أما السفح الأدنى ما كان على ضفة ي زيد الجنوبية، وهو سفح مزدهر وافر المياه خصب الأرض وعامر بالسكان.

ففي سفحه سكن آدم عليه السلام، وفي أعلاه قتل قابيل أخاه، وفي كهف جبريل جاءت الملائكة معزية سيدنا آدم في ابنه.....

أما الرحالة ابن جبير (539-614هـ) يصف مشاهدته حين دخل دمشق قائلاً: "ومولد إبراهيم هو بسفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة، وهي من أجمل القرى، وهذا الجبل مشهور بالبركة من القديم لأنه مصعد الأنبياء، وهو في الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ، وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق، وقد بُني عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة وعليه صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأى الكوكب ثم القمر ثم الشمس، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه، وفي الجهة الشمالية من الجامع المبارك على مقربة منه إلى جبل قاسيون مدفن سبعين ألف شهيد، والأنبياء المدفونين به سبع مئة نبي والله أعلم.

وبجبل قاسيون لجهة الغرب على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك مغارة تُعرف بمغارة الدم لأن فوقها في الجبل دم هايل قتيل أخيه قابيل، وقد أبقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة تُحك فتستحيل، ويقال إنما هي من الموضع الذي جرّ فيه القتائل أخاه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة، وهي من آيات الله تعالى.

وتلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب، وعليها مسجد قد أنقن ببناءه، ويُصعد إليه على الأدراج وهو الغرفة المستديرة، وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم وعليه بناء وتحتة في حضيض الجبل مغارة تسمى مغارة الجوع ذكر أن سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً.

وبآخر هذا الجبل المذكور في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد الربوة المباركة: مأوى المسيح وأمه، وهي من أبداع مناظر الدنيا حسناً وجمالاً، ويُصعد إليها على أدراج، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها وهي كاليبيت الصغير، وبإزائها بيت يقال أنه مصلى الخضر.

هذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه، ينقسم الماء فيها على سبعة أنهار وأكبر هذه الأنهار نهر يُعرف بثورا.. ويُشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية في البلد، ولا إشراف كإشرافها حسناً وجمالاً واتساعاً، مسرحٌ للأبصار فتُحار الأبصار في حسن اجتماعها وافتراقها.

وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسناتها أعظم من أن يحيط به وصف، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطيرٌ كبيرٌ.

ويتصل بها أسفل منها قريةٌ كبيرةٌ تُعرف بالنيرب، وفي الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم قريةٌ تُعرف ببيت لاهية، يريدون الآلهة، وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجدٌ مبارك.

وكان آزر أبو إبراهيم ينحت فيها الآلهة فيجيء الخليل ويكسرهما، و هي الآن مسجد يجتمع فيه أهل القرية، وهي من المشاهد الكريمة".
وقال السبط ابن الجوزي (654 هـ): "قاسيون جبل شمالي دمشق ترتاح النفس إلى المقام به، ومن سكنه لا يطيب له سكنى غيره غالباً..."



القارئ

تجد أيها

من وصف هؤلاء العلماء الأجلاء نسمات روحانية من الامتنان لرب العباد بالشكر لتشريفهم بالوقوف على هذه الأطلال وبكثير من الاحترام لحرمة هذه الآثار بما حملت من معاني اجتهدوا فيها أكثر على نفوسهم للاستفادة من قصص وروايات لأناس مضوا وسبقونا إلى العزيز الجبار.....
فاجتهد أيها القارئ واعتبر وواظب بالدعاء لنفسك دعاء عبد ذليل لرب الأكوان فلا يغرنك بنفسك أي غرور من قوة أو جاه أو لسان مبرور واتعظ بمن سبقوك بطيب الأعمال والأخلاق فبيننا الكريم جعل عنوانه الكبير: ﴿إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ﴾
عودة لجلنا الرائع (قاسيون) والذي منه تعلمنا الكثير من المعاني، ففي رحلتنا هذه رياضة جسد وعقل وروح معا فلا تفوت هذه الفرصة أيها السائح الدمشقي.

أما عن سبب تسميته قاسيون فتعددت الآراء:

قيل: قسا على الكفار تكسير حجارته وصُعب عليهم صناعة الأصنام في زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

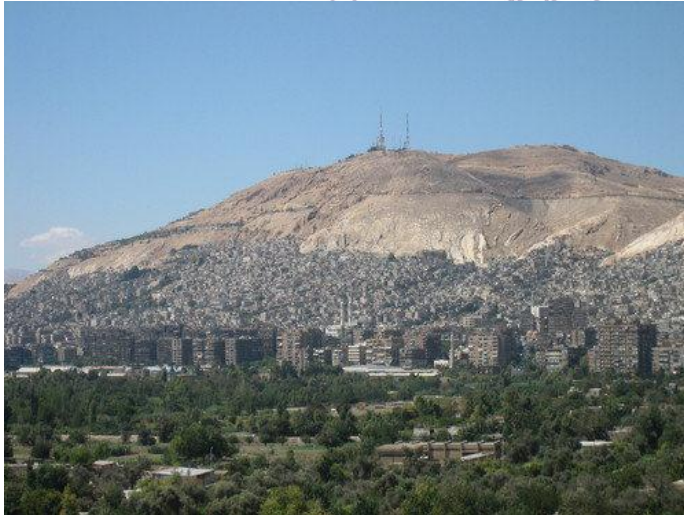
وقيل: لقسوة صخوره فقط.

وقيل: قاسيون آخرها (واو ونون) هي من أشهر اللواحق الكنعانية كالقلمون وميسلون، فيكون جبل قاسيون عبارة عن (قاسي+ون) وهو جبل قاسي ليس فيه نبع أو عين.

ماذا بعد يا إخوتي؟

المؤرخون والجغرافيون واللغويون تحدثوا عن أهمية جبل قاسيون تاريخياً ودينياً، والأهم من ذلك أن الحبيب المصطفى تكلم عنه.. فما هو شعوركم؟ ألم تتحرك فينا مشاعر الفضول للمعرفة عن سر جبل قاسيون وسر مدينة دمشق؟

لقد كان لنا شرف السكنى والإقامة فوق أرضها المباركة، فماذا قدّمنا ليوم لقاء نبينا الكريم؟؟



ومن خلال سماعنا لحكاية جبل قاسيون الجميلة ورؤية صورته ومناظره الخلابة نلاحظ ما يلي:

دمشق مدينة الجمال والجلال والبساتين والريحان ومدينة الأنهار والمآذن والمساجد والمدارس والعلم والعلماء، قاسيون له سر ديني كباقي الجبال في التاريخ الديني، كجبل الجودي والرقيم والطور

وجبل حراء، جبال شهدت ولادة دين لإله واحد يُعبد..... (قاسيون) شاهد يشهدكم هي الأيام والسنين التي سكنه أقوام يتعبدون لها واحداً، ومنهجاً تربوياً نبوياً واحداً يتبعون، وما الأديرة والزوايا الكثيرة في سفحه إلا خير دليل على هذا الهدف، ومن حيث التسلسل التاريخي لسكنى ذلك السفح نجد التالي:



مغارة الدم التي كانت معبدًا ثم كنيسة إلى أن جاء الإسلام فأصبح للمغارة مكانة تاريخية دينية عند المسلمين مرتبطة بقصة ابني آدم عليه السلام المذكورة في القرآن الكريم، فقاويل جر أخاه بعد قتله أياماً إلى أن دله الغراب كيف الدفن، فدفنه في منطقة الزبداني وهي تابع لسلسلة جبال القلمون.

وعندما سال دم هايل، حرّم الله على الأرض أن تشرب دمه.. وقيل أن الجبل فتح فمه من هول الأمر... والصور تُظهر ذلك.

أما وجود المحارب الأربعة فقد قيل أن أربعة نبياً لجئوا إلى مغارة الدم هرباً من جور أحد الملوك، وعندما داهمهم الخطر شق الله الجبل ويسّر لهم الهرب، فتركوا روائح المسك...

وقيل: في يوم كاد أن يسقط السقف عليهم فأمسك سيدنا جبريل السقف بيده فبقي أثر يده، إذاً فموقع مغارة الدم ضمن مسجد الأربعة.

وقيل أن سيدنا يحيى أقام هو وأمه في مغارة الدم أربعة سنة فسميت بمغارة الأربعة.

وقيل أن الحواريين الذين أتوا مع سيدنا عيسى كانوا أربعة.....

وفي شرق قاسيون مولد أبينا إبراهيم عليه السلام، وانبثاق فجر التوحيد...



فقف أيها الدمشقي على سفحه وأكثر من قول (لا إله إلا الله) بقلب مفعم بالامتنان لله ففي ذلك انبعاث جديد لفطرة قد شابتها شوائب وعوائد الدهر لقول المصطفى عليه السلام: ﴿خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله﴾

وقبل ذلك لنكثر من الاستغفار بوعي مع حذر من نفس قد تأمر بالسوء على غفلة منا... وما أكثر غفلاتنا للأسف فقصة ابني ادم ترشدنا إلى كثيرا من الحذر من مشاعر وأحاسيس اتجاه بعضنا البعض لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه...﴾

﴿على الأقل لا ينظر احدنا لبعض من باب غيرة أو حسد ففي ذلك بداية الابتلاء... فكيف إذا كنا من سكان هذا الجبل... الذي سطر له التاريخ ما نتج عن الحسد والحقد والغيرة...﴾

ولذلك اعتبر واتعظ أيها الإنسان..... فإن من سكن الجبل من القدامى المتأخرين الصالحين قد عمّروا الجبل بالعلم والعمل الصالح وبكثير من خشية الله متبعين منهج النبي الكريم.... وهم بذلك تعلموا واهتدوا إلى أن العلم النافع والعمل الصالح بداية الاجتهاد على النفس كي لا تأمر بسوء فكان منهم العلماء والأولياء والعارفين بالله والدالين على الله بطيب أخبارهم فألى من تطيب نفسه وروحه للاستمتاع بجبل قاسيون فقبل ذلك إقرأ ثم اعتبر واتّعظ بمن سبقنا من أهل التقى والعلم والدين، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، ولا نتبع إلا هدي سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهذا الجبل يعلمنا كمال التوحيد وكمال الإيمان وذلك سر هيئته الدينية التاريخية فهل تفتحت فينا البصائر قبل العيون أم مازلنا ننظر من دون اعتبار لغد آت لا محال.....

إخواني الأعزاء:

هذه أبياتٌ كتبها ابن عساكر رحمه الله على لسان أحد الصالحين قائلاً: أنشد بعض الصالحين لبعض المتأخرين في مدح جبل قاسيون:

يا صاحٍ كم في قاسيون وسفحه	من مشهدٍ يستوجبُ التعظيما
فالربوةُ العلياُ يفضّلها الذي	أضحى بتفسير الكتابِ عليما
والنيربُ المشهورُ يعرف فضله	من زاره أو ذاقَ فيه تنعيما
ومغارةُ الدمِ فضلها متواترٌ	مازلتُ أسمعُه هُديتَ عظيما
ولكهِفِ جبريلَ الأمينِ فضيلةٌ	مذكورةٌ وقعت إلي قديما
ومغارةُ الجوعِ الشريفةُ تحته	كم عابدٍ فيها ابن مقيما
ومقامُ برزةٍ ليس ينكرُ فضله	أعني مقامَ أبيك إبراهيما
وبه قبورُ الأنبياءِ فيمن مضى	ليزورهم فقد ابتغى التكريما
فأديم زيارته وواظب قصده	لتنال أجراً في الجنانِ جسيما

وتحضرني قصة الشيخ العارف بالله الذي جاء لزيارة دمشق وصعد السفح مقتدياً بشيوخ الشام وغيرهم من الذين قد تواتر عنهم زيارة قاسيون، ثم جلس في مكانٍ ليستریح، فحجل أن يمد ساقه لينام فأينما توجه في الجبل وجد مزاراتٍ للأنبياء أو قبور علماء، ففي شرقه مولد أئينا إبراهيم عليه السلام وفي غربه عند مقبرة الفراديس مدفن السيدة مريم عليها السلام، وفي وسطه الشيخ عبد الغني النابلسي، وشماله الشيخ خالد النقشبندي وجنوبه الشيخ محي الدين بن عربي رحمهم الله جميعاً، فحجل



أن يمد رجله تأدباً ونام جالساً، فأتاه الشيخ محي الدين بن عربي في المنام وأمسك برجله يدها قائلاً:
أمدد رجلك فالبساط بيننا أحمدي. رحمهم الله جميعاً.

هذا المكان يشرفنا يوم البعث والحساب، والزمان ماضٍ فقم وقرر وابدأ بنفسك للتغيير وقل أن
الأوان لتحمل المسؤولية ولنعم أرض دمشق بما يحب الله ورسوله فنكون فخراً ومباهةً لنبينا
الحبيب، ويبقى الأمل موجوداً يسطع ويتلئلي فلا تلقي باللوم على أحد وابدأ بقول لا إله إلا الله محمد
رسول الله وأكثر من الصلاة عليه..... رجاء أن يحفنا الله بلطفه ورعايته.

اللهم علمنا وانفعنا بما علمتنا واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

لا تنسونا من الدعاء....

المصادر:

- تاريخ دمشق / لابن عساكر
- معجم البلدان / لياقوت الحموي
- رحلة ابن جبير / لابن جبير



الحمامات الإسلامية القديمة في دمشق

"الحمد لله الذي جعل الشام في وجه الأرض شامة خضراء، وأجرى ماءها الفضي على ثراها كالذهب، وأدار من الماء خلاخيل على سوق الأشجار، وأرسل كف النسيم بمشط المطر فسرح رؤوس عرائس الغصون، وجملها بجلل ذات أكمام من سندس أخضر ومعصفر صبغة صنعة من هم له ساجدون. وسبحانه قدس أرضها إذ هي مرتع ومرعب لأصفيائه، وحبها لسكن الأنبياء واختارها موطناً لعباده الأولياء". محاسن الشام / للبديري

فمن محاسن الشام التي ذكرها البديري وابن عساكر في تاريخه، الحمامات الإسلامية القديمة، والتي ملأت الشام ودمشق خاصة، إشارة لأهمية النظافة والطهارة في الإسلام، وإن الأبخرة التي تنبعث منها بروائح العود والمسك الجميلة لدليل على ذلك، فهي تنادي المسلمين من خلال هذه الروائح العطرة، لجعل النظافة والطهارة عنواناً لهم، وجواز سفر للاتصال بالله عز وجل.

وما السخان القديم الذي لازم المدرسة العمرية في الصالحية للقرن السادس الهجري، والذي كان يمثل مركزاً لارتياح الناس طلباً للاستحمام فيه، دليلاً على أهمية النظافة والطهارة في ديننا الحنيف، والذي وُجد على جانب النهر بالقرب من البيوت.

ولكن.. ومع مرور الزمن، أخذت الحمامات تظهر كمظاهر اجتماعية.. منها المتعة والتسلية فقط، مع العلم بأن الإسلام يجعل المباحات أو يقلبها إلى عبادات إذا ربطها بالمولى عز وجل، وهذا من أسرار روعة ديننا في بناء الحضارات الإنسانية.

وللأسف.. نتيجة الألفة والاعتیاد عند المسلمين على النعم، ينسون المنعم إذا نسوا عملية الربط هذه باستمرار، فتظهر آفة الألفة والتعود على النعم بالنسيان للمنع. وخير دليل على ذلك تحت عنوان الحمامات، العثور على لوحة قديمة جداً تعود إلى القرن السابع الهجري، في جنوب جامع العفيف في الصالحية، كُتِبَ عليها:

"مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ مِنْ رَبِّ لَطِيفٍ فليَقْصِدِ اللَّهَ ثُمَّ حَمَّامِ الْعَافِيَةِ"

والآن... هيّا معاً نتعرّف على أهم الحمامات الإسلامية القديمة في دمشق، وبين جوانحنا نحمل نية الفائدة والمتعة معاً للتقرب من الله عز وجل، فهيّا.....

يقول مالك بن بني: "الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحوّلة إلى أفق شعبٍ آخر".

والحضارات قد تخضع لظاهرة التقليد دون أن تُمحي شخصيّتها، وتفقد مقومات أصالتها، ونتاج المضارّات جهد متراكم، تتبادله الأمم، تؤثر وتتأثر، بنسب مختلفة. ونلمس ذلك في الفنون المعمارية الإسلامية.

فعندما انتشر الإسلام في بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وشمالي إفريقيا، كانت الفنون السائدة وقتئذ الفن الساساني والبيزنطي، هذه الفنون كانت مصدراً مباشراً للفنانين في الدولة العربية الإسلامية اقتبسوا عنها وطوّروا عناصرها.

هذا شأن كل فن جديد لمرحلة جديدة، وإذا ما حللنا الفن البيزنطي والساساني رأينا يرجع إلى أصول كبرى سابقة له، فهي من صنع الشعوب العربية القديمة التي كوّنت حضارات في بلاد الشام وبلاد الرافدين؛ أي: فن شرقي + فن غربي جاء من الاحتلال الروماني واليوناني وتطوّر فيما بعد. ومن المنشآت المعمارية الإسلامية المميزة والتي تحكي لنا حكاية هذا التطور، الحمامات العامّة التي عُرفت في العهد الأموي والعباسي، وتعود أصول هذه الحمامات العربية في العهد الإسلامي إلى النمط الروماني.

ولكن تميّزت بميزات فنية من حيث نمط البناء وبميزات من حيث الهدف، فالمسلم الراقي الحضاري الذي يربط دوماً بين المتعة والفائدة، أو بين الدنيا والآخرة، فالحمامات ليست لإزالة الأوساخ فقط، إنما بهدف التقرب من الله عزّ وجل، بالحصول على نظافة جسديّة وصحيّة تقوي المسلم وتعينه على الطاعات، عند ذلك جعل المسلمون الحمامات العامّة وسيلة لهدف راقٍ.

أمّا من حيث الميزات الفنية، فقد اختلفت الحمامات العربية الإسلامية عن الرومانية بالتالي:

1- بما أنّ الإسلام مبني على الطهارة المعنوية فقد ألغيت المغاطس راكدة المياه، ولم تعد موجودة في الحمامات العربية الإسلامية.

2- أنّ الحمامات الرومانية تألفت من ثلاث أقسام: القسم البارد، القسم المعتدل، القسم الحار، ويقابل هذا التقسيم في العمارة الإسلامية: القسم البرّاني وهو البارد، والوسطاني يقابله المعتدل، القسم الجوّاني ويقابله الحار.

ومع الزمن... تطور أثر الحمام العربي الإسلامي عند الناس، وأصبح يتصل بواجبات دينية واجتماعية، مرتدياً لباساً شعبياً تقليدياً فيما بعد.

ما يهمنا في هذا السياق التعرف على هذه الحمامات العربية القديمة، وأقدم حمامات في سورية من قبل الإسلام، حمامات أفاميا، تدمر، بصرى، شهبأ.

وأقدم حمام عربي إسلامي في بلاد الشام هو حمام قصر عمرة ويعود إلى العصر الأموي. وهناك آثار معمارية لحمامات قديمة كانت ملحقة بالقصور الأموية في سورية مثل حمام قصر الحير الغربي الذي بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

نتقل إلى العصر السلجوقي الذي تعتبر الحمامات التي بنيت فيه من أقدم حمامات مدينة دمشق في البزورية في عهد نور الدين زنكي، ولا زالت موجودة وبجالة جيدة، مما يعكس نزاهة وإخلاص عامل البناء المسلم، والمهندس المسلم.

نعود إلى العهد السلجوقي ونجعل حمام نور الدين نموذج تلك الفترة لتمييزه عن بقية حمامات العصور التالية، هيّا معاً...

حمام نور الدين:

يعدُّ أقدم حمامات دمشق القديمة، يقع في سوق البزورية قرب خان أسعد باشا. أنشأه السلطان نور الدين في القرن السادس الهجري... أمّا تفاصيل هذا الحمام فهي: باب الحمام من الجهة الغربية يفتح على ممر، مغطى بقبة نصف أسطوانية يؤدي إلى القسم البراني المربع الشكل، وهذا القسم مسقوف بقبة ترتكز على مثلثات كروية، الأعمدة الأربعة الحاملة للقبة تشكل أربعة مصاطب اثنتان منهما كبيرتان شرقية وغربية، واثنتان ثانويتان: شمالية وجنوبية.. ويتوسط البراني بركة ماء تغذى من خزانات الحمام، والفائض يغذي باقي أجزاء الحمام.

أما في جانب الايوان الشرقي الشمالي مدخل يؤدي إلى ردهة صغيرة فيها خدمات صحية، مغطاة بقبتين نصف كرويتين، في شمالها مدخل إلى الوسطاني تطله ثلاث قباب.

وإلى الغربي منه يفتح الجوّاني وهو مستطيل الشكل تعلوه قبة ذات قطع ناقص. رصعت أرضية الحمام بالرخام المزين بأشكال هندسية جميلة، أهمل الحمام منذ ستين عاماً خلت، واستعملت بعض أجزائه مخازن تجارية.



وفي عام 1975 تمَّ استملاكه ورممت أجزاءه، وأعيدَ تشغيله.
ويعتبر حالياً من أهم المعالم التاريخية والسياحية في دمشق.
فما هو رأيكم وشعوركم بعد التجوُّل فيه؟

فأما حَمَّامات العهد الأيوبي 569 – 658 هـ

والعمائر الأيوبية بشكل عام يغلب عليها طابع البساطة والتكشف، والقوة والمتانة، بسبب حالة الحرب.

ولكنها امتازت بإتقان التخطيط، وبالعناصر الزخرفية الجميلة، وهذا يدل على ميزة الحضارة العربية الإسلامية من الحضارات السابقة.

وإليكم نماذج من حَمَّامات العهد الأيوبي:

- 1- حَمَّام الجوزة: تقع في محلة سوق ساروجة، جرى عليها تعديلات في قاعة المشلح، أمَّا بقية أقسامها فما تزال محافظةً على وضعها الأصلي، وتعتبر نموذجاً كاملاً لمخطط الحَمَّام العربي الأيوبي.
- 2- حَمَّام السروجي: تقع في محلة الشاغور، وما تزال فيها أقسامها الأصلية.

الحَمَّامات في العهد العثماني

أمَّا أهم الحَمَّامات في هذا العهد فهي:

- 1- حَمَّام فتحي: في محلة الميدان.
- 2- حَمَّام الرفاعي: في محلة الميدان.
- 3- حَمَّام القاشاني: في سوق الحرير، ولكن للأسف تحولت منذ سنوات طويلة إلى سوق تجاري، على الرغم من احتفاظها بالمخطط العام لها، وألواح القاشاني التي كانت تكسوا جدارها وواجهتها.
- 4- حَمَّام سوق الخياطين: تحوَّل كذلك للأسف إلى مصنع للأقمشة، وترجح المصادر أن يكون معاصراً في بنائه للخان المجاور له، خان الجوخية.

وهناك حَمَّامات عديدة زالت بسبب شق الطرق، وأعمال الهدم، نذكر من أهمها:

حَمَّام الملكة: والتي تقع في شمالي جامع الدرويشية، وقد عمرت في عام 1136 هـ في القرن

الثامن عشر ميلادي.



وهكذا... بعد استعراضنا لحمّات دمشق القديمة، والتي تقوم على جلب انتباه السائح المسلم المتجول بين أزقة دمشق القديمة، لمعرفة ماذا وراء أبواب هذه الحمّات المغلقة، وللوقوف وراء هدفها المعنوي، سيجد الجواب ينبع من داخله، من فطرة المسلم التي فطرها الله على حب النظافة والطهارة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إن الله نظيف يحب النظافة﴾. والمراد بالفطرة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿عشرٌ من الفطرة: قص الشارب، إعناء اللحية، السواك، استنشاق الماء، قص الأظافر، غسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء، والمضمضة﴾.

قال الشوكاني في المراد بالفطرة هنا: هذه الخصال أو جملة أشياء اختارها الأنبياء ودعوا إليها وانفتحت عليها الشرائع الإلهية لموافقها طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها، فمن فعلها وقام بها، كان ذلك منسجماً مع جبلته التي خلقه الله عليها ويثاب فاعلها إن قصد بفعله التقرب إلى الله عزّ وجل، أي روعةً يمتاز بها إسلامنا! هدفٌ راقٍ وراء كلِّ عملٍ يوجب للإنسان القربَ من الله عزّ وجلّ. ومن تأمّل في فهم أسرار هذه السنة يجد الجواب الشافي لقلبه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأل بلالاً الحبشيّ رضي الله عنه قائلاً: ﴿يا بلال، حدثني بأرجى عملٍ عملته في الإسلام فإني سمعتُ دف نعليك بين يديّ في الجنة، قال ما عملتُ عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهّر طهوراً في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ إلا صلّيتُ بذلك الطهور ما كتبتُ لي أن أصلي﴾. فما أروع أن يربط المسلم حياته الدنيوية بالآخرة في كلِّ خطوة، فهذا لبُّ أو هدفٌ وجودنا على الأرض أثناء عمارتها.

نسأل الله عزّ وجل التوفيق في فهم معاني ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ..﴾ فالسيرُ والتجولُ للتأمّل والفهم، وليس للعبث والتسلية وإضاعة الوقت دون فائدة.

المصادر والمراجع:

. معجم البلدان / للحموي

. العمارة الإسلامية / للريحاوي



حي الأكراد من الأحياء الدمشقية العريقة شرقي "حي الصالحية"

إخوتي القراء:

شهدت مدينة دمشق عبر تاريخها الطويل أحداثاً كثيرة ومتغيرات عديدة في طبيعتها الجغرافية والسكانية، ومن هذه المتغيرات ما شهدته من هجرة على أعقاب حروب الاستعمار الصليبي على حدودها المجاورة منذ مئات القرون.. حيث هاجرت شعوب وشعوب إلى دمشق طلباً للأمن والأمان، وطاعة للنبي المصطفى العدنان الذي قال: ﴿عليكم بالشام فإنها صفوة بلاد الله من أرضه، يجتبي إليها خيرة خلقه﴾.



وذكر المؤرخون أنه قد دخلت دمشق عشرة آلاف عين رأت النبي، فهي محط أنظار الصحابة الكرام والعلماء الأجلاء والأمراء الفضلاء، جميعهم يطمحون بصدق أن يشملهم حديث المصطفى.. وأخذت تزداد أعداد المهاجرين أكثر وأكثر في عهدي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وأواخر القرن الخامس للهجرة، فبدأت الضواحي (الأرياض) تستقل عن مدينة "دمشق القديمة"، ليسكنها المهاجرون الجدد..

وفي العهد المملوكي أتيح لهذه الضواحي أن تنمو وتوسع أكثر فأكثر، لتظهر أحياء جديدة أحاطت بدمشق القديمة من جميع الجهات، راسمة مع دمشق الأم أروع حضارة تعدد فيها الوصف والأسماء: "مدينة العلم والعلماء"، "مدينة المدارس"، "مدينة المساجد"، وغيرها من الألقاب، ليتجلى في دمشق قوله تعالى: "ففي ذلك فليتنافس المتنافسون".

يقول أبو ياقوت الحموي: الحارة اسم موضع، والحارة كل محلة دنت منازلها، وقال ابن طولون في القلائد: "على امتداد من حي الصالحية ظهرت في السفوح العليا محلة الأكراد شرقاً"، فالحارة: حي، أو محلة متصلة المنازل تعكس واقع الحياة اليومية لسكان ذلك الحي..

وإن دمشق تعكس على مدى العصور قوة النشاط الديني والازدهار العلمي والاجتماعي لسكانها، منطلقة من الأسرة الواحدة التي قد انشغلت بإعداد أفرادها على ما يقربها من الفوز بمباهاة سيد الخلق، فاصطبغت مجالس السمر فيها بالعلم والرقي بقيم وأخلاقٍ تفيض برجاء الخير لمن تحب وتكره.. فجاء التنوع العمراني الرائع مُمَهِّدًا لحضارة إسلامية عالمية ذاع صيتها بين العباد والبلاد، وقد جمع مؤسسوها في ثنايا قلوبهم حبّ وعشق العلم ابتغاء مرضاة الله ورسوله، يدعون إليهما بالحكمة والموعظة الحسنة...

ومن أوائل تلك الهجرات التي ساهمت في إعادة تسطير تاريخ المنطقة، متخذة من العلم والدين أساس بنيانها، هي الهجرات التي قام بها بنو قدامة - سكان قرية "جماعيل" القريبة من القدس - وهروبهم من سطوة وجور الاحتلال الصليبي، حيث قاموا بإنشاء "حي الصالحية" على سفح جبل قاسيون بدمشق، فكان أول حي خارج المدينة القديمة وأسوارها، حجرٌ أساسه نيةٌ صالحة طيبة وأركانها العلم والدين..

ثم تتالت الهجرات ونمت المدينة وازداد توسعها، فكانت هجرة الأكراد والتركمان والمغاربة وغيرهم، الذين ساهموا وجاهدوا أنفسهم لإرساء معالم الخلافة الحقيقية للإنسان على الأرض...

فمن هم الأكراد؟

"الأكراد"، شعوب سكنت هضبة آسيا الوسطى الواسعة، وبلادهم موزعة بين الشام وتركيا وإيران والعراق وغيرها، قد وطؤوا الشام منذ ألف عام أو أكثر، فادمجوا تدريجياً مع السكان، وبدأت ملامح نهضة علمية عمرانية دينية جديدة تتألق فوق أرض دمشق... من أشهرهم القائد "صلاح الدين الأيوبي" و"أسد الدين شيركوه"، وقادة كثر قبل العهد الأيوبي عملوا تحت أمرة نور الدين زنكي في محاربة الصليبيين.. ثم قاموا بتأسيس حي ضاهي حي الصالحية اتساعاً وعمارة، وهو الحي الذي عُرف باسم "حي الأكراد".

و"حي الأكراد"، أو "ركن الدين" هو الحي الممتد على سفوح قاسيون والمطل على دمشق، المحصور ما بين (ابن النفيس) و(مدرسة الصاحبة) غرباً وجنوباً حتى (دوار الميسات)...



يضم هذا الحي عدة أحياء عريقة: ككيكيه، وانلي، شمدين، وأسد الدين وغيرها من الأحياء المسماة بأسماء مؤسسيها الذين تركوا من ورائهم إرثاً تاريخياً حضارياً إنسانياً عظيماً... و لا يُعرف تاريخ هجرة الأكراد إلى دمشق بالتحديد، لكن تقول المصادر أن من أوائل من وقف في وجه الحروب التي شنتها أوروبا على المشرق العربي، الأمير الكردي (مجاهد الدين بزان بن ياسين)، الذي قاتل تحت راية (الملك العادل نور الدين بن زنكي) 569 هـ، ثم ازداد عدد الأكراد الملتحقين

عندما التحق اثنان من كبارهم، وهما: (أسد الدين شيركوه) وأخوه (نجم الدين أيوب) والد (صلاح الدين يوسف الأيوبي).

وقال الحموي في معجم البلدان: ((كُرد بالضم ثم السكون، ودال مهملة، بلفظ واحد الأكراد، اسم قرية من قرى البيضاء، والكرد شعوب تسكن هضبة فسيحة في آسيا الوسطى، وبلادهم موزعة بين الشام وتركيا، وإيران والعراق وغيرها)).



أما تسمية "حي الأكراد" فهي نسبة لأقوام سكنوها، ثم أصبح يعرف "بركن الدين" نسبة لأحد ولاة دمشق في العصر الأيوبي، الأمير (ركن الدين منكورس) المدفون في المدرسة الركنية في ساحة شمدن. تابع الأيوبيون سياسة نورالدين زنكي ووالده عماد الدين ابن زنكي -رحمهم الله- في نضالهم ضد الصليبيين لتحرير ما احتلوه من بلاد الشام، واستمروا إلى أن جاء الغزو الممجي المغولي بقيادة هولاكو سنة 658 هجري.

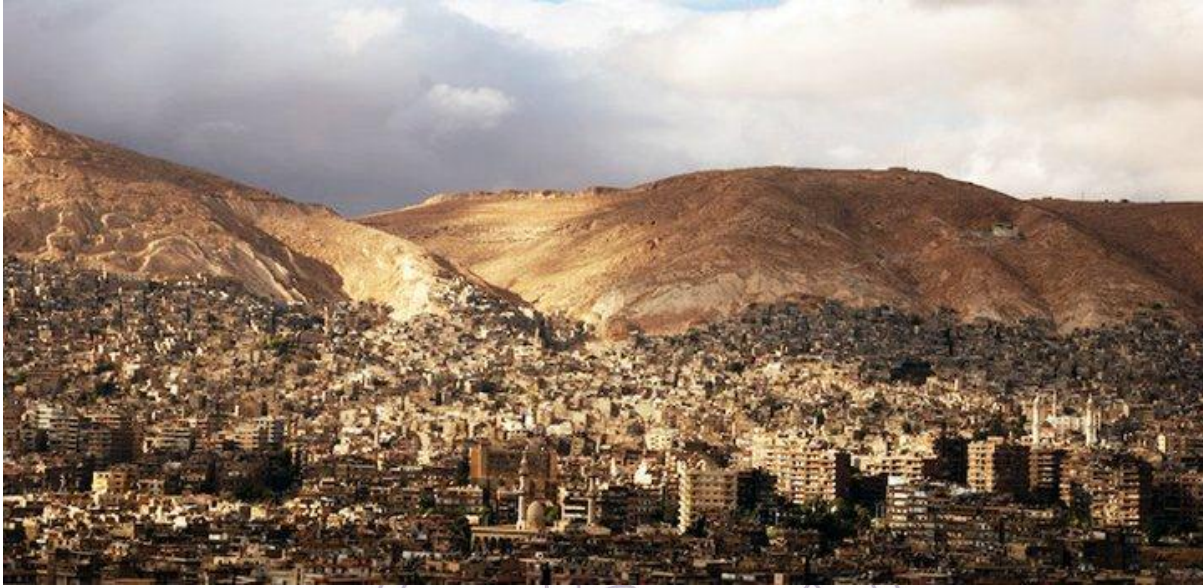
وقد كان الطابع العام للفن المعماري في هذه الفترة يغلب عليه البساطة والتكشف بسبب الحروب المستمرة، لكن تميز بالمتانة والقوة والإتقان، "إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه"، فاعتمدوا على الأحجار

الكبيرة .. مثال: قلعة دمشق، ومسجد الحنابلة (المظفري)، وجامع الركنية، وغير ذلك من المساجد والبيمارستانات والمدارس ...

والحضارة هي نوعان: حضارة مادية ملموسة على الأرض يخلفها الإنسان، وحضارة معنوية مخفية متصلة بمن نفخ فيه من روحه تدل على ذاك الإنسان المستخلف..، فالحضارة الإنسانية حجر الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية الذائعة الصيت... فهيا نتجول معاً وأرواحنا تناشد المولى أن يرزقنا حسن الفهم والتدبر لأقواله وأقوال حبيبه سيد الخلق، متلمسين خيرية مَنْ سبقونا كنجوم نهددي بهم....

تعالوا يا إخوتي نتأمل مساحة حي الأكراد (ركن الدين)، نجده قد فاق بقية الأحياء مساحة واتساعاً، حيث تعددت شوارعه وأزقته، ونرى مساجده الكثيرة التي توزعت هنا وهناك، وقد تعددت أسمائها على سبيل المثال من المساجد: الحنابلة، حمو ليلي، كردان، يونس آغا، مجمع أبي النور الكبير، ملا قاسم، الركنية، الرفاعي قديماً (البوطي)، أبو اليسر قديماً (زين العابدين)، الأربعين، صلاح الدين، طارق بن زياد، وغيرها....

أما المدارس التي تعددت وتنوعت باختصاصاتها العلمية فهي كثيرة... ومعها الكثير من الزوايا والتّرب والمقامات، أشهرها مقام "الشيخ خالد النقشبندي" .. وأيضاً الحمامات والبيمارستانات والأسواق.... وما الآثار المادية الراقية إلا انعكاس لرقّي الروح والنفس التي تنشده رضى الله ورسوله، فأبي روعة تفوق ذلك أيها الإنسان؟



لنتحول بين حارات وأزقة "حي الأكراد"، متأملين متلمّسين نسائم روحانية رائعة منبعثة من الماضي، تطلب منا أن نتدبر ونفهم كيف يكون النفع والخيرية لأنفسنا وغيرنا؟ " الخلق كلهم عيال الله وأحب خلقه إليه أنفعهم إلى عياله "...

ثم نختتم رحلتنا بالدعاء للمولى أن يجزي عنا كل من اجتهد وعمل لصالح وفلاح هذه الأرض المباركة خيراً، ولنبدأ بسؤال أزلي سيظل يشغل عقولنا: كيف هو السبيل والطريق الصحيح نحو جنة الله في كل من الدنيا والآخرة؟

فلنجتهد من خلال رحلتنا هذه، ولنحولها إلى رحلة رائعة نتلمس عبرها مشاعر الشوق والاشتياق النابغين من قلوبنا لنيل مباحة النبي العدنان بنا.. ففي كل شبر أو خطوة نخطوها ناشدين الخير لنا ولغيرنا وناشدين رضى الخالق، سيهمننا المولى السبيل والطريق إلى ذلك...
" ... ومن أتاني يمشي أثيته هرولة "....

المصادر:

الدارس في تاريخ المدارس / النعيمي

العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي

الحوليات الأثرية للجمهورية العربية السورية



الخانات في دمشق القديمة

بعد أن تجولنا في أسواق دمشق القديمة، وتمتعنا بقدم أرضها وقباب سمائها وبألوان بضائعها الزاهية...

كان لا بدّ للزائر والتاجر من التوقف للراحة والاستحمام، أو لعقد صفقة تجارية ما.. ومن هنا برزت أهمية الخانات في العمارة الإسلامية، فهي أبنية مخصصة لإقامة المسافرين وقوافل التجار، والخانات لفظة فارسية الأصل، أُطلقت على مكان مبيت المسافرين. والخانات نوعان: الأوّل أقيم على طُرق السّفَر خارج المدن المتباعدة، والثاني داخل المدن والتجمعات السكنية.

كان النوع الأوّل يُبنى في بادئ الأمر على منابع المياه ومجري الأنهار؛ ويتعد الواحد من الآخر مسيرة نهار، أيّ ما يقارب الثلاثين كيلومتراً. وكان الخان يقدّم الخدمات للتجار والرحالة والمسافرين كافة، ويوفّر لهم الراحة ويجنبهم مشقة ومخاطر السّفَر ليلاً.

يضمّ الخان مستودعات لحفظ البضائع وإسطبلاتٍ مختلفة لإيواء العربات وأنواع الحيوانات التي لا تتجانس في الزرائب. فالخيول تأنف من روائح الإبل. والبغال لا تسكن مع الحمير. وكانت الإسطبلات مجهزة بلوازم إصلاح المركبات ومعدات للعناية باللّواب ورعايتها. وإلى جانب تلك المرافق والخدمات، هناك الحوض في وسط الصّحن ومشرب البهائم، الفرن والمِصلي، وكذلك الحّمّام.

استُعمِلت في بناء الخانات مواد تغيّرت مع الموقع. فقد تكون من طينٍ أو من قرميدٍ مشويٍّ أو نبيء، في العراق وإيران ومصر، أو من حجارةٍ كلسيةٍ أو بازلتيةٍ في الشّام وتركيا. أمّا من حيث التّصميم، فكان الخان مربع المسقط، إجمالاً وغالباً بطبقتين اثنتين، تحتلّ أركانه أبراج للمراقبة والدّفاع. وقد يحيط به سور خارجي مدعّم وبوابة مصفّحة ضخمة محكمة الإغلاق ليلاً، وكأنّه حصن صغير. وكانت غرف المسافرين موزّعة بين الطّبقتين أو في العليا فقط. وفي بعض الخانات المتواضعة، كانت قاعة النّوم مشتركةً يرقدُ فيها المسافرون، على منصّاتٍ مرتفعةٍ عن الأرض. وكانوا يجلسون عليها نهاراً.

ومن الملاحظ أنّ خانات السّهول كانت أوسع من خانات الجبال. كما كانت خانات البلاد الباردة تخلو من الصّحن المكشوف. ولقد أخذت الخانات إجمالاً، بعد انتشار الإسلام، تصميمين رئيسيين: الأوّل إيراني بقاعاتٍ متطاولةٍ موازية للصّحن المركزي. ولكنّ هذا التّصميم ما لبث أن أخذ



شكل الأواوين. وقد احتلت البوابة في عمارته مركزاً على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية. أمّا التصميم الثاني فهو بأربعة أضلاعٍ وضحنٍ مركزيٍّ تحيط به الأروقة، قديم العهد، يُعرَف بالطراز البحر الأوسطي. أمّا النوع الثاني فكان خانات المدن التي كانت تشترك مع خانات الطّرق في ما تقدّم من خدمات؛ وتضمّ مرافق، وتختلف عنها في أخرى، إضافةً إلى ما كان يمكن أن تقدّمه المدينة بشكلٍ أفضل لزوّارها، كالحمام والمسجد والمطعم وشغل البيطار وغير ذلك من الصّوريات والكماليات. وكما كانت خانات الطّرق تمثّل المحطّات الحسّاسة على مفارق الطّرق ومجاري المياه ومراكز الحدود، لذلك احتلّت خانات المديّن مداخل المدن، خارج السور أو داخله أيام السّلم وفي قلب الأسواق وجوار الحمام والمسجد.

كانت وظيفة الخان في المدينة استقبال التجار بشكلٍ عامٍ، من باعة الجملة ومُروّجي البضائع ومراسلي المستوردين والوسطاء. وفي هذا المكان كان يتمّ البيع والشراء، وكانّ المكان لم يعد لإيواء المسافرين بل استقبلهم ريثما يتمّون تجارتهم. وكما كان لكلّ بضاعةٍ دار، صار لها خان يرتبط اسمه بها، إن لم يرتبط باسم مؤسّسه أو مالكه؛ فهناك خان الحرير وخان الحبالين في دمشق، وخان الجوخ في استنبول، وخان الخيّاطين والصّابون في طرابلس، وخان الزّيت وخان الحرير في حلب. وكان بعضها عظيم الاتّساع كخان الجُمرك في حلب الذي يعود تاريخه إلى عام 1574م. فقد ضمّ اثنين وخمسين مخزناً، وسبعاً وسبعين غرفةً وسوقين مبنيين بالحجر المهندّم، يصل إليهما الضّوء من قببٍ عشر تعلوها. وكان مجموع دكاكينه ثلاثمائة وأربعة وأربعين، وإلى جانبها سبيلان ومسجد.

تصميم خان المدينة، بشكلٍ عامٍ، لم يتغيّر على مرّ العصور. فأخذ تخطيط صحنٍ مركزيٍّ مكشوفٍ يتوسّطه حوض. وتحيط بالصّحن بوائك أُقيمت الدكاكين تحتها، لتبقى أبوابها محميّةً من الحرّ صيفاً ومن المطر شتاءً. ومن النّاحية الإدارية، قد يكون الخان مؤسّسةً دينيّةً مرتبطةً بوقفٍ يُحوّل ريعه لصيانة مدرسةٍ أو مسجدٍ أو إطعام مسكينٍ أو فقيرٍ.

لم يبق من كلّ تلك الخانات إلاّ عدد قليل؛ واقتصرت خدماته على استعمال مستودعاته ودكاكينه من قبل مستأجرين، لا تجمعهم إلاّ نادراً تجارةً مشتركةً أو مهنّ واحدةً، وربّما سكنت غرفةً عائلاً فقيرةً.

فالخانات إذاً هي الأبنية المخصّصة لإقامة المسافرين وقوافل التّجار، وهي لها أهمّيّتها الخاصة في العمارة الإسلاميّة، حيث عُرفت منذ العصور الإسلاميّة الأولى.

وأقدم خان أنشئ في العصر الإسلامي، الخان الذي بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام 109 هجري - 728 ميلادي، على مقربة من قصر الحير الغربي في البادية السورية، وقد نقش على ساكف بوابته كتابة تذكر اسم المعمارى (ثابت بن أبي ثابت) والتاريخ 109 هجري. وقد حفظت في المتحف الوطني بدمشق.

وقد اشتهرت الخانات بواجهاتها المزينة بزخارف جميلة ومدخلها القوسية الضخمة التي كانت تُغلق بواسطة مصرعيّ بابٍ خشبيّ مصفّح بالحديد والنحاس. وأصبحت أكثر باحاتها مسقوفة بالقباب والعقود.

وإن عدد الخانات التي كانت في دمشق ومازال القليل منها باقياً، يدل على مدى ازدهار الحياة الاقتصادية والتبادل التجاري بين دمشق وغيرها من المدن السورية أو العواصم الإسلامية، وبخاصة المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فلقد كانت مواسم الحج ذهاباً وعودة هي من أخصب المواسم وأطولها، ولقد أثرت الظروف السياسية والاقتصادية في الدول المجاورة وفي سورية، على المواسم الاقتصادية، مما نراه واضحاً في تزايد أو إهمال الخانات عبر التاريخ.

و أقدم خان في دمشق هو دار الضيافة يعود إلى عام 123هـ/720م، ثم خان أما جور ويعود إلى عام 265هـ/878م. وهذا يعني إن الخانات في دمشق أنشئت منذ العصر الأموي واستمرت إلى العصر العباسي، ثم الفاطمي وقد ورد اسم القيسارية الفخرية التي تعود إلى عام 434هـ/1042م. ولقد ورد ذكر أسماء الخانات في كل عصر ففي العصر الزنكي زادت عن العشرين خاناً، وأسماء الخانات التي تعود إلى العصر الأيوبي تزيد عن هذا العدد. ولم يبق من هذه الخانات اليوم أي أثر. أما الخانات التي أنشئت في العصر المملوكي، فلقد بلغت مئة وخمسين خاناً بقي منها، خان الدكة فقط. وبلغ عدد الخانات التي أنشئت في العصر العثماني ثلاثة وثمانين خاناً، بقي منها خان المرادية و خان الجمرك و خان الزيت و خان سليمان باشا و خان أسعد باشا و خان السفرجلانية و خان الزعفرانية و خان العامود و خان الرز و خان العسرونية و خان القيشاني و خان التوتون و خان الصوّاف و خان الصنوبر و خان السلق و خان القطن و خان الجلود و خان مردم بيك و خان الجيجاوي و خان الكزبري و خان شوط و خان القوتلي، ثم وكالة العشا ووكالة كحالة.

وتفتقر أكثر الخانات إلى مصادر تاريخية، سواء منها الخانات المتبقية والماثلة حتى اليوم أو الدراسة المهدومة. ولا بد من القول إن جميع الخانات المتبقية، مسجلة في القوائم الأثرية، وهذا يعني أنها تحت

حماية السلطة الأثرية ورعايتها - على الورق -، ولا يجوز هدمها وتغيير أوصافها حتى ولو أرادت ذلك السلطات البلدية أو الوقفية، (مع ملاحظة التعدي وسرقة أقسام من الخانات بسبب وجود التقصير والإهمال الذي ظهر من الجهة الموكل إليها مراعاة الآثار، حتى يمر المار ولا يتنبه لوجود هذه الآثار ولهذا الخانات ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وبشكل عام الجامع المشترك في عناصر التخطيط العمراني يتألف من: صحن واسع في الوسط، ويتوسطه بركة ماء كبيرة، مستودعات ومخازن وحوائيت مفتوحة لإيداع البضائع، وفي الطوابق العليا غرف للسكن والنوم وتقوم فوق المستودعات.

وقد ازدهرت أكثر في العصر المملوكي، ولكن العناية الخاصة كانت في العهد العثماني، فتوسع الأراضي أدى إلى الاهتمام أكثر ببناء الخانات الموزعة على الطرقات وداخل المدن، وأهميتها تنبع من الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي بدأ العالم الإسلامي يتمتع به في فترة الاستقرار السياسي. كما واشتهرت الخانات بواجهتها المزينة بزخارف جميلة، ومدخلها القوسية الضخمة، التي تغلق بمصراعِي باب خشبي مصفح بالحديد والنحاس، والباحات المسقوفة بالقباب أو العقود.

ونحن هنا سوف نذكر الخانات في دمشق القديمة، ثم نقوم بزيارة أهم وأجمل هذه الخانات، وهو خان أسعد باشا العظم، وهذا لا يلغي أهمية الباقي، وإنما لوضوح معالم هذا الخان في بنائه وجمال زخرفته، ولنردد أثناء التجوال سبحان الله وفي نهاية المطاف الحمد لله

أما عن الخانات الموجودة في دمشق أثناء العصر المملوكي:

1- خان جقمق: أنشئ عام 825 هجري - 1421 ميلادي وقام ببنائه الأمير سيف الدين جقمق نائب الوالي المملوكي للسلطة في دمشق وباني المدرسة الجقمقية الموجودة عند الباب الشمالي للجامع الأموي، ويشاهد الخان اليوم في سوق مدحت باشا (سوق جقمق سابقاً) من الجانب الشمالي. هذا السوق الذي كان في العصر الروماني السوق الرئيسي للمدينة "دوكومانوس".

ولهذا الخان الصغير بوابة مزخرفة كبيرة، تنتهي بعد دهليز مسقوف إلى باحة مكشوفة مستطيلة، كانت لها بركة سداسية، ولقد أحيطت بغرف عددها ثمانية عشر غرفة، وفي جانبها إيوانان من الشرق والغرب مغطيان بقبوة متصالبة. ويصعد إلى الطابق العلوي من درجين في الدهليز، وفيه اثنتان وعشرون غرفة، سقوفها كانت مقببة قبل حريق 1925م ثم أعيد بناؤها مسطحة.

2- **خان الدكة:** يقع في أول سوق مدحت باشا غربي جقمق، لا يعرف من بناه، ويعتبر خان الدكة أقدم خان مازال قائماً حتى اليوم، وتسميته تعود إلى منصة حجرية فيه كانت تعرض عليها الجوارى والأقنان لبيعها، ولذلك أطلق عليه أحياناً اسم خان الجوارى، ويقع في سوق مدحت باشا. وهو مؤلف من باحة مكشوفة محاطة بثمانية غرف، وثمة قاعة كبرى في الزاوية الشمالية الشرقية، ومازالت أعمدة المنصة أو الدكة قائمة في الباحة التي زالت منها البركة ذات الاثني عشر ضلعاً. وفي الدهليز الذي يعقب بوابة الخان غرفتان من كل جانب. والخان مؤلف من طابق أرضي فقط.

الخانات الموجودة في دمشق في العهد العثماني:

1- **خان الحرير:** بناه الوالي درويش باشا أيام ولايته 982/979 هجري ويقع إلى الجنوب الغربي من الجامع الأموي في سوق الحرير، ويطلق عليه اسم قيسارية درويش باشا. وقد أوقفه لصالح جامع الدرويشية وملحقاته وتبلغ مساحة هذا الخان الواسع 2500 م²، وتفتتح بوابة الخان المزخرفة من طرف الواجهة المبنية من مداميك متناوية من الحجر النحلي الأبيض والأسود، ويحيط بالخان خارجياً سبعة وعشرون مخزناً، وعندما نتجاوز البوابة وبعد اختراق الدهليز المغطى بقبتين متصلتين، نصل إلى الباحة المكشوفة المحاطة بتسعة عشر مخزناً لكل مخزن مستودع. وفي وسط الباحة بركة. ويغطي المخازن قبوات سريرية أو متصلبة، وهي مبنية من الحجر النحلي الأسود، وفوق أبوابها ونوافذها أقواس مزينة بمنحوتات بديعة ونصعد إلى الطابق العلوي من درجتين في الدهليز، ونصل إلى رواق محيط مغطى بأربع وأربعين قبة صغيرة، وخلفه تقوم اثنتان وخمسون غرفة مغطاة بقبوات سريرية، وثمة غرفة واسعة تخرج من مخطط الخان في الزاوية الشمالية الشرقية وتقوم فوق مخزن في الطابق الأرضي في عام 1006هـ/1593م بمقتضى وقفية مراد باشا تم بناء قيسارية ابن القطان التي تسمى خان الصابون.. وخان المرادية الذي يسمى البزستان.

أما القيسارية فهي بناء صغير مؤلف من طابقين حول باحة مربعة وفي الطابق العلوي رواق مغطى بإحدى عشرة قبة، تكون بجانب الخانات والأسواق، يستقر فيها رجال من الدولة: حرّاس - موظفون - جباة. حيث نشأ منذ بداية الإسلام ما يسمى أمين السوق، الذي عُرفَ فيما بعد بالمختسب، والذي وظيفته الاشراف على البيع والشراء، والأوزان والمكاييل، ومكافحة الغش، وعندما ارتبط المختسب

بتعاليم الشرع، أصبح لوظيفة المحتسب شأن كبير في الدولة، وأوسعهم نفوذاً منذ القرن الحادي عشر هجري.

- 2- **خان الجوخية:** الكائن في سوق الخياطين بناه الوالي أحمد شمسي باشا عام 960 هجري.
- 3- **خان سليمان باشا:** الكائن في سوق مدحت باشا بني عام 1145 هجري، ومبني بمداميك بيضاء وسوداء بالتناوب. وهو كباقي الخانات هندسة ويمتاز بباحة مستطيلة كانت مغطاة بقبتين زالتا ومازالت آثارهما باقية. وحول الباحة تقوم سبع عشرة غرفة ومخزن وإسطبل ودورتان للمياه. أما الطابق العلوي فهو مؤلف من رواق مغطى بقبوات متصالبة ومحاط بتسع وعشرين غرفة ذات نوافذ من الطرفين؛ الداخلي والخارجي، ولهذا الخان أبواب ثلاثة تقع في الزاوية الجنوبية الغربية، لقد ابتداءً بناء هذا الخان بأمر الوالي سليمان باشا العظم سنة 1145هـ/1732م وانتهى 1150هـ/1736م، وفي عصر ابن أخيه أسعد باشا سنة 1156هـ/1743م ابتدئ ببناء خان أسعد باشا.
- 4- **خان الخياطين:** الذي أنشأه الوالي العثماني شعبان أحمد شمسي باشا سنة 960هـ/1553م، فإنه يقع في سوق الخياطين وكان اسمه خان الجوخية. وهو مؤلف من بوابة مزخرفة، ودھليز في طرفيه درج وقاعة واسعة، لعل أحدها كانت مطبخاً. وينتهي الدهليز بباحة مستطيلة مؤلفة من مربعين، ومحاطة برواق، ولعل الباحة كانت مغطاة بقبتين لهما أثر واضح في زواجر وأركان القباب المتبقية. ويحيط بالباحة اثنتي عشرة غرفة، كل غرفة مؤلفة من قسمين تعلو كل واحدة قبة. أما الطابق العلوي فكان مؤلفاً من عدد مماثل من الغرف التي يتقدمها رواق مقبى يدور حول الباحة ويشرف عليها. ويعدّ هذا الخان أقدم الخانات العثمانية في دمشق.
- 5- **خان المرادية:** فكان موقوفاً على فقراء الحرمين الشريفين ويقع غربي الجامع الأموي. وله خمسة أبواب وهو مؤلف من بناء مربع وملحق مستطيل، ويتألف البناء المربع من باحة مربعة محاطة بأربعة وعشرين مخزناً عدا ثلاثة وعشرين مخزناً خارجياً. أما الملحق فهو دھليز يشكل مدخلاً لخان الجمرك.
- 6- **خان الجمرك:** وهو من منشآت الوالي مراد باشا سنة 1596م فهو يختلف بمخططه عن جميع الخانات، إذ يمتد على شكل زاوية قائمة من دخلة السلیمانية إلى سوق الحرير باتجاه الشرق. ولقد ورد وصفه في وقفية مراد باشا وصفاً دقيقاً مع وصف المرادية، وهو يتضمن ثلاثة وخمسين مخزناً كبيراً وثمانية مخازن صغيرة، وتقوم بين المخازن عضادات تحمل أقواساً يستند عليها تروس تحمل تسع قباب ذات رقاب ونوافذ.



7- **خان العمود:** مقابل خان أسعد باشا يقوم خان صغير يضم مجموعتين من المخازن، بينهما مازال قائماً عمود يحمل أساس عقود، مما يدل على أنه كان يحمل أعصاب قبتين تغطيان باحتي المجموعتين، وهو مؤلف من طابقين ويطلق على هذا الخان اسم خان العمود ولا يعرف تاريخه الدقيق. وليس بعيداً عن هذا الخان، يقوم خان الصدرانية.

8- **خان الصدرانية:** ويختلف مخططه عن باقي الخانات، بسبب مساحة الأرض المحدودة الضيقة، ويلفت النظر بحلوله الهندسية التي أدت إلى الاستفادة من كل جزء من الأرض لإقامة المخازن والغرف حول باحة مستطيلة وحدودها ثلاثة عشر مخزناً. أما غرف الطابق العلوي فهي مهدمة ومهجورة.

9- **خان الزعفرانية:** يشبه هندسياً خان الصدرانية وهو معاصر له.



دار القرآن والحديث التنكزية [728هـ]

في البزورية إلى جنوب قصر العظم بدمشق القديمة

أنشأها الأمير تنكز نائب الشام

دمشق هي المدينة التي شهد لها المصطفى بعمود النور الساطع الذي سيضيء ما بين السماء والأرض، وسمّاه بعمود الإسلام.. دمشق هي التي دعى لها نبي الله بالبركة وشهد لأهلها بأهم خيرة الخلق.. دمشق هي المدينة التي نصح بسكناها نبينا الكريم صحابته الكرام، فهل أتاكم خيرها يا قاطنيها؟ وهل علمتم أنها لُقبت بمدينة العلم والعلماء، فكانت إليها تُشدّ الرّحال.. دمشق التي زحرت وعمّرت بالمساجد والمدارس، جاذبة إليها العلماء الأجلاء من كل مكان، تدعوننا اليوم لسير بين أزقتها القديمة متلمّسين نسائم إيمانية منادية الغادي والماشي أن: قفوا وتأملوا كيف كان من قبلكم يخيون فوق أرض دمشق العظيمة...

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

و لنمض باتجاه الأموي في الشام القديمة، ثم باتجاه سوق البزورية خلفه، وما أروعها من سياحة!

دار القرآن والحديث التنكزية:

كانت هذه الدار حمّاماً يُعرف بحمّام سويد، هدمه نائب السلطنة بالشام، الأمير (سيف الدين، أبو سعيد، تنكز الملكي الناصري)، وجعله مدرسة لتعليم القرآن والحديث والفقهاء.. حيث جُلب إلى مصر وهو حدث فنشأ بها، وسمّع البخاري على ابن الشيخ، وصحيح مسلم وكتاب الآثار على غيره، وبنى الجامع المعروف باسمه بـحجر السماق، وغيره من الأبنية الدينية والعلمية بدمشق ومصر وفلسطين.. وقيل أنه في عهده أمن الرعايا ولم يظلم ذمياً أو غيره.. دُفن في تربته جوار جامع تنكز، رحمه الله.

موقعها:

شرقي حمّام نورالدين الشهيد بسوق البزورية تجاه دار الذهب، فجاءت في غاية الحسن.. وهي جيدة البناء، أهم ما بقي منها واجهتها الحجرية، والباب ذو المقرصنات الرائعة.

كما أن الأمير تنكز قد جدّد المساجد والمدارس ووسّع الطرقات واعتنى بها، وذكره أهل دمشق في ذلك الوقت بأفضل الأخلاق والآثار التي خلفها ورائه، وتأسفت لموته دمشق الشام لأعمال الخير التي أحدثها أينما حلّ وارتحل بين البلاد، ورثاه الصفدي بأبيات طويلة.

صلى الله عليك يا رسول الله .. ماذا ارتأيت وجل عندما سألك الصحابة: إلى أين المفر عند ظهور الفتن؟ فأومئت برأسك تجاه الشام ثلاث مرات قائلاً قولك الشريف: (عليكم بالشام، عليكم بالشام.. فإنها صفوة الله تعالى من أرضها، ويُسكِنها خيرته من عباده).

كلام بالغ الروعة والمعنى، لكن لمن؟ لمن كان صدقه في إرضاء الله ونبيه محفوراً في نفسه قبل أي شيء آخر!

فها نحن بين أحضان مدرسة أُقيمت تعظيماً للقرآن والحديث على يد سلفنا الذي اجتهد على نفسه لينال حظوة من رضى الرسول الكريم، فهذا الأمير لم تشغله الدنيا بزینتها ومتاعها، بل أته راغمة، وما ذلك إلا لمن كان همّه الآخرة.. ومن هؤلاء نتعلم كيف نُحيي هممنا ونُغذيها عشقاً وحباً واتباعاً لمن بُعث مُتمماً لمكارم الاخلاق، عليه أفضل الصلاة والسلام.

المصادر والمراجع:

- الدارس في تاريخ المدارس / النعيمي
- العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي

ربوة دمشق في القرآن

دمشق قل ما شئت في وصفها واحك عن (الربوة) ما تحكي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الدفّ والجنك

(دمشق: التي تحرسها (الربوة) ذات الشاذروان وهي خاشعة في محرابها الصخري تسبح الله وتحمده..
الربوة: لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة في أذن الأرض، الربوة هي الربوة لمن يعرفها وكفى).
الطنطاوي...

قال الله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم
قوةً وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها...﴾



فالأثار يا أخوتي لغة: أثر، والأثر: الحديث يذكره الشخص عن غيره، والمأثور: ما ينقله خلق عن
السلف إلى الخلف (أقوال أو أعمال).

والآثار أنواع: آثار أمم سابقة لها ارتباط بعقائدهم، كالكنائس والمساجد و.... وآثار ليس لها ارتباط بالعقائد كالتقصور والقلاع....

إذن فهي مجموعة أشياء متبقية من أزمنة، والنظر فيها بتأمل وتفكر يعدّ عبادة يقوم بها الإنسان بأمر من الله عز وجل لاستخلاص العبرة.. فهيّا معنا في رحلة سياحية رائعة نمجّد فيها الخالق بديع الصنع سبحانه نستشوق روعة جمال وجلال صنعه من ربوة ذكرها لنا في القرآن الكريم..

فلتستشعر أيها السائح الدمشقي هذه الروعة في قوله تعالى: ﴿.. وَأَوْيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ...﴾، ولتكن نزهتنا اليوم بطريقة مختلفة نتمتع فيها النظر بمشاهد رائعة، والقلب والروح يردّدان معاً: سبحانك ما أعظمك! لا إله إلا أنت... ملتهمسين يا إخوتي تلك العظمة في مدينتنا دمشق الرائعة، فهي متحف احتار الرحالة المسلمون والشعراء في وصفها ومدحها، تحتاج منا اليوم وقفة التأمل والنظر، والأهم من ذلك معرفة كيف نحافظ عليها محافظةً محبين عاشقين لله ورسوله..

أخي السائح الدمشقي:

قال مؤرخ دمشق ابن عساكر (571) رحمه الله في كتابه الشهير (تاريخ دمشق) في باب (ذكر الإيضاح والبيان عما ورد في فضلها من القرآن):

أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قرأ قوله تعالى من سورة ﴿.. وَأَوْيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ...﴾ سأل الصحابة الكرام: أتدرون أين هي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة، مدينة يقال لها دمشق، هي خير مدائن الشام) وقال في باب (فضل المساجد المقصودة بالزيارة: كالربوة ومقام إبراهيم...):

قد تقدم في باب الإيضاح والبيان عما ورد في فضل دمشق من القرآن، مما نُقل عن العلماء من أهل القدرة، أن ربوة دمشق هي الربوة المذكورة في كتابه.

وقال ابن عباس: (الربوة) هي المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وقال المفسرون للآية الكريمة: أن الله تعالى قد أمر عيسى وأمه أن يسكننا تلك الربوة بدمشق. ثم أنصت أيها السائح الدمشقي لياقوت الحموي (732) رحمه الله، في (تقويم البلدان)، يقول عن الربوة:

(ربوة) بضم أوله، وفتحها، وكسره، والضم أجود في قوله تعالى: سورة ﴿.. وَأَوْيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ...﴾.



وقيل:

وبدمشق في لحف جبل قاسيون موضع ليس في الدنيا أنزه منه، لأنه في لحف جبل تحته سواء نهر بردى وهو مبني على نهر ثورا، وهو مسجد عال يشرف على بردى، وفي رأسه نهر يزيد، وفي ناحية من ذلك المسجد كهف صغير، يزعمون أنه المذكور في القرآن.

وقال الرحالة ابن جبیر (614): دمشق حرسها الله تعالى أنها تشرفت بأن آوى الله تعالى إليها المسيح وأمه، صلى الله عليهما، إلى ربوة منها ذات قرار ومعين وظل ظليل، وماء سلسيل... فهل عرفناها وناظرنا جلالها وجمالها...؟

إخوتنا القراء:

القرآن الكريم ذكرها، ونبينا العظيم مدحها... والعلماء بحب وإجلال عاينوها وأجمعوا أنها في شمال غرب دمشق... والشعراء من بعد ذلك تغنّوا بوصفها... فماذا بقي، يا إخوتي، إلا أن نقوم معاً بسياحة إسلامية يميزها حب المعرفة والشغف الإيماني المحب اللاهج بدعاء الله تعالى أن يحرسها وسائر المدن...؟

وتحت عنوان قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا...﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسِيرُوا إِلَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، نسير ونتأمل لنعمل صالحاً من قول أو فعل، نتركه أثراً لأقوام ستأتي من بعدنا تترحم علينا وتدعو لنا إن ناظروا أقوالنا وأعمالنا..
فلننتبه ونحذر من غفلة هوى أو كسل وتهاون، والعياذ بالله....

موقع الربوة جغرافياً:

يعد جبل قاسيون امتداداً جغرافياً لسلاسل الجبال السورية الغربية، وقد تميز هذا الجبل بنشاطه العمراني عبر التاريخ، لكن تبقى المكانة الدينية التي متّعه الله عز وجل بها هي الأهم، فالقرآن تحدث عن هذه الربوة التي آوت المسيح وأمه هرباً من اليهود، في أقصى الغرب لجبل قاسيون...
فالربوة تقع في وادي بردى شمال غرب دمشق، يغطي سهولها مرج أخضر رائع يجذب الدمشقيين إليها للترويح عن أنفسهم، ثم يشقّها نهر بردى الذي يتفرع من منطقة تسمى الشاذروان إلى سبعة فروع..

وفي هذه الربوة ما يشبه المحراب، يُقال أنه مهد المسيح عليه السلام الذي آوى إليه مع أمه، ويزوره العاشقون لله وأنبيائه بنية التزود بشحنات روحانية تملأ القلب وتعين النفس والبدن للعمل النافع، بعد شكر الله عز وجل أن شرفهم بالمقام في هذه الأرض المباركة.. فهلاً تدبرنا واعتبرنا؟

وصف الربوة:

أنصت أيها السائح إلى وصف البدرى للربوة في كتابه (محاسن الشام): "ومن محاسن الشام الحواكير وهي كالحدايق في سفح قاسيون فإن الفاصل بينه وبين (جبل الربوة) عقبة قرية تدعى (دمر) التي بحد (قبة السيار)، وأن سياراً هذا وبشاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للربوة، وكأنهما كانا من أصحاب الخطوة.

ومن محاسن الشام محلة (الربوة) وهي المذكورة في القرآن... وإنما قيل لها ربوة لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهاها. وكل رابٍ مرتفع على ما حوله يقال له ربوة".

ويصفها ابن بطوطة قائلاً: (من أجمل مناظر الدنيا، وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة، والبساتين البديعة.

وعدها المتقدمون من قاسيون، مع أنها واد وليست بجبل، لأن الحد الطبيعي لهذا الجبل من الجنوب هو بردى، وهي أول منفسح الوادي الغربي الآخذ إلى دمشق، وفيها يخرج بردى من سجنه الضيق لينقسم فيها إلى عدة أنهار.. ففي سفح قاسيون من جهة الشرق والشمال نهر يزيد وثورى، وفي سفح جبل المزة من جهة الغرب والجنوب قناة الداراني ثم قناة المزة ثم قنوات بانياس، وبأسفل الوادي يسيل ما بقي من المياه من بردى، ففيها يظهر تقسيم هذا النهر إلى عدة أنهار فيزيد تلك الجهة نضارة وجمالاً).

أخي السائح (المعتبر المتعظ)، بعد تأملك في سيرك وسياحتك الجميلة هذه.. ماذا تستشعر روحك الحبيسة في فقص جسدك الذي اعتاد خنق وإخماد أي نفحة روحانية تدل على الله جلّ وعلا، ليبدلها ويزينها لك بمتع دنيوية فقط؟

ألا تتلمس نداء هذه الروح العطشى الظمأى لذكر وتمجيد الصانع المبدع؟؟؟
إن المتأمل لجمال الربوة يجدها صفحة في كتاب الكون البديع، ليقرأها الناس ببصيرة الفهم على الخالق، وينعموا على قلوبهم وعقولهم بنفحات قدسية آتية من عند الله، تبصّرهم بين طبيعة غناء ليعملوا بأفضل الأعمال..

ونأسف إذ انشغل الناس بطيب الم لذات من المشتبهيات، ووقفوا عندها فنسوا وغفلوا عن حكمة الله في بديع صنعه...

فاليوم لا تملك الربوة إلا التأسف على من غفل ومات قلبه عن إدراك سر جمال صنع الله... وبردى من بعدها لا ييأس بل ينادي علينا ويدعونا لغسل غفلة أكلت أفئدتنا، عسى أن نتدارك لترميم ما يمكن ترميمه من عقول تاهت وجهلت، وقلوب جفت فيها معاني محبة المنعم الخالق....

اللهم اجعلنا ممن يسمع هذا النداء فيتعظ ويستدرك ويحسن محاسبة نفسه، فيصلح ذاته إلى ما يحب الله ويرضى، قبل فوات الأوان... اللهم آمين.

المصادر:

- تاريخ دمشق / ابن عساكر - تقويم البلدان / لياقوت الحموي.
- رحلة ابن جبير / لابن جبير - القلائد الجوهريّة / لابن طولون.



سور دمشق القديم وأبوابها

"دمشق أقدم مدن الأرض قدماً، وأكبرها سناً، وأرسخها في الحضارة قدماً..، وبعد فأعيد مزاياك يا دمشق أذكره وفيك الدين والدنيا، وعندك الجمال والجلال، وأنت ديار المجد وأنت ديار الوجد، جمعت عظمة الماضي وروعة الحاضر؟" علي الطنطاوي رحمه الله.

لقد حباها الله عز وجل بميزات جعلها محط أنظار العالم، جغرافياً، إقليمياً، تاريخياً، علمياً، دينياً، فنياً، عمرانياً...، وتوالت فيها الحضارات وتمازجت الثقافات والتقاليد، فأخذت وأعطت وتفاعلت فأنتجت آثار وأوابد ومنشآت يتجلى فيها هذا التمازج، تماماً كما قال مالك بن نبي: "الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنما تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر".

يقول الحموي في (معجم البلدان): إن أول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان هو حائط (دمشق). وقد كان لسور المدينة سبعة أبواب في العهد الروماني، أما على السور الغربي فإن الأبواب كانت تزيد وتنقص بين الحين والآخر كلما جدد السور فتسد أبواب وتفتح أبواب أخرى. وحالياً اختفت بعض الأبواب وحلت مكانها أبنية أو طرق أو أسواق وأبواب سور دمشق على مر العصور. ويروي المؤرخ حسن البدر في كتابه (نزهة الإمام في محاسن الشام) وصفاً طريفاً لأبواب دمشق القديمة وعلاقتها بالكواكب فيقول: كانت صور الكواكب على هذه الأبواب، زحل على باب كيسان، والشمس على الباب الشرقي، والزهرة على باب توما، والقمر على باب الجنيق، وعطارد على باب الفراديس، وصورة المشتري على باب الجابية، أما المريخ فعلى الباب الصغير.

ويروي ابن عساكر في تاريخ بناء مدينة دمشق، رواية مفادها: "وبلغني عن بعضهم: أن الذي بنى دمشق بناها على الكواكب السبعة، وأن المشتري بيته دمشق، وجعل لها سبعة أبواب وصور على كل باب أحد الكواكب السبعة وصور على الباب الذي يقال له اليوم باب كيسان زحل، فخربت الصور كلها التي كانت على الأبواب إلا باب كيسان، فإذا صورة زحل عليه باقية إلى الساعة".

ويقول الحافظ ابن عساكر رحمه الله: "كان الباب الجابية ثلاثة أبواب، الأوسط منها كبير، وعلى جانبيه بابان صغيران، والباب الشرقي بنفس هذه الصفات، كونه مقابل له".

وكان من الثلاثة أبواب ثلاثة أسواق ممتدة من الباب الشرقي إلى باب الجابية.





وكان الأوسط من الأسواق الثلاثة للمشاة من الناس، وأحد السوقين لمن يشترق بدابته، والآخر لمن يعرّب بدابته حتى لا يلتقي فيهما راكبان.

ونحن نرى أن مدينة دمشق القديمة تنقسم إلى منطقتين:

الأولى: وهي الأقدم، قد استوطنها الآرميون -اليونانيون- الرومانيون. منذ آلاف السنين. تضم

السور القديم وأبوابه.

أما المنطقة الثانية: خارج السور وداخل السور حاراتها المحدثّة، مثل الصالحية، الميدان، الشاغور،

ساروجة.

وفي دمشق عاش اليونان مع الآراميين جنباً إلى جنب، وأصبح لليونان جالية كبيرة، سكنت دمشق، ونتيجة هذا التمازج كانت الثقافة الهلنستية التي طبعت دمشق بطابعها عدة قرون، ولكن بمجيء الامبراطورية الرومانية، حظيت دمشق بتنظيم جديد، أحيطت بسور واسع مستطيل بني بالأحجار الضخمة، وزود بسبعة أبواب.

أول من سكن "دمشق" الآرميون: شعوب عربية قديمة هاجرت من شبه الجزيرة العربية منذ آلاف السنين ق.م.

وأسس الآرميون ممالك في سورية وجعلوا من دمشق عاصمة لدولتهم الصغيرة، وتدل الدراسات أنها كانت لا تتجاوز الكيلو متر مربع.

وشغلت أبنيتها وأزقتها الجانب العربي من المدينة لارتفاعها، وكانت تسمى "دار ميسيق"، أي الدار المسقيّة، ودلت الحفريات بعدم وجود أي مظهر عمراي في مساكنها وشوارعها خارج هذه

المنطقة، وشغل معبد "حدد" القسم الجنوبي للملكة، أي موقع الجامع، والقصر الملكي يقع إلى غربي المعبد، (عُثر على لوح حجري ضخّم يعود لهذا العهد في أساسيات الجدار الشمالي للجامع).

وتوالى على هذه المملكة احتلال آشوري، ومن ثم كلداني، والفارسي، وتحديثنا المصادر أن لا شيء هام حدث في مدينة "دمشق" من الناحية العمرانية والفنية، إلى أن جاء اليونان إليها إثر الاحتلال

المكدوني عام 333 ق.م.



ويروي ابن عساكر في تاريخه، والبدرى في "نزهة الأنام في محاسن الشام": "اتفق المؤرخون أن اليونانيون هم من وضعوا الأرصاد وتكلموا على حركة الكواكب واتصالاتها ومقارنتها، وبنوا دمشق في طالع سعيد".

ولقد جهد خلفاء الاسكندر المقدوني، من بطالسة وسلوقيين إلى خلق ثقافة مميزة تعبر عن هذا التمازج بين العرب القدماء (الآرميون) واليونان، والتي طبعت "دمشق" بالثقافة الهلنستية، فعملوا على إحداث تخطيط وتنظيم للمدينة متأثر بنظام المدن اليونانية، فكانت الشوارع المستقيمة والمتقاطعة، والتي حصرت البناء السكاني كقطع الشطرنج، استمر احتلالهم أربعة قرون، إلى أن جاء الرومان وأخذوا بإيجاد ثقافة جديدة تميزهم عن غيرهم.

وكان الازدهار الاقتصادي، وزيادة عدد السكان، في عصرهم سبباً لتوسيع مدينة "دمشق"، وبدأت تشهد الأنشطة المتنوعة والازدهار المشع في كافة الجوانب، قام الرومان بإحاطتها بسور واسع ومستطيل مبنى بالحجارة الضخمة، وزود هذا السور بأبواب لحمايتها، وحماية السكان والمنشآت، إذا لا يمكن الوصول إلى الداخل إلا من خلالها، قد يكون هذا السور فوق السور الذي بناه غلام الإسكندر، حيث جاء أكثر قوةً وتنظيماً.

وقد وجدت الأسوار حول المدن لحمايتها من الهجمات الخارجية وهو أسلوب أتبعه اليونان، وضمن السور وجدت الأبواب للدخول والخروج من وإلى المدينة، ويعتقد الباحثون في تاريخ دمشق أن سور المدينة قد تواجد حولها منذ العهد الآرامي وبعده اليوناني. وعندما سيطر الرومان على دمشق عام 64 ق.م عمدوا إلى تجديد الأسوار وإعادة بنائها فأحاطوا المدينة بسور حجري تضمن سبعة أبواب نسبة للرقم (7) وهو رقم ذو قدسية عند كثير من الشعوب وهذه الأبواب هي:

في شمال المدينة: باب الفراديس (عطارد) - باب الجنيق (القمر) - باب توما (زهرة).

في شرق المدينة: الباب الشرقي (الشمس)، وفي غربها: باب الجابية (المشترى)، وهما بابان ذو ثلاث فتحات، في الوسط بوابة كبيرة وعلى جانبيها بوابتان أصغر حجماً متصلتان سوية بالشارع المستقيم والذي يبلغ طوله حوالي 1500م.

في جنوب المدينة: الباب الصغير (المربخ) - باب كيسان (زحل).

(مع ملاحظة اختلاف تسميات الأبواب عبر العصور).

ومع قدوم الفتح الإسلامي العربي لدمشق سنة 14هـ. بقي السور والأبواب على حالها دون أن تتأذى لأن دخول العرب المسلمين للمدينة كان صلحاً، وفي العهد الأموي الذهبي أخذت المدينة بالتوسع خارج الأسوار وظهرت أحياء وضواحي جديدة في سفوح جبل قاسيون وعلى ضفاف نهر بردى.

وفي عام 132هـ كان سقوط دمشق بيد الجيش العباسي وقام قائد الجيش عبد الله بن علي (عم الخليفة أبو العباس) بمجزرة في المدينة نبش خلالها قبور الأمويين وأحرق جثثهم وهدم جزءاً من سور المدينة وخرّب أجزاء أخرى، وهكذا أهملت الأبواب والسور ولم يسمح بترميمها حتى قدوم العهد السلجوقي الذي أولى السور والأبواب الاهتمام الخاص فأنشئت قلعة دمشق عند الزاوية الشمالية الغربية من السور عام 741هـ / 1078م ووزّمت الأسوار وحُصّنت وهكذا صمدت المدينة أمام ثلاث حملات صليبية فشلت جميعها في اقتحام سورها.

وفي عام 549هـ / 1154م كان دخول السلطان نور الدين محمود الزنكي لدمشق واستلامه للحكم فيها فقام بعملية تحصين شاملة للمدينة ورمم مات هدم من سورها وأبوابها نتيجة

الحملات الصليبية والفتن الداخلية، وأقام الأبراج المستديرة على السور وقام بفتح أبواب جديدة

كباب الفرج وباب السلامة كما قام بسد أبواب أخرى كباب كيسان وجزء من الباب الشرقي.

وقد بنى نور الدين لكل باب من الأبواب مسجداً مع مئذنة تعلوه يمكن من خلالها مراقبة الأعداء من الأعلى، كما جعل على كل باب من الجهة الخارجية سوقاً صغيراً متعرجاً يسمى (باشورة) وذلك بهدف عرقلة دخول الأعداء للمدينة فضلاً عن تنشيط الحركة الاقتصادية في منطقة الأبواب، كما قام نور الدين بتوسيع سور المدينة الممتد بين باب الفرج وباب الفراديس ليكون السور الجديد محاذياً للنهر وهذا أدى لنشوء حي يبين السور القديم والجديد يسمى (بين السورين).

وفي العهد الأيوبي رمت وجددت بعض الأبواب والأبراج لدرء الخطر الصليبي، واستمر حال السور والأبواب في العهد المملوكي مع إدخال بعض التعديلات والترميمات عليه حسب الحاجة.

ومع قدوم العهد العثماني عام 922هـ / 1516م ونظراً لمنعة الدولة العثمانية وسعة انتشارها وزوال الخطر الصليبي القريب فضلاً عن انتشار وسائل الحرب الحديثة المتمثلة باستخدام البارود أخذ

الاهتمام بالسور والتحصينات يتلاشى وتعرض السور للإهمال واستخدمت أجزاء منه في بناء المباني الرسمية في أماكن أخرى من المدينة وأنشئت الدور والمساكن على أجزاء منه وزالت أجزاء أخرى. وقد تعرض السور والأبواب عبر الزمن لكثير من الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات إضافة لما أحدثه البشر من تخريب، وفي القرن العشرين أجريت عدة ترميمات طالت عدداً من الأبواب، واليوم إذا ما نظرنا لهذا السور نلاحظ المستويات الدنيا منه مبنية بحجارة كبيرة الحجم بعكس المستويات العليا التي يصغر حجم حجارتها، ذلك أن كل سوية تعبر عن المرحلة التي أنشئ بها، والسويات الدنيا في الغالب رومانية أما السويات العليا فتعود للعهد الإسلامية اللاحقة.

وأفضل أجزاء السور هي المنطقة الممتدة من باب السلام ولغاية باب توما، وتليها المنطقة الممتدة من باب توما لغاية باب كيسان، ويمكن للباحث أن يجد بعض القطع والأجزاء المختلفة بين الحارات في مناطق أخرى حول المدينة القديمة.

ومن أهم الأبراج الموجودة حالياً برج نور الدين الشهيد (منطقة السنانية) أنشئ في عهد السلطان نور الدين عام 564هـ / 1168م وأعيد ترميمه في العهد المملوكي، وبرز الملك الصالح أيوب (منطقة باب توما) أنشئ في العهد الأيوبي عام 646هـ / 1248م.

وحديثاً أعيد الكشف عن برج أيوبي قبالة الباب الشرقي ضمن النفق المحدث هناك، كما ظهرت قاعدة برج إلى القرب من باب كيسان (دوار البيطرة) خلال عمليات إظهار سور دمشق في تلك المنطقة وظهر إلى جانبه لوحة حجرية تشير إلى السلطان نور الدين الزنكي.

اختلفوا في عدد أبوابها، فابن جبير في رحلته (من علماء الأندلس في القرن السادس الهجري) قال أن لهذه البلدة ثمانية أبواب كأبواب الجنة:

باب شرقي، باب توما، باب السلامة، باب الفراديس، باب الفرج، باب النصر، باب الجابية، ثم باب الصغير.

بينما ابن عساكر في تاريخه، والبدرى، يخبرنا أن لمدينة "دمشق" القديمة سبعة أبواب رومانية الأصل

وهي:

1- الباب شرقي:

يقع في الجهة الشرقية من المدينة القديمة وهو من الأبواب السبعة الأصلية، بناه الرومان ونسبوه لكوكب الشمس التي يمثلها الإله الإغريقي هيلوس أو سول عند الرومان، ويقال بدون إثبات أنهم

أقاموه على أنقاض الباب اليوناني الأسبق، وربما شيده اليونانيون في موضع الباب الآرامي القديم، ولا نملك دليل على هذا. هكذا يقول الدكتور "قتيبة شهابي". (ويلاحظ في وقتنا الحالي وجود باب صغير أسفل المنارة البيضاء مغلق يوصل لعمق 8-10 أمتار لجزء من المدينة القديمة والشارع المستقيم). ويقول في سبب التسمية: إن باب شرقي هو الباب الذي نُسب إلى كوكب الشمس، ورمز له بالإله الإغريقي، "هيلوس" ركباً على عربة تجرها أربعة خيول وحول رأسه هالة مستديرة تنبعث منها حزم من النور، ويقابله عند الرومان إله الشمس "سول".

ويقول تعددت الآراء في سبب التسمية: أنه كان يعرف أيام اليونان السلوقين ثم الرومان باسم "باب الشمس" لأن الشمس تشرق عليه قبل غيره من الأبواب.

وابن عساكر يقول: إن اليونان رسموا فوق قوس تاج الباب الشرقي نقشاً نافراً في الحجر صورة قرص الشمس، واستمر وجود هذه الرسوم في العهد الروماني لأنهم كانوا يؤمنون بذلك.

ولهذا الباب أهمية كبيرة حيث كان في المدينة القديمة - دمشق - شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب إلى الشرق ينحصر بين باب الجابية وباب شرقي اشتهر هذا الشارع "بالشارع المستقيم" طوله 1500 متراً، وكان يتألف من طريق واسع في الوسط يقابل فتحة الباب الوسطى، ورواقين جانبيين مسقوفين يقابلان الفتحتين الصغيرتين للبابين الشرقي والغربي، تحملها الأعمدة الكورنتية الجميلة تظهر بعضها من حين لآخر أثناء أعمال الحفر والبناء. وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشارع بجذء أروقته. وكان هذا الشارع الجميل مزيناً بالتماثيل، أدرك العرب أحدها، وهو عبارة عن عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه، وآخر على رأسه مثل الكرة وفيها حديد، وكانت تقطع هذا الشارع أقواس النصر، ظهرت إحداها منذ أعوام، وكانت على عمق 450 سم من سطح الأرض الحالية نظراً لارتفاع سوية الشارع على مر العصور.

وقد عمدت مديرية الآثار عام 1950 إلى ترميم هذه الأبدية ورفعها إلى مستوى الشارع، إنها

هامة تحتفظ بإحدى فتحاتها كاملة وبعض الأعمدة التي تزينها.

ونعتقد أنها القوس التي يسميها ابن عساكر بقنطرة سنان، وحدثنا ابن كثير في البداية والنهاية عن وجود قوس أخرى في الغرب من هذه الأقواس، تهدمت في القرن الثاني للهجري، واستخدمت أحجارها للبناء.

واليوم شارع الباب الشرقي هو امتداد لشارع مدحت باشا مع شارع محمود شحادة، وخارج أسوار المدينة القديمة، تضم المنطقة المجاورة له العديد من الكنائس والمساجد، إضافة إلى العديد من المحلات التجارية المخصصة لبيع التحف والأنتيكات، ومنطقة باب توما، والأمين، والمنطقة الصناعية، هي من المناطق المجاورة للباب الشرقي، والمنطقة سميت باسمه: منطقة باب شرقي.

وعند الفتح العربي الإسلامي لدمشق دخل منه القائد خالد بن الوليد وجرت عنده معارك كبيرة، ومن هذا الباب كان دخول قائد الجيش العباسي عبد الله بن علي عند قدومه لدمشق عام 132هـ وارتكابه المجازر فيها، ومنه دخل الملك العادل نور الدين الزنكي عام 549هـ / 1154م ثم قام بترميمه مع بقية أبواب دمشق وسورها وبنى عليه مئذنة ومسجداً صغيراً وأقام أمامه باشورة، ويعتقد أن نور الدين هو من قام بسد الفتحتين الوسطى والجنوبية من الباب لأسباب دفاعية، وفي أواخر القرن التاسع عشر هدمت الباشورة من أمام الباب وأزيل المسجد الصغير في وقت سابق، وفي القرن العشرين تم إعادة فتح البوابتين الوسطى والجنوبية من الباب بعد ترميمه ترميماً شاملاً.

2- باب الجابية:

ويقال له الباب الغربي، يقع في الجهة الغربية من المدينة القديمة وهو من الأبواب السبعة الأصلية، بناه الرومان ونسبوه لكوكب المشتري. وسمي بالجابية لأنه كان يؤدي إلى معسكر للجند مكلفين بجابية الضرائب. وقيل سمي بهذا الاسم نسبة إلى تلّ الجابية بمنطقة حوران لأن الخارج منه يصل إليها. ينسب بعض العامة الباب إلى امرأة صالحة تدعى (السيدة جابية) وقبرها موجود أمام الباب والواقع أن الضريح الموجود بجانب الباب ضريح وهمي ليس إلا ولا وجود في كافة المراجع التاريخية لولية صالحة تدعى جابية.

صمم هذا الباب بثلاث فتحات، في الوسط بوابة كبيرة وعلى جانبيها بوابتان أصغر حجماً ويتصل بالباب الشرقي عبر الشارع المستقيم، ينحصر بين الباب الشرقي وباب الجابية، الشارع المستقيم وطوله 1500 متر. حيث كان في الماضي طريق واسع في الوسط يقابل فتحة الباب الوسطى، ورواقين جانبيين مسقوفين يقابلان الفتحتين الصغيرتين للباب الشرقي والغربي.

تحمل هذه السقوف أعمدة كورنتية جميلة وبينها تتوضع التماثيل وتقطع هذا الشارع أقواس النصر، التي اشتهر بها الرومان.

عند الفتح الإسلامي لدمشق دخل جيش المسلمون بقيادة أبو عبيدة بن الجراح، وسدّت الفتحان الوسطى والشمالية من الباب في عهد نور الدين (على الأغلب) الذي أعاد ترميم الباب والسور المحيط به عام 560هـ / 1165م وبني حوله باشورة. ثم تلته ترميمات أخرى أبرزها ترميم الملك شرف الدين عيسى ابن الملك العادل في زمن الدولة الأيوبية.

3- باب توما:

يقع في الجهة الشمالية من المدينة القديمة ويرمز إلى كوكب الزهرة ويمثل إله الحب والجمال الإغريقي أفروديت وعند الرومان ربة جمال فينوس الرومانية، وهو من الأبواب السبعة الأصلية، ويُنسب إلى عظماء الروم، يوجد على إحدى حجارة الباب نقش بالحروف اليونانية وهذا يعطي إشارة لاحتمال بناء الباب الأصلي من قبل اليونان قبل أن يقوم الرومان بإعادة بنائه، وبعد انتشار المسيحية قاموا بتسمية الباب على اسم القديس توما الرسول أحد تلاميذ السيد المسيح عليه السلام، وتهدم الباب مع الزمن، ومن هذا الباب دخل عمرو بن العاص، وعند الفتح الإسلامي لدمشق دخل منه القائد شرحبيل بن حسنة وجرت عنده معارك، وفي عهد نور الدين رُمم الباب وأقيم عنده مسجد ومثذنة، ويعتبر أحد المنشآت العسكرية في الفترة الأيوبية حيث تعلوه كوى الدفاع المستطيلة. ومن أبرز الترميمات التي طالت الباب والسور المحيط به ترميم الملك الناصر داوود بن عيسى في زمن الدولة الأيوبية عام 625 هـ / 1228م. ومن ثم الترميم المملوكي من قبل نائب دمشق آنذاك تنكز عام 734 هـ / 1333م.

وفي زمن الإحتلال الفرنسي لسورية في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين أزيل المسجد ومن ثم المثذنة.

والنقش الكتابي على العتبة العليا لباب توما تؤرخ لترميم الباب في العهد المملوكي وقد كتب عليها: (بسم الله الرحمن الرحيم جُدد هذا الباب المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الملك الشهيد المنصور قلاوون الصالحي أعزّ الله أنصاره وذلك بإشارة المقر الأشرفي العالي المولوي الأميري الكبير الغازي المجاهدي المرابطي المठाغري المؤيدي الممالكي المخدومي السيفي تنكز الناصري كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة عزّ نصر هو ذلك في العشر الأول من ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمئة).

4- باب كسيان:

هو من الأبواب السبعة الأصلية، بناه الرومان ويرمز إلى كوكب زحل (وهو إله الزمن والعصر الذهبي الإغريقي وعند الرومان هو إله الزراعة والكرمة والازدهار والخصب)، ويقع في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة القديمة، وسمي بذلك لأنه أصغر الأبواب، ويقول ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق: سمي بهذا الاسم نسبة إلى كيسان مولى معاوية بن أبي سفيان. وفي العهد البيزنطي سمي بـ (باب القديس بولس) تخليداً لحادثة تهريبه من فوق السور. ومنه دخل يزيد بن أبي سفيان عند الفتح العربي الإسلامي لدمشق، وفي عهد نور الدين تم سد الباب لأسباب دفاعية، وفي العهد المملوكي عام 765هـ / 1363م أعيد فتح الباب من قبل نائب الشام الأمير سيف الدين منكلي بغا الذي أعاد ترميمه وبنا داخله مسجداً.

وفي زمن الاحتلال الفرنسي لسورية عام 1925م تم إعادة ترميم الباب وفي عام 1939م أنشئ داخله كنيسة حملت أسم القديس بولس الرسول.

5- باب جنيق:

لا توجد معلومات وافية عنه، غير أنه يرمز إلى كوكب القمر تمثله الإلهة الإغريقية سيلينه التي عرفت مؤخراً بـ ارتيمس إلهة الصيد، يقابله عند الرومان إلهة القمر لونا وعند البيزنطيين صار اسمه باب الميلاد تخليداً لميلاد السيد المسيح، وهو أحد الأبواب الشمالية للسور، يقع بين باب السلام وباب توما، وقد سد منذ عهد بعيد، وكانت عنده كنيسة حولت إلى جامع ثم صار بيوتاً للسكن فيما بعد، ومع ذلك ما زالت بعض آثاره على جدار السور ظاهرة للعيان ولاسيما القوس الذي كان يعلو الباب ويلاحظ أن عدد أبواب المدينة في الجهة الشمالية أكثر منه في الجهات الأخرى، لعدم إمكان توقع هجوم من هذه الجهة وذلك بسبب الحماية التي توفرها قنوات المياه (بردى وفروعه العقرباني والدعياني) إضافة لصعوبة التضاريس الناتجة عن سفوح جبل قاسيون.

6- باب الصغير (باب الشاغور):

يقع في الجهة الجنوبية من المدينة القديمة وهو من الأبواب السبعة الأصلية، بناه وجدده الرومان، ونسبه اليونان قبلهم لكوكب المريخ.

عند الفتح العربي الإسلامي لدمشق دخل منه القائد يزيد بن أبي سفيان شقيق الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وفي عهد نور الدين رمم الباب وأقيم عنده مسجد الباشورة ومئذنة وباشورة. ومن أبرز الترميمات التي طالت الباب والسور المحيط به ترميم الملك المعظم عيسى في زمن الدولة الأيوبية عام 623هـ / 1226م، ومنه اقتحم التتار دمشق بقيادة تيمورلنك عام 803هـ / 1401م في العهد المملوكي، وقد سمي الباب بهذا الاسم لأنه أصغر أبواب المدينة.

ويوجد نقش كتابي داخل الباب يؤرخ لترميم الباب في العهد الأيوبي وقد كتب فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز، أمر بتجديد هذا الباب والسور والخندق المبارك مولانا السلطان المعظم الغازي المجاهد في سبيل الله شرف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين عيسى بن المولى السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر أيوب خلد الله ملكه تقرباً إلى الله تعالى بتولي العبد الفقير إلى رحمة ربه محمد قرشي سنة ثلاث وعشرين وستمائة).

وهو نص كتابي داخل الباب يحوي مرسوم صادر عن السلطان نور الدين الزنكي عام 551هـ/1156م يتعلق بإلغاء الرسوم المفروضة على التجار المغادرين والعائدين من العراق:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر مولانا الملك العادل العالم العارف المؤيد المظفر المنصور نور الدين ركن الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين أبو القاسم محمود بن زكي بن آق سنقر خلد الله ملكه بإزالة حق التسفير على التجار المسافرين للعراق والقافلين عنها إلى دمشق حرسها الله وتعفيه رسم هو إبطال اسمه والمنع من تناوله والمكاتبة بشيء منه إحساناً إلى الرعية ورأفة ومنأ عليهم وعاطفة وتقرباً إليه تعالى وتقديمه ليزيد له يوم يجزي الله الذين أحسنوا بالحسنى، ورسم لكل... على تطاول الأيام، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه وذلك في رجب سنة إحدى وخمسين وخمسائة).

وقد شهد هذا الباب أحداث تيمورلنك قائد جيوش التتار الذي دخل منه سنة 803هـ وأحرق دمشق، وفي القرن الثالث عشر الميلادي شهد صراعات داخلية بين الحامية المغربية العسكرية (عساكر مرتزقة من شمال إفريقيا في العصر المملوكي) وبين طائفة البعّادة (المرتزقة الذين يعودون بأصولهم إلى بغداد) والانكشارية التركية وعساكر القباي قول وهم العسكر النظاميون المرسلون من استنبول لدعم الوالي ومقر إقامتهم في قلعة دمشق.

7- باب الفراديس:

يقع في الجهة الشمالية من المدينة القديمة، وحالياً يقع في سوق العمارة، وهو من الأبواب السبعة الأصلية، بناه الرومان يرمز إلى كوكب عطارد ويمثله رسول الآله الإغريقي هرمس وهو إله التجار والنقود وحامي الطرق عند الرومان مركوري، والفراديس بلغة الروم تعني البساتين، سمي الباب بهذا الاسم نسبة إلى محلة كانت قبالة خارج السور تسمى الفراديس بحسب ما ذكر ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق، ويقال: أن اليونانيون اتخذوا على هذا الباب صورة إنسان مطرق الرأس كالمثفكر كما ورد عن ابن عساكر.

وعند الفتح الإسلامي لدمشق دخل منه القائد عمرو بن العاص، وقد حاصر الحامية البيزنطية، إلى أن استسلمت، وفي عهد نور الدين رمم الباب والسور المحيط به وربما كان المسجد الموجود عنده (السادات مجاهدين) من عهد نور الدين الذي بنا مسجداً ومعذنة عند أغلب الأبواب. ومن أبرز الترميمات التي طالت الباب والسور المحيط به ترميم الملك الصالح نجم الدين أيوب في زمن الدولة الأيوبية عام 639هـ / 1241م.

يُطلق العامة على هذا الباب اسم باب العمارة نسبة للحلي الموجود فيه وهو مصفح بالحديد ليومنا هذا، وعليه نقش كتابي غير واضح المعالم.

8- باب السلامة:

يقع في الجهة الشمالية من المدينة القديمة، وهو باب مُحدث أنشأه السلطان نور الدين الشهيد وقد سماه بهذا الاسم لتعذر القتال عنده نظراً لأنه محاط بالنهر والأشجار الكثيفة. ولقد ذكره ابن عساكر باسم باب الشريف، تم ترميم هذا الباب في العهد الأيوبي أيام السلطان الملك الصالح أيوب عام 641هـ / 1243م، وهذا الباب هو أحد أجمل أبواب المدينة ويشبهه في تصميمه باب توما.

يوجد نقش كتابي على عتبة الباب من الخارج يُؤرخ الترميم الباب في العهد الأيوبي وقد كتب فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم جددت عمارة هذا الباب السعيد في أيام مولانا الملك الصالح السيد الأجل العابد المجاهد المؤيد المظفر المنصور نجم الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين منصف المظلومين من الظالمين قاتل الكفرة والمشركين ماحي البغي والفساد ودافع المفسدين في البلاد معز الإسلام غياث الأنام ركن الدين مجد الأمة علاء الملة سيد الملوك والسلطين أيوب بن الملك الكامل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب أمير المؤمنين بتولي العبد الفقير يعقوب بن إبراهيم بن موسى سنة إحدى وأربعين وستمئة).

9- باب الفرّج:

يقع في الجهة الشمالية من المدينة القديمة وهو باب مُحدث أنشأه السلطان نور الدين الشهيد وقد سماه بهذا الاسم لما وجده أهل البلد من الفرّج بعد فتح الباب، وعند ما قام السلطان نور الدين بتوسيع سور المدينة بين باب الفرّج وباب الفراديس ودفعه ليكون محاذياً للنهر أدى ذلك لإنشاء باب آخر على السور الجديد مقابل باب الفرّج الأصلي (الداخلي) وهو باب الفرّج (الخارجي)، كما أقام عند الباب مسجداً (باب الفرّج) وباشورة (سوق المناخلية).

عرف في الفترة العثمانية باسم باب البواجية لوقوعه بين سوقين بالاسم نفسه (والبوايجي هو من يصنع الأحذية)

وهو باب مزدوج داخلي وخارجي رُمم الباب الداخلي في العهد الأيوبي أيام الملك الصالح إسماعيل عام 639هـ / 1242م كما رُمم الباب الخارجي في العهد المملوكي، وأخر ترميم للباب الخارجي كان عام 1948م، ويطلق العامة على الباب حالياً أسم باب المناخلية كونه يقع في سوق المناخلية. ويوجد نقش كتابي على الباب الداخلي يؤرخ لترميم الباب في العهد الأيوبي وقد كتب فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا الباب والخندق المبارك مولانا السلطان الملك الصالح العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر المنصور الغازي عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاصع الخوارج والمرتدين محيي العدل في العالمين إسماعيل ابن أبي بكر بن أيوب نصير أمير المؤمنين بتولي العبد الفقير يعقوب بن إبراهيم بن موسى بتاريخ رمضان سنة تسع وثلاثون وستمائة).

10- باب النصر:

يقع في الجهة الغربية للسور وهو أول باب إسلامي استحدث في السور بعد الأبواب الأصلية الرومانية، كان موقعه قرب مدخل سوق الحميدية غرب سوق الأروام الحالي الكائن في الحريقة ويعتقد أنه بُني في العهد السلجوقي أواخر القرن الخامس الهجري سمي بذلك نسبة إلى الملك الناصر الذي فتحه ولا وجود له اليوم. كان يوجد قربه خمسة أثمار. وكان اسمه باب الجنان لأنه يُطل على بساتين وحقول ومروج. منها حكر السمان ووادي البنفسج والمرج الأخضر والشرفان والشقراء والبهنسية والنيرين والخلخال والمنبيع والجبهة والربوة وغير ذلك.

كان في فترة ما مسدوداً ثم فُتح. ربما سُدَّ أيام نور الدين زنكي، أثناء الحروب الصليبية، وأُعيد فتحه في العهد الأيوبي. أو في العهد المملوكي، أُطلق على الباب اسم باب السعادة نسبة إلى دار الحكم القريبة منه. وفي العهد العثماني تحول اسمه إلى باب السرايا لأنه قرب سرايا الحكم، في مكان القصر العدلي حالياً. وفي عام 1863م، أزاله والي الشام العثماني محمد رشدي باشا لتوسيع مدخل سوق الحميدية، أيام السلطان عبد الحميد الثاني.

11- باب البريد:

هو الباب الغربي لمعبد جوبيتر ويعني بالسريانية الرسل وخيل البريد، ويذكر ابن طولون: أن السلطان المملوكي طوماس باي خرج من قلعة دمشق لصلاة الجمعة في الأموي، ونزل بعد الصلاة على درج باب البريد وفرشت له الأرض وأشعلت الشموع. وتقول الروايات أن اسكندر المقدوني أمر غلامه دمشقيين ببناء مدينة دمشق، رسم المدينة وبنائها وعمل له حصناً، والمدينة التي كانت رسم دمشقيين هي المدينة الداخلة، وعمل لها ثلاثة أبواب: هي باب البريد مع الحديد في سوق الأساكفة، مع باب الفراديس الداخلة وهذه كانت المدينة.

12- باب جيرون:

يروى ابن عسكر رواية مفادها أنه وهو عند باب مدينة دمشق، من بناء سليمان، بنته الشياطين وكان الشيطان الذي بناه يقال له جيرون فسمي به. وهو الباب الشرقي لمعبد جوبيتر الدمشقي، يقع بين حيي النوفرة والقيصرية وهو أوسع أبواب دمشق وأكثرها ارتفاعاً ولقد تأثر بالحريق الذي وقع سنة 753هـ، ويتناظر مع بقايا القوس الرومانية في محلة باب البريد، حيث يؤلفان حدود معبد جوبيتر من الغرب والشرق، وهو أسم مشتق من GYR يعني الحرم والمأوى، وقد تغنى به الشعراء في أحقاب مختلفة.

13- باب الحرير (باب الحديد):

يقع في سوق الأساكفة، موازي لباب البريد من الجهة الجنوبية، والآن يكاد لا يعرف ولا وجود له إلا معترضة الحجر العلوي، وهو عند سوق الخياطيين.

ويقول البدري: باب الحديد حرفه الناس إلى باب الحديد وهو الآن خاص بالقلعة أحدثه الأتراك إلى القلعة يليه من الغرب باب السر سمية بذلك لكونه يفتح إلى القلعة وكان الأتراك يدخلون ويخرجون

منه سرّاً، ولمدينة "دمشق" أبواب أخرى صغيرة لحماية الحارات القديمة التي بدأت بالظهور في العهد الأيوبي.

المصادر والمراجع:

- تاريخ دمشق لابن عساكر
- معجم البلدان لياقوت الحموي
- دمشق تراثها ومعالمها التاريخية لعبد القادر الريحاني
- نزهة الأنام في محاسن الشام للبديري
- دمشق علي الطنطاوي



غوطة دمشق

إحدى عجائب الدنيا عند القدماء

إخوتي القراء سائحي دمشق الرائعة:

لنتأمل وإياكم دمشق الرائعة بثلاثيتها المميزة: قاسيون، بردى، والغوطة، ولنقف عند حقيقة الخبر في جمال وجلال هذه المدينة العريقة.

فلنصعد جبل قاسيون شمالاً، ولننظر تجاه دمشق القديمة التي نالت شرف مديح النبي المصطفى وسنلمح سهلها الواسع المحيط بها بجنان الأم الرؤوم التي تحضن أبناءها المتوزعين في القرى المحيطة: دوما، حرستا، مسرابا، كفرسوسية، وغيرها... ثم يتراءى لنا سهول ممتدة، كسهل المزة والقابون، جميعهم يحتضنون المدينة في دعاء مبجل صادق اللهم بارك في شامنا.. ومن وراء السهول تمتد الجبال، فأني روعة قد امتلكتها يا دمشق! مجبرين ساكنيك بجمالك وخيرك الساحر أن يرسخوا دوماً الشكر لله بالفعل قبل القول المجرد باللسان.



خريطة غوطة دمشق

اشتهرت غوطة دمشق بخصوبة أرضها وجودة مائها، فهي عبارة عن أشجار مثمرة متنوعة تغذيها مياه منبثقة من الجبال، وتقسم الغوطة إلى: الغوطة الغربية، التي يرويها

فرعا بردى (المزاوي والداراني)، تبدأ من مضيق الربوة لتمتد غرباً وجنوباً نحو المزة وكفر سوسية وداريا وصحنايا والأشرفية، وبلدات محاطة بأروع الأشجار، أما الغوطة الشرقية فبدايتها من دوما نحو الشرق والجنوب، محيطة بدمشق ببساط أخضر رائع: جرمانا، المليحة، عقربا، كفر بطنا، ببيلا وعربين، إلى أن تلتقي بنظيرتها الغربية ليكتمل احتضان دمشق ببساتين الحب والعطاء. ويبدأ بساطها الأخضر بالانكماش لتظهر منطقة السهوب، التي تنعدم تدريجياً وتنتهي بالتلال البركانية.

حي المولى دمشق بموقع ممتاز وإقليم معتدل، ورزقها من المياه أنهاراً وعيوناً لتسقي منها غوطتها، ولتصبح زمردة خضراء تدبّ عليها الحياة منذ أيام آدم عليه السلام، حيث ألفتها الإنسان وخصّها بالعمارة والبنيان، وتوالت الحضارات فوق أرضها تاركة فيها شواهد وآثار لا تُمحي من الذاكرة.



الآن

تعالوا

نتجول بين أسطر رائعة كتبها رحالة وشيخ وعالم ومحدث ومؤرخ، في مدح دمشق الشام... ولنستمع للشيخ المحدث الجغرافي، أبي ياقوت الحموي في (معجم البلدان):

الغوطة: بالضمّ ثم السكون، وطاء مُهملة، وهو من الغائط (وهو المطمئن من الأرض)، وجمعه غيطان وأغواط، وقال ابن شمسيل: الغوطة هي الوهدة من الأرض المطمئنة، وقال ابن الأعرابي: الغوطة مجتمع النبات، والغوطة: استدارتها ثمانية عشر ميلاً، تحيط بها جبال عالية من جميع

جهاثها، لا سيما شمالها، ومياهها خارجة من تلك الجبال ممتدة فيها في عدة أنهر، فتسقي بساينها وزروعها، والغوطة كلها أشجارها متصلة.. وهي بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً.

وقال البدرى في (نزهة الأنام في محاسن الشام):

وغوطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى، وقد جاء في الخبر عن كعب الأبحار رضي الله عنه: ((غوطة دمشق بستان الله في أرضه))، وفضائل الشام كثيرة، ومحاسنها جمة غزيرة، وبركاتها مشهورة، وأخبار خيراتها مأثورة، ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاها وروضاتها وقطوفها الدانية للمتفكر في منتزهاها..

وقال المحدث المؤرخ الذهبي: أجمع سواح الأرض والأقطار أن غوطة دمشق من منتزهات الدنيا!

أما الرحالة الشهير برحلاته، ابن جبير، 624 هـ، فقد وصف دمشق قائلاً: "ودمشق حرسها الله تعالى، هي جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤثق المشرق، قد تزينت أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى بها المسيح وأمه، صلى الله عليهما.. قد امتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر، صدق القائلون عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تحاذيها.

تغنى بها الشعراء والحكماء والعلماء، وكثير من العباد الذين سعدوا فيها، وما يميز دمشق هو وسطية واعتدال مناخها الطبيعي والديني، لتجد أن التزاحم على سُكناها ليس بغريب! ومعاداة الأعداء منذ الأزل لطمع وحسد وحقد ليس بعجيب!



وإن من حق دمشق على القادمين إليها من أنحاء العالم، في الحاضر والمستقبل، وعلى أبنائها المقيمين فيها، أن يصونوا تراثها وتراثها وشجرها وماءها.. ولا يكون ذلك إلا بعمارة الإنسان قبل الديار، وتألقه الروحي من

الداخل، نبدأه بالحمد والشكر والامتنان على سُكناها، ونحافظ عليها بالعمل الدؤوب مع جهاد النفس لتتوافق مع رضى سيد الأكوان، نصل حينذاك بإذن الله إلى مباحاة سيد الأخلاق لترسيخنا لمنهج الصحيح، الذي لا إفراط ولا تفريط فيه.

هذه هي دمشق، يا إخواني، قد سكنها أقوام وأقوام منذ بدء الخليقة، من الكنعانيين، والفينيقيين، والفرس، واليونانيين، والروم، ومن ثم المسلمين، من أمويين وعباسيين وسلجوقيين وأيوبيين وأتراك... وهكذا، في دائرة من دوائر الحياة.. فالهمم حقاً هو ترسيخ منهج نبينا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولتنظروا يا أهل الشام عمّن تأخذون شريعتكم وعباداتكم وأخلاقكم...؟
وبالمختصر، فغوطة دمشق أرضٌ منبسطة واسعة، يرتفع سطحها عند أطرافها الشمالية والغربية، وتأخذ في الانخفاض تدريجياً نحو الشرق.. والأروع عندما ترى انتشار قبور الصحابة والعلماء الأجلاء، كالداراني والفزاري والخولاني وغيرهم الكثير فيها.

اللهم احفظ الشام وأهل الشام.. اللهم ردهم إليك رداً جميلاً يا الله يا الله يا الله..

المصادر والمراجع:

معجم البلدان / للحموي [626 هـ - 1228 م]

نزهة الأنام في محاسن الشام / للبدي



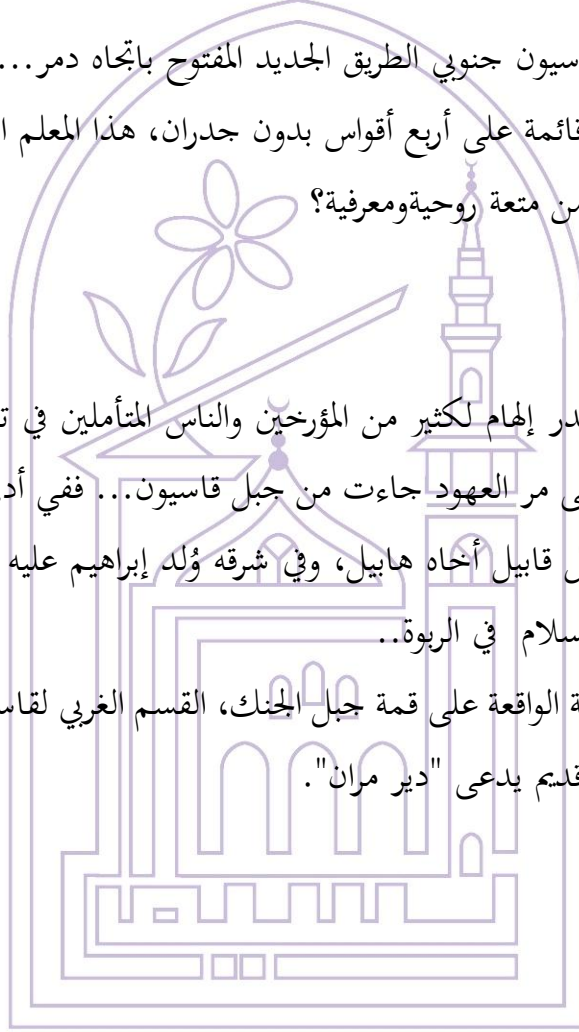
قبة السيّار في جبل قاسيون معلم أثري شاهد على مرّ العهود

أيها السائح الدمشقي:

هيا معاً نصعد جبل قاسيون جنوبي الطريق الجديد المفتوح باتجاه دمر...
ثم انظر تجذ قبة حمراء قائمة على أربع أقواس بدون جدران، هذا المعلم الأثري الذي حيّر المؤرخين
والناس... ماذا يحمل لنا من متعة روحية ومعرفية؟

إخوتي القراء:

لقد كانت دمشق مصدر إلهام لكثير من المؤرخين والناس المتأملين في تاريخها الرائع... وإن أروع
القصص التاريخية الموثقة على مرّ العهود جاءت من جبل قاسيون... ففي أدنى السفح سكن أبونا آدم
عليه السلام، وفي أعلاه قتل قابيل أخاه هاويل، وفي شرقه وُلد إبراهيم عليه السلام في برزة، وفي غربه
آوى المسيح عيسى عليه السلام في الربوة...
وقف بالربوة وتأمل القبة الواقعة على قمة جبل الجنك، القسم الغربي لقاسيون، المطل على الربوة...
ترى شرق القبة بقايا لدير قديم يدعى "دير مران".





من هنا تبدأ حكايتنا...

ففي غربي قاسيون، في محلة اشتهرت بالسكن فيها قبل "حي الصالحية"، واندثرت مع الأيام بسبب عبث اللصوص والفاستدين الذين استغلوا فوضى الحروب الصليبية والمغول في بلاد الشام، وهي محلة "دير مران" .. هناك نرى القبة الحمراء التي تدعى "بقبة السيار".

تفيدنا المصادر بأنها مجهولة تاريخ البناء....

ولكن المتأمل فيها يجد أنها تحمل ملامح الطراز الأيوبي في فن العمارة الإسلامية، ولقبها نسبةً لأمير مملوكي يدعى "سيار الشجاعى"....

Damascus Encyclopedia

موسوعة دمشق الشام



قبة السيار : و أنهر مدينة دمشق . و غوطتها الوادعة تحيط بها في القرن التاسع عشر / عماد الأرمشي

والآن ماذا تقول مصادر التاريخ عن هذه القبة؟

■ يقول أبو عبدالله ياقوت الحموي . 626هـجري:

دير مُران: بضم أوله، هذا الدير بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة، بنائه بالجصوأكثر فرشته بالبلاط الملون، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة، وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني، والأشجار محيطة به.

■ ويقول ابن طولون مؤرخ الشام لعصره المتوفى في عام 953هـجري:

لسفح قاسيون سفحان، أعلى وأدنى، يفصل بينهما نهر يزيد، الأدنى الذي ازدهر واستئسن وتألّق بفعل وعمارة الصالحين له، وهو "حي الصالحية"... أما السفح الأعلى سفح كبير وواسع خالٍ من الماء، لم يكن فيه شيء من البناء إلا محلة "دير مران" وبعض الدور والأديرة القليلة المتفرقة... ثم يقول: ودير مران محلة كانت عامرة بالسكان، وموقعها في السفح الواقع أسفل قبة سياروأعلى بستان الدواسة، يطل منها الإنسان على الربوة، وكانت يُزرع فيها الزعفران لأهميته الدينية في الأديرة قديماً... ولا نعلم متى اندثر هذا الدير؟ لعله في أواخر زمن الأتابكة في القرن الخامس للهجرة بسبب الحروب الصليبية...



■ ويخبرنا ابن طولون أن هذا السفح كان متنزهات لبني أمية... ثم أصبح مقراً للأمرء العباسيين، إذ لم يسكنوا دمشق، واختاروا محلة "دير مران" لحصانتهوجمال موقعهوطيب هوائه، فلا يذكر التاريخ لهم أي دار داخل دمشق..

فعندما زار هارون الرشيد دمشق نزل في محلة "دير مران"، وكذلك المأمون الذي جعل مقرهوعسكره فيها.... ثم أجرى قناة من نهر منين وعمّرقبة في أعلى الجبل ليقيم فيها مرصده الفلكي بين عام 215. 218.



إذاً محلة دير مران التي توجد فيها "قبة السيار" سكنها الأمويون كمنتزه لهم فقط، لتصبح مقراً لدار الإمارة في العهد العباسي والطورونيوالفاطمي، إلى حين زوال سلطتهم. والمرجح عند المؤرخين أن هذه القبة صرح تذكاري، تاريخ بنائه مجهول، وطراز عمارته أيوبي، ولقبه مملوكي.

في الختام نقول: إنها بناء تذكاري شامخ كشموخ جبل قاسيون.. لتكون شاهداً من شواهد التاريخ في مدينة دمشق الحبيبة، والتي نجد لسان حالها يتلو الآية الكريمة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾، وسيروا بمعنى سيحوا، أي امشوا في الأرض بهدف استخلاص عبرة وعظة نستفيد منها في مسيرة حياتنا، فالسياحة الباحثة المتأملة تُبصّر كيان الإنسان بمعاني قوله تعالى "فانظروا كيف كان"، وتدفعنا للبحث عن الكيفية التي يجب أن نحيا ونعيش بها....



نسأل الله عز وجل أن يلهمنا حسن الاختيار والتوفيق في البناء والإعمار لأرض الشام المباركة،
فنكون سبباً لمباهاة المصطفى بنا، بما يحب ويرضى الله ورسوله....

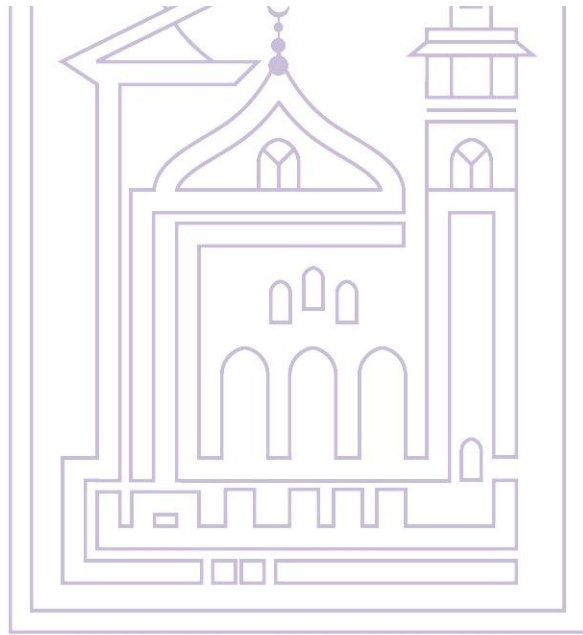
المصادر والمراجع:

. معجم البلدان / لأبو عبد الله ياقوت الحموي.

. القلائد الجوهريّة / لابن طولون.

. العمارة العربية الإسلامية / للريحاني.

. تاريخ دمشق / لابن عسّاكر



قلعة دمشق

الزاوية الشمالية الغربية من دمشق القديمة نموذج لفن العمارة العسكرية

الاسلامية الأيوبي

إخوتي القراء:

أيها السائح "المعتبر المتعظ"، تعال نبحت وتكشف في كتب التاريخ الإنساني.. في رحلة سياحية تبدأ باكتشاف الذات الإنسانية التي تحمل نداء فطرياً مبعثه الخالق عزّ وجل، يهمس هذا النداء باستمرار وإلحاح في ضمير الانسان: اقرأ وتأمل ثم فكر وخطط، كيف السبيل للارتقاء نحو قيم ومبادئ للخلود الأزلي؟ اسأل نفسك أيها الإنسان: لماذا خلقنا الله عز وجل؟ واسأله عن عمارة الذات قبل عمارة الأرض.. فالحضارة ما هي إلا ثمرة تفاعل بين كينونة الإنسان الذي ينشد خلافة الله بما يرضيه، وبين مكونات الأرض...

قلعة دمشق.. ماذا تعرف عنها؟

بدايةً "القلعة": جمعها قلع وقلاع وقلوع، فهي الحصن المنيع الذي يُشيد في موقع يصعب الوصول إليه، وغالباً على قمة جبل أو مُشرف على بحر، ونادراً على أرض منبسطة، و"قلعة دمشق" هي نموذج لعدد من القلاع الكثيرة المبنية فوق أرض الشام لحماية البلاد من غزو الصليبيين والمغول. وهناك فرق بين القلاع والحصون.. فالحصن أكبر من القلعة، فالأسوار التي تتحصن المدن بما تسمى حصون، وكثيرة هي المدن المحصنة بالأسوار، يقطن خلف تلك الأسوار الراعي والرعية والمؤسسات الخدمية، أما القلعة فهي بناء حربي في منطقة استراتيجية مهمتها المراقبة والدفاع وصدّ أي غزو خارجي.

وتقول زيجريد هونكة في كتابها الشهير "شمس العرب تسطع على الغرب": أن الغرب قد أخذ من المسلمين تقنية عمارة القلاع بعد حروبهم الصليبية وغزوهم الشرق العربي، إذن تمثل القلعة حكاية الانسان الذي ينشد الأمن والأمان من شرّ وطمع الاستعمار الخارجي، وقد ظهر هذا النوع من العمارة الإسلامية في فترة العصور الوسطى التي عُرفت بالعصور الذهبية بالنسبة للمسلمين والمظلمة للعالم الأوربي...



وقلعة دمشق... هي عنوان رحلتنا السياحية اليوم، تدعوننا للسير نحوها والوقوف والتأمل في أرجائها...

"قلعة دمشق"



تعد القلعة الوحيدة المبنية فوق سهل يطل على ضفاف نهر بردى، والمؤكد أنها لم تكن مبنية في العصور القديمة ولم يثبت أي دليل على أن القلعة قد بُنيت في العصور الهلنستية والرومانية، لكنها بُنيت في العهد السلجوقي عام 471 / 1076 على يد الأمير "آتسيز بن أوق" أحد أمراء الحرب التركمان، ثم أكمل بنائها "ألب أرسلان السلجوقي"، وداعت شهرتها في عهد نورالدين وصلاح الدين ومن ثم كل ملوك الأتابكة، ثم هُدمت وزالت وُبُنيت القلعة من جديد في العهد الأيوبي، فأصبحت مقراً للسلطين، ودار إمارة لتصرف شؤون البلاد سياسياً واجتماعياً.. حتى أصبحت مدينة بداخل مدينة، وكانت محاطة بخندق يملأه المياه، وكان في داخلها قصور وحمامات ومساجد، واستمرت حوالي مئة عام ونيف.



و عندما جاء الملك العادل أبوبكر، أخو صلاح الدين، إلى الحكم 559 / 1202، كانت الحروب الصليبية مازالت على أشدها بالرغم من انتصارات صلاح الدين، ولاحظ أن القلعة غدت أضعف من أن تلي أو تسير عصرهم.

هدم الملك القلعة ليعيد بنائها من جديد بشكل أكثر قوة وأضخم بنياناً، وأشرف بنفسه على مشاريع البناء واقتسم العمل مع قواده وأبنائه، وظهرت للوجود باسم (القلعة المنصورة)، كما سماها المؤرخون القدماء، بأسوارها المنيعة وأبراجها الاثني عشر البالغة الارتفاع وحجارتها الضخمة البارزة منها.





يمكن أن يراها الداخل من الزاوية الشمالية الغربية لمدينة دمشق القديمة، وهي تمتد من باب الفرج في السور الشمالي إلى باب النصر في السور الغربي، وهما بابان من أبواب المدينة، وما يزال باب الفرج موجوداً ويُعرف باسم باب المناخلية، أما باب النصر فقد زال في القرن التاسع عشر، ومكانه مدخل سوق الحميدية.

تبلغ مساحتها 33 ألف متر مربع، وتمثل هذه القلعة حقبة تاريخية هامة من تاريخ الشرق العربي، ولها بابان رئيسيان: الأول يصلها بمخارج المدينة ويدعى باب الحديد، والثاني يؤدي إلى داخل المدينة مكانه في الشرق عند سوق العسرونية، وهو باب السجن في القرن التاسع عشر.. وهناك أبواب سرية مع جسور متحركة، كما أُحيطت بخندق عميق يُملئ عند اللزوم...

تتجلى القوة الدفاعية للقلعة فيما يلي:

1. سورها وأبراجها العالية.
2. مرامي النبال الموزعة في أعالي الأبراج، وظيفتها صبّ الزبوت المحرقة على العدو المهاجم.
3. شرفات بارزة في أعالي الأبراج تدعى (الرواشن).
4. آلات الحرب الثقيلة التي تنصب على أسطح الأبراج خلف المتاريس كالمجنيق الذي يقذف القنابل الحجرية وقنابل النفط.

وعندما جاء هولاء لجزء الشام، وقفت القلعة بصمود قوي في وجه أطماعه، لكن عندما استمر الحصار والقتال سقطت لأشهر، إلى أن جاء "الظاهر بيبرس" ورّم القلعة وأعاد لها متانتها وقوتها، ليعود المغول بعد أربعين سنة فتصمد وتردّهم خائبين.



ثم غدت القلعة مقراً لنائب السلطان في العهد المملوكي لفترة، لتتحول وظيفتها في العهد العثماني إلى مجرد ثكنات عسكرية نتيجة تطور أسلحة الحصار المتمثلة بالبارود والمدافع، ونتيجة ابتعاد خطر الغزو الخارجي.



ثم بدأت الأسواق كسوق الحميدية والعصرونية وغيرها تحيط بالقلعة وتغطي معظم معالمها، أما من داخلها فقد شُغلت بمصالح الشرطة وسجن المدينة. أما حالياً فقد تم إخلاءها ونقل السجن إلى بناء في بلدة عدرا ليعمل عمل القلعة، ولتبدأ المديرية العامة للآثار والمتاحف بإجراء الترميمات وإزالة المنشآت المحدثثة ومن ثم نقل المتحف الحربي إليها، وقد صارت مركزاً للفعاليات الثقافية الفنية بإشراف وزارة الثقافة، وصارت تُعتبر رمزاً فكرياً وثقافياً.. هذي، يا إخوتي، دمشق التي كانت ولا زالت ملاذ وموئل كل من ناشد السلام والأمن، فمتى تعود دمشق الشام كما كانت أرض السلام والأمن والأمان ومتحفاً للجمال والجلال؟



إن تذوق الجمال والجلال في سياحة بين الآثار المتنوعة يدفعنا للتفكير والتأمل في سيرنا فوق أرض
الله التي استخلفنا فيها. ولننصت للنداء، إنه نداء لبناء الإنسان والتدرج في مراتب الذوق الجمالي
والخُلُق المحمدي، بشكر وامتنان لله عز وجل أن أقامنا في هذه الأرض المباركة.
اللهم أدركنا بعفوك ورضاك بتوبة صادقة تنبعث من الأعماق، نُردِّدُ بها إليك رداً جميلاً...
اللهم حصّن ألسنتنا عن كل وصف يباعدنا عن رضاك...
ولتكن أيها الإنسان لأقوال المصطفى ملازماً وبقلبك مستحضراً نية الاتباع تصبح كقلعة في حصون
محصنة ...

وصلِّ اللهم وسلِّم على حبيبك دائماً وأبداً وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً... .



المصادر والمراجع:

- معجم البلدان / لأبي يعقوب الحموي
- لسان العرب / لابن منظور
- قلعة دمشق / لعبد القادر الريحاني



المدرسة البادرانية [655هـ - 1257م]

شمال شرق الجامع الأموي

إخوتي سائحي دمشق، وقراء زاوية " معالم وأعيان ":

هيا معاً ننتقل باتجاه الشمال الشرقي للجامع الأموي في دمشق القديمة .. ومن أمام بناء حجري ضخيم قديم، نقف ونتساءل عن عبرة وعظة تستنتق من بين أسطر تاريخ هذا المكان .. وما الفائدة من التاريخ إلا بحكمة يخرج بها القارئ المتأمل المتفكر، الذي يتقن أسرار قوله تعالى: **((قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان...))** و**((أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف ... كانوا أشد منهم قوة وعمروها ...))**، ولا يكون ذلك إلا ببناء الإنسان بمنظومة فكرية عقلية يجبها المولى ويرتضيها له، فيكون إنسان الخير للخلق، عيال الله في الأرض.

ذلك البناء هو المدرسة البادرانية...



موقعها:

تقع بمحلة العمارة الجوانية، إلى الشمال الشرقي من الجامع الأموي، داخل باب الفراديس والسلامة، شمالي جيرون، وشرقي الناصرية الجوانية، كانت

داراً تعرف بدار أسامة في حارة أسامة، واليوم تسمى بحارة البادرانية.

قال ابن شداد: أنشأها الشيخ الإمام العلامة نجم الدين أبو محمد عبدالله، أبي الوفاء، محمد بن الحسن بن عبدالله بن عثمان البادراني البغدادي، 653هـ هجري، وبادرايا: هي بلدة من نواحي مدينة واسط بالعراق.

كان البادراني فقيهاً شافعيّاً بارعاً، وُلّي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد .. قدم دمشق وبنى المدرسة وأوقف عليها وقوفاً كثيرة، وشهد افتتاحها حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وبقيت هذه المدرسة موثلاً للعلم منذ انشائها، ثم تحولت إلى جامع يسمى البادرانية.



و قال الذهبي: كان البادراني من فقهاء وعلماء الشام.

و قال ابن طولون: كانت داراً للأمير أسامة الجبلي، صادرها منه الملك العادل لغضبه عليه بعد أن سجنه في الكرك إلى أن مات، ثم صارت لولده (المعظم) ثم لولده (الناصر داوود)، ثم اشتراها منه نجم الدين البادراني، الذي حولها فيما بعد إلى مدرسة، تولى فيها التدريس ومن بعده أبنائه ومع العصور تعطلت، وأصبحت مصلى ومسجداً صغيراً يُصلى فيه ..

و في وصفها التصويري نجد أن بناءها الأيوبي لم يبق منه إلا بابان ضخمان وإيوان شمالي، ولم تزل جدرانها الخارجية القديمة التي تتخللها أعمدة ضخمة قائمة إلى الآن.

نصلي ركعتين تحية المسجد، ثم نتحول ولساننا يدعو الله عز وجل:

((ربنا أتنا من لدنك رحمة وهيباً لنا من أمرنا رشداً))، وقلوبنا لله عز وجل ممتنه له.



المصادر والمراجع:

. الدارس في تاريخ المدارس/ للنعيمي

. العمارة الإسلامية/ للريحاوي

المدرسة الخيضرية [878هـ - 1473م]

إخوتي القراء:

ليس المقصود من رحلاتنا السياحية إبراز الناحية الجمالية لفن العمارة الإسلامية فقط، وإنما لتحفيز الروح وتوجيه النفس متحدة معها نحو العلو والسمو.. من خلال لسان يصدق القلب بالدعاء لمن سبقونا أن يجزهم المولى عنا خيرا، ويجعلنا ممن يستمعون ويحسنون التأمل والتفكير يا رب يا الله... آمين.



فهي معا في جولة سياحية من أرض الحضارات المختلفة تنادي علينا بأن نكون من خيرة الخلق... هيا معا... يا قراء زاوية "معالم وأعيان"...

دار القرآن أو المدرسة الخيضرية:

تقع في دمشق القديمة ضمن السور، في منطقة الشاغور الجواني (القصاعيين)، قبلي جامع قلعي، شمالي دار الحديث السكرية، في الحي المشهور باسمها بالقرب من سوق الصوف، حيث تطل واجهتها على هذا السوق وهي مشيدة مملوكية.

تخبرنا المصادر بأن من أنشأها هو قاضي القضاة ابن خيضر...

فمن هو؟

إنه قاضي القضاة قطب الدين أبو الخير محمد بن عبدالله بن خيضر الخيضري الزبيدي الدمشقي الشافعي، ولد في عام 821هـجري / 1418 ميلادي، في دمشق حفظ القرآن الكريم واشتغل بالحديث الشريف سمعا من كثير من العلماء والفقهاء أمثال ابن شعبة، وله مؤلفات منها: "طبقات الشافعية"، شرح "ألفية العراقي"، و"الخصائص النبوية"، و"الألفية" وغيرها من المؤلفات.

توفي في عام 894هـ / 1488 بتربته بالقاهرة.

و ما وقفنا هذه التأملية إلا كحلقة صغيرة في سلسلة من الحلقات الطويلة والتي تشكل تراكم حضاري علمي ديني لمدينة العلم والعلماء... أرجو من المولى أن يتلطف بأهل الشام ويبدؤوا بالتغيير الذي يبدأ من النفس التي لا يعلم أسرارها إلا الخالق الديان.. فوقونا عند سير هؤلاء ما هو إلا تحفيز للأفضل عند سيد الخلق...



أما الوصف التصويري ما المقصود منه إلا لتنمية في العقل والنفس... نزداد معرفة...
فالمدرسة كانت دار للقرآن ثم مدرسة شافعية.. ثم مصلى للصلاة... ففي دمشق تتحول الأماكن
إلى مساجد....

فهي مدرسة لها جبهة حجرية من الغرب وفيها باب يصعد إليه بدرجتين وفيها شباكان إلى القاعة
قائمة على قنطرتين كبيرة وصغيرة وتحت الصغيرة إيوان فيه غرفة كتب فوقها:

(الحمد لله اللطيف بعبد هذه مدرسة مباركة وقف على الفقراء المتعلمين القرآن العظيم إلى عفو
الله الكريم غلام الفقراء المتعلمين قاضي القضاة قطب الدين الخيضي الشافعي خادم السنة النبوية
على فاعلها أفضل السلام سنة 878هـ).

و تحت القنطرة الكبيرة مصلى وفيه المحراب بزخرفة بديعة فوقه آية (إنما يعمر مساجد الله..) وفي
القاعة بركة ماء يجري إليها الماء بقنوات، وغرفتان شرقية وغربية.



المصادر والمراجع:

. تمار المقاصد ي ذكر المساجد / لابن عبد الهادي

. الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي

. العمارة العربية الإسلامية / للريحاوي



المدرسة الضيائية (603هـ- 620هـ)

ذكرها ابن شداد باسم (مدرسة ضياء الدين بن أحمد)
 ذكرها ابن طولون باسم (دار الحديث الضيائية المحمدية)
 ذكرها صاحب الدارس باسم (المدرسة الضيائية المحمدية)



إخوتي الكرام:

ندعوكم للسير والتجول بين أرجاء هذه المدرسة والتي اشتهرت بالضيائية نسبة لبانيها لتعرف على سر من أسرار أهل التقى والورع ممن سبقونا بالزمن.

الحديث عن المدارس القديمة في مدينة دمشق له شجون ومعانٍ رائعة تلامس شغاف القلب لتحتِّ الإنسان على العمل، فالتاريخ يُقرأ من خلالها لأنَّ المدرسة مؤسسةٌ تربيةً هامةٌ تحتضن الأبناء بعد الأسرة وتتابع إشرافها التربوي قبل التعليمي ولذلك نجد أنَّ معظم حيي الصالحية في بداية نشأته قد ارتدى وشاح العلم والدين في منافسة بين أبناء ذلك الحي بعد أن وضع مؤسسه أحمد بن قدامة حجر

الأساس فوق أرضه، وها هو حفيد الشيخ أحمد بن قدامة يتابع مسير أسرته بزرع بذور العلم والدين في تربة الأخلاق النبوية فأثمر حي الصالحية نماذج رائعة.

قام ضياء الدين المقدسي ببناء مدرسة خاصة للحديث الشريف على أرض في سفح جبل قاسيون كان قد ورثها عن والده وجعلها وقف للقرآن والفقهاء أيضاً، ومن النظر لتاريخ بنائها (603-620هـ)، نجد أنه كان يتقن باليسير مما يصل إلى جيبه وأعانه بعض أهل الخير فيما بعد، يبني جانباً منها ويصبر إلى أن يجتمع لديه ليني الجانب الآخر، يعمل بنفسه فيها ولم يقبل من أحد شيئاً تورعاً.

عندما ظهر حي الصالحية في سفح قاسيون في القرن الخامس الهجري رافق ظهوره ظهور المدارس والصور العلمية المتنوعة كـ"المدرسة العمرية" لأبي عمر بن قدامة والتي سُميت بـ"الشيخة" وكانت ملاذ العلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي كأكاديمية جامعية، كان ضياء الدين يُدرّس فيها إلى جانب حاله الموفق وإلى جانب أبي عمر.

لم يكفه هذا العمل الصالح بل أخذ يخطط لبناء مدرسة للحديث الشريف، فقد برع في حفظ الأحاديث من خالته المحدثّة رابعة وجمع سير وتواريخ المقادسة من والدته الشيخة رقية بنت أحمد بن قدامة...

فحبُّ الله ورسوله والعمل على إعمار الأرض وخلافة الله عزَّ وجلَّ بما يحب ويرضى يسكن وجدان قلبه، رحمه الله وجزاه الخير هو وأهله لما بذلوا من جهد وعطاء للخير.

موقع المدرسة الضيائية ووصفها:

تقع خارج سور دمشق القديم على سفح قاسيون وبمحاذاة الجانب الشرقي لجامع الحنابلة. قال **الذهبي**: "أنشأ المدرسة إلى جانب الجامع المظفري⁽¹⁾، وكان يبني فيها بيده ويتقن باليسير". والجامع المظفري هو نفسه جامع الحنابلة.

أمّا عن وصف المدرسة التي لم يتبقى منها اليوم إلا قوس إيوانها الشمالية قال **ابن طولون**: "تشمل المدرسة على مسجد له بابٌ عربيّ قدام باب خلوة الكتب، ولهذا المسجد شباك يطلان على صُفّةٍ بها بئر ماء، وهذه الصُفّة في صحن هذه المدرسة، ودأيرها خلاوي سفلية وعلوية، وفي شرقيه بيت الخلاء، وفي قبله باب المدرسة الخارج وهو قديم".

الدراسة والتدريس في المدرسة الضيائية:

أول من درّسَ فيها مؤسسها ضياء الدين المقدسي، وكان يقرأ على الطلبة ليثبتوا سماعتهم. ومن المدرّسين خطيب الصالحية وقاضي القضاة عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة وهو ابن الشيخ أبو عمر بن قدامة.

والشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسي ويكون ابن أخ الضياء.

وأبو العباس من كبار الصالحين والأتقياء، وعمر بن سعد بن عبد الأحد الحراني ثم الدمشقي، وابن طولون الصالحي وغيرهم من العلماء المحدثين رحمة الله عليهم.

كان اختصاص المدرسة الحديث والفقهِ والقرآن، ومناصبها: الإمام والناظر وملقن القرآن. وكان في المدرسة الضيائية مكتبة تحوي آلاف الكتب، جمعها الضياء من مجهوده وماله الخاص، وصار لهذه المكتبة شهرة كبيرة بين مكتبات دمشق آنذاك فباتت أكبر مكتبة فيها. كان فيها أوراق بخطوط الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وكان فيها توراة وإنجيل قديمين بالخط العبري والسرياني.

ولكن وللأسف فقد زالت تلك المكتبة كغيرها من مدارس ومكاتب مدينة دمشق عندما دخلها تيمورلنك المغولي وجنوده فتعرضت للهدم والسطو وسرقة الكتب، ويذكر الرحالة عبد القادر البدران الذي زار المدرسة في أواخر عهد العثمانيين أن الناس اتخذوها مخزناً للقش!! وقد أضيف ما بقي من كتب للمدرستين العمرية والضيائية إلى المدرسة الظاهرية.

ولنستمع في النهاية إلى الرحالة الدمشقي أبي البقاء البدراني في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام: (...فكم من مدرسة اندثرت بعد الصلاة والتراويح، وأمست في ظلمة بعد تلك المصاييح، فهذه تقول: أصبحت حاصلاً بعدما كان إيواني بالقرء عامراً أهلاً، وهذه تقول: أصبحت مربطاً للبهائم بعدما كنتُ معبداً للقائم والصائم، وهذه تقول: اتخذوني مسكناً، وهذه تقول: هدوني وأخذوا سعفي وكشفوني، وهذه تقول: خربوا جدرانِي وباعوا الباب وجعلوني مأوى للكلاب، والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث، فيقال لهم اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾. بكلمات أبي البقاء البدراني نختتم ولسان حالنا يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المصادر:

الحوليات الأثرية لمديرية الآثار لمدينة دمشق

سير الأعلام للذهبي

محاسن الشام لأبي البقاء البدري



المدرسة العادلية الكبرى والصغرى والتربة العادلية الجوانية والبرانية

إخوتي القراء:

سنتحول بين جدران مدرستين سُمّيتا بالعادلية، الكبرى والصغرى...

المدرسة العادلية الكبرى، وضمنها التربة العادلية الجوانية:

تجاه الظاهرية في دمشق القديمة، بمنطقة العمارة الجوانية، بين بابي الفرج والفراديس مقابل المكتبة الظاهرية.. وسبب بنائها يعود لنور الدين زنكي الذي كان من شدة احترامه وحبه للعلم وللعلماء أن أنشأ المدارس في جميع أنحاء دمشق والشام، منها "العادلية الكبرى" قال الأسدي في تاريخه في سنة 568هجري: شرع نور الدين محمود بن زنكي في بناء مدرسة كبيرة للشافعية لكن نور الدين توفي ولم تتم، ثم تمّ بعضها الملك العادل سيف الدين، ثم توفي ولم تتم المدرسة بعد، فتمّمها ولده الملك المعظم، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، ودفن فيها والده ونسبها إليه.

وقال النعمي: العادلية هي التي شرع في بنائها نور الدين زنكي وتوفي لم تتم، وبنها الملك العادل أو صلاح الدين وترتبه فيها، وقد رأيت ما قد بناه نور الدين المحراب والمسجد، وبقي قطب الدين يدرس إلى أن توفي في عام 578 هجرياً وأوقف كتبه على طلبة العلم في مكتبة المدرسة.

والملك العادل هو أبوبكر بن أيوب بن محمد بن شادي بن مروان بن يعقوب الدويني ثم التكريتي ثم الدمشقي، السلطان الملك العادل ابن الأمير نجم الدين أيوب، وهو أصغر من أخيه صلاح الدين الأيوبي بسنتين، نشأ في خدمة نور الدين زنكي مع أبيه، وحضر فتوحات أخيه، وكان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مجاهداً متصديقاً، وهو من أمر ببناء قلعة دمشق، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج.

قال الأسدي في تاريخه: في عام 568هـ، شرع نور الدين بعمارة مدرسة للشافعية، ترحيباً واجلالاً لقدم الفقيه العالم قطب الدين (النيسابوري) من خراسان إلى دمشق، وقد جلس ودرس بالزاوية الغربية

للجامع الأموي، المعروف بالشيخ نصر المقدسي ووضع نور الدين زنكي محرابها لكنه توفي ولم يُتممها، إلى أن أتى الملك العادل في سنة 612 للهجرة، وشرع في بناء مكانها مدرسة عظيمة، سُميت بالعادلية.

كما قال الذهبي في تاريخه العبر، 615هـ: والسلطان العادل سيف الدين أبو بكر محمد ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي، نشأ في خدمة نور الدين مع أبيه.. كان أخوه صلاح الدين يستشيريه ويعتمد عليه وعلى رأيه وعقله ودهائه، ثم سلطن ولده (الكامل) على الديار المصرية والمعظم على الشام.

وقال الريحاني أن المدرسة العادلية الكبرى كانت مقراً للمجمع العلمي حديثاً، بالقرب من الجامع الأموي، وتضم تربة الملك العادل أبي بكر، وهو الذي أنشأها سنة 612هـ، وأتممها بعد وفاته ابنه (المعظم عيسى) فأكملت سنة 620هـ / 1223م.

وفيها ألف أبو شامة "الروضتين"، وابن خلكان "الوفيات"، وفيها نزل ابن خلدون وغيره من عباقرة العالم الإسلامي.

أما المدرسة العادلية الصغرى:

فهي داخل باب الفرج شرقي باب القلعة في محلة العسرونية، وقال ابن شداد: العادلية الصغرى مُنشئها (زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب)، وكانت داراً تُعرف لابن موسك، ملكتها (الخاتون عصمة الدين زهرة)، ابنة الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، ثم ملكت الخاتونُ زهرة لابنة عم أبيها (الخاتون بابا خاتون) ابنة أسد الدين شيركوه.

ثم وقفت (بابا خاتون) ذلك على (زهرة خاتون)، ومن بعدها تكون مدفنًا ومدرسة ومواضع للسكن، وشرطت للمدرسة مُدرّساً ومُعيداً وإماماً ومؤذناً وبوّاباً، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة، فدرس في هذه المدرسة شيوخ الفقه الشافعي من العلماء الأجلاء.

إذاً فقد بُنيت في العهد الأيوبي ولكن بابها وجزءاً من واجهتها ينتميان إلى العهد المملوكي، وُرُمت واجهتها في العصر المملوكي، وتغيرت معالمها الداخلية حديثاً.

بينما التربة العادلية البرّانية:

قال مؤرخ حي الصالحية الشهير بابن طولون عن شيخه المؤرخ النعيمي: (التربة العادلية بسفح قاسيون، غربي دار الحديث الناصرية البرّانية)، وقال الذهبي في ذيل العبر في سنة 702 هـ: (مات متولي حماة الملك العادل زين الدين كتبغا المعلي المنصوري، ودفن بترته بسفح قاسيون).

و هذه التربة ما تزال موجودة، ذات واجهة حجرية جميلة وباب ذي مقرصنات.. وقال الريحاوي: (هي في سفح قاسيون عند ضريح المالكي، التي دفن فيها السلطان المملوكي الملك العادل كتبغا).

إخوتي سائحي دمشق:

لنتأمل ونتفكر... في بذرة طيبة واحدة غرسها نور الدين محمود بن زنكي، للمدرسة الشافعية، ولم تتم معه فتوي قبل إنهائها، ليأتي من بعده بحوالي أربعين سنة من يتم بناءها، وهو الملك العادل، لتصبح مؤسسة علمية دينية تضم العلماء الأجلاء الطامحين لأن يكونوا ممن قال فيهم صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده)..

لنتأمل تلك البذرة الواحدة، بينما قد شارفت رحلتنا على الانتهاء، ولسان حالنا يدعو لمن سبقونا.. جزاهم المولى خير الجزاء، وأثاب أحسن الثواب لسيدنا نور الدين زنكي، الذي عاش ومات وهو يعمل على ترسيخ مبادئ الإسلام العظيم في أرض الشام، دمشق.

المصادر والمراجع:

. تاريخ العبر / للذهبي

. الدارس في تاريخ المدارس / للنعيمي

. تاريخ الصالحية / لابن طولون

. العمارة الإسلامية / للريحاوي

المدرسة العزيزية

بجي الكلاسة خلف الأموي ... عبر وعضات

إخوتي قراء زاوية "معالم و أعيان":

شهدت دمشق في العهد الأيوبي حركة عمرانية مزدهرة لا مثيل لها ، و السبب يعود إلى ترسيخ وحدة البلاد التي تحققت أيام نور الدين زنكي ، و استتباب الأمن لشهد دمشق نهضة علمية عمرانية بالرغم من التهديد الصليبي.

وتجلت الحركة العمرانية بالمباني العامة، التي غلب عليها طابع البساطة و التقشف بسبب الحرب، و لكن امتازت بالمتانة و القوة في البناء، من هذه المباني الأيوبية الدمشقية المميزة.

المدرسة العزيزية:

تقع هذه المدرسة في الزاوية الشمالية الغربية من الأموي و إلى الجنوب من المدرسة الظاهرية و غربي المدرسة الجقمقية في شارع الكلاسة بمحلة البريد.

بناها العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي شرق تربة والده ، لتتصل التربة مع المدرسة فيما بعد، فتنبعث منهما نسائم عبرة و عضات نسأل المولى عزَّ و جل أن نحسن التأمل

تضم تربة السلطان صلاح الدين، التي بناها الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين سنة 1192/592 ميلادي، و قد انهدمت المدرسة و بقيت التربة، و لها قبة محززة و أهم ما في التربة الضريح المصنوع من خشب الجوز المنقوش بالزخارف و الكتابات.

وكسيت جدران التربة في العهد العثماني بألواح من القاشاني الأزرق وضعت سنة 1036هجري/1627ميلادي.

والضريح الرخامي فهو من عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1878 ميلادي.

والمؤرخ قتيبة الشهابي يقول:

مؤسس المدرسة هو الملك الأفضل بن صلاح الدين شقيق العزيز عثمان بن صلاح الدين ، فالأفضل بنى القبّة لتكون تربة أيوبية، و نقل والده من قلعة دمشق بعد عامين من وفاته، ثم العزيز قام ببناء المدرسة بجوار الضريح في عام 592هـجري / 1196 ميلادي .

إذاً المدرسة العزيزية الشافعية ، قد اتصلت بقبة صلاح الدين بعد بنائها من قبل العزيز .

وتعد معلم أثري تاريخي عظيم، لتضم فيما بعد قبورا لقادة و علماء سطورا أبحاد مدينة دمشق عبر التاريخ ... و ما الحياة إلا بضع أيام و سنين نسأله حسن التأمل ...

والمدرسة من حيث الوصف، تتألف من باحة و قاعة و مدخلين، في الباحة بركة بيضوية، أما القاعة مربعة الشكل بقبة محززة، تضم القاعة قبر القائد صلاح الدين الأيوبي، لينضم إليه العالم الرباني الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي.

وفي الحديقة شخصيات تاريخية مدفونة فيها ... وهي كالتالي :

الشهيد عبد الرحمن الشهبندر، الهاشمي، و ياسين الهاشمي، و قبور ثلاثة لطيارين أترك كانوا متجهين نحو فلسطين نجدة لها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، و حديثاً انضم إليهم الشهيد أحمد محمد توفيق رمضان البوطي، الذي استشهد مع جده العالم الرباني محمد سعيد رمضان البوطي، رحمهم الله.

وإلى الأمام من هذه القبور نرى قبر ظاهر للعيان بشاهدة دون توثيق، إنه قبر الملك الأشرف موسى الأيوبي ، ابن الملك العادل الأيوبي أخ القائد صلاح الدين، و قبره هو ما تبقى من تربته الملكية الأشرفية، بتوثيق من المصادر و المراجع ..

فقف أيها المتأمل المتبصر بإذن الله... و ادعُ المولى أن يلهمك الرشد و الصواب في حياتك قبل فوات الأوان ... فكم من عبرة تستحق منا نحن الأحياء على الأرض الاعتبار قبل فوات الأوان فاليوم نعيش فوق التراب و غداً تحت التراب ...

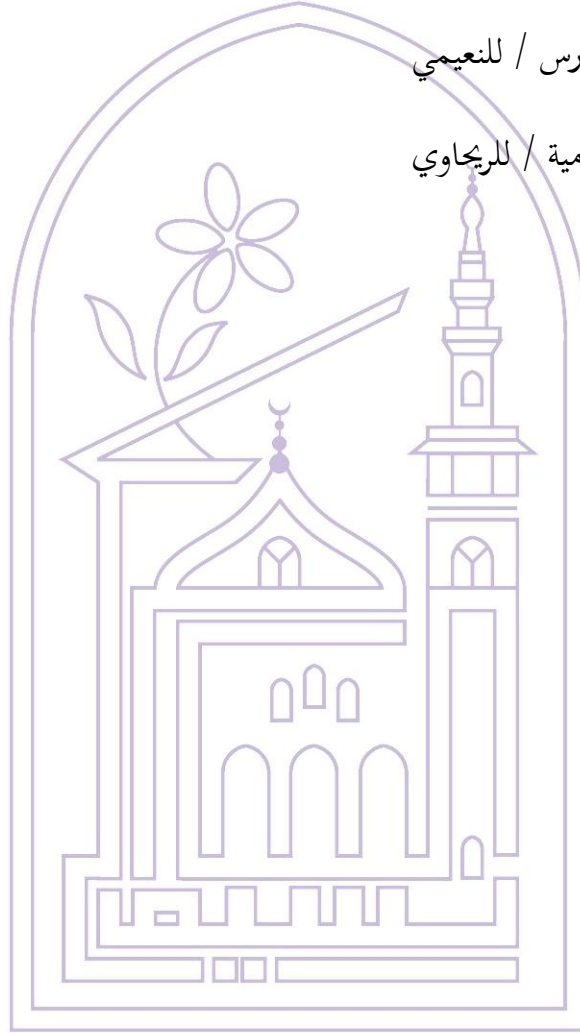


المصادر والمراجع:

. القلائد الجوهريّة / لابن طولون

. المدارس في تاريخ المدارس / للنعمي

. العمارة العربيّة الإسلاميّة / للريحوي



المدرسة العمرية [577هـ - 1162هـ]

«..أما المدرسة العمرية، فلا بد أن أقف عليها فإنها تستحق الوقوف، فقد كانت تسمى المدرسة الشيخة أي الجامعة، وكانت جامعة معاً، وكان فيها أقسام مستقلة (كليات) للمذاهب الأربعة، يتولاها جلة علمائها وهذا من أعجب ما رأيت من عبقرية هذه الأسرة وسبقها لزمانها، قسم للمكفوفين، وقسم للأطفال، وكان لشيخها رتبة عالية تعدل برتبة مدير الجامعة في هذه الأيام، وكان هذا كله في العصر الذي نسميه عصر الظلام».

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله

دمشق صور من جمالها

فأين تقع المدرسة العمرية؟ والتي تميزت بحقيقة حضارية شائخة في عصر سمي بعصر الظلام.. فكيف عصر الظلام، وهذه المدرسة الفريدة من نوعها في بنائها وتخصصاتها كيف كان لها هذه الشهرة والصيت العلمي الذائع..؟؟ لا بد من لمحة عن أوضاع البلاد في تلك الفترة، حيث كان العالم الإسلامي يعاني من انقسامات سياسية، واضطرابات وتهديدات خارجية، مع نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس الهجري، ومع بداية الزحف الفرنجي على البلاد وسيطرته على توطيد صفوف المسلمين وإعداد العدة للفرنج، وبدأ بنشر عدالته السمحة التي تميز بها حكمه في البلاد، فأخذ الازدهار العلمي في نشاط بتشجيع من الملك العادل نور الدين، وشهدت دمشق في فترة حكمه في البلاد، فأخذ الازدهار العلمي في نشاط بتشجيع من الملك العادل نور الدين، وشهدت دمشق في فترة حكمه نشاط فكري وعلمي وديني ذاع صيته في البلاد، فسمي عصره بالعصر الذهبي، ومن ضمن فعاليات هذا النشاط كان لهذه الأسرة الجليلة أسرة بنو قدامة دور بارز في هذه النهضة العلمية، على الرغم أن العالم الغربي كان يسمى بعصر الظلام في تلك الفترة. وهذا الدليل كبير على أهمية لفكر الإنساني المسلم، والحضارة تتألف من ثلاثة عناصر: الإنسان + الكون + الحياة. وبموجب المدرسة العمرية التي فاقت شهرتها بين البلاد، لتبرز لنا أن هذا الإنسان هو أغلى وأهم عنصر في تكوين الحضارة الإنسانية لما يحمله عقله من أفكار وبما يحتضن فؤاده من عواطف ومشاعر الخير للعباد. ألا وأرجو من الله عز وجل أن يصحو المسلمون من سباتهم وينهضوا ليواصلوا المسير في بناء حضارة مميزة بفكر وعقل ثاقب وقلب وروح لاهب، لعمرى إن أسرة وعائلة بنو قدامة رضي الله عنهم قد ساهموا وسطروا صفحات مشرقة بحبر

يشع ويضيء معلناً أن لا حب إلا لله ورسوله، ولا عزة إلا بهما. «المدرسة العمرية» هي ثمرة من ثمرات هذا الحب، فجاءت مميزة المعاني والتخصص، ولذلك سميت بالشيخة والشيخة.. تقع المدرسة العمرية: خارج أسوار مدينة دمشق القديمة، في سفح قاسيون، بناها الشيخ أبو عمر ملاصقة للدير الذي بنوه ثم عُرف فيما بعد باسم مسجد الحنابلة. وحالياً هذه المدرسة هي عبارة عن آثار تحتاج إلى من يُجلي معالمها الثقافية، وهي في وسط سوق الجمعة، الذي طغت شهرته التجارية على المنطقة واليوم تفصل حارة ضيقة المدرسة العمرية عن مكان الدير القديم. أما عن تاريخ بنائها: فهو في 577هـ فقد قام الشيخ الكبير أحمد بن قدامة مؤسس الصالحية بوضع أساسياتها ثم أكمل ولده الشيخ أبو عمر بناء المدرسة وقام بتخصيص أوقافها.

وهناك قديم يُظهر تاريخ بناء هذه المدرسة، حيث يقول **الحافظ الضياء** عن خاله الموفق بن قدامة قائلاً: كان أبي قد تخلّى عن أمور الدنيا وهمومها، فكان المرجع في مصالح الأهل إليه.. وبنى المدرسة والمصنع بعلو همته.

بعد الموقع وتاريخ البناء نتوجه الآن لتتعرّف على مخطط المدرسة العمرية والتي كانت كالتالي:

المدرسة مؤلفة من طابقين، العلوي للخلاوي للفقراء. أما الميضاة بناها جهة القبلة وتحت الخلاوي، أي في الطابق الأسفل، وضمت المدرسة حرماً وأبواب مظلة على الشرق والغرب، وباباً كبيراً من جهة الغرب، وفيها مقصورة كبيرة لقراءة القرآن ليلاً، وبنيت في المدرسة خزائن جدارية لوضع المصاحف والكتب، وأمام الباب الغربي فسحة بها بئر معلق عليها سطل من نحاس للشرب. وكان الصحن مبليطاً بحجر أسود ومزي، وفيه بئر ماء وسقاية، وقبالة الزاوية الغربية صفة لتفريق اللحم والخبز، وبالطريق الغربي يوجد المطبخ والميضاة الكبرى. هذا وقد كان للمدرسة دور اجتماعي كبير بالإضافة للدور العلمي البارز، فقد لعبت دوراً هاماً في ترابط المجتمع لذلك العصر، وسبب تسميتها بالشيخة لمؤسسها وبانيها الذي كان يلقب بشيخ الإسلام «أبو عمر»، أما الشيخية: لأنها رئيسة المدارس جميعها وهذه الأقسام والأجزاء التي تحولنا فيها جعلها في مصاف الجامعات الحديثة، فهي من أقدم المراكز التي حققت السكن الداخلي للطلاب، وتوفير حاجياتهم ومتطلبات عيشهم، من طعام وشراب وكساء ونظافة.

أوقاف المدرسة العمرية:

إن دراسة أوقافها يعطينا صورة عن النظام المالي ورعايته، والذي سيكون له الأثر البالغ في حي ومجتمع الصاحبة لعدة قرون. بدأت أوقاف هذه المدرسة منذ عصر بانيتها أبو عمر رحمه الله حيث يقول لنا عبد الهادي أحوال أوقافها فيقول: "هذه المدرسة عظيمة، لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها، والشيخ بنى فيها المسجد وعشر خلاوي فقط، وقد زاد الناس فيها ولا يزالون يوقفون عليها من زمنه إلى اليوم- أي عصره- فلما تمضي سنة من السنين إلا ويصير إليها فيها وقف، فوقفها لا يمكن حصره حتى صار من كل أنواع البر إليها" النعيمي / الدارس في تاريخ المدارس.

أهم موارد وقفها:

- 1- ما يدفعه المتبرعون والمحسنون من نقود ومواد عينية.
- 2- العشر في البقاع - أي اللبناني - ولا غرابه فهناك علاقة بين مقادسة الصاحبة ومقادسة لبنان ولاسيما (بعلبك وبونين).
- 3- وقف كفر بطنا - ووقف داريا.
- 4- من الدراهم خمسة آلاف للغنم في شهر رمضان.
- 5- السوق المعروف بعمارة الإخنائي غربي شمال باب الفراديس.
- 6- ألفا رغيف تفرق كل يوم.

أما التوزيع والاستفادة من الوقف: منهم النازلون فيها من المدرسون والملقنون والمعيدون والمكفوفون وأفراد من المجتمع الصالحاني. واللافت للنظر أن هذه الأوقات ليست وقفاً لطلبة العلم والفقراء، وإنما أصبحت تقوم بدور اجتماعي يشبه دور المؤسسات والجمعيات المعاصرة. أعرفتم لماذا قال الشيخ علي الطنطاوي والذي [سبقت زمانها..] رحمه الله.

فأي عزيمة وهمة إيمانية حتى بلغت قوله سبقت زمانها في الجوهر والمضمون، وذاع صيتها البلاد.. رحمهم الله، ورضي الله عنهم، وجعلنا لهم خير خلف اللهم آمين نعود نكمل جولتنا الروحية لهذه المدرسة العظيمة، الأثر والفائدة.

ما هي مناهج هذه المدرسة؟

والمقصود بذلك هو سير العملية التعليمية والذي يعتمد على الأستاذ والطالب والمقرر أي المادة العلمية. لقد قدمت المدرسة العمرية تراث حضاري للأمة الإسلامية، لم يقتصر هذا التراث على الناحية الفكرية العلمية، وإنما على الناحية العمرانية والسكانية، فمن آثار النشاط العلمي وازدهاره، نشط المجتمع الصالحاني، فكثر بناء المدارس وظهر التنافس المحمود بين السكان، وسوف نقوم بسرد هذا التنوع العلمي وكيف ازدادت أعداد المدارس في تلك الفترة، وهذا الفضل بعد الله عزوجل يعود لهذه الأسرة المباركة آل قدامة، ولينة الصدق والإخلاص التي ترعرعت ونشأت في قلوب الأبناء والأحفاد بسقاية الشيخ الكبير رحمه الله أحمد بن قدامة.

أما عن المدرسة العمرية، والتي قام فيها أشهر المدرسين وأقدمهم في ذلك العصر نذكر منهم:

الحافظ العلامة الشيخ عبد الغني المقدسي، والفقيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان المقدسي الحنبلي، وهذا تلميذ الموفق. ومنهم الفقيه عز الدين عبد العزيز بن عبد الملك المقدسي الحنبلي، تلميذ الموفق. ونجم الدين أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي، والقاضي شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر ابن مؤسس المدرسة، كان عالماً بالفقه. ومن الملاحظ أن الشيخ أبو عمر مؤسس هذه المدرسة لم يكن من أول المدرسين في هذه المدرسة، والسبب في ذلك لارتباطه الاجتماعي والرسمي الذي كان يقوم به باسم المقدسة هذه أولاً، ومشاركته في الجهاد ضد الفرنج، والسبب الأخير شغله في النظر لأوقاف هذه المدرسة والإشراف عليها، والخلاصة في هذا الكلام أن أبو عمر رحمه الله مؤسس هذه المدرسة كان بمثابة مدير للمدرسة تربوياً ومالياً، كرئيس جامعة في عصرنا، ولذلك فقد حظي بمديح ودعاء كبير ممن جاء من بعده، وصولاً للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، وتأسفه: «فهل نسيهم أهل دمشق وهم أهل وفاء».

أما الطلاب:

فقد تمتعوا برعاية كبيرة على الصعيد المادي-العلمي-النفسي. والعنصر الثالث والأهم في سير العملية العلمية والتربوية، هي المادة العلمية. كيف كانت وعن ماذا..؟

لقد اعتنت المدرسة و بإشراف أبو عمر-رحمه الله- بكل فنون العلم، لاسيما الشرعي. لم يقتصر التدريس على الفقه الحنبلي، إنما على المذاهب الأربعة، وحرص بنو قدامة على تعليم الصغار القرآن الكريم، وكان لهم متخصصون بالإقراء. فازداد عدد القراء في الصالحية ثم في دمشق حفظها الله، وكان من العلماء الذين يتوافدون إلى هذه المدرسة بعد رحلاتهم العلمية خارج الشام، ومروياتهم لما سمعوا ورأوا الأثر العظيم في زيادة النشاط وازدهارها.

وتنوعت العلوم في هذه المدرسة كالحديث والسيرة والعقيدة والقصص واللغة ومجالس الأشعار ومجالس النظر. ومع الأيام نالت هذه المدرسة العمرية شهرة عالمية لم يكن غيرها هذا الصيت، كانت بمثابة أكاديمية تستقطب الناس بمدرسيها وموادهم العلمية الغنية التي كانوا يدرسونها، وزيادة على ما سبق المكتبة التي أسسها هذا الشيخ الفذ أبو عمر رحمه الله والتي من صدق وإخلاص توجهه في إنشائها أصبحت معلماً من معالم الثقافة الهامة لما ضمت من كتب ومصادر هامة وساهم هذا الشيخ وغيره من العلماء في إثرائها وإغنائها حتى نالت هذه الخطوة الهامة في العالم بأثره لذلك العصر.

وهذه المكتبة في بداياتها كانت ينسخ فيها المصاحف يدوياً، ونسخ الكتب بأعداد كبيرة من الشيخ أبو عمر رحمه الله، ثم أخذ بقية العلماء يحذو حذوه بدون أجر مادام الأجر المضاعف سيناله عندما يلقي الله عزوجل رحمهم الله وجزاهم الخير كله.

إخوتي القراء: هل عرفنا لماذا الشيخ علي رحمه الله وجزاه الله خيراً، يذكرنا بهؤلاء الصادقين الأمينين والذين أيقظوا في قلوبنا معاني جداً راقية وسامية، معاني الحب لله عز وجل ولرسوله الكريم صلوات الله عليه ورحمته وبركاته. يجب أن نستفيد من معرفة هذه المعاني بالعزم والإرادة والعمل على الاقتداء بهم ولو ببسير من العمل، أفضل من التمني والترحم والتغني على أطلالهم.

ونحن نرجو من الله من يهباً لإحياء هذه المدرسة ولو بقليل من العمل والجهد، لا للتبرك والتغني بهم، إنما لتكون عبرة لمن أراد الاعتبار، وموقظة لمن أراد الإيقاظ، عسى أن نصل بعد ذلك مع زائرين هذه المدرسة لتجديد العهد مع الله عزوجل للعمل والمثابرة بعد قراءتهم للفتحة على روح مؤسسها وعلى أرواح الذين ساهموا في إحيائها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ونرجو من الله عزوجل القبول والرضى.



المصادر:

- . سير الأعلام / للذهبي
- . القلائد الجوهريّة / لابن طولون
- . شذرات الذهب / لابن العماد





المدرسة النورية الصغرى

دار الحديث النورية

بناها نور الدين زنكي والمرجح قبل سنة 566 هـ

ندعوكم لرحلة سياحية تُجلي عن القلب وحششته، وما الغاية من الرحلة ما لم يكن لنا بها وقفة تأمل في عبء وعظمة، نستلهم منها المنهج والسبيل في ظلال رضى المولى والنبي المصطفى العدنان؟

تعالوا يا إخوتي القراء، سياح دمشق، الذين ينشدون تغيير الذات، تعالوا بنا إلى رحلة إيمانية في أرض الشام المباركة، تعالوا لتروا السلطان نور الدين زنكي الجالس في صدر الدار، يُنصت بحب وشغف وتعظيم لما تتلَقَّظ به شفاه ابن عساكر المحدث والمؤرخ عن فضل سكنى الشام، دمشق ...

فمن هذه الدار المباركة ننتسب نسائم الإيمان، حيث خرج منها إلى مكتبات العالم الثقافي الإيماني، كتاب "تاريخ دمشق" الذي يحكي حكاية الإنسان المستخلف بالخير والصلاح فوق أرض بوركت على لسان نبينا العظيم ... وكم نحن في حاجة إلى قراءة مستتيرة متأمله بوعي وذهن صافٍ في تلك المرحلة التاريخية العظيمة، مرحلة هامة مرّت بها دمشق الشام، عندما سخر الله لأرضه المباركة من خيرة خلقه من القادة والعلماء الربانيين ليعمروها ويحفظوها بمشيئة الله.

فلنمضِ ونسأل بعقل واعٍ وقلب محبّ صافٍ، ويحقّ لدمشق وأهلها أن يفخروا بتلك السمات الطيبة السديدة، ولننفض غبار الجهل والغفلة عن الغاية من وجودنا بقلب محبّ وفكرٍ متفحّص، ونحن نقف متأملين داعين متسائلين: كيف نكون مصدر خير للإنسانية؟ فلن يتحقق ذلك ما لم نُخلص في قول المصطفى الكريم: ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾ ..

ها نحن ذا الآن نقف أمام دار الحديث النورية، هيا بنا نُنصت ..

إخوتي القراء:

نحن الآن في دمشق الشام، في عهد نور الدين محمود ابن زنكي (ت: 569هـ)، وهو سلطان ذاك الزمان، الذي عدل ملوك زمانه، أكثر من بناء المدارس والأسوار، في إشارة لأهمية القضاء على



الجهل والتخلف بين أفراد المجتمع، إلى جانب حماية القاطنين الشام من العدو في الخارج، وقد جاءت فكرته تلك لمن بعده كسنة حسنة سنّها، ألا وهي بناء المدارس متنوعة الاختصاصات، لينال شرف ما قام به وما سُنّ من بعده من سنة حسنة تكون له ميزة عند عرض أعمال الخلق على ربهم ولقائهم نبيّهم، إن شاء الله ولنقف عند معرفة تاريخية بتأمل ...

مدارس الحديث وتاريخ نشأتها في المجتمع الإسلامي:

حظيت نيسابور بشرف الأسبقية في الاهتمام بعلوم السنة وخدمتها، فهي بلد الإمام مسلم رضي الله عنه، وقد اهتم علماء السنة بالنهوض بهذا العلم في هذه المدينة بعد أن زاد الإقبال والاهتمام به، ففتحوا من أجل ذلك ولأول مرة في تاريخ الحضارة الإسلامية العلمية، المدارس المنفصلة عن المساجد، وكانت نيسابور قد شهدت ظهور العديد من المصنفات وأمّهات الحديث، وعلم الرجال المعني بعلو السند في أسماء وتراجم أصحابه، ويروي المقرئ المتوفى سنة 845 هجرية، في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) عن نشأة المدارس هذه، مبيناً أنّها لم تكن موجودة في زمن الصحابة والتابعين، وهي مستحدثة في المجتمع الإسلامي، وظهورها كان في نيسابور، حيث أنشأ سبكتكين فيها عدة مدارس، وانتقلت منها إلى بغداد، حيث أنشأ الوزير نظام الملك المدرسة المنسوبة له سنة 459 هجرية، ليتابع من بعده من عمل على التألق المستمر ضمن إطار تنافسي يحبه الله ورسوله، والحضارة ما هي إلا زيادة على الموجود مع إضافات تنفع جميع العباد، فالخلق عيال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله ..

وها هو محمود نور الدين أخذ فكرة المدارس ليبدأ في الإعمار العلمي الديني العالمي، وقد جاءت دواعي وأسباب نشأة هذه المدارس لأسباب نوجزها فيما يلي:

1- الحفاظ على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من التديس والكذب.

2- التقرب إلى الله بهذه الأعمال الخيرية.

3- كان الولاة والوزراء أهل علم، وكان جهادهم لا يحول بينهم وبين العلم.

وقد فند الكثير من العلماء هذا القول بأسبقية نيسابور ومدارسها على مدرسة دمشق، ولكن البعض اجتهد بالقول بأن ابن الأثير ربما قصد أن تكون أول مدرسة لعلوم السنة في دمشق، وبعد هذه المدرسة تتالى افتتاح المدارس الحديثة في دمشق الشام ومدنها، كما عرفت بلاد الشام ودمشق العديد

من المدارس في سائر العلوم والفنون وليس علم السنة فقط، وخير من أرخ لهذه المدارس وأحصاها، المؤرخ والعالم عبدالقادر محمد النعيمي الدمشقي المتوفى سنة 978 هجرية، في كتابه النفيس (الدارس في تاريخ المدارس)، الذي جاء في مجلدين... وكانت دار الحديث النورية، حسب الترتيب الأبجدي لفهرسة أسماء المدارس، المدرسة الرابعة عشرة في هذا الفهرس، وقد جاءت أسماء هذه المدارس في هذا الكتاب على الشكل التالي:

مدارس علوم القرآن وعددها سبع مدارس.
 مدارس علوم السنة وكانت ست عشرة مدرسة.
 مدارس جمعت بين علوم القرآن والسنة وكانت ثلاث مدارس.
 مدارس علوم الفقه وجاءت كما يلي: الحنفي / 52 مدرسة، الحنبلي / 11 مدرسة، الشافعي / 63 مدرسة، المالكي / 4 مدارس.
 مدارس الطب: ثلاث مدارس.

ولم يقف النعيمي على هذا فقط، وإنما تكلم أيضاً عما يخص هذه المدارس في الأمور المساندة، كالحانقاوات - المستشفيات - والأربطة والزوايا والتكايا، فهذا الكتاب بذاته، من أفضل الكتب التي غدت مرجعاً مهماً عن الحياة العلمية في بلاد الشام، خلال الحكم الزنكي، ثم الأيوبي وما تلاه حتى تاريخ كتابته.

أسس دار الحديث النورية وتوابعها:
 أرسى السلطان نور الدين محمود أسس هذه المدرسة، بأن تكون لتبقى شعلة مضيئة في خدمة السنة النبوية، من خلال رسالتها التعليمية التي تقوم بها في خدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أجل ذلك فقد عمد إلى ما يلي:

الاهتمام بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلومه فجعلها خاصة فيه - أي رسالتها التعليمية في علوم السنة -.

تقوم المدرسة على مكتبة كبيرة بحيث تكون كتبها مادة مرجعية لطلبة العلم الشرعي، أوقفها لها نور الدين - رحمه الله -.

أن يتولى إدارتها صاحب الأهلية العلمية بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ما وجدناه في إدارة ابن عساكر وابن كثير وغيرهم رحمهم الله جميعاً.

خادم للمدرسة يتولى حراستها وخدمتها.

أوقف لها الشهيد نور الدين أوقافاً كثيرة، بقصد إتمام رسالتها العلمية، في خدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

النكبات التي شهدتها وعرفتها المدرسة :

كانت أولى النكبات بالنسبة لها هو ما رافق الغزو المغولي، وعرفته دمشق من دمار وخراب، فغطت بعد ذلك في سبات طال أكثر من ثلاثمائة سنة، حتى سنة 1270 هجرية، حيث مضى في تجديدها الشيخ محمد أبو الفرج الخطيب - رحمه الله -، وفي عهد حفيده أصابها بعض من الخراب، نتيجة العجز في ترميمها، وآلت بعد ذلك إلى أحد التجار كمحل لبيع الأدوات التراثية والحاجات الأثرية القديمة.

وبعد أن آلت المدرسة اليوم إلى ما آلت إليه، بقي التاريخ الشاهد الوحيد على عظمة مكانة من نسبت له هذه المدرسة في اسمها، الشهيد نور الدين زنكي.

ولقد أراد نور الدين زنكي بهذا البناء المميز في عنوانه، (مدرسة الحديث النورية الصغرى)، أراد أن يُكرّم المؤرخ ابن عساكر ويجعله أول شيخ من شيوخها، وقد طالبه بمتابعة تأليف كتابه الذي بدأ به، "تاريخ دمشق"، فامتثل لذلك وأنهى تأليفه في تلك المدرسة مع مؤلفات أخرى، مثل "رسائل الجهاد والحثّ عليه" ...

هكذا تألقت الشام بحكامها وعلمائها وقادتها بترسيخ التقى والعلم والخلق الرفيع

تعالوا نتأمل ونتفكر في روائع هذا البناء الذي منه بدأ ازدهار حركة العمران الديني في تخصص الحديث الشريف، ولنعتقد العزم على مجاهدة النفس في الوصول إلى درجة من الرضى والاطمئنان، وهي مرحلة من تألق الروح تتحد فيها مع النفس في رقيٍّ وسموّ متدرج، يودي بلا شك إلى رضى الخالق.

ها هو الجغرافيُّ الرَّحالةُ الدمشقيُّ النعيميُّ (ت: 978 هـ)، الذي قام بجولة في أرض دمشق العظيمة، يحصي مدارسها المتنوعة الاختصاص، وقد كتب في كتابه "الدارس"، وذكرها في فصل (دور الحديث الشريف) باسم "دار الحديث النورية"، ثم ذكرها مرة أخرى في فصل (المدارس الحنفية) باسم "المدرسة النورية الصغرى"، مع "المدرسة النورية الكبرى" الواقعة في سوق الخياطين.

موقع دار الحديث النورية الصغرى وتاريخ بنائها:

تقع ما بين دار الحديث الأشرفية والمدرسة العسرونية، مقابل العادلية الصغرى، وهي أول دار للحديث الشريف بالعالم الإسلامي، قام بنائها المحبُّ الشغوف لحب رسول الله، الذي شرفه الله عز وجل برؤية المصطفى يستنجد به لينقذه، والذي لُقّب بالشهيد لشهوده عند تقبيل يدي رسول الله طريّة زكية، وأعادها وهو يبكي.

والمؤرخ يوسف بن عبد الهادي الدمشقي، في كتابه "ثمار المقاصد في ذكر المساجد"، (ت: 909 هجري)، قال:

مسجد دار الحديث النورية: العسرونية، بانيها نور الدين محمود ابن زكي وهي تجاه العادلية الصغرى، شرقي الحديث الأشرفية الجوانية، وهي متهدمة لم يبق منها إلا جزء بسيط من قبلتها وصحنها، ومحرابها الجميل وبجانبها آثار مسجد خرب لم يبق منها إلا أرضه وموضع المحراب.

وقال المؤرخ الجغرافي عبد القادر الريحاني: دار الحديث النورية، مكانها في محلة العسرونية، قبالة العادلية الصغرى، تحولت لدار سكن للطلاب، وزالت من أقسامها، فيها من الأصل القديم الباب والمحراب.

وقال المؤرخ الشيخ مطيع الحافظ : لم يذكر المؤرخون المتقدمون تاريخ بنائها، غير أننا وجدنا سماعاً لكتاب "فضل رجب" من أمالي ابن عساكر بدار الحديث النورية، في 23 رجب سنة 566هـ، وهو أقدم سماع وصلنا، ولذلك يرجح أن بنائها كان في فترة قبل هذا التاريخ بقليل.

أوقافها:

لقد أوقف نور الدين زنكي أوقافاً كثيرة عليها وعلى من اشتغل بها، وذكر ذلك أبو شامة، وابن كثير، والنعمي، ما يدل على أهميتها التي حظيت بها، ولم لا؟ وقد حُصِّصت لنشر حديث رسول الله وتعليمه، ودلّ على ذلك منذ إنشائها اهتمام الحكام والعلماء الذين درسوا فيها.

وقد تخرج عدد كبير من أهم العلماء منها، وبقيت في عطائها المستمر على الرغم مما نالها من نكبات وأحداث، لكن ستبقى وسام فخر للدمشقي الساكن في الشام المباركة، المرّد بحضور قلبٍ مشرق بجهه : صلى الله عليك وسلم يا حبيبي يا رسول الله.

عُرفت المدرسة بثلاثة أسماء أطلقها المحدثون عليها : دار الحديث النورية، ودار السنة النورية، ودار السنة، وقد ذكرها شيوخ الدار ومن نزل بها منذ إنشائها حتى القرن الثامن.

تولى الأمر فيها إدارة وتديراً عدد كبير من العلماء: الإمام أبو القاسم علي بن هبة الله ابن عساكر 571هـ، ثم ابنه أبو محمد القاسم بن علي 600هـ، وقام بقراءة تاريخ دمشق مرتين في الدار، وبعض من مسموعات والده.

ومن تولى التدريس أيضاً: عبدالرحمن بن إبراهيم الفركاح الدمشقي 690هـ، وعلاء الدين بن علي العطار 724هـ، تلميذ النووي.

ووليها المزي 743هـ، ثم ابنه، ثم الإمام محمد بن رافع السلامي 774هـ، ثم ابن كثير المتوفى سنة 774هـ، ثم ابنه الإمام بدرالدين 803هـ.

وقد تعرضت للتخريب والهدم والحرق، مثلما تعرضت لذلك مدارس ومساجد أخرى على أيدي المغول في تلك الفترة، فتوقفت الدار عن التدريس إلى أن قام آل الخطيب بإعادة إعمارها في سنة 1275هـ، وقام بتجديدها الشيخ أبو الفرج الخطيب الحسيني الدمشقي 1311هـ، ثم شقيقه أبو الخير

الخطيب، ثم ابن أخيه الشيخ عبدالقادر بن الشيخ أبي الفرج محمد 1351هـ، هكذا وصولاً للأستاذ محمد مجبر.

وما يمنح الأهمية لهذه الدار هو تخرّج عدد من الشيوخ والعلماء الكبار منها، من محدثين في القرنين السادس والسابع للهجرة، كابن الأثير والجزري والمقدسي والذهبي والحسيني وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم.

وصف دار الحديث النورية:

لدار وصفان سوف نتأملهما معاً، الوصف القديم من كتاب "منادمة الأطلال" لابن بدران، مؤرخ القرن التاسع للهجرة، حيث قال: (شاهدتها، فهي تشتمل على دهليز لطيف، فيه عن يمين الداخل حجرة، وعن يساره باب مسدود، يُظن أنه حجرة أيضاً، لكنها صارت حانوتاً للبضائع والتجارة، ولها ساحة لطيفة في وسطها بركة ماء على نمط قديم .. وبها مسجد، سقفه معقود بالحجارة والآجرّ المتين، محرابه من الحجر المحفور المعجن .. وبالجانب الشرقي من الساحة حجرتان جديدتان، وفوقهما غرفتان هما من بناء أهل الخير، بواسطة الشيخ عبد القادر ابن الشيخ أبي الخطيب، وفوق دهليزها غرفة أيضاً).

أما الوصف الثاني، فقد كلف قاضي دمشق الشيخ عبد المحسن الأسطواني في عام 1328هجري لجنة من العلماء ليطوفوا على مدارس دمشق ووصف حالتها، فجاء تقريرهم كالاتي: (أن فيها ست حجرات، اثنتان تحتانية، وأربع عليا، وموقع المدرسة بالعصرونية، وعدد طلابها عشر، كانت قديماً تعرف بدار الحديث النورية، والآن يقال لها مدرسة الشيخ أبي الفرج الخطيب).

وقد زارها فيما بعد الدكتور أسعد طلس فقال: اليوم هي متهدمة لم يبق منها إلا جزء بسيط من قبلتها وصحنها ومحرابها الجميل المنفر بزخارفه، وبجانبا آثار مسجد خرب لم يبق منه إلا أرضه وموضع المحراب.

واليوم، يرى سائح دمشق الحبيبة بقايا جدران وأرضاً شهدت حضارة الإنسان المسلم العالمي في عنوانه، المحب العاشق لنبيه والذي قد مضى وسار من هنا، ولكن "ما تزال آثارهم تدل عليهم"، في دلائل هامة تشير إلى خطورة هذا الإنسان الذي يعد من أهم عناصر نشوء وازدهار حضارة ما

وها هي الدار مستمرة اليوم بنهج تعليمي نبوي إصلاحي متميز، فقد هيا المولى عز وجل لهذه المدرسة من القائمين عليها، من يسعى في رعاية ما زرعه السلف الصالح من بذور بحب وشوق لرؤيا المصطفى صلى الله عليه وسلم راض عنا ... جزاهم المولى خير جزاء.

وإني أدعو من باب الوفاء لنور الدين زنكي ومؤرخه الشهير ابن عساكر رحمهما الله، إلى تجديد قراءة كتاب "تاريخ دمشق"، لنهض بالعزائم والهمم الإيمانية، بروح ونفس صافية ساعية لخلافة الله بما يحب ويرضى بإذن الله.

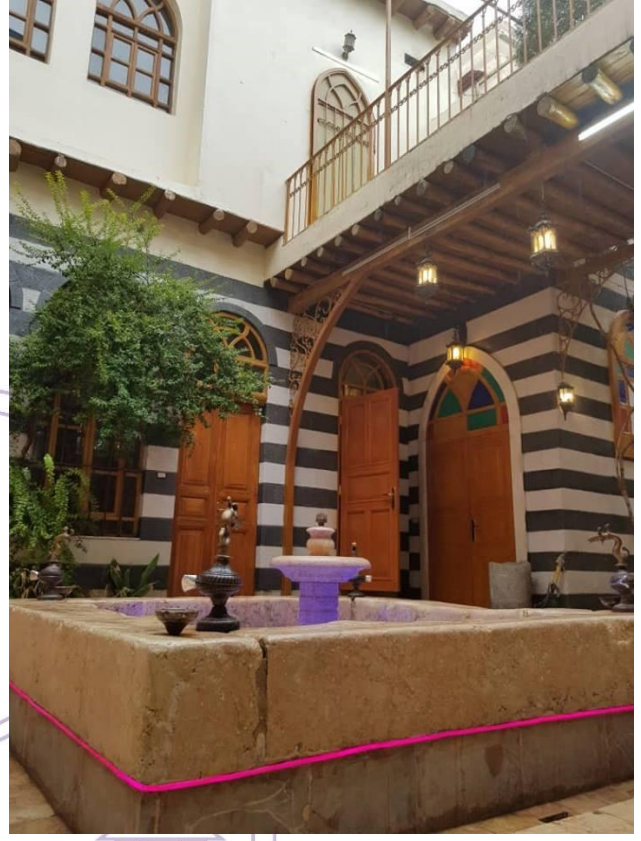
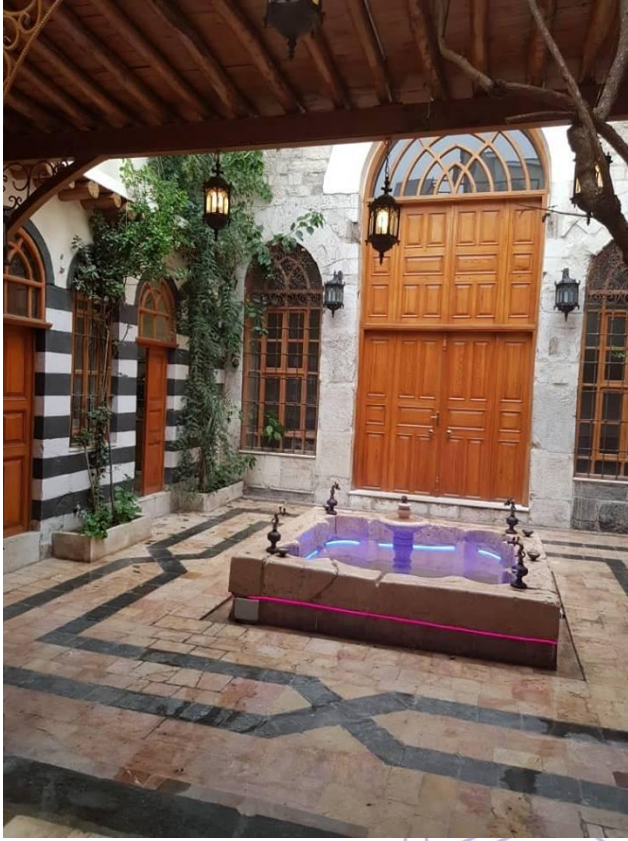
فهي معاً نشاهد صور هذه الدار اليوم كيف أصبحت مزدهمة بعشاق ومحبين الله ورسوله، دوراتها الدينية العلمية قد تنوعت، مناديه علينا للحاق بركب الحب والعلم والإيمان ... ولساننا يدعو لهم بالخير وأن يجعلنا الله وإياهم قررة عين من من أجله بُنيت تلك المعالم العلمية الدينية.

ومن ثم نجد لساننا يردد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

هذا هو عنوانك يا دمشق العظيمة بإذن الله.

المصادر والمراجع:

- . الروضتين في أخبار الدولتين / عبد الرحمن أبوشامة ت: 665هـجري.
- . ثمار المقاصد في ذكر المساجد / يوسف بن عبد الهادي ت: 909هـجري.
- . المدارس في تاريخ المدارس / للنعمي، 978هـجري.
- . العمارة الإسلامية / للريحاوي
- . المحاسن السلطانية في دار الحديث النورية / لمحمد مطيع الحافظ



المدرسة النورية الكبرى [563هـ - 1167م]

إخوتي القراء:

تعالوا بنا نمضي مغامرين مستكشفين باحثين عن معرفة تاريخية نجعلها في أرض دمشق الحبيبة، ها نحن نقف أمام معلم علمي ديني يعود لزمان قد مضى ينادي علينا للوقوف عنده بقلب متعظ محب وعقل باحث مهتم... نسأل الله التوفيق في سيرنا هذا.

إخوتي القراء:

إن من أبرز سمات عصر الدولة الزنكية هي العناية بحديث رسول الله دراسة وتدريساً، في محاولة من نور الدين زنكي ت: 569هـ، جعل العلم والدين سمات عصره ليكونا متاحين لجميع الناس، مع العمل على نشر العدل بين أفراد هذا المجتمع..

و قبل الوقوف على هذا المعلم، لا بد أن نشير إلى الدور الهام الذي قام به نور الدين زنكي ومن قبله والده عماد الدين زنكي في وقف المد الصليبي في تلك الفترة والعمل على توحيد العالم الإسلامي لمواجهة الزحف الاستعماري، حيث استلم نور الدين محمود هذه المهمة الهامة والخطيرة من والده، ثم أخذ من الوزير "نظام الملك" في العراق والذي إليه تنسب إرساء مفهوم المدارس في العالم الإسلامي، فسميت المدارس بالنظامية تيمناً بهذا الوزير، ثم عمل نور الدين على إنشاء مدارس دينية علمية متنوعة الاختصاصات في الشام، لينال شرف عمله في إحياء أحاديث المصطفى في الشام ودمشق عبر تلك المدارس، والتي منها دار الحديث النورية التي بناها للمؤرخ المحدث ابن عساكر، والمدرسة النورية الكبرى للمذهب الحنفي، وغيرها من المدارس التي أخذت تُقام في ازدياد وتوسع لافت للانتباه، يتجلى فيها حديث المصطفى: ﴿ستكون الشام دمشق في آخر الزمان أكثر المدائن أهلاً وأكثره أبدالاً وأكثره مساجداً وأكثره زهاداً، وأكثره مالا ورجالا...﴾.

ونحن وإياكم من سوق الحميدية القديم نتجه نحو سوق ضيق من الأسواق الفرعية لسوق الحميدية، باتجاه سوق يدعى الخياطين، نسير ونسير ونستشعر نسائم رائعة تلامس شغاف القلب تناديه للتوقف



والتعرف على ذاك المعلم، نقف وإذ في الواجهة باب كبير فوقه لوحة تعريفية تقول: (المدرسة النورية الكبرى)

و لكن إذا اقتربنا أكثر بقلوب تدعو لمن سبقونا، يتضح لنا أيها السائح الدمشقي ماهية هذا النداء، إنه حب وتعظيم لسيد الكون والخلق، وإجلال وتصديق بأحاديثه الشريفة.. ها هنا يرقد من نال شرف رؤياه صلى الله عليه وسلم واستنجاهه باسمه "محمود نور الدين زنكي"، لينقذه...

يا حبيبي يا رسول الله! كيف عرفت بهذا الإنسان الذي حاول وحاول وجاهد لينال هذا الشرف؟ ستجد أيها السائح الدمشقي نفسك أمام ضريح من عاش ومات معنواً سيرته بأجمل عنوان.. ويكفيه في سيرته قصة رؤياه للمصطفى ثلاث مرات يناديه باسمه: يا محمود أنقذني... تخيل أيها الواقف أمام ضريح نور الدين زنكي كم هو مقدار حبه وشوقه حتى ناداه سيد الخلق باسمه... فذهب ولجى النداء، ليجد من يحاول الوصول إلى قبره الشريف وسرقة جثمانه الطاهر، فحال محمود نور الدين زنكي دون ذلك، وقبّل يده الشريفة عليه الصلاة والسلام باكياً وقد أتم مهمته وأجاب نداءه.

تقدم أيها السائح وأشعل في قلبك نيران الفضول للتعرف أكثر وأكثر، وقف عند باب المدرسة التي أنشأها هذا المحب لله ورسوله، وقرأ له فاتحة الكتاب، تذكرة الدخول والولوج في نسائم العبرة والعظة، ولنسأل المولى حسن التدبر...

موقعها وتاريخ بنائها:

يخبرنا الجغرافي الشيخ النعيمي قائلاً: قال ابن شداد: وهي بخط الخواصين، أنشأها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بن آقسنر، ت: 569هـ، وكان إنشاءها في سنة 563هـ، وفيه نظر إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ودفنه بها، وهي بعض دار هشام بن عبد الملك بن مروان، وكانت قديماً دار معاوية ابن أبي سفيان.

وقال الذهبي في العبر، في سنة 125 ملك الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي، وكانت داره عند الخواصين بدمشق، فعمل منها مدرسة السلطان نور الدين زنكي، وفي المختصر: كانت داره عند الخواصين، وهي اليوم تربة الملك العادل نور الدين الشهيد.



ويقال.. وقع في أسر الملك نور الدين الشهيد ملك الفرنج، فأشار الأمراء ببقائه في أسره خوفاً من شره، فبذل هو نفسه مالا، فبعث نور الدين سرّاً إليه يقول: أحضر المال فأحضر 300 ألف دينار فأطلقه، وعند وصوله مأمّنه مات، فطلب الأمراء سهمهم في المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لأنكم نهيتم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسنيتين: الفداء وموت اللعين وخلص المسلمين منه.

فبنى نور الدين بذلك المال المارستان والمدرسة ودار الحديث النورية.

ويذكر الأسدي في كتابه، "الكواكب الدرية في السيرة النورية": توفي الملك العادل في سنة 569هـ، وصُلّي عليه بجامع القلعة ودُفن بها، ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة عند الخواصين، والتي كانت داراً لسليمان بن عبد الملك بن مروان.

مدرّسي النورية الكبرى:

تروي المصادر أن أول من درس فيها هو بهاء الدين العقادة، ثم من بعده برهان الدين مسعود الدمشقي ت: 639هـ، ثم من بعده أولاد الصّدر والمجد أخوه، إلى أن قدم الشيخ العلامة جمال الدين بن الحصري الحنفي محمود بن أحمد الذي قدم حصيراً التابعة لبخارى، وحين قدم دمشق تولى رئاسة النورية سنة 623هـ، وهكذا توالى رياستها قضاة وعلماء المذهب الحنفي في مدينة دمشق حاضرة العلم والدين في تلك الفترة.

وقال **الريحاوي** في كتابه، "العمارة العربية الإسلامية": المدرسة النورية، وهي موجودة في سوق الخياطين، بناها نور الدين سنة 563هـ/1167م، ودُفن فيها في تربة فخمة لها قبة من المقرنصات الرائعة، والضريح أصيل ونادر تغطي سطحه زخارف حصّية جميلة، والمدرسة بحالة جيدة سوى إيوانها الشمالي الذي هُدم منذ بضع سنوات بسبب تعريض الطريق.

وتمثل هذه المدرسة مع الضريح الفن السلجوقي الأصيل في العمارة الإسلامية، كما تأصلت في عهد نور الدين المبتكرات الفنيّة الشرقية التي أدخلها السلاجقة إلى سورية، فامتزجت مع التقاليد الفنيّة المحلية في عملية إحياء للفن الإسلامي لم تشهدها البلاد منذ عهد الأمويين.

فلنقرأ معاً وصف الرحالة ابن جبير من علماء غرناطة (539_614 هـ) الذي رأى النورية الكبرى بعد وفاة نور الدين في عهد صلاح الدين الأيوبي: من أحسن مدارس الدنيا مظهراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب منه الماء من شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتدّ في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله...

وعندما زرتها منذ سنوات، وقفنا عندها نصفُ مشاهدتنا، فلم نجدها كما وصفها ابن جبير، ووجدنا حال لساننا يقول: ما الديار هي التي امتدحوها، فقد فقدت تألقها وباتت مشاهدة مادية أرضية فقط.

تتألف من:

بوابة عالية ذات دفتين خشبيتين، تعلوها كتابة بالخط النسخ تنص على تاريخ الوقف المحدد للمدرسة.

صحن المدرسة على شكل مربع، رصفت أرضيته بالحجر المرّي والبازلي.

أما الحرم فهو مستطيل الشكل يقع في الجهة الجنوبية من البناء، سقفه من الخشب.. وتعلو المدرسة مئذنة بسيطة وقصيرة.

وإن مما يميّز المبنى ضريحُ الشهيد نور الدين، الذي تغطي سطحه زخارف حصية جميلة، دُفن فيها مُنشئها نور الدين الشهيد، وهي مجهّزة بقبة من المقرنصات الرائعة، التي تتألف من تسلسل طبقات من الخلايا الفراغية، ثم يلي ذلك قمرية لدخول النور والهواء.

لكن مع توالي العصور.. فقدت المدرسة معظم معالمها الأصلية، وأصابها ما أصاب غيرها من المدارس التعليمية القديمة كالعمريّة والأشرفيّة بعد هجوم التتر... فغاب ذكرها عن كتب التراجم.



و شاء الله أن يجعل من دمشق علماء مخلصين لله ورسوله، و شاء أن تسمع تأوهات في بعض دروس العالم الرباني الذي عشق أحاديث المصطفى في فضل الشام دمشق، فوجد في تتبعه سير الصالحين المملوءة التراجم بسيرهم، أنهم قد عاهدوا الله ورسوله على نهج نور الدين زنكي وتلميذه صلاح الدين في الثبات على مبادئ الدين وأسس سلامة النفوس والقلوب والسعي لتحقيق العمل والعلم... فكم وكم تأوه العالم الرباني الشهيد السعيد الدكتور البوطي لسياننا هذا النهج وهذا المقام، وليس الهدف من المدرسة تقديس حجارة أو رفع صور لذكريات، وإنما تأصيل لثوابت الدين الإسلامي ودعوة إلى النهج الرباني بالحلم والحكمة، فلا عصبية تُتبع، ولكن منهج محمديّ واحد لا يفرّق بنا السبل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

كثرت أعمال نور الدين زنكي وفضائله... ألغى العصبية، ونشر العلم، كما كان يطمح ويحلم ويعمل لتحرير بيت المقدس، وقد قام بصنع منبر مزين بزخارف بالغة الجمال ليضعه هناك، ووقف بين الناس متعهداً على نفسه.

نترككم ها هنا بين الماضي والحاضر، ولساننا لا يفتر بالدعاء، فلنعاهد الله أن نجاهد أنفسنا للوصول إلى ما يحب مولانا ويرضى، مبدأنا (أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك)..

المصادر والمراجع:

. أخبار الروضتين ف أخبار الدولتين / لأبو شامة

. الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي

. العمارة الإسلامية / لعبد القادر الريحاني







مزة القديمة

الجزء الغربي الجنوبي من دمشق

من الأحياء الدمشقية العريقة

إخوتي القراء:

نشأت دمشق القديمة وسط غوطة واسعة، يرويها نهر بردى بفرعيه، وتوزعت في أطرافها فوق العشرين قرية، ومن وراء الغوطة تمتد السهول والبساتين، كسهل القابون في الشمال وسهل المزة في الغرب، ثم أخذت دمشق بعد أن تزينت تجذب إليها الإنسان للإقامة في أرضها، فتبعثرت معالمها وأعيانها، وتوالت حضارات وحضارات متنوعة، تركت كل منها شواهد وآثار تدل عليها.

لكن أن يمتدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضها وساكنيها بأحاديث كثيرة، فهذا أمر يستلزم منا وقفة صدق مع الذات عن كيفية الوصول لرضى الله ورسوله قبل فوات الأوان؟

هيا معاً في رحلة نقوم بها على امتداد الربوة باتجاه الجهة الغربية الجنوبية لدمشق وعلى امتداد الربوة، باتجاه سفح جبل يدعى "المزة" بكسر الميم وفتح وتشبيد الزاي المعجمة، والتي تعرف باسم "مزة القديمة" أو "مزة الشيخ سعد"، فقد سكنها الصحابة والعلماء الأجلاء.

لنستمع وإياكم إلى مؤرخ الشام في القرن العاشر للهجرة، شمس الدين ابن طولون الذي كتب رسائل تاريخية بعنوان: ((المعزة فيما قيل عن المزة))، ويقصد مزة القديمة، المعروف بمزة الشيخ سعد، حيث قال:

(هي قرية من قرى غوطة دمشق، حسنة، وهي مما يلي الربوة، عليها بساتين كثيرة وهواها صحيح، والصحيح أن بالمزة قبر دحية الكلبي، حيث قيل أنه في مغارة في قرية الشجرة التي بها قبر صديق بن صالح.

ومساجدها كثيرة: العنابه، مسجد الخلخال، مسجد بني عمير، مسجد بني ظنة، مسجد العامود، مسجد المرج، مسجد صفي الدين، مسجد البسطامي، والمزة..

والزوايا فيها كثيرة... قال الصفدي: فيها - زاوية خضر بن ابي بكر العدوي، 676هـ هجري - وزاوية الشيخ سعيد - شرقي مصلى العيدين، وإني لا أعلم من حاله شيئاً ولا أعرف ترجمته، والظاهر أنه رجل مجذوب، وفوق قبره قميص معلق في قصبة يدور إذا حصل الذكر ويسكن إذا بطل. وفيها التُّرب، أشهرها التربة الرحبية: بانيها التاجر نجم الدين عبدالرحمن الرحيبي، 735هـ هجري.. جعل فيها مسجداً ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وكان من خيار القوم من أهله. وانتسب إلى المزة بعد سكنها أكابر العلماء أمثال: الحافظ جمال الدين المزي، والحافظ ابو الفتح المزي، والذهبي، وأبو بكر بن يوسف المزي، وغيرهم).

وقد ذكر النعمي: مسجد العناية بالمزة، وجامع المرجاني بضواحي المزة، وقال في سنة 669 هجري، أكمل فيها بهاء الدين محمد بن أحمد المرجانين جامع المزة وله مآثر حسنة، وجامع المزة الذي بناه صفى الدين، في عام 622هـ هجري.

أما الجغرافي الرحالة الشيخ أبو ياقوت الحموي، في معجم البلدان يخبرنا قائلاً:
"المزة: بالكسر ثم التشديد، أظنه عجمياً فإني لم أعرف له في العربية مع كسر الميم، وهي قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، وبها فيما يقال قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقال لها لذلك مِزّة كلب".
وقال ابن بطوطة عنها: (هي من أعظم قرى دمشق، بها جامع كبير عجيب، وقال ابن جبير: قرية كبيرة، هي من أحسن القرى).

وقال البدرى، من علماء القرن التاسع في محاسن الشام: (ومن محاسن الشام (المزة واللوان)، فإن حكماء اليونان لما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الأزهار ورأوا طيبة أرض الجانب القبلي اختاروها لغرس الأشجار.

وبها الدور الواسعة الفناء، المليحة الأساس والبناء، وفيها أعيان الناس، وهي الجامعة بين حسن الأنواع والأجناس مع الهواء الصحيح، والاعتدال بالترجيح... وسويقتان، فيهما سائر ما يشتهي من الألوان، وفيها ضريح الولي المعتقد الشيخ سعيد، أعاد الله علينا من بركاته وأمدنا بصالح دعواته).

هذا ما ذكره بعض المؤرخين والجغرافيين عن مزة القديمة، التي تُعرف اليوم "بمزة الشيخ سعد"، وقد كتب العلماء فيها القصائد، من ذلك ما قال الشيخ الكمال حمزة الحسيني، صاحب كتاب تاريخ المزة:

إذا ذكرت أرض القوم بنعمة
فبلدة قومي تزدهي وتطيب



ومن ينتجع أرضا سواها فإنه
تأبى لها خالي أسامة منزلاً
حبيب رسول الله وابن رديفه
فأسكنها كلبا فأصبحت بلدة

سيندم يوماً بعدها ويخيب
وكان لخير العالمين حبيب
له ألفة معروفة ونصيب
لها منزل رحب الجنان خصيب



إن المد العمراني لمدينة دمشق، اتسع وازداد، فأخذت تدبّ الحياة في الضواحي، ثم اتحدت مع المدينة القديمة، شمالها وجنوبها وغربها، وازداد تألق وبريق دمشق عالمياً، لتصبح نموذجاً علمياً دينياً عالمياً يُحتذى بها، ولتصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم، أنها صفوة بلاد الله من أرضه، يجتبي إليها خيرة خلقه... فاللهم احفظها واحفظ أهلها من كيد الكائدين ومكر الحاسدين.

المصادر:

- . رحلة ابن جبیر / لابن جبیر.
- . معجم البلدان / للحموي.
- . الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي.
- . نزهة الأنام في محاسن الشام/ للبدری.



. المعزة فيما قيل في المزة / لشمس الدين ابن طولون



معالم أثرية في ساحة الميسات بدمشق (الشبلية، البدرية، الحافظية)

يقول البدري مؤرخ القرن التاسع للهجرة في كتابه " محاسن الشام ":
(ومن محاسن الشام (الصالحية) مشحونة بالزوايا والترب والمدارس... فكم من مدرسة اندرست... تقول لقد أصبحت حاصلًا، بعد أن كان إيواني بالقراء عامراً أهلاً، والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث، فيقال لهم اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾. ثم يتابع ويصف لنا قائلاً: (وبالصالحية نهران فيها يجريان تورا ويزيد، وكم من غرفة وقصر مشيد...). فعندما نسير اليوم بين أحياء دمشق خارج سورها القديم باتجاه الشمال، وعند تقاطع نهر يزيدي



وثورا، وباتجاه ساحة الميسات، نلمح معالم أثرية متنوعة وموزعة هنا وهناك تدل على ازدهار ونشاط قديم للمكان، وينبغي للسائح المتأمل أن لا ينشغل فقط بروعة التخطيط والهندسة والاتقان والزخرفة الجميلة، إنما لا بد من الوقوف عند وظائفها العلمية والتربوية المحمدية...

أيها السائح الدمشقي:

لنعد معاً إلى الوراء وعبر الزمن إلى القرن السادس للهجرة / والثاني عشر للميلاد، ونقرأ بتأمل وصف البدري لهذه المنطقة، كيف كانت؟

كانت مركزاً ثقافياً نشطاً يقصده العلماء الأجلاء ولُقبَت مع الصالحية بدمشق الجديدة...

وها هي دمشق قد تنفست الصعداء في عام 549هجري، عند قدوم السلطان نور الدين زنكي، قاهر الاستعمار الصليبي الذي هدد الشام بعد سقوط القدس، ليوطد الأمن في دمشق وينفج أهلها بعد معاناة كبيرة... وأخذ المهاجرون الفارون من بطش الصليبيين تزداد أعدادهم، وأخذت تكتظ دمشق بسكانها ليبدأ التوسع خارج الأسوار بازدياد وتأسس الأحياء بدءاً من الصالحية والعقيبة وغيرهما... لتبدأ حقبة جديدة تشهدها الشام كانت هي العصر الذهبي، فالملوك والأمراء والأميرات راحوا يتنافسون ببناء المساجد والمدارس واستقطاب خيرة العلماء من كافة أنحاء العالم، لتصبح دمشق المركز العلمي والديني الأول عالمياً.

هيا يا أصحاب المعرفة والحب الصادق لهذه الأرض، والتي عمرت وازدهرت فيها حضارة الإنسان قبل المكان، لنقف معاً ونستحضر في القلب نية التغيير والتجديد لما يجب ويرضى الله ورسوله. ونتأمل..... تلك المشيدة التي باتجاه ساحة حطين (الميسات):



المدرسة الشبلية:



فناء مع تربة مفتوحة بضريح الأمير كان في زمن ما من سكان دمشق الحبيبة، ذكرته الكتب داعية له لحسن مقامه في دمشق الشام... .



تقع هذه المشيدة في طريق ركن الدين باتجاه ساحة الميسات، عند جسر الكحل المعروف بجسر الشبلية، نرى ثلاثة عقود هندستها نادرة، وفيها ضريح للأمير الأيوبي "شبل الدولة كافور الحسامي" نسبة إلى "حسام الدين محمد بن لاجين" ولد ست الشام، المتوفى 623 هجري، مع بعض من الآثار تعود للمدرسة الشبلية الحسامية، وقد مرت ترجمتها.



المدرسة البدرية:

ثم إذا مضيت أيها السائح نحو الساحة، وعلى ضفاف نهر تورا، ترى بناء في وسط حديقة جميلة كانت لمدرسة تدعى (المدرسة البدرية)، قبالة الشبلية التي عند جسر الكحيل، والذي عرف بجسر الشبلية، فما هي حكاية هذه المدرسة القريبة من الشبلية؟



هذه المدرسة تنسب إلى بانيها "الأمير بدر الدين حسن بن الداية" في سنة 638 هجري، كان هو وإخوته من أكابر أمراء نور الدين زنكي، مطلع القرن الثالث عشر ميلادي، لكن لم يبقَ منها إلا التربة، وتقول المصادر بأن المدرسة البدرية قد كانت ملحقة بالشبلية، وكان الشيخ "شمس الدين سبط ابن الجوزي يوسف" صاحب كتاب "مرآة الزمان" هو القائم بالتدريس في المدرستين، حيث كانت الشبلية في الجبل قبل أن تلحق بالبدرية، سنة 654 هجري.



التربة الحافظية:

ثم امضِ نحو محلة المزرعة شمالي جامع العثمان، فضمن الحديقة الجميلة نلمح بناء قديماً بقبة منقولاً من مكانه الأصلي القديم في سفح قاسيون بعد أن تعدى عليه بعض الجوار ليقيموا أبنية ملاصقة له، ففي عام 1961 تقرر نقله وسط الحديقة... وهناك مبنى، حيث قررت الجمعية الفلكية جعله مقراً لها.



أقسام المبنى: غرفة تعلوها قبة جعلتها (الجمعية الجغرافية) مكتبة خاصة بهم، بعد أن كانت تربة. (1) قاعة كبيرة للمحاضرات، كانت مسجداً. (2) باحة مكشوفة. (3) إيوان وباب.

وتدعى بالتربة الحافظية نسبة إلى سيدة قديرة عرفت بالخاتون أرغون الملقبة بالحافظية لأنها قامت بتربية الأمير الأيوبي الحافظ أرسلان ابن الملك العادل أبي بكر، ولد زوجها، وقد كانت سيدة عاقلة ومدبرة لها أموال كثيرة وعظيمة، تطعم الطعام للفقراء والمحتاجين وابن السبيل، وأوقفت دارها بدمشق لخدمتها، توفيت عام 648هـجري.



ما أروعك يا مدينة دمشق! كيفما مشينا وسرنا نستمتع ونتعلم لنزداد، بإذن الله، تألقاً في مسيرتنا فوق هذه الأرض المباركة... فالיום نحن فوق تراجمها، وغداً سيسير أقوام وأقوام من فوقنا.... فهل سيدعون لنا أم يدعون علينا؟!
دمشق بواديها رياض نواضر بها ينجلي عن قلب ناظرها هم
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم
فيا إلهي... اجعل رضاك هو مطلبنا ومقصدنا... وأعنا ولا تُعن علينا، ولا تأخذنا على حين غرة
وغفلة منا ونحن لا نزال تائهين عنك.... إلهي نسألك التوبة والمغفرة والعود الحميد.

المصادر:

الدارس في تاريخ المدارس / للنعمي



– القلائد الجوهريّة / لابن طولون
الحوليات الأثرية / مديرية الآثار والمتاحف بدمشق



أزقة وحاتر دمشقية

حكاية تجمع بين الماضي والحاضر تدعونا للتعرف عليها...

إخوتي القراء:

من الواضح أن مدينة دمشق نشأت كمدينة صغيرة وسط غوطة واسعة، يرويها نهر بردى وفرعاه تورا وبانياس، وتتوزع في أطرافها القرى والمزارع... قد شغلت الجانب الغربي من دمشق القديمة بسبب ارتفاع الغربي عن الجانب الشرقي، فكانت أزقة ومساكن المدينة تتوزع بغير نظام. وفي العهدين الروماني والبيزنطي، شهدت دمشق ازدهاراً اقتصادياً ضاعف من عدد سكانها، الأمر الذي أدى إلى توسيع المدينة، فأحيطت بسور مستطيل بني بالأحجار الضخمة وزُود بسبعة أبواب، وفي المدينة شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب إلى الشرق، ينحصر بين باب الجابية وباب شرقي عُرف باسم الشارع المستقيم، مزين بالتماثيل الرومانية على طول الطريق... تقطع هذا الشارع أقواس النصر، وكانت المحازن التجارية موزعة على طول الشارع، حيث كانت الناحية الشرقية السوق العام للمدينة.



ومنذ السنوات الأولى للعهد الإسلامي، أخذت دمشق تتحول تدريجياً إلى مدينة عربية مسلمة تميزت عن مدن العالم، بأحاديث المصطفى التي رواها ليحث الأتقياء الصالحين سكانها لبركة أرضها ووجود خيرة وصفوة خلقها كان سبباً لتظهر كنجمة في السماء، يُشار إليها بالبنان....

فكأنها بأبوابها وأسوارها مدينة محصنة اتصلت بالعالم الخارجي بشبكة طرق مرصوفة تخرج من أبوابها إلى مختلف الجهات تدعو الناس ألا هنا مدينة (العلم والعلماء) ألا هنا (مدينة المدارس) ألا هذه هي المدينة التي أضاءت قصورها بنور مولد سيد الكون.... فهيا للعلم والعمل الصالح النافع للجميع... وبالحكمة والموعظة الحسنة...



وذكر ابن عساكر عدداً من دور الصحابة التي كانت تتوزع في محلي (باب توما) و(باب شرقي)، مما يدل على جوار رائع نشأ بين المسلمين والمسيحيين منذ القرون الماضية، والذي نستيقن منه أن دمشق في العهد الأموي كانت في أبداع حلة وأجملها بعد أن نعمت بالمركز الاستراتيجي والروحي المعتدل.



وأخذ الناس بالتجمع حول الأموي، فبنوا المباني والقصور والمحال العامة، وشيّد معاوية داره التي عُرفت بدار الإمارة، وبالخضراء، نسبة للقبّة التي تعلوه... وله جناحان: قسم لأهل الخليفة والآخر لرجال الدولة، ويُعد هذا أول بيت عربي بُني في دمشق.

وتعتبر مدينة دمشق من المدن الغنية بالأوابد الأثرية، حيث تزخر بالقلاع والأبراج والحصون والزوايا والمساجد والمدارس، والحارات القديمة التي كانت تمثل فيما مضى حياً متكاملًا فيه مسجد وحمام وفرن وبيوت سكنية...



هذه الحارات لا تزال قبلة للسائح المعبر المتعظ، ترتاح وتطمئن روحه ونفسه أثناء المشي في طرقها التي بدأت تتغير بسبب الأزقة الفرعية المتعرجة والتي تسمى (درب)، وتحفها بيوت من ثلاث طبقات... وظل الأموي قرابة خمسة قرون الجامع الوحيد في دمشق، إلى جانب مصليات صغيرة، بدأت تظهر أحياء بعيدة زُوِّدت بالعناصر المعاشية ومؤسسات محلية: (مسجد صغير وفرن وسوق وسويقة...) وحدث مع الزمن تكتلٌ جماعي على أساس الأحياء، وتحصنت الحارات وراء الأبواب، ولعل هذا النموذج هو السبب في انتشار المساجد الصغيرة في كل مكان، أحصاها ابن عساكر/242/ مسجداً داخل الأسوار و/178 مسجداً خارجها.

وحظيت المدينة في عهد نور الدين بعناية عمرانية فائقة، فرمّم السور وحصّنه بالأبراج ورمّم الأبواب وقام ببناء أبواب جديدة، كباب السلام والفرج... وباشورة لكل باب، وهي سويقة صغيرة تتقدم الباب كي يتمون أهل المنطقة وقت الحصار...

وبنى المؤسسات العامة، أهمها: البيمارستان النوري والمدرسة النورية ودار للعدل وحمام البنورية... وأخذت تدب الحياة شيئاً فشيئاً في الأرياض والضواحي بدءاً بمنتصف القرن السادس، حيث تم إعمار جبل قاسيون وإقامة مدينة مستقلة عُرفت (بالصاحية).

والحي الثاني الذي أُسس في هذا العهد خارج السور هو (حي العقبية) في شمالي السور، والذي ضم خمس مساجد وحمامين، و(حي العمارة)....

ومفهوم الحارة في دمشق تطور نتيجة عوامل عدة، فأصبح لكل حي تنظيم خاص به لتوفير الحماية والأمن، فتحصنت الحارات خلف الأبواب، وظلت كذلك إلى العهد العثماني....

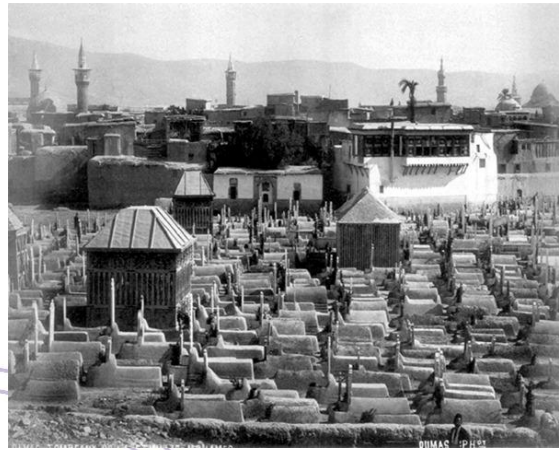
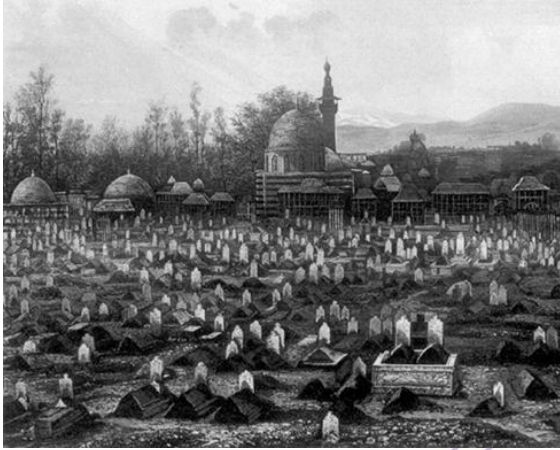
وبدأت تظهر وتلمع بيوت الدمشقيين كالمنازة الساطعة تدعو الناس لترسيخ مفاهيم الدين المحمدي على هذه الأرض المباركة بالحكمة والموعظة الحسنة، وما النسمة الروحانية الإيمانية المنبعثة من بين الدروب الصغيرة والحارات أو الأحياء الواسعة إلا لدليل على روعة ساكنيها، فالأرض بما حملت من فوقها وبمن احتضنت تحت ترابها من العلماء الربانيين والعارفين بالله والصالحين الذين تميزوا بالأخلاق المحمدية قولاً وعملاً....

وبالرغم من انشغال الدولة الأيوبية بالحروب الصليبية، فقد استمرت الحركة العمرانية بالنمو والاستمرار، خاصة حي الصالحية، الذي امتد من سفح قاسيون باتجاه الجنوب إلى أن اتصل بالأسوار، ونشأ في غرب السور محلة عُرفت (بمحرر السماق)، حيث يمتد اليوم شارع النصر، وإن توزع المدارس الأيوبية في الأرياض بكثرة، كالركنية والصاحية والجهار كسبية وغيرها، لدليل على مدى قوة النشاط والازدهار العمراني.

ولأول مرة، بعد خمسة قرون على بناء الجامع الأموي، أخذت تظهر في دمشق جوامع تقام فيها صلاة الجمعة، وكلها خارج الأسوار، بعد أن كانت مساجد صغيرة ذات مصلى صغير لا تقام إلا صلاة الجمعة فيها.... كجامع الحنايبل في الصالحية، والذي يحاكي مخطط الأموي تقريباً، وجامع الجراح في الشاغور، والماردينية في الجسر الأبيض.....

ومدينتنا القديمة لم تُحرم من المنشآت العظيمة، وفي طليعتها القلعة التي بُنيت بعد هدم القلعة السلجوقية، وهي لاتزال قائمة إلى جانب المدارس: العادليتين والناصرية والعززية....





ولا ننسى التراب وانتشارها هنا وهناك، لتذكر من أدبر وتولى ونسي أن التراب ينتظره ليضمه ولن يبقى له إلا عمله... فيكون بذلك حافظاً يحذرنا ويذكرنا بحديث المصطفى: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها)... فكن من الذين يباهي بهم سيد البشر صلوات الله عليه وسلامه، فأنت في مدينة امتدحها نبيك قبل أن تولد فيها، وعش بطيب وأحسن الأخلاق، عسى الله أن يجعلك ممن يباهي نبينا به.

وأخذت تتابع دمشق نموها واتساعها في العصور اللاحقة، فشيّد الظاهر بيبرس قصره الأبلق في الميدان الأخضر مكان التكية السليمانية، وتم إعمار المنطقة بشكل سريع وجميل، وظهر (حي وسوق ساروجة) فيما بعد، ومن جهة باب الجابية ظهر (حي الميدان ومحلة القببات)، وينتهي عند بوابة الله ثم يتجه إلى الكسوة فحوران.

أما إلى الجنوب الغربي، كان طريق فلسطين ومصر يمر من داريا فنشأ على هذا الطريق (محلة باب سريجة).

وكانت المدينة تلفت أنظار الرحالة بنظافتها وجمال بحيراتها، فيقول ابن جبير: "كان لكل زقاق رصيفان في جنبه، يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك".

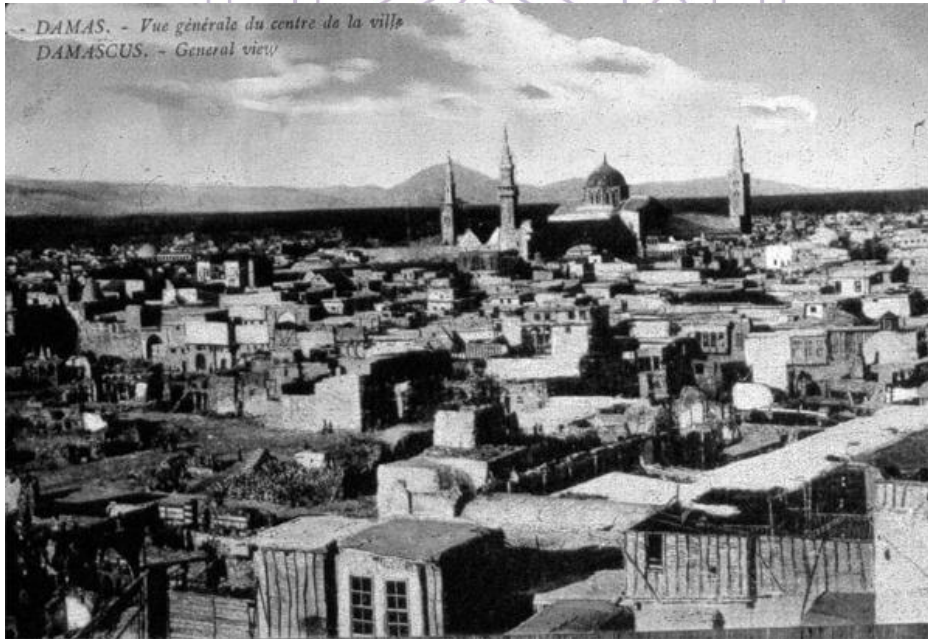
ولم تلق دمشق خلال أربعة قرون من الحكم العثماني ازدهاراً عمرانياً يُقارن بالعهد الأيوبي، الذي جاء امتداداً للعهد المملوكي، فتمّ تجديد (محلة الشيخ محي الدين)، والتكية السليمانية والمدرسة المجاورة لها، وفي 995هـجري (السنانية)، وتكية للدرراويش (المولوية) غربي جامع تنكز 993هـجري.

أما في القرن التاسع عشر ميلادي ظهر نوع من التطور على مخطط المدينة فشُتت فيها طرق جديدة وأسواق وأحياء (كحي القنوات)، الذي ضم مساكن الطبقة الأرستقراطية التي تجمعت حول السرايا.

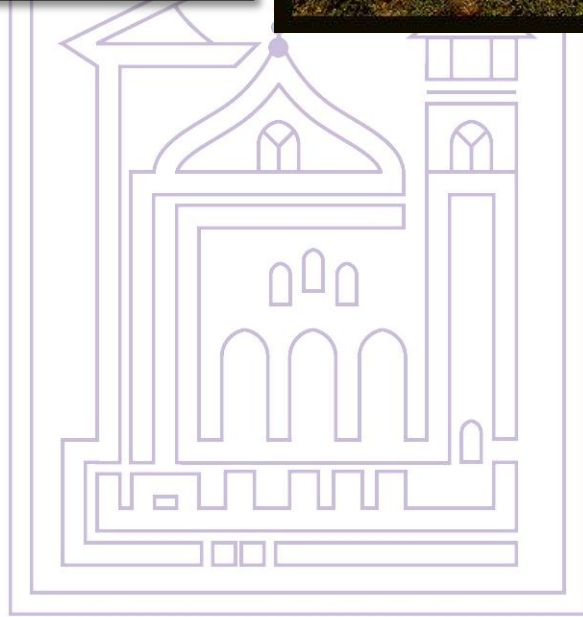
وظهر (حي المهاجرين) في غربي قاسيون، (وحي الأكراد) في شرقيه، وطراً على حي الميدان نمو جديد... فأقيمت على طوله المهن والصناعات التي لها صلة بقوافل الحجاج. وانتهى الدور الحربي للقلعة والأسوار، فزُدمت الخنادق وأُحيطت الأسوار بالأسواق المتنوعة البضائع والأغراض.

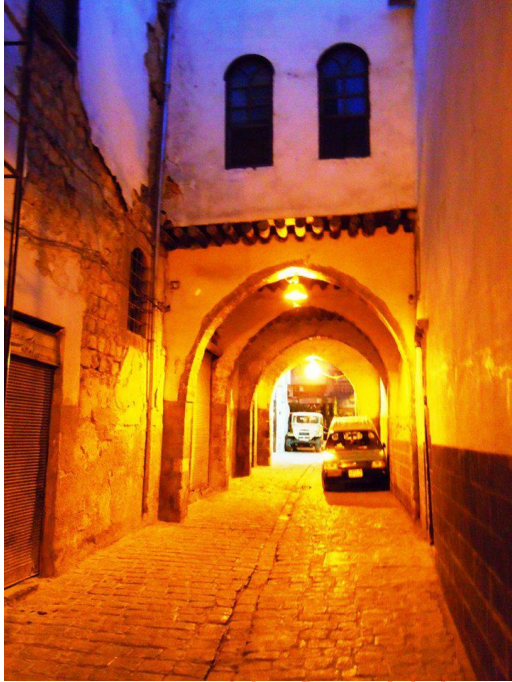
وفي أواخر القرن التاسع عشر، أخذت أساليب العمارة الأوربية تنتشر في مدينة دمشق، ومن أهمها جامعة دمشق 1873 ميلادي، والمستشفى الوطني 1899/1317 الذي حلّ محلّ البيمارستان النوري، واستمر النمو والتوسع مع اندماج متكامل بين سكانها الذين يفخرون بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يجتي إليها صفوة خلقه)...

فعش أيها الدمشقي، وهذا الحديث معشوقك وهدفك، ليكون حبل الله الممدود لك للاتصال بحبيبه سيد العالمين.









salam alnablsi





الحوليات الأثرية العربي السورية
العمارة الإسلامية/لعبد القادر الريحاوي

المصادر والمراجع:
تاريخ دمشق/لابن عساكر
رحلة ابن جبير/لابن جبير

مكتب عنبر [1867م]

"لقد عاش مكتب عنبر من أواخر القرن الذي مضى، إلى أوائل الحرب الثانية، وهو يضم جمهرة المتعلمين في هذا البلد، كان هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق، فكان يمر عليه كل شاب في دمشق".

للأستاذ ظافر القاسمي

"لقد كان عهد مكتب عنبر، جنتي التي خرجت منها ثم لم أعد إليها، فرجعتني إليها يا أخي ظافر بكتابتك، أظير من فوق أسوارها العالية، وأبوابها الموصدة، بجناحين من ذكرى وخيال، حتى أدخلها مرة ثانية، فأعيش فيها، في حلم ممتع فتان".

الشيخ علي الطنطاوي / دمشق رحمهما الله

هل قمتم بزيارته أو تجولتم في أرجائه؟
لا بد أن نتعرف عليه "مكتب عنبر"، وما هي حكايته الجميلة، التي كان يحيا بين جدرانها شباب بأسماء لامعة، جمعهم المكان الجميل والقصص الأجل، في منافسات بعلمية، ونشاطات رياضية، وتاريخ واحد.. بقلب واحد ينبض على وتر واحد.. ما أجمل أيامك يا مكتب عنبر.
لقد بكى الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، وهو يقرأ كتاب للأستاذ ظافر القاسمي، عن مكتب عنبر فقال:

وهل أرجو أن يعود لي أمسي الذي مضى وأمل أن يرجع شبابي الذي ولى
وليست عشيات الحمى يراجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا
رحمه الله تعالى، وهيا معاً نتجول ونتعرف على حكايته، وقبل التجول فلنقرأ الفاتحة الشريفة إلى
أرواح الشيخ علي والأستاذ ظافر، وندعو لهما أن يجزيهما الله خيراً، فقد حركوا في قلوبنا معاني سامية وراقية، ولنبدأ..

موقعه:

مكتب عنبر يقع شرقي الجامع الأموي، وهو في الأصل منزل وبيت من بيوت دمشق القديمة شيده صاحبه علي الطراز الدمشقي الشهير، وهو مستطيل الشكل بمساحة خمسة آلاف متر مربع، قُسم إلى

أربعة أقسام، كل قسم له باحة خاصة به "الديار"، والتي تحيط به الغرف بلغ عددها 40 غرفة على طابقين. كيف الوصول إليه؟؟

فمن باب الجابية إلى الباب الشرقي، حيث يطلق على هذا الشارع بسوق مدحت باشا، نسبة إلى واليها، وقد كان يسمى المستقيم، وإلى غرب هذا السوق تجد الأزمة الضيقية والمعوجة والكثيرة، اتجه نحو طريق سوق الحرير ثم سوق الخياطين، ثم هناك سوق ثالث يوصلنا إلى المسكية فسوق الحميدية، وإلى الشرق من سوق القباقيبى طريق فرعي يؤدي إلى العمارة، يقابله طريق يؤدي إلى مكتب عنبر.

تاريخ بناء مكتب عنبر:

كان هذا البناء ملك لأحد أثرياء اليهود واسمه (يوسف عنبر) شيده وبناه في عام 1867م، وأنفق على بنائه 43 ألف ليرة، ولكن لم يتمكن من إتمامه لأسباب مادية، فوقع مكتب عنبر في ملك الدولة العثمانية لدين لها على يوسف عنبر. ومنذ تلك اللحظة أخذ مكتب عنبر يمر بمراحل وعهود تاريخية، نقوم بتقديم خلاصة لهذه العهود متسلسلة كالتالي:

1- مكتب عنبر في العهد العثماني:

من يقف أمام الباب الخارجي للمبنى يرى لوحة خارجية حفر عليها: "مكتب إعدادية ملكية" ويعلوها الطفرء - الطرة - السلطانية للتفريق بين الملكية، والمدارس العسكرية. المدارس الملكية خاصة بالمدينين، بينما العسكرية هي التي تؤهل طلابها للالتحاق بالجيش العسكري. ومكتب عنبر لم يطلق عليه هذا الاسم أبداً، ولكن غلبت عليه هذه التسمية، لأنها سبقت التسمية الرسمية فعرف بمكتب عنبر.

ويقول العالم المؤرخ محمد كرد علي في "خطط الشام": "مكتب عنبر من أهم مدارس الحكومة، وصفوفها تنتهي إلى صف التاسع فقط، وأكثر طلابها عرباً من أبناء دمشق، ثم أكملت صفوفها حتى الصف الحادي عشر فأصبح ثانوية كاملة، وسمي عندها: (تسلطان مكتب) أي المدرسة السلطانية،

ولكن اللوحة على الواجهة لم تبدل، وبعد فترة أصبحت الصف الثاني عشر الثانوي هو أعلى الصفوف".

2- مكتب عنبر في العهد التركي:

بعد تسلم زعماء الاتحاد والترقي الحكم في استانبول، بدأت سياسة التتريك، وغدت اللغة التركية هي الرسمية، وجُعل جهاز الإدارة والتدريس أجمعه أتراك.

وقال الأستاذ فخري البارودي في مذكراته: كان مكتب عنبر المدرسة الإعدادية الوحيدة في دمشق، يتراوح عدد طلابها ما بين الخمسمائة والستمائة، الطلاب النهاريون يتعلمون مجاناً، بينما الليليون أو الداخليون يدفعون أجرة الطعام والنوم، وكان يُدرس الآتي:

القرآن الكريم، العلوم الدينية، الفقه، اللغة العربية، ترجمة اللغة التركية، الفارسية، علم الاقتصاد، علم الجغرافية والفلك، وجغرافية الدولة العثمانية، تاريخ الدولة العثمانية، الحساب الجبر، الزراعة، الرسم، حسن الخط، الكيمياء والفيزياء والميكانيك، علم طبقات الأرض، النباتات الحيوانات.

ويقول البارودي: "إن من تخرج منها أمثال: شكري القوتلي، سعيد الغزي، سعيد حيدر، فوزي الغزي ومظهر رسلان ووصفي رسلان والدكتور صلاح قنبار وأسعد خورشيد وفؤاد الساطي ونسيب البكري وغيرهم".

3- مكتب عنبر في عهد الملك فيصل:

بعد الحرب الأولى، في زمن الملك فيصل بن الشريف حسن، واستلامه الحكم والسلطة، وبدأت المؤسسات بالتعريب والعودة إلى اللغة العربية لتكون الرسمية للبلاد، وكان مكتب عنبر من أول المؤسسات المعربة، فدرس فيها نخبة مختارة من علماء البلد، أمثال: حسن يحيى الصبان، أبو الخير القواس، شكري الشربجي، كامل نصري، محمد البزم، رشيد البقدونس، مسلم عناية، جودة الهاشمي، محمد الداودي، سليم الجندي، وغيرهم..

وأُطلق على المكتب اسم "مدرسة التجهيز ودار المعلمين" بدل من سلطاني مكتبي.

4- مكتب عنبر في عهد الانتداب الفرنسي:

منذ أن وقعت الفاجعة في وطء أقدام غورو لمدينة دمشق، مروراً بمعركة ميسلون، ثم نكوص الحلفاء عن وعودهم بالاستقلال، لم يعقد طلاب مكتب عنبر أي هدنة مع المستعمر الفرنسي إلى أن رحل عن الوطن، فقد كانوا يشنون الحروب عليهم في مقاومة مستمرة لهذا العدو الغاصب إلى أن رحل. وكان أول مدير عربي بعد الحرب العالمية الأولى هو الضابط المتقاعد شريف رمو ثم مصطفى تمر، فجودة الهاشمي،.. وغيرهم.

فكان مكتب عنبر "مدرسة التجهيز ودار للمعلمين" للعلم، وموئل للوطنية، ومصدر الحركات الشعبية منها انطلقت شرارة المشاركة في الثورة السورية الكبرى 1925 م.

5- مكتب عنبر في عهد الاستقلال وما بعده:

اتخذ المكتب لعدة سنوات فيما بعد، مقراً لمعهد التجهيز والفنون النسوية، فقررت الحكومة الاستجابة لطلب وزارة الثقافة بجعل البناء مقراً لقصر الثقافة العربية، فقامت الوزارة بالتعاون مع المحافظة بإجراء بعض الإصلاحات أعادت للبناء رونقه وبهاءه، حيث تم إلغاء المطبخ ومطعم الطلاب الليلي، وحولت القاعة الكبيرة قاعة دروس الكيمياء والفيزياء إلى قاعة محاضرات، وجعل مدخلها من الباحة الأولى.

ثم إقامة تعريشة خشبية ضخمة في الباحة الأولى، لتحمل الأشجار الكثيرة من الكرم وأشجار الزينة، وإعادة ترميم الحمام وفتحها للزوار، فصل الدار التي ألحقت بالمكتب - كانت معدة لصفوف السوابغ والثوامن ودار المعلمين وصالة للرسم وملعب للرياضة - وتسليمها لجمعيات خيرية وثقافية، عام 1980 م.

وكان للمحافظة دور كبير لبعث الحياة في مكتب عنبر بإقامة أنشطة وفعاليات تصل الماضي العريق بالحاضر المتألق.

وباختصار فقد كان مكتب عنبر صرح حضاري هام، ومركز تعليمي رائد كان له أثر كبير في النهضة العلمية والثقافية في عهود مظلمة شهدتها البلاد.

6- أما مكتب عنبر في القرن الحالي:

في عام 2012م، افتتحت محافظة دمشق، في مكتب عنبر مركز لخدمة المواطن، وذلك ضمن خطتها لإعادة هندسة وتبسيط الإجراءات الإدارية في المديرية التابعة لها، بشكل يحقق الخدمات

اللازمة للمواطن بسرعة كبيرة ويتضمن عمل المركز: معاملات ترخيص، الخدمات والشكاوى إضافة إلى الخدمات الخارجية التي يقدمها مركز خدمة المواطن بمحافظة دمشق، فتشمل المعاملات غير المحكوم، إخراج القيد والترخيص الإداري، والسجل التجاري، ويختص المركز بتقديم المعاملات الواقعة ضمن المدينة القديمة داخل السور وخارجه والشرايح والمباني الأثرية.

ويقوم المركز في إنجاز المعاملات على أحدث الأساليب الدولية، بشكل يخفف المدة الزمنية.

أما عن هيكلة بناء المركز فقد أصبحت كالتالي:

قاعة استقبال، نظام الدور ومكتبية استشاري ومكاتب أمامية عددها سبعة، منها مكتب الدعم والمساندة والأرشيف والديون والذاتية، ومكتبات لخدمة الزبائن.

وهكذا نأتي على ختام المراحل أو العهود التي مر بها مكتب عنبر منذ القرن التاسع عشر ميلادي القرن الحالي، فكان ملخص سيرته الذاتية كالاتي:

بناؤه كان لبداية ومنتصف القرن التاسع عشر ميلادي، واسمه مشتق من اسم بانيه أحد الأثرياء اليهود "يوسف عنبر"، ثم مصادرتة للدولة العثمانية سداداً لدين لها عليه - على يوسف عنبر - وقامت باستثمار عام 1205 - 1877م باسم "مكتب إعدادي" ثم حولته إلى "مكتب سلطاني"، والمكتب معناه بالاصطلاح العثماني مكان الكتابة، بدلاً من مصطلح المدرسة.

ثم في عام 1921 تحول "المكتب السلطاني" إلى مدرسة ثانوية باسم "التجهيز" وفي الأربعينات أصبح مكتب عنبر مدرسة للفنون النسوية.

وفي عام 1974 أُحلي ورمم وأصبح مكتب عنبر قصر للثقافة العربية 1981م.

وفي هذا القرن الحالي أخذ يرتدي حلة جديدة، فأصبح مركزاً لخدمة المواطن السريعة، المعاملات والإجراءات الإدارية السريعة، بإشراف محافظة دمشق.

وفي ختام الكلام عن هذا المعلم الأثري التاريخي، مكتب عنبر أو مدرسة عنبر الإعدادية أو الثانوية، التي شكلت مع الأيام بأنفاس وأرواح من تعلم بين جدرانها، نواة لمجمع علمي كبير ثقافي وطني العقيدة والسلوك.

وقبل الختام يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿من لم يشكر الناس لم يشكر الله﴾ ومن هذا المنطلق يتوجب علينا أن نقدم أسمى آيات الشكر والعرفان للقائمين على رعاية هذا الصرح الشامخ

العريق لما قدموه لموقع نسيم الشام من صور قيمة مفيدة من تراثهم الثري.. والشكر موصول لكل من كان سبباً في ذلك في محافظة دمشق وغيرها.

ونختم هذه النبذة عن مكتب عنبر بتذكر كلمات شيخنا الجليل الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله عن مكتب عنبر وما رافق ذلك من أشجان ولواعج داهمت روح شيخنا رحمه الله.

وهذه كلماته، ننهي فيها جولتنا السريعة لهذا المكان:

"أين أنت يا عهد الصبا، ويا مرتع الأحلام؟ تعالي أنظري ماذا صنعت الأيام بتلك الأحلام. ولقد زادني شجناً على شجن، لقد انتزعت قلبي من صدري، فعادت به إلى بيوت دمشق. على ذلك الفن الشامى الأصيل، الذي قفز من فوق البحر، فوصل الشاطئ الغربي في اسبانيا، بالشاطئ الشرقي في الشام، وحمل عبقرية العمران، إلى بلاد المغرب والأسبان، فامتلاً بسحرها كل مكان، وبقيت فيه إلى الآن".

رحمك الله يا شيخ علي، على هذه المعاني السامية، والعبارات الزاهية، ونحن في هذه اللحظات وبهذه الوقفات، نرجو الله عز وجل أن يجعلنا كـ وللصالحين من أمثالك قرّة عيناً، في يوم لا ينفع فيها مال ولا بنون، إلا من أتى بقلب سليم مشحون بمعاني العز والفخر برباط القدسية لله عز وجل عقيدة، ورباط السلوك البشري لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم، على هذه الأرض وفاءً.
اللهم آمين آمين.. يارب العالمين.

المراجع:

دمشق / الشيخ علي الطنطاوي

مكتب عنبر / الأستاذ ظافر القاسمي

خطط دمشق / الأستاذ محمد كرد علي

مذكرات الأستاذ فخري البارودي

المنارة البيضاء

شرقي دمشق

إخوتي القراء سائحي دمشق الرائعة:

لقد عرف العرب السفر والرحلة قبل الإسلام، فقاموا برحلاتي الشتاء والصيف الوارد ذكرهما في القرآن الكريم..

وبعد ظهور الإسلام أصبح للرحلة أهداف قيمة، أرضية وسماوية، ساهمت في إرساء معالم الحضارة الإسلامية العظيمة، والتي أصبحنا نقف على أطلالها الآن...

ندعوكم للقيام برحلة في دمشق القديمة لهدفين: المتعة والفائدة، نقف فيها معاً عند المعرفة التاريخية التي ستأخذنا من العقل إلى القلب، فيزداد نبضاً، حباً واعتزازاً ودعاءً: "اللهم احفظ دمشق وسائر مدن المسلمين"..... آمين.

هيا معاً يا إخوتي، أكون لكم الدليل عند خبر (المنارة البيضاء)، التي ورد ذكرها على لسان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام... فما هو سرها؟ وما هي قصتها...؟؟

يخبرنا الله عز وجل في سورة النساء عن شدة كفر بني إسرائيل: **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}** [النساء: 157-158].

فالله عز وجل جعل من ميلاد عيسى عليه السلام من دون أب خلافاً للسنن الكونية وكذلك جعل من خاتمته خلافاً للسنن....

فجميعنا يؤمن بقوله تعالى: **{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}**، فاليهود لم يقتلوه بل رفعه الله تعالى إلى السماء ليحفظه من أذاهم، وأخبرنا على لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أنه سينزل في آخر الزمان دلالة على اقتراب الساعة.

فينزل حكماً عدلاً يحكم بشريعة الإسلام كما قال رسول الله: ﴿والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد﴾ متفق عليه



وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ليس بيني وبينه - يعني عيسى عليه السلام - وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون﴾ رواه أبو داود

فهل تساءلنا اخوتي الزائرين أين سيكون نزوله؟؟؟

لقد أخبرنا الحبيب المصطفى عليه السلام: ﴿ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق﴾ رواه النواس بن سمعان في صحيح مسلم



وسلم قولاً وعملاً اقتداءً به محبةً وتعظيماً لرسالته الشريفة، فينزل عليه السلام بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما وعليه مهروديتان، وفي رواية، ممصرتان يقطر رأسه ماء، في وقت صلاة الفجر وقد أقيمت الصلاة ويصلي مع الناس والإمام، ثم يذهب لقتال الدجال ومن تبعه على الضلالة والكفر، والعياذ بالله، أعاذنا الله وإياكم من ذلك الشر.



ولذلك نجد أحاديث كثيرة وردت عنه صلى الله عليه وسلم في فضل الشام، منها: ﴿إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، ولا يزال من أمتي منصورين لا يبالون من خذلهم حتى تقوم الساعة﴾. ﴿لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يرفع الله قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك، ألا إن عقر دار المؤمنين الشام، والحيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة﴾.

ومن المعروف يا إخوتي أن أحاديث كثيرة وردت عن نبينا الحبيب بتزغيب الصحابه للسفر والهجرة إلى الشام، وقد خصّ "دمشق" في أحاديث عدة ووصفها بأنها خير المدائن... حفظ الله بلاد المسلمين جميعاً من كل شر وسوء ومكر... آمين يا رب العالمين.

عودة إلى المنارة البيضاء، التي خصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحاديث كثيرة، ولم تكن موجودة في ذلك الزمان!.. فيبشّرنا بنزول سيدنا عيسى عليه السلام في شرقي دمشق، ويصف أهلها بأجمل الصفات، فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم﴾ الترمذي.

وقال: ﴿إذا وقعت الملاحم خرج بعث من الموالي من دمشق هم أكرم العرب فرساً وأجودهم سلاحاً يؤيد الله بهم هذا الدين﴾. رواه الترمذي.

فمن منا لا يرغب بأن يكون من هؤلاء الذين امتدحهم فيها حبيب الله ومن الذين سيكونون ممن يشتاق إلى رؤياهم، ولكن الرغبة لا تكفي يا إخوتي، إذ لا بد من جهاد النفس والهوى أثناء تتبع منهاج النبوة للتطبيق بقلوب محبين وعاشقين، كي نفوز برضى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة....

اللهم ارزقنا حسن الاتباع والافتداء..

أما عن القول الثاني في تحديد مكان نزول عيسى عليه السلام، فهناك من قال: عند الباب الشرقي لمدينة دمشق القديمة، الواقعة عند نهاية سوق مدحت باشا، وهو أحد أبواب السور القديم لدمشق.



وقد أخذ العلماء بالرواية الأشهر في موضع نزوله: أنه عند المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى شرق الجامع الأموي، وهذا الأشهر والأنسب لأنه عندما ينزل تكون الصلاة قد أقيمت.... والله تعالى أعلم.

أيها الإخوة الكرام:

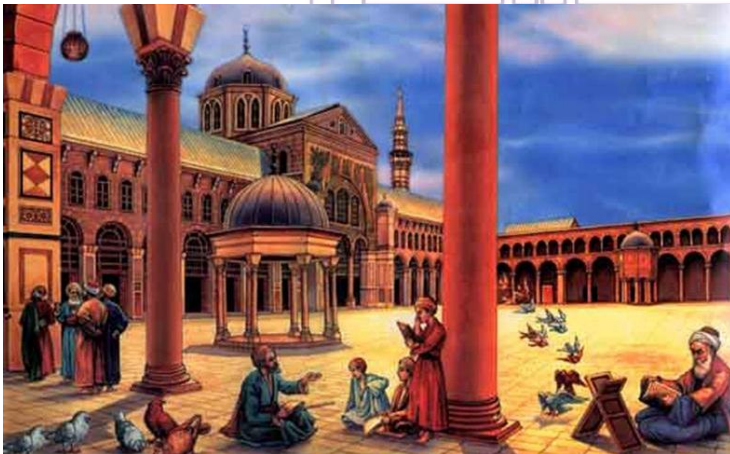
تعالوا قبل أن ننهي بحثنا نقوم بزيارة المسجد الأموي من خلال قراءة ما بين السطور التاريخية للمسجد .

إذ له حكاية تاريخية جميلة...

يعدّ الجامع الأموي من أجمل روائع الفن المعماري الإسلامي، هذا من الناحية الفنية، أما من الناحية الدينية فيعدّ من أهم الأماكن المباركة في دمشق، حيث تعاقبت حضارات عدة فوق هذه الأرض وصولاً

إلى الحضارة الإسلامية... فالتأمل لمخطط مدينة دمشق القديمة، يجد أن الجامع الأموي يشغل تقريباً أقل بقليل من نصف مساحة المدينة القديمة كحاضرة دينية وعلمية هامة لمسلمي ذاك العصر. حيث كانت في العصر السابق لعهد السيد المسيح معبداً آرامياً، ما لبث أن صار كنيسة للنصارى بعد دعوة عيسى عليه السلام، إلى أن دخل المسلمون الفاتحون فصارت هذه البقعة نصفها مسجداً والآخر كنيسة، إلى أن جاء العهد الأموي، في فترة تولي الحكم الوليد بن عبد الملك سنة 86هـ، تراضى مع النصارى بتعويضهم عن مصلاهم الصغير بتعويض كبير ما يقارب أربع كنائس. والوليد بن عبد الملك عُرف عصره بعصر البناء والإعمار بشكل عام، والمسجد الأموي بشكل خاص، إذ استعان بالمعماريين والمزخرفين من أهل الخبرة في الشام، فصار المسجد الأموي من أكمل وأقدم وأجمل المساجد الإسلامية، وإذا تأملت أيها الزائر الجامع الأموي، ستري المآذن الثلاث: المذنة الغربية تسمى بـ (قائتباي) لأن طابعها مملوكي، والشرقية مطلية باللون الأبيض وتسمى بمذنة (عيسى) وهي المقصودة بالمنارة البيضاء، والشمالية والتي تسمى بـ (العروس) لأن الوليد قد جعلها حين بناها مذهبة ومزينة بالفوانيس كالعروس، وها هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك صعد ليخطب في الناس قائلاً:

يا أهل دمشق.. تفخرون على الناس بأربع خصال فأردت أن يكون مسجدكم هذا
خامسة مفاخركم يا أهل دمشق.. تفخرون على الناس بأربع خصال تفخرون بمائكم
وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأردت أن يكون مسجدكم هذا خامسة مفاخركم
رحمه الله وجزاه ألف خير.



إخوتي القراء..

ها نحن قد وصلنا إلى نهاية بحثنا هذا، وقد امتلأت نفوسنا بالبهجة والسرور والأمل، وذلك بفضل قراءة أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، التي تحثنا على العمل ثم العمل ثم العمل دون كلل أو ملل.. وإنما بتوجه القلب والروح مُفعمين بالحب لله ورسوله..
فما رأيك أيها القارئ العزيز؟؟... تعالوا نسأل أنفسنا: ماذا أنجزنا؟ بل ما هو موقعنا من الإعراب فوق أرض دمشق الحبيبة؟؟!

فهل كنا (صدراً) في الطليعة يُفتخر بنا؟

أم كنا (فاعلاً) للخير والمجد لخلافة حقيقية لله عز وجل؟

أم سنبقى (ضميراً للغائب) أو (لا محل لنا) من الإعراب!!؟

نحتاج إلى صدق توجه إلى الله عز وجل في القول والعمل....

فمن تمسك بكتاب الله وسنة نبيه حباً وتعظيماً، نال فخر مباحة رسولنا الكريم به يوم القيامة،

وكان ممن قال فيهم الله عز وجل: **"كنتم خير أمة أخرجت للناس"**.

اللهم آمين...



المصادر والمراجع:

(البداية والنهاية) لابن كثير.

(دمشق) للشيخ علي الطنطاوي.

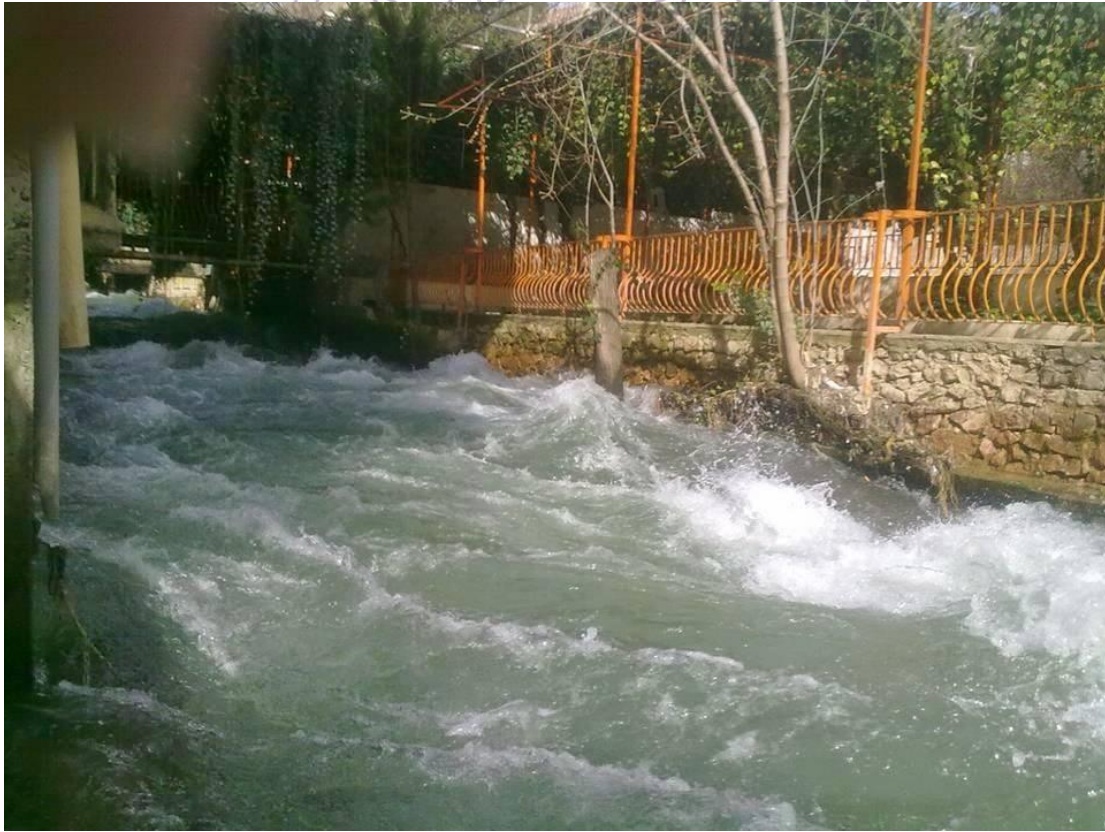
(العمارة الإسلامية) لعبد القادر

الريحاوي.

مياه مدينة دمشق جغرافياً تاريخياً دينياً

إخوتي القراء: تقع بلاد الشام في الجزء الغربي من قارة آسيا متوسطةً قاراتٍ ثلاث: آسيا وأوروبا وإفريقيا، كما تحوي تضاريسَ متنوعة من جبال وأودية وسهول وأنهار وباحات ذات مناخ معتدل متوسطي..

وإن ذكر الماء في القرآن الكريم بأشكاله: البحار، الأنهار، العيون.. يدل على أهمية الماء وقيّمته بالنسبة للحياة البشرية، فبه تدوم الحياة وتعيش الكائنات وتطيب النفوس وتحيا الأرواح شاكرة ممتنة للمولى عز وجل..



يقول ابن عسّاك مؤرخ ومحدّث دمشق 571/499 هـ في باب: "فضل مواضع بظاهر دمشق وأضاحيها وفضل جبال تضاف إليها ونواحيها"، يقول عن قوله تعالى: ﴿وَأَوْبَيْنُهُمَا إِلَى رَبْوَةِ ذَاتِ

قَرَارٍ وَمَعِينٍ: ذات قرار هي دمشق، والمعين هي غوطة دمشق، وقيل: أرض ذات أشجار وأنهار، هناك آوى السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام.

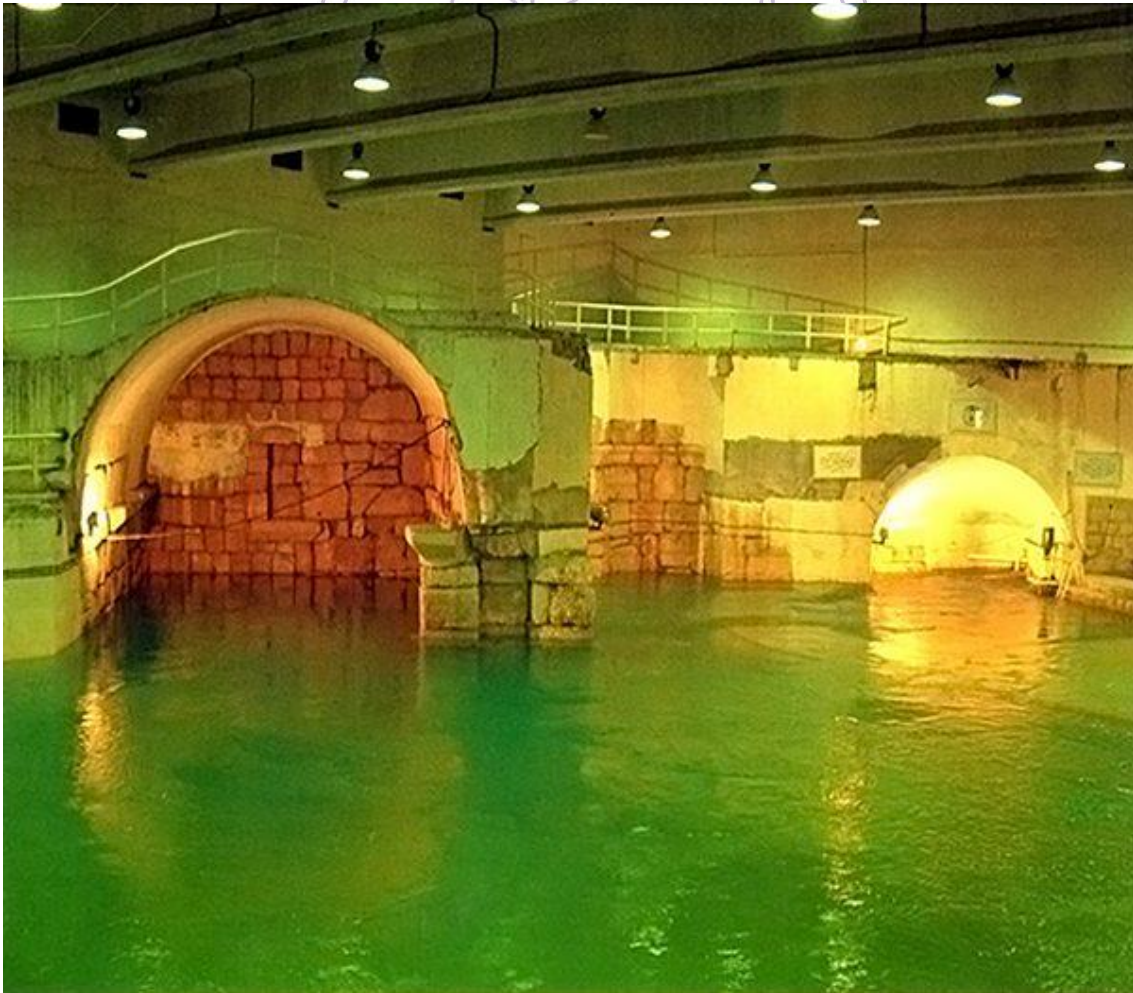
ويقول الشيخ الجغرافي **ياقوت الحموي** البغدادي المتوفى 626 هـ في كتابه الشهير "معجم البلدان": (من خصائص دمشق التي لم أرى بلداً مثلها، كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فقلَّ أن تمر بجائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشرب منه، يستقي منه الوارد والصادر...) **وبردى** من أعظم أنهر دمشق، مخرجه من قرية يقال لها (قنوا) من كورة الزبداني، حيث يظهر الماء من عيون هناك ثم يصب في قرية بين دمشق والزبداني تعرف بـ (الفيحة)، وتنضم إليه عين أخرى ثم يخرج الجميع إلى قرية تعرف بـ (جمرايا)، فيفترق أكثره في بردى، ويحمل الباقي نهرُ يزيد...



و إذا صار ماء بردى إلى قرية يقال لها (دمر)، افترق على ثلاثة أقسام: تورا، بانياس، القنوات.. فتزود دمشق بالمياه من هذه الفروع الثلاث، ويختص تورا بالأحياء الواقعة إلى الضفة اليسرى من بردى،

وبانياس بالأحياء الواقعة إلى الضفة اليمنى حتى خط بين القلعة والأموي وجادة القيمرية، ويصل لباب توما... أما القنوات فيغذي الأحياء الواقعة جنوب نهر بردى، وقد كان اليونان يسمون نهر بردى بنهر الذهب). كما عرّف "الفيحة" قائلًا: (بالكسر ثم السكون والجيم: قرية بين دمشق والزبداني، عندها مخرج نهر بردى وبحيرة).

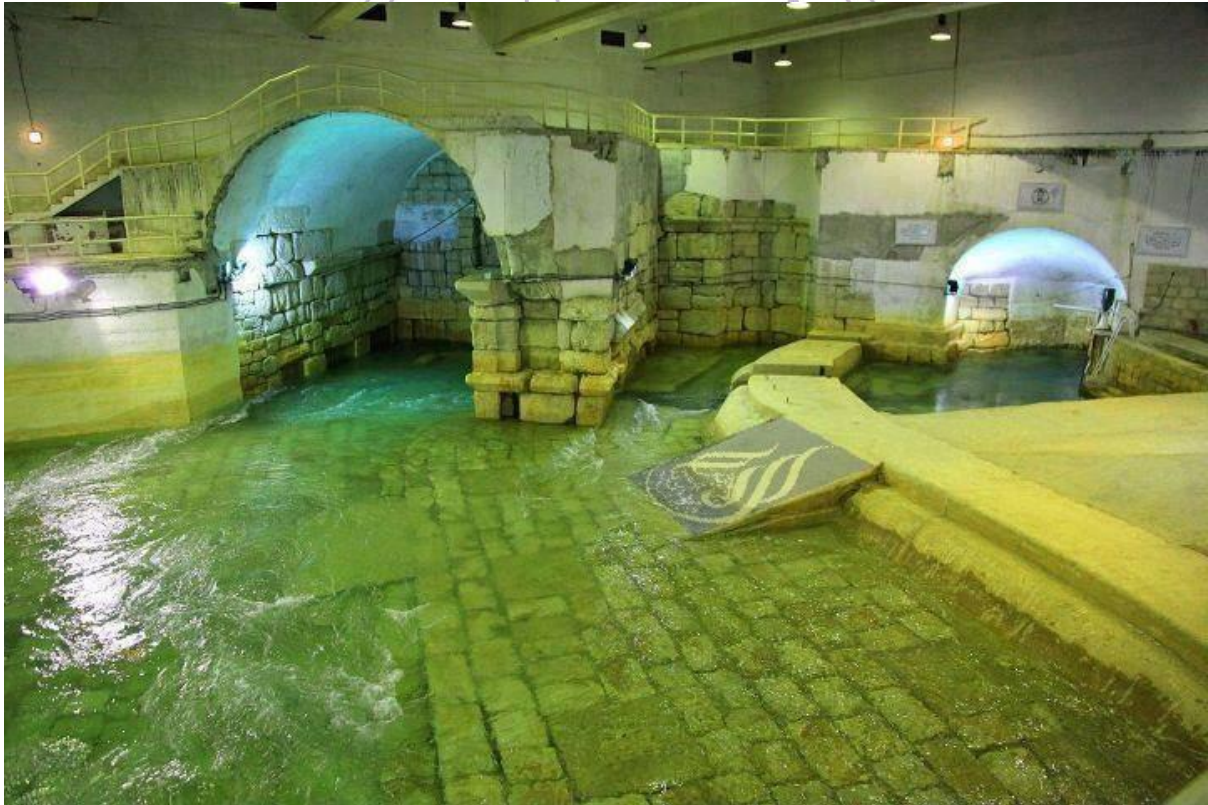
إذا فنبعة الفيحة غرب دمشق تبعد 15 كم ومن بين سفوح الجبال ينبع ماء عذب صافٍ، أما نهر بردى الذي ينبع من جبال لبنان الشرقية، فيسير في وادٍ ضيق ويمشي في سهل الزبداني، وعندما يبلغ نبع الفيحة يصب مياهه العذبة الصافية فيه، ليكثر ماء الفيحة وتشتد غزارته، ويغدو قوياً عذباً ماضياً في أرض الغوطة الخضراء.



وقد أدرك سكان دمشق وضواحيها أهمية مياه نبع الفيحة منذ القدم، واتخذوه بعضهم مكاناً للعبادة (بدليل وجود معبد روماني معروف باسم "حصن عزتا"، والذي لم يبق منه حالياً سوى بقايا

جدرانها).. ثم تحول هذا المعبد إلى كنيسة في عهد السيد المسيح، لتصبح فيما بعد حصناً في عهد المسلمين.. وشكلت نبعة الفيحة مع سهل الزبداني ووظف بردي مركزاً سياحياً هاماً لأهل دمشق والشام، يصطافون فيها، وجذبت إليها السياح الأجانب.

وابن بطوطة، أمير الرحالة، المتوفى 779 هـ قال عن دمشق عندما مر منها وأخذت بلبّته: (إنها جنة المشرق وعروس المدن، تحديق بها البساتين إحداق الهالة بالقمر، وأهلها يقضون وقتهم يوم السبت بين المنتزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار والمياه الجارية في راحة وبهجة حتى يمسي الليل). وتكلم عن أهلها وحبهم لعمل الخير ودعا لهم قائلاً: (جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير).



إن تتبع تطور شبكة الأقنية المائية في مدينة دمشق عبر العصور يلخص لنا نمو وتوسع وازدهار مدينة دمشق، فقد تخصص فرعاً بانياس والقنوات بتزويد المدينة القديمة، وعندما توسعت أنشئت تفرعات جديدة تنطلق من تلك الأصلية لبانياس والقنوات، بينما كان فروع تورا يسقي الحدائق

والبساتين ومناطق الريف التي امتزجت وتماهت مع الأيام في جسم المدينة، أما أهل قاسيون فقد أوجدوا لأنفسهم شبكات تغذية من مياه نهر يزيد.

وفي الختام نلخص القول: بأن الأنظار اتجهت منذ العهود القديمة إلى أهمية جرّ مياه الفيحة إلى المدينة بواسطة قساطل حديدية عُرفت بأسماء من عملوا على إحياء الأرض والناس، واستُخدمت القساطل إلى أن أقامت مؤسسة الفيحة فوق النبع بناءً حديثاً في عام 1931 م لحفظ المياه من العبث والتلوث...

و المتأمل في قوله صلى الله عليه وسلم: ((الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلاء والنار))، يجد معاني هذا الحديث جليّة في تاريخ تطور توزيع المياه بدمشق، فالتعاون والتكافل الذي كان قائماً لجرّ المياه إلى المناطق المتعددة وإقامة أفرع وتشعبات الأنهار (بردى والفيحة)، هما أكبر مثال وأسمى ترجمة لمعنى قول النبي الكريم "شركاء"، وفي ذلك إحياء للأرض والناس..
اللهم إنا نستودعك الشام وأهلها ومياهها في خزائن بسم الله، أقفالها ثقتنا بالله، مفاتيحها لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا طاقة لمخلوق مع قدرة الخالق...

المصادر:

تاريخ دمشق/ لابن عساكر
معجم البلدان/ ياقوت الحموي
محاسن الشام / للبدري
رحلة ابن بطوطة / ابن بطوطة